حصاد التبليغ

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الطّبعة الثّانية
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

حصاد التبليغ

الجزء الأول

الشيخ جميل الربيعي

المُقَدَّمَةُ:

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[1].

إنَّ تبليغَ رسالة الله تعالى لخلقه مهمّةٌ إلهيّةٌ ثقيلةٌ، أَوْكَلَها اللهُ تعالى لخُلَّصِ عباده الّذين لا ﴿يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾[2]، فعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: يا مَعاشِرَ قُرّاءِ الْقُرْآن، اتَّقوا اللهَ - عزَّ وَجَلَّ - فيما حَمَّلَكُم منْ كتابه، فَإنّي مَسْؤولٌ، وَإنَّكُمْ مَسْؤولونَ، إنّي مَسْؤولٌ عن تَبْليغِ الرِّسالَة، وَأَمّا أَنْتُمْ فتَسْألونَ عَمّا حُمِّلْتُمْ منْ كتابِ الله وَسُنَّتي**»[3].

وليس من السّهل القيامُ بتلك المهمّة الإلهيّة إلا لمن رزقه اللهُ تعالى العلمَ والمعرفةَ بالله، والتّفقّهَ في أحكامه، والتّخلّق بخُلُقه، ووعي سيرة رسله، وأنبيائه، وأوصيائهم صلوات الله عليهم، ووهبَهُ البيانَ البليغَ، والدّافعَ السّليم من حبّ الشّهرة، والكسب الماديّ، والثّقافةَ الشّاملةَ، والمعرفةَ الاجتماعيّةَ، والإخلاصَ لله مجرّداً عن أيّ ضميمة، والصّدق الرّساليّ، والاستقامة السّلوكيّة في مطابقة فعله لقوله.

---

(١) الأحزاب: ٣٩.

(٢) المائدة: ٥٤.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٤/٦١٠-٦١١، ح/٣٤٩٥.

والتّبليغُ فنٌّ من فنون الحياة الرّســـاليّة، فلا يكفي أن يكونَ المُبَلّغُ عالماً مثقّفاً، وإنّما ينبغي أن يمتلكَ القدرةَ الفنّيّةَ في طرحِ تلك المفاهيمِ، وإيصـالها إلى النّاسِ بطريقة سلسة، يسيرة، واضحة، تلائمُ أفهامَ النّاسِ، وتلبّي حاجاتهم في حلّ مشاكلهم الفكريّة، والاجتماعيّة، وتعالج أمراضهم القلبيّة...

ولهذا لا بدَّ للمبلّغ أن يكلّمَ النّاسَ على قدر عقولهم، وهذا يحتاج إلى إعدادٍ فكريٍّ، واســتعداد نفســيٍّ، وتحضــيرٍ لما يروم إلقاءه على النّاس، وفهمٍ للوضعِ الاجتماعيّ الّذي يُبَلّغ فيه من النّاحيةِ الفكريّة، والمذهبيّة، والسّياسيّة.

وينبغي له أن يحيطَ معرفةً بعادات النّاسِ، وتقاليدهم، وأعرافهم، ومستوى ثقافتهم، والعواملِ المؤثّرة فيهم، إضـافةً إلى معرفة المشـاكلِ الاجتماعيّة السّائدة في ذلك الوســط، فإذا أحاطَ بذلك كلّه سَــهُلَ عليه اختيارُ الموضـوعِ الّذي يروم إلقاءه على النّاس، وحينئذٍ يكونُ أكثرَ تأثيراً في النّفوس، وترســيخاً في القلوب، والأهمُّ من ذلك كلّه أن يكونَ كلامُه ودعوتُه مطابقاً لفعله، فلا يتحدّثُ إلا بما يُمثّله في ســلوكه، قالُ الإمامُ عليّ عليه السلام: **«إذا طابَقَ الْكَلامُ نيَّةَ الْمُتَكَلِّمِ قَبلَهُ السَّامِعُ، وَإذَا خَالَفَ نِيَّتَهُ لَمْ يَحْسُنْ مَوْقِعَهُ مِنْ قَلْبِه»**(١).

وفي الحكم المنســوبة إليه عليه السلام: **«الْكَلمَةُ إذا خَرَجَتْ مِنَ الْقَلْب وَقَعَتْ في الْقَلْب، وَإذا خَرَجَتْ مِنَ اللِّسان لَمْ تُجَاوِز الآذان»**(٢).

وهذا المعنى ورد عن أفلاطون حيث قال: «إذا طابق الكلام نيّة المتكلّم، حرّك نيّة السّامع، وإن خالفها لم يحسن موقعه ممّن أريد به»(٣).

(١) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٩٢، ح/١٥٩٠.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٨٧/٢٠، حكمة: ٢٧٩.

(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء: ٨٣

وبعدُ، فهذه مجموعةُ بحوثٍ تضمّ شتّى المو ضوعات كتبْتُها في منا سباتٍ مختلفة خلال التّبليغ في شهر رمضان المبارك؛ لتكونَ لي مذكّرات في مواسمِ التّبليغ، وقد ضمَّتْ بحوثاً فكريّةً، وعقائديّةً، وأخلاقيّةً، وتاريخيّةً، اعتمدْتُ في كتابتها على القرآن الكريم، والسّنّة المطهرة، وبعضِ الوقائعِ التّاريخيّة كشواهدَ مؤيّدة، وتجنّبْتُ ذكرَ القصصِ الخياليّةِ الّتي يطرحُها بعضُ المبلّغين؛ لعدمِ دقّتِها، أو قلّةِ نفعها.

وأخيراً أرجو من القارئ الكريم أن لا يؤاخذَني على تكرارِ بعضِ الأحاديث، والرّوايات، في أكثر من موضوعٍ؛ فإنَّ ذلك ممّا اقتضاه الحال والمقال.

أسأل اللهَ تعالى أن يجعلَها لي ذخراً ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1]، وأرجو أن ينتفعَ بها إخواني المبلّغون، وأن يفيدوني بملاحظاتِهم الكريمة.

الشّيخ جميل الرّبيعيّ

٤/شعبان/١٤٢٣هـ

(١) الشّعراء: ٨٨-٨٩.

بُحوثٌ تَمْهيدِيَّةٌ:

عَوامِلُ نَجاحِ الْمُبَلِّغِ وَالْخَطيبِ الرِّسالِيّ:

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾[1].

تعريف الخطابة: هي «فنٌّ أدبيٌّ نثريٌّ غايته الوعظ، أو إقناع السّامعين بصواب قضيّة أو بخطأ أخرى»[2].

وعرّفها الفارابيّ قائلاً: «الخطابة صناعةٌ قياسيّةٌ، غرضها الإقناع في جميع الأجناس العشرة[3]»[4].

ومعنى ذلك أنَّ الخطيبَ يحمل فكرةً أو رأياً يريد إيصاله إلى أذهان السامعين؛ ليقنعهم بما يريد أن يتحدّث به.

و«الخُطبة هي باختصار: كلام الخطيب، والخطابة: هي القيام بالتَّعبير عن مجموعة الأفكار المتّصلة بعضها ببعض في موضوعٍ ما عن طريق إلقائها أمام

---

(١) الأحزاب: ٣٩.

(٢) جبران مسعود، الرّائد، معجم لغويّ عصريّ: ٣٣٨، (خطب).

(٣) الأجناس العشرة أو المقولات العشرة هي: الجوهر، والكمّ، والمضاف، والكيف، والأين، ومتى، والوضع، والملك، وأن ينفعل، وأن يفعل؛ ينظر: هامش النَّصّ في المصدر.

(٤) أبو نصر الفارابيّ، كتاب في المنطق، الخطابة: ٧.

جمهورٍ من النّاس»[١].

وبعبارة أخرى: إنَّ الخطابة «فنٌّ أدبيٌّ يعتمد على القول الشّفويّ في الاتّصال بالنّاس؛ لإبلاغهم رأياً من الآراء حول مشكلة ذات طابع جماعيّ؛ وبمعنى أشمل: هي فنُّ المخاطبة بطريقة إلقائيّة تشتمل على الإقناع، والاستمالة»[٢]؛ لترويج عقيدة، أو فكرة، أو حكم ما.

وأهمّ العناصر المكوّنة للخطبة:

«١- أن يكون الحديثُ مخاطبةً [شفويّةً] لجمهور من النّاس.

٢- أن يكون بطريقة إلقائيّة، وهذا يعني جهارة الصّوت، وتكييفه، واختلاف نبراته، وتجسيم المعاني الّتي تتضمّنها الخطبة، وإبداء التّأثّر بها؛ ومن مكملات هذه الطّريقة أن تصحبها إشارات باليد أو بغير اليد، كما يبدي الخطيب انفعالاته بما يقول، فكلُّ ذلك يثير السّامعين، ويوجّه عواطفهم نحوه، ويجعلهم أكثر استجابةً لرأيه.

٣- أن يكون الحديثُ مقنعاً بحيث يشتمل على أدلّة وبراهين تثبت صحّة الفكرة الّتي يدعو إليها الحديث.

٤- أن يتوافر في الخطبة عنصر الاستمالة، وهذا يعني توجيه عواطف السّامعين واستجابتهم للرّأي الّذي تدعو إليه الخطبة؛ لأنَّ السّامع قد يقتنع بفكرة ما، ولكن لا يعنيه أن ينفّذها أو أن تتحقّق من غيره، فلا يسعى لتحقيقها. هذا العنصر هو من أهمّ عناصر الخطبة؛ لأنّه هو الّذي يحقّق الغرض المطلوب منها»[٣].

---

(١) الدّكتور فاروق سعد، فنّ الإلقاء العربيّ الخطابيّ والتّمثيليّ: ٢٨.

(٢) فنّ الإلقاء العربيّ الخطابيّ والتّمثيليّ: ٢٨.

(٣) المصدر نفسه: ٢٩.

وبالنّتيجة: الخطابة علمٌ، وفنٌّ...

أمّا كونها (**علماً**)، فلما تشتمل من أفكار ومفاهيم ومعلومات، ومن هنا لا بدّ للخطيب الإسلاميّ الرّساليّ:

أ- أن يكون واسع الاطّلاع في العقيدة أو المبدأ الّذي يدعو له، ويريد أن يوضّحه لمستمعيه، ويرسّخه في قلوبهم؛ ليغيّر به نفوسهم؛ ولذلك يجب أن يمتلك البراهين العقليّة والمنطقيّة؛ لإثبات صحّتها.

ب- يجب أن يحيط معرفةً بالعقائد والأفكار الأخرى المناقضة لها؛ ليثبت صحّة معتقده وبطلان نقيضه.

ج- ثمَّ لا بدّ من أن يطّلع ولو إجمالاً على سيرة الرّسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وأهل بيته عَلَيْهِمُالسَّلَامُ، وأصحابه، وبتأريخ الرّسالة وما واجهته من عقبات ومشاكل، وما أثيرت في وجهها من شبهات وافتراءات...

د- ينبغي أن يتمتّع بعمق ووعي في علوم القرآن، وعلم الحديث درايةً وروايةً، مع اطّلاع موسّع على الأحكام الفقهيّة، والحدُّ الأدنى من ذلك أن يطّلع اطّلاعاً وافياً على آراء الفقهاء المقلّدين في الوسط الّذي يبلّغ فيه.

هـ- يجب أن يطّلع ولو بصورة إجماليّة على العلوم الإنسانيّة كعلم الاجتماع، وعلم النَّفس، وعلم الأخلاق، وعلم السّياسة، ولو بمقدار ما يحتاجه في طرحه.

وخلاصة الكلام يجب على المبلغ الرّساليّ:

١- التّعمّق في فهم الإسلام، بل وعيه في الجوانب العقائديّة، والشَّرعيّة، والتّربويّة، والأخلاقيّة، الفرديّة والاجتماعيّة.

٢- دراسة التّيّارات الفكريّة والمذاهب الاجتماعيّة المعاكسة للفكر

الإسلاميّ الأصيل، سواء كانت تلك التّيّارات دينيّة منحرفة، أو علمانيّة فكريّة، أو سياسيّة، أو اجتماعيّة.

٣- استيعاب قضايا الأمّة الفكريّة والعمليّة في مجالات الحياة الرّئيسة، وما تحتاج إليه من رؤى وأفكار وخطط ومشاريع لأجل نهوضها وازدهارها واستقامتها في مواجهة المشاكل والتّحدّيات المختلفة الّتي تعيق نجاح مسيرتها.

٤- لا بدَّ من أن يتمتّع الخطيب بالأصالة الفكريّة، والاستقلال المنهجيّ، وأن يتجنَّب التَّقليد - لأيّ أحد مهما بلغ - بأخذ المواضيع الجاهزة، ومحاولة نقلها كما تحدَّث بها أصحابها، ولا أعني أن لا يستفيد من تجارب الخطباء الماهرين ذوي الشُّهرة الواسعة، والمنهج القويم، فلا مانع من ذلك؛ وإنَّما المانع أن يكون ببغاءً يردّد ما يقوله الآخرون من دون فهم ووعي كما رأيناه عند بعض المتطفّلين على المنبر الحسينيّ.

٥- يجب على الخطيب أن يكون خبيراً بأنماط النَّاس الَّذين يرتادون مجلسه، ويستمعون له من حيث مستواهم الثّقافيّ، وحاجاتهم الفكريّة، ومشاكلهم الاجتماعيّة، وتوجّهاتهم المذهبيّة، وعاداتهم، وأعرافهم، وتقاليدهم... فإذا عرف ذلك استطاع أن يطرح موضوعه بما يناسبهم، ويحاول أن يفيد الجميع، وإن اختلفت مستوياتهم، وتباينت ثقافاتهم، قال سيّد البلغاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَحْسَنُ الْكَلامِ ما زانَهُ حُسْنُ النّظام، وَفَهِمَهُ الْخاصُّ وَالْعامُّ**»[1].

والسّؤال الّذي يطرح نفسه هو: ما هو المستوى العلميّ والثّقافيّ الّذي ينبغي أن يصل إليه المبلّغ والخطيب؛ ليكون مؤهّلاً لتبليغ المفاهيم الإسلاميّة بصورتها

(١) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢١٠، ح/٤٠٤٦.

السَّليمة؟

ولا أقصد بالمستوى العلميّ ما تعارف في الأوساط الأكاديميّة والحوزويّة اليوم في أوساطنا بالشَّهادة العلميّة الَّتي تُمنح لطالب العلم، وإنَّما أقصد مدى استيعابه للأفكار، والآراء، والنّظريّات العلميّة، ومدى تفاعله معها، وتذوّقه لها؛ فليس المستوى العلميُّ هو دراسة العلوم والامتحان بها، والنَّجاح بتفوّق فيها، ونيل الشّهادة العلميّة، فهنا غالباً ما تزول المعلومة في نهاية الامتحان، وإنَّما الأمرُ المهمُّ في مستوى المبلّغ الرّساليّ استيعاب الجوانب العلْميّة والعَمَليّة، والتَّفاعُل معها، ومحاولة تمثيلها سلوكيّاً، وعدم التّوقّف عندها، والسّعي المتواصل؛ لتحصيل المزيد منها، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1]، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[2].

فطالب العلم كلّما اطَّلع على حقيقة علميّة كلّما ازداد تعطّشاً لما وراءها، فهو منهومٌ في طلب العلم كما أكّد ذلك أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْهومانِ لا يَشْبَعانِ: طالِبُ عِلْمٍ، وَطالِبُ دُنْيا**»[3]؛ فطالب العلم الحقيقيّ يبقى يلازم العلماء الصّالحين؛ ليتزوّد منهم، ويتابع ما يطرح في السّاحة من أفكار وآراء، ويقرأ كلَّ ذلك قراءةً نقديّةً واعيةً، ويحاكم الأفكار والآراء والمفاهيم، ويقارن بينها، ويتلقّى الفكرة السَّليمة، ويفنّد ما يطرح من أفكار تناقض الإسلام، وتلك هي القراءة النّقديّة النّاضجة، وهي من العوامل الأساسيّة في نجاح طالب العلم، وتفوّقه وتقدّمه، فإنْ شَعَرَ أنَّه وصل إلى المستويات الرَّفيعة، فاعلم أنَّه بدأ يعود القهقرى إلى الوراء.

---

(١) يوسف: ٧٦.

(٢) طه: ١١٤.

(٣) نهج البلاغة: ٥٦٠، قصار الحكم: ٤٤٥.

أمّا كون الخطابة (فنّاً)؛ فيعني أن يعرف الخطيبُ أساليبَ الخطابة، وخصائصَها، وفنونَها كحُسْنِ الصَّوتِ، وطريقةِ الإقناعِ، والتَّعبيرِ بالحواسّ والكلمات، ومخاطبةِ العقلِ والقلبِ، وترابط الأفكار، ووحدة الموضوع، واستعمال الجمل القصيرة المفهومة، واقتباس الشّواهد المؤثّرة كالآيات والأحاديث، والأشعار، والقصص، والأمثال، والإثارات الفنّيّة الّتي تجلب انتباه المستمع، وتشدّه إلى المتحدّث أو الخطيب...

وبعبارة أخرى: إنّنا نقصد بكون الخطابة فنّاً هو طريقة الطّرح الفنّيّ الجيّد للأفكار، والرُّؤى بطريقةٍ جذّابة تستهوي النّفوسَ، وتتفاعل معها، وتؤثّر فيها تأثيراً إيجابيّاً.

والفرق بين العلم والفنّ: أنَّ العلم هو معرفة الحقائق المجهولة للأشياء، ووعي عميق لموضوعات ذلك العلم وقضاياه في المجالات المعنويّة والماديّة.

والفنّ: «هو التَّطبيقُ العمليّ للنّظريّات العلميّة بالوسائل الّتي تحقّقها... ومهارة يحكمها الذّوق والمواهب»(١)؛ وبعبارة أخرى: هو تمثيل الحقائق، وتوصيلها إلى السّامع بطريقة جذّابة مؤثّرة.

ولأجل الإقناع النّاجح لا بدَّ من توفّر ثلاثة أمور:

١- شخصيّة المتكلّم؛ فكلّما كان المتكلّم معروفاً بالإخلاص، والوعي، وسعة المعرفة، وحسن الأخلاق، والاستقامة السّلوكيّة كان تأثير كلامه في النّفوس أبلغ.

٢- موضوع البحث الّذي يطرح على السّامعين؛ فكلّما كان للبحث مساسٌ

---

(١) المعجم الوسيط: ٧٠٣، (فنّ).

بواقعهم، ومعالجة مشاكلهم كان له تأثيرٌ أكبر.

٣- مهارة الإلقاء؛ فكلّما كانَ الإلقاءُ دقيقاً مناسباً بعيداً عن التّكلّف والتّصنّع كان تأثيره في نفوس السّامعين أعمق.

وخلاصة الكلام: إنَّ الخطابةَ إحدى فنون الإعلام، بل أساسه، ومُنطلقه، وللإعلام فنون وأساليب كثيرة، حتّى أصبح اليوم له مدارس، ونظريّات، وأفكار تتحكّم بالنّفوس، وتتلاعب بالعقول حتّى أُطْلِقَ عليه «**السُّلطة الرّابعة**».

وأهمّيّة هذا الجانب كبيرة جدّاً، فقد رأينا علماء ذوي علم غزير، ولكنَّهم فشلوا فشلاً ذريعاً في التّأثير على النّاس بسبب افتقارهم إلى الفنّ الخطابيّ، والبيان البليغ.

وبعبارة أخرى: الفنُّ الخطابيّ هو مراعاة جوانب التّناسق بين كيفيّة الصّوت، والشّكل الظّاهري، وحالة العين، وحركة اليد، وقسمات الوجه، وكمّيّة الكلام، والمكان المناسب، والوقت الملائم، وقد أوجز بعض الشُّعراء هذه الضّرورات بخمس قائلاً[1]: [من الكامل]

أوصيك في نظم الكلام بخمسة ... إن كنْتَ للموصي الشّفيق مُطيعا

لا تُغْفِلَنْ سبب الكلام ووقته ... والكيف والكم والمكان جميعا

بقي أن نشير إلى مَلاحظ هامّة لها دورٌ أساسيٌّ في نجاح الخطيب، وهي:

١- أن يعرف الخطيبُ بدقّة ماذا يريد أن يقول، وأيّ موضوع يريد طرحه على المستمعين، وبعبارة أخرى: أن يكون مستوعباً لموضوعه عارفاً له بدقّة... ومن هنا يجب أن يفكّر جيّداً فيه، وينظّم فقراته، ويعلم بدقّة من أين يبدأ؟ وكيف يبدأ؟

---

(١) الميدانيّ، مجمع الأمثال: ٢٧٧/٢.

ومتى ينتهي؟ وأين يرفع صوته؟ وأين يخفضه؟ وما هي الفكرة الّتي يريد أن يؤكّد عليها، ليغرسها في ذهن السّامعين...

فإذا لم تتوفّر في حديثه هذه الشُّروط، فسيكون كـ(الأعمى يقود أعمى)، قال أمير البلاغة والبيان الإمام عليّ عليه السلام: **«لا تَقُلْ ما لا تَعْلَمُ، فَتُتَّهَمَ بِإخْبارِكَ بِما تَعْلَمُ»**[(١)].

وتأسيساً على ذلك لا ينبغي للعاقل أن يتكلّم بموضوع قبل أن يعرف ما هو بالضَّبط، فإذا عرفه، واستوعبه، ووعاه جيّداً، وتفاعل معه يستطيع أن يطرحه بقوّة وجدارة وثقة، وبذلك يكون تأثيره في النُّفوس أبلغ وأعمق، وقدرته على الإقناع به أكثر، وإلا فلا يتحدّث به.

يُنْسَبُ للإمام عليّ عليه السلام أنَّه قال:

«مَنْ طالَ لسانُهُ، وَحَسُنَ بيانُهُ، فَلْيَتْرُكِ التَّحَدُّثَ بغَرائبِ ما سَمِعَ، فَإنَّ الْحَسَدَ لحُسْنِ ما يَظْهَرُ مِنْهُ يَحْمِلُ أَكْثَرَ النّاسِ عَلى تَكْذيبه، وَمَنْ عَرَفَ أَسْرارَ الأُمورِ الإلهيَّة فَلْيَتْرُكِ الْخَوْضَ فيها، وَإلا حَمَلَتْهُمُ الْمُنافَسَةُ عَلى تَكْفيره»[(٢)].

«لَيْسَ كَلُّ مَكْتُومٍ يَسوغُ إِظْهارُهُ لَكَ، وَلا كُلُّ مَعْلومٍ يَجوزُ أَنْ تُعَلِّمَهُ غَيْرَكَ»[(٣)].

٢- الطَّرح الرّساليّ: بمعنى أن يكون الخطيبُ صاحب رسالة مقدّسة يريد أن يرسّخها في نفوس سامعيه، وهذا يتطلّب من الخطيب أن يتّسم بالصّدق

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٧٧، ح/١٠٩٥٤.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣٣٦/٢٠، حكمة: ٨٥٨.

(٣) المصدر نفسه، حكمة: ٨٥٩.

الرّساليّ، أي أن يكون متقرّباً بما يقوله إلى الله تعالى لا يرجو من النّاس جزاءً ولا شكوراً، فلا يطلب إلا رضوان الله تعالى متجرّداً عن المنافع المادّيّة، وحبّ المدح، والشُّهرة الواسعة، وهذا هو ديدن الأنبياء والمرسلين وأولياء الله من حَمَلَة الرّسالة، وهذا كتاب الله تعالى يحدّثنا عن سيرة أنبيائه ورسله عليهم السلام، فما وجدنا رسولاً ولا نبيّاً ولا وصيّاً من أوصيائهم بلّغ رسالة الله تعالى، ورجا من وراء تبليغه أجراً مادّيّاً، يقول تعالى:

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾(١).

﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾(٢).

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٣).

إنَّ الخطيبَ الّذي يضعُ قلبَه في لسانه، ويتكلّم من أعماقه بصدق، وحرارة إيمانيّة وهدفيّة واعية، متجنّباً التّكلّف في الكلام، والتّصنّع في اللّفظ، ويتحدّث على سجيّته كأنَّه يتحاور مع صديق عزيز يريد أن ينفعه، ويغيّر نفسه، ويزكّي قلبه لا بدَّ من أن تنفتح له القلوب، وتتفاعل معه العقول، وتتجاوب معه النّفوس.

٣- الجلسة الطّبيعيّة على المنبر أو المنصّة مع دقّة الملاحظة للجالسين؛ ولذا يقول خبراء الإعلام والخطابة: انْصِبْ قامتَك، تَفَرَّسْ في أعين سامعيك مباشرة، تَكَلَّمْ بثقة عالية، وتَصَوَّرْ بيقين أنّهم اجتمعوا ليحصلوا منك على شيء يعالج مشاكلهم النّفسيّة والاجتماعيّة، وإيّاك أن تحصر نظرك على شخص معيّن، أو

---

(١) الفرقان: ٥٧.

(٢) الأنعام: ٩٠.

(٣) الشّعراء: ١٠٩.

مجموعة دون أخرى، بل اشْملْ الجميعَ بملاحظاتك، ووَزّعْ نظراتك وإشاراتك على الجميع[١]، وتأسَّ بذلك بسيّد الرُّسل ﷺ، فقد رُويَ عنه أنَّه كان «**يَقَسمُ لَحَظاته بَيْنَ أَصْحابه، فيَنْظُرُ إلى ذا، ويَنْظُرُ إلى ذا بالسَّويَّة**»[٢] حتّى يظنّ كلٌّ منهم أنَّه هو المقصود.

٤-اختيار الموضوع: لا بدّ للمحاضر أو الخطيب من أن يعرف ما يكتنف المجتمع من مشاكل وحاجات، وأن يعرف ما يحتاجه المجتمع من أفكار ومفاهيم وأحكام، كما لا بدَّ من أن يحيط بعادات المجتمع وأعرافه وتقاليده؛ ليعرف كيف يركّز الصّالح منها، وكيف يغيّر الطّالح، فلا قيمة لخطاب أو حديث لا يعيش مشاكل الجماهير وقضاياها، ولا أثرَ لخطاب لا يُلامس شغافَ القلوب، ويغور في أعماق النَّفوس الوجدانيّة والفكريّة والاجتماعيّة، ﴿**وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا**﴾[٣].

ومن هنا يجب على المبلّغ الرّساليّ أن يطرح في محاضراته ما يعالج مشاكل النّاس، ويعطي الحلول النّاجحة؛ ولهذا يجب على الخطيب أن يفكّر طويلاً في اختيار الموضوع الّذي يُلامس قضايا المجتمع، ويغور في أعماق القلوب؛ ليغيّر العقول، وينقل المجتمع من الواقع الفاسد إلى الواقع السّليم.

وبعبارة أخرى: يجب اختيار مادّة البحث بما يتلاءم وشأن المجلس، ومستوى الحاضرين؛ فإن لم يراعِ الخطيب هذه النّقطة فإمّا يظلم مادّة البحث أو

---

(١) انظر: فنّ الخطابة، دايل كارنيجي.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٧٦٧/٤، ح/٣٧٨١.

(٣) النّساء: ٦٣.

يظلم المستمعين، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**إنَّ عيسى بْنَ مَرْيَمَ قامَ في بَني إسْرائيلَ، فَقالَ: يا بَني إسْرائيلَ، لا تُحَدِّثوا بِالْحِكْمَة الْجُهّالَ فَتَظْلموها، ولا تَمْنَعوها أَهْلَها فَتَظْلَموهُمْ**»(١).

ويجب أن يحاول التّعرّف - قبل أن يبدأ بحديثه - على المستوى العقليّ للمستمعين، والمراتب الثّقافيّة، والاستعداد الفكريّ، وقدرة التّعلّم، وأسلوب التّفكير، ودرجة الصّلاحيّة والكفاءة، فلا يجعل مستواه العلميّ هو المعيار، بل المعيار هو مستوى المستمعين، وإنَّ من الحكمة والمصلحة أن يأخذ - الخطيب أو المحاضر - بعين الاعتبار ردود الفعل الّتي سيثيرها موضوعه من جوانب مختلفة، فلا يلقيها على مسامع حضّاره إلا بعد دراسة كافية، وإحاطة تامّة بآثاره الفكريّة، والاجتماعيّة، والسّياسيّة المتوقّعة، قال الإمام السّجّاد عليه السلام: «**وإِيّاكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بما يَسْبِقُ إلى الْقُلوب إنْكارُهُ، وَإنْ كانَ عِنْدَكَ اعْتذارُهُ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ تُسْمِعُهُ نُكْراً يُمْكِنُكَ أَنْ توسِعَهُ عُذْراً**»(٢).

٥- من الأسس المهمّة للتّأثير في السّامع احترام شخصيّته من الخطيب قولاً وفعلاً، وعدم إشعاره بشيء من الاستعلاء العلميّ أو الاجتماعيّ عليه، أو الاستهانة به، أو التّهاون بشأنه، ومن وسائل الاحترام إشعاره بأهمّيّة الموضوع الّذي يطرحه، وأن يجعل السّامع يشعر بأنَّ الخطيب قد أتعب نفسه في تحضير الموضوع وإعداده.

ولا بدَّ من اللّيونة في الكلام، وتجنّب النّقد الجارح للواقع من دون طرح البديل المناسب، ومن الحكمة تجنّب المصطلحات العلميّة الغَريبة عن ذهنيّة

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٤/٤٠٠، ح/٥٨٥٨.

(٢) الشّيخ الطّبرسيّ، الاحتجاج: ٢/٣٦٤.

الجمهور، وتجنّب ذكر الأرقام الخياليّة الّتي لا تقبلها العقول السَّليمة...

وينبغي ألا يخاطب شخصاً بذاته، ويذكر اسماً معيّناً يريد له التَّصحيح، أو النّقد، فيجرح شخصاً بعينه، وإنَّما ينبغي أن ينتقد الظّواهر الاجتماعيّة من دون تعيين مصاديقها.

٦- يجب مراعاة الاعتدال في سرعة الكلام، فلا يسرع في الإلقاء، فلا يدع للسّامع فرصة المتابعة والتّأمّل، ولا يبطئ، فيتعبه ويرهقه، ويسلبه الرّغبة في المواصلة.

٧- أن يتمتّع الخطيبُ بمزاج معتدل، وحالة طبيعيّة من النّاحية الجسميّة والنّفسيّة، فلا يعاني إحساسات الألم أو الجوع أو السّهر، كذلك يجب أن لا تنتابه أثناء الحديث حالة غضب، أو انفعال، أو رهبة، أو إحساس بمصيبة حلّت به.

٨- يجب أن يتجنّب الخطيب إثارة الأمور الخلافيّة على المنبر سواء كانت سياسيّة أو اجتماعيّة، أو فكريّة، أو فقهيّة؛ لأنَّ ذلك يشتّت كلمة الجمهور؛ ولأنَّ المنبر الحسينيّ بالخصوص هو وسيلة لهداية النّاس، وتذكيرهم بالله تعالى، وجمع كلمتهم، وتوحيد صفوفهم، وتوعيتهم بالإسلام، وتحريكهم للدَّعوة إليه، والالتزام بمبادئه وأحكامه...

٩- مراعاة كيفيّة المقدّمة: قد تكون المقدّمةُ واجبةً لتوضيح المبحث الَّذي يريد أن يطرحه، وقد تكون لا ضرورة لها، ولكنّها لا تخلو من فائدة، وقد تكون حشواً منافياً للبلاغة، وقد يجب تجاوزها، ولذلك يقتضي مراعاة الحال، وهذا ما يقدّره الخطيبُ نفسه.

ولا بدَّ من أن نعلم أنَّ المقدَّمة بمثابة جسر يربط أفكار المستمعين بقبول

الموضوع، ويقرّبهم إليه؛ ولهذا يجب أن تتلاءم المقدّمة مع صلب الموضوع، ومن ناحية أخرى ينبغي للخطيب ألا يطيلها، فيشغل الجانب الأكبر من الوقت المحدّد فيها ممّا يوحي إلى المستمع أنّ الخطيب قد أهمل البحث.

١٠- يلزم الخطباء والمتحدّثين أن يأخذوا بعين الاعتبار مراعاة عنصر الزّمن في خطبهم؛ لئلا يخرجوا عن حدّ البلاغة، ولا يواجهوا احتجاج هذا وذاك، وقد قسَّم أحدُ العلماءِ الزّمنَ إلى ثلاثة أقسام(١):

أ- الزّمان الطّبيعيّ: «هي المدّة الّتي تقع فيها الأحداث والكوارث الطّبيعيّة قصيرةً كانت أم طويلة»، قال الإمام الصّادق عليه السلام: **«ثَلاثَةُ أَشْياء لا يَنْبَغي للْعاقلِ أَنْ يَنْساهُنَّ عَلى كُلّ حالٍ: فَناءُ الدُّنْيا، وَتَصَرُّفُ الأَحْوالِ، وَالآفاتُ الَّتي لا أَمانَ لَها»**(٢).

وعن الإمام عليّ عليه السلام أنّه قال:

«مَنْ عَرَفَ الأَيّامَ لَمْ يَغْفَلْ عَنِ الاسْتعْداد»(٣).

«أَعْرَفُ النّاسِ بالزَّمانِ مَنْ لَمْ يَتَعَجَّبْ مِنْ أَحْداثه»(٤).

«يَنْبَغي لمَنْ عَرَفَ الزَّمانَ أَنْ لا يَأْمَنَ الصُّروفَ وَالْغيَرَ»(٥).

«لا يَأْمَنُ أَحَدٌ صُروفَ الزَّمانِ، وَلا يَسْلَمُ مِنْ نَوائبِ الأَيّامِ»(٦).

---

(١) انظر: البيان وفنّ الخطابة للشّيخ محمّد تقي فلسفيّ: ١٣٢-١٣٩.

(٢) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٣٢٤.

(٣) الكافي: ٧٢/١٥، ح/١٤٨١٩.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٨٠، ح/١١٠٣٤.

(٥) المصدر نفسه: ١٠١، ح/١٧٦٤.

(٦) المصدر نفسه: ح/١٧٦٣.

ب- الزَّمان التّأريخيّ: «هو معرفة الفاصل بين زمنين أو حادثتين، وتحدّد بمقياس اليوم والشَّهر والسّنة».

ج- الزَّمان الاجتماعيّ: وله «معنى واسع وعريض يمكنه أن يشمل جميع الشّؤون الثّقافيّة، والعلميّة، والاقتصاديّة، والسّياسيّة، والعسكريّة، والتّربويّة، وغيرها».

وخلاصة الكلام: يجب على الخطيب أن يراعي عنصر الزَّمن من حيث كمّيّة الكلام ونوعيّته، ومناسبته للمدّة الَّتي يعيش فيها بما لا يرجع السّامع إلى أحداث لا تنفع، وإلى تواريخ لا جدوى منها.

١١- وأهمُّ عنصرٍ في نجاح الخطيب أن يكون مراقباً نفسه، جادّاً في تهذيب أخلاقه، متزوّداً التَّقوى ليوم جزائه، طالباً رضا ربّه، متجرّداً عمّا سواه، وبذلك يكون مصداقاً لما يتحدّث به، ولما يدعو له، فلا يخالف فعلُه قولَه، ولا يناقضُ بدعوته سلوكَه، بل يقول ما يفعل، ومن هنا لا بدّ من «أن يؤدّب نفسَه قبل أن يؤدّبَ لسانَه، ويهذّب أخلاقَه قبل أن يهذّب ألفاظَه، ويصون مروءَته عن دناءة الغيبة، وصناعتَه عن شَيْن الكذب، ويجانب - قبل مجانبته اللّحنَ وخَطَلَ القول - شنيعَ الكلام ورفثَ المزح»[1].

خِتامُهُ مِسْكٌ:

لا بُدَّ للخطيب من أن يكون ربّانيّ الميول والتّوجّه، شاعراً بقدسيّة مسلكه المرتبط بالله منه وإليه، وفي سبيله تعالى، مقتفياً آثار أنبيائه ورسله وأوصيائهم متأسّياً بهم، سالكاً سبيلهم؛ ولذا عليه أن يتوسّل بصدق وإخلاص أن يعينه الله تعالى

(١) ابن قتيبة، أدب الكاتب: ١١.

على تخليص نيّته في مواصلة الكدح في هذا السَّبيل، وأن يجعله من «**دُعاته الدّاعينَ إلَيْه، وهُداته الدّالّين علَيْه، ومَنْ خاصَّته الْخاصّين لَدَيْه**»(١)؛ لأنَّه من دون استمداد العون منه تعالى لا يمكن أن يواصل السَّير، بل لا يمكن أن يحصل على هذه الكرامة الإلهيّة إلا بتوفيق الله تعالى وتسديده وتأييده.

والسرُّ في ذلك أنَّ هذا المسلك الرّبّانيّ هو مسلك ﴿**ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا**﴾(٢)، وهو أعلى المسالك إلى الله تعالى وأشرفها وأسماها، بل هو لبُّ لباب عمل المرسلين وجوهرها في الدَّعوة إلى الله تعالى، كما جاء في دعاء صاحب الأمر والزّمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف: «**اللّهمَّ، ارْزُقْنا تَوْفيقَ الطّاعَة، وبُعْدَ الْمَعْصية، وَصدْقَ النّيَّة، وعرْفانَ الْحُرْمَة، وأَكْرمْنا بالْهُدى، والاسْتقامَةَ، وسَدِّدْ أَلْسنَتَنا بالصَّواب وَالْحكْمَة، وَامْلأْ قُلوبَنا بالْعلْم وَالْمعْرفَة...**»(٣).

وفي دعاء الافتتاح: «**اللّهمَّ، إنّا نَرْغَبُ إلَيْكَ في دَوْلَة كَريمَة تُعزُّ بها الإسْلامَ وَأَهْلَهَ، وتُذلُّ بها النّفاقَ وأَهْلَهُ، وَتَجْعَلُنا فيها من الدُّعاة إلى طاعَتك، وَالْقادَة إلى سَبيلكَ، وتَرْزُقُنا بها كَرامَةَ الدُّنْيا وَالآخرَة**»(٤).

ومن هنا لا يمكن أن يفوز المرءُ بهذا الشَّرف العظيم، وينال هذه الكرامة إلا برعاية الله وعنايته، وهدايته تعالى؛ لصعوبة التّجرّد التّامّ فيه لله تعالى، ولسعة

---

(١) اقتباس بتصرّف في الضّمائر من الصّحيفة السّجّاديّة، دعاء: ٥.

(٢) النّساء: ٦٩.

(٣) الكفعميّ، المصباح: ٢٨٠.

(٤) الشّيخ الطّوسيّ، مصباح المتهجّد: ٥٨١.

لوازمه المعرفيّة، والعلميّة، والفنّية، والنّفسيّة، والفكريّة، ولا ينال ذلك إلا مَنْ مَنَّ الله عليه بالعزيمة الماضية، والبصيرة النّافذة، وإرادة الإصلاح والتّغيير بدافع الإيمان، والتَّقوى، والاستقامة، والإخلاص، والصّبر في مواصلة الكدح إلى الله تعالى؛ «**أُولئكَ وَالله الأَقَلّون عدداً، وَالأَعْظَمونَ قَدْراً، يَحْفَظُ اللهُ بهمْ حُجَجَهُ وبَيِّناته، حتّى يودعوها نُظراءَهُمْ، ويَزْرَعوها في قُلوب أَشْباههمْ، هجمَ بهمُ الْعلْمُ عَلى حَقيقَة الْبَصيرَة، وبَاشَروا روحَ الْيَقين، وَاسْتَلانوا ما اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفونَ، وَأَنسوا بما اسْتَوْحَشَ منْهُ الْجاهلونَ، وَصَحبوا الدُّنْيا بأَبْدانٍ أَرْواحُها مُعَلَّقَةٌ بالْمَحَلّ الأَعْلى، أُولئكَ خُلَفاءُ الله في أَرْضه، وَالدُّعاةُ إلى دينه، آه آه شَوْقاً إلى رُؤْيَتهمْ**»(١).

وهؤلاء الأقلّون عدداً هم «**مَظاهرُ أَمْر الله وَنَهْيه.. الدُّعاةُ إلى الله.. الْمُسْتَقرّونَ في مَرْضاة الله.. الْمُمَحَّصونَ**(٢) **في طاعَة الله.. الأَدلاءُ عَلى الله..**»(٣).

ولا شَكَّ أَنَّ أئمّة أهل بيت العصمة والطّهارة عليهم السلام هم أصدق مصاديق هذا المسلك بأعلى درجاته، بعد جدّهم المصطفى صلى الله عليه وآله؛ وأمّا المشايعون لهم، والسّالكون سبيلهم، المتمسّكون بولايتهم، فإنَّهم يهتدون بهديهم، ويستمدّون من معينهم، ويرتشفون من بحرهم الزّاخر بكلّ المعارف الإلهيّة، والقيم الإنسانيّة بأعلى مصاديقها، كلٌّ يتلقّى منهم بمقدار معرفته بالله تعالى، وتفقّهه في دين الله تعالى، وتأسّيه برسول الله صلى الله عليه وآله، وتفانيه في الدَّعوة إلى الله، وبمقدار طهارة نفسه، وسعة

---

(١) نهج البلاغة: ٥١٢، قصار الحكم: ١٣٧.

(٢) الممحّصون: المخلصون.

(٣) ينظر: كامل الزّيارات للشّيخ ابن قولويه القمّيّ: ٥٠٤.

ظرفه، وقد فصَّل هذا الأمرَ حديثُ أبي عمرو الزُّبيريّ عن أبي عبد الله عليه السلام، وإن كان الحديث في الجهاد إلا أنَّ فيه إشارة قيّمة فيما نحن فيه[1].

وتأسيساً على ذلك يجب على الخطيب الرّساليّ أن يستحضر رقابة الله تعالى، وحسابه، وثوابه وعقابه فيما يتصوّر، وفيما يعتقد، وفيما يدعو إليه من حيث الهدف والوسيلة في تحقيق الغايات النّبيلة.

ثمّ لا بدَّ من أن يعلم الخطيب الإسلاميّ الحسينيّ أنَّ أصحاب هذا المسلك هم أطبّاء نفوس البشريّة، فللقلوب أطبّاء كما للأبدان أطبّاء..

وممّا لا شكَّ فيه أنَّ طبيب النّفوس لا يمكن أن يؤدّي هذا الدّور في الهداية والإرشاد؛ لتزكية النّفوس، وتعمير القلوب، وإيقاظ الضّمائر، وبعث الأرواح في رحاب الله تعالى، إلا إذا أخلص لله في قوله وفعله، وجسّد ذلك في أخلاقه وسلوكه بدرجة يجعل النّاس ترى دعوته في فعله قبل قوله، وبذلك يكون مرآةً عاكسةً لجمال الإسلام وكماله بصورة رائعة تجذب النّفوس، وتنوّر العقول، وتحرّك الهمم؛ وهذا هو الّذي كان زيناً لآل محمّد صلى الله عليه وآله، وبهذا تصبح دعوته إلهيّة، يرى النّاس فيها أنوار آل محمّد صلى الله عليه وآله.

وهذا ما دعا إليه أهل بيت العصمة والطّهارة عليهم السلام أتباعهم ومحبّيهم؛ فعن ابن أبي يعفور قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: **كونوا دُعاةً للنّاس بغَيْرِ أَلْسنَتكُمْ؛ ليَرَوْا منْكُمُ الْوَرَعَ، وَالاجْتهادَ، وَالصَّلاةَ، وَالْخَيْرَ، فَإنَّ ذلكَ داعيَةٌ**»[2].

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «**وَكونوا دُعاةً إلى أَنْفُسكُمْ بغَيْرِ أَلْسنَتكُمْ،**

(١) انظر: الكافي: ٩/٣٧٨-٣٩٠، ح/٨٢٢٠.

(٢) المصدر نفسه: ٣/٢٠٢، ح/١٦٤١.

وكونوا زَيْناً، ولَا تَكونوا شَيْناً»[١].

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «**كونوا دُعاة للنّاس بِالْخَيْرِ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِكُمْ؛ لِيَرَوْا مِنْكُمُ الاجْتِهادَ، والصِّدْقَ، والْوَرَعَ»**[٢].

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «**مَعاشِرَ الشّيعَةِ، كونوا لَنا زَيْناً، ولَا تَكونوا عَلَيْنا شَيْناً، قولوا لِلنّاسِ حُسْناً، واحْفَظوا أَلْسِنَتَكُمْ، وكُفّوها عَنِ الْفُضولِ، وقَبيحِ الْقَوْلِ»**[٣].

وغيرها من الأحاديث الّتي تؤكّد على تجسيد الفكر في السُّلوك؛ لأنَّ الخطيب حينما يكون مصداقاً لدعوته في سلوكه يكون أكثر أثراً، وأبلغ تأثيراً في النُّفوس، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ الْوَعْظَ الَّذي لا يَمُجُّهُ سَمْعٌ، ولا يَعْدِلُهُ نَفْعٌ ما سَكَتَ عَنْهُ لِسانُ الْقَوْلِ، ونَطَقَ بِهِ لِسانُ الْفِعْلِ»**[٤]؛ لأنَّ من يخالف قولُه فعلَه يكون كاذباً، والكاذب مذمومٌ مرفوضٌ...

فعن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: «**إنَّ الْعالِمَ إذا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ، زَلَّتْ مَوْعِظَتُهُ عَنِ الْقُلوبِ كَما يَزِلُّ الْمَطَرُ عَنِ الصَّفا»**[٥].

إذن الهداية، والإرشاد، والوعظ، ودعوة النّاس إلى الله مشروطةٌ بكون الدّاعي عاملاً بما يدعو إليه؛ لأنَّه لا يمكن أن تُقبل دعوته من قبل المدعوّين ما لم

---

(١) الكافي: ٣/١٩٨-١٩٩، ح/١٦٣٦.

(٢) المصدر نفسه: ٣/٢٧٢-٢٧٣، ح/١٧٧٨.

(٣) الشّيخ الطّوسيّ، كتاب الأمالي: ٦٥٤.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٢٥، ح/٤٥٦٠.

(٥) الكافي: ١/١٠٩، ح/١١٣.

يطابق عملُه قولَه، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[١]؛ فهنا قد أوضحت الآيةُ الكريمةُ الأسلوبَ الأمثلَ في مواجهة عقبات الدَّعوة إلى الله تعالى، وبيّنت المنال العظيم الَّذي يحظى به الدّاعي عند الله تعالى، ثمَّ حدَّدت أسلوب الحصانة من نزغات الشَّيطان، وأكَّدت أنَّ القول الأحسن، والأفضل، والأسمى من الكلام في حركة الإنسان في الوسط الاجتماعيّ هو الدَّعوة إلى الله في معرفته، وتوحيده، وطاعته، وعبادته، وحبّه، وتوجيه النّاس إلى التَّمسُّك والاعتصام بحبله، وتحكيم شريعته في حياة المجتمع البشريّ.

الصِّفاتُ الْواجِبُ تَوَفُّرُها في شَخْصِيَّةِ الْخَطيبِ:

ليس من السَّهل أن نطلق على كلّ من ارتقى المنبر، ودعا إلى الله تعالى، اسم خطيب أو داعية أو هاد أو مرشد بكلّ ما للكلمة من أبعاد رساليّة حتّى تتوفّر فيه صفات تؤهّله؛ ليكون مصداقاً لهذه الكلمة، ولا سيّما أنَّ هذه الكلمات أطلقها تعالى على أكرم خلقه، وأشرف بريّته محمّد ﷺ، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[٢].

كما وصفت بعضُ النّصوصِ أهلَ بيتِ النّبوّة عليهم السلام بأنّهم «**الدُّعاةَ إلى الله، وَالأَدلاّءَ عَلى مَرْضاتِه**»[٣]، وهذا بحدّ ذاته دلالة على عظم هذه المهمّة الإلهيّة

---

(١) فصّلت: ٣٣.

(٢) الأحزاب: ٤٥-٤٦.

(٣) جاء في بعض زيارات الأئمّة عليهم السلام: «**السَّلامُ عَلى مُظْهِري أَمْرِ الله وَنَهْيِه، السَّلامُ عَلى الدُّعاة إلى الله، السَّلامُ عَلى الْمُسْتَقِرّينَ في مَرْضاة الله**» عيون أخبار الرِّضا عليه السلام للشَّيخ الصَّدوق: ٥٠٢/٢، ح/٩٥٣؛ وفي زيارة أخرى: «**السَّلامُ عَلَى الدُّعاة إلى الله، وَالأَدلاء عَلى مَرْضاة الله... السَّلامُ عَلى الأَئِمَّة الدُّعاة، وَالْقادَة الْهُداة**»، المصدر نفسه: ٥٠٤/٢، ح/٩٥٤.

وقدسيّتها، بل وجدناهم يتوسّلون إلى الله تعالى أن يجعلهم من دعاته وهداته كما في دعاء الإمام السّجّاد عليه السلام: **«اللّهُمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وآله، واجْعَلْنا مِنْ دُعاتكَ الدّاعينَ إلَيْكَ، وَهُداتكَ الدّالّينَ عَلَيْكَ»**[1].

ونحن نذكر بعض تلك الخلال الّتي لا بدَّ من أن يتّصفَ بها الخطيبُ:

١- **الاعتقاد السّليم:** فما لم تكن عقيدةُ المبلّغ والخطيب والمرشد بالله ورسوله واليوم الآخر سليمةً صحيحةً، وصادقةً وواضحةً لديه وضوحاً تامّاً بَيّناً مدعوماً بالبراهين القاطعة سواء كانت عقليّة، أو نقليّة لا يمكن أن يَصْدُقَ عليه هادياً حُسينيّاً؛ لأنَّ من يحمل الهَديَ الحسينيَّ هو الّذي يتحرّك في سبيل الله تعالى؛ ليهدي النّاس إلى الله تعالى في كلّ خطوة من خطواته يريد أن يُركّز دعائم التّوحيد والعدل في القلوب والعقول؛ ليُعَرّف النّاس بالله ورسوله، يُذَكّر بالله تعالى في قوله وفعله، بل وفي منظره، ولقائه، من دون تكلّف أو تصنّع، أو ادّعاء كما خاطب الإمام الحسين عليه السلام النّاس:

«أيُّها النّاسُ، إنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ ما خَلَقَ الْعِبادَ إلا ليَعْرفوهُ، فَإذا عَرَفوهُ عَبَدوهُ، فَإذا عَبَدوهُ اسْتَغْنَوْا بعِبادَتِه عَنْ عِبادَةِ مَن سِواهُ»[2].

فمهمّة الخطيب والمبلّغ إذن تعريف النّاس بالله، وتعبيدهم له تعالى؛ ليتحرّروا من كلّ الألوهيّات الوهميّة، ولا يتمّ له ذلك إلا حينما يشعر بهيمنة الله عليه، ويوقن أنّه بعين الله تعالى مردّداً مع الإمام الحسين عليه السلام: **«عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ وَلا تَزالُ عَلَيْها رَقيباً، وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ**

(١) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ٣٧، دعاء: ٥، دعاؤه لنفسه وخاصّته.

(٢) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٥٦.

نَصيباً»[١].

وهكذا يترسّخ هذا الاعتقاد في قلبه وروحه ووجدانه، ويصبح شاعراً بأنَّ الله تعالى يعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، يسجّل عليه حركاته وسكناته رغم أنَّه تعالى يعلم ما يريده وما يفعله، وسيُريه أعماله بصورتها الّتي فعلها، ﴿ **وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ** ﴾[٢].

﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** ﴾[٣].

٢- **أن يكون متفقّهاً بأحكام الله**، وواعياً لشريعته الغرّاء، عالماً بتكاليفها، مستعدّاً لتحمّل مسؤوليّتها، وما يترتّب على ذلك من تحدّيات، وصعاب، وعقبات، وابتلاءات، ومسؤوليّات، عارفاً ماذا يجب عليه أن يعطيها من عقله، وروحه، ونفسه؛ فما لم يكن الإنسانُ متبصّراً بأحكام الله تعالى لا يمكن أن يوصلها للنّاس؛ لأنَّ فاقد الشّيء لا يعطيه؛ ولهذا جعل الإسلامُ عملَ العالم الَّذي ينشر رسالة الله تعالى أفضل من ألف عابد؛ فعن معاوية بن عمّار، قال: «قلْتُ لأبي عبد الله عليه السلام: رجلٌ راويةٌ لحديثكم يبثّ ذلك في النّاس، ويشدّده في قلوبهم، وقلوب شيعتكم، ولعلَّ عابداً من شيعتكم ليست له هذه الرّواية، أيُّهما أفضل؟ قال عليه السلام: **الرّاوِيَةُ لِحَديثِنا يَشُدُّ بِهِ قُلوبَ شيعَتِنا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ عابِدٍ**»[٤].

---

(١) الفيض الكاشانيّ، كتاب الوافي: ٤٨٨/١.

(٢) الأنبياء: ٤٧.

(٣) الزّلزلة: ٧-٨

(٤) الكافي: ٧٩/١-٨٠ ح/٥٦.

ولا شكَّ من أنَّ تحقّق هذه الأفضليّة للهادي والمعلّم مشروطة بصدق النّيّة لله تعالى؛ فعن حفص بن غياث، قال: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام: **مَنْ تَعلَّمَ الْعلْمَ، وَعَملَ به، وَعَلَّمَ لله دُعيَ في مَلَكوت السَّماوات عَظيماً، فَقيلَ: تَعَلَّمَ لله، وَعَملَ لله، وَعَلَّمَ لله**»(١).

والسّرُّ في التّأكيد على التّعلّم، والتّفقّه، والتّبصّر: أنَّ الدَّعوة إلى الله إذا لم تكن عن علم، ومعرفة، وبصيرة قد تؤدّي خلاف المطلوب، فتبعد المدعوّ إليها عن الله تعالى، وإن كان الدّاعي مخلصاً في دعوته، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**الْعاملُ عَلى غَيْر بَصيرَةٍ كَالسّائر عَلى غَيْر الطَّريق لا يَزيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْر إلا بُعْداً**»(٢).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَنْ عَملَ عَلى غَيْر علْمٍ كانَ ما يُفْسدُ أَكْثَرَ ممّا يُصْلحُ**»(٣)؛ لأنَّ العمل في الإسلام مشروطٌ بالمعرفة، فلا يقبل الله عملاً إلا بمعرفة، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**لا يَقْبَلُ اللهُ عَمَلاً إلا بمَعْرِفَة، ولا مَعْرِفَةَ إلا بعَمَلٍ، فَمَنْ عَرَفَ دَلَّتْهُ الْمَعْرفَةُ عَلى الْعَمَل، ومَنْ لَمْ يَعْمَلْ فَلا مَعْرِفَةَ لَهُ، أَلا إنَّ الإيمانَ بَعْضُهُ منْ بَعْضٍ**»(٤).

فإذا عرفَ اللهَ تعالى، وتفقّه في أحكامه، وتخلّق بأخلاقه طلباً لرضوانه، وعمل على تطبيقها، تذلّلت لذلك نفسه، وانقادت لأوامر الشَّرع المقدّس، حينئذٍ يصبح مصداقاً للدّاعية البصير بدينه، قال داعية الإسلام الكبير آية الله الشّيخ محمّد

(١) الكافي: ١/٨٦، ح/٦٦.

(٢) المصدر نفسه: ١/١٠٦-١٠٧، ح/١٠٨.

(٣) المصدر نفسه: ١/١٠٨، ح/١١٠.

(٤) المصدر نفسه: ١/١٠٧، ح/١٠٩.

أمين زين الدّين قُدِّسَ سِرُّهُ: «وإذا لم تكن الدّعوة إلى الله على بصيرة، فهي والإلحاد الصّريح سواء بسواء. سواء بسواء في نظر العقل، فإنَّ الطّريقَ المظلمَ - في باب المعرفة - لا يؤدّي إلا إلى غاية مظلمة، ومحالٌ أن تأتي نتيجة متيقّنة من مقدّمة مشكوكة»[١].

٣- أن يجيد فنّ العرض القرآنيّ: لأجل إيصال الكلمة الطّيّبة إلى عقول النّاس، وترسيخها في قلوبهم لا بدَّ من أن يتأمّل جيّداً في طريقة فنّ العرض القرآنيّ لدين الله على النّاس بالحكمة والموعظة الحسنة.

وأروع تلك الأساليب هو أن يتحلّى بالسّلوك المستقيم، والقول الحسن بل الأحسن، وهو الكلمة الطّيّبة، الصّادقة، الهادفة، البليغة الّتي تؤدّى باختيار دقيق، ووعي عميق، وبيان جميل جذّاب، يبشّر ولا ينفّر، وبذلك يكون مصداقاً لما أوصى به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ معاذَ بن جبل حين بعثه إلى اليمن قائلاً: «**يَسِّرْ وَلا تُعَسِّرْ، وبَشِّرْ وَلا تُنَفِّرْ**»[٢].

وهذا هو القول الحسن الّذي يهدي اللهُ تعالى به عباده، وهو الّذي عبَّر عنه القرآن الكريم ﴿**بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾[٣] الّتي هي: «طريقة في التّبليغ، وأسلوب في الدّعوة يحبّبها، ولا يُنفّر عنها، يقرّب إليها، ولا يُبعّد عنها، ييسّرها ولا يعسّرها... هو الأسلوب الّذي يشعر المخاطب أنَّ دورك معه دور الرَّفيق به، والنّاصح له، الباحث عمّا ينفعه، ويسعده»[٤].

---

(١) الشّيخ محمّد أمين زين الدّين، الإسلام ينابيعه مناهجه غاياته: ١١.

(٢) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٢٤٦/٤.

(٣) النَّحل: ١٢٥.

(٤) السّيّد محمّد حسين فضل الله، أسلوب الدّعوة في القرآن: ٥٧.

إنَّ هذه الطّريقة من القول الحسن والموعظة الحسنة «تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمّق المشاعر بلطف، لا بالزّجر والتّأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء الّتي قد تقع عن جهل أو حسن نيّة، فإنَّ الرّفقَ في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشّاردة، ويؤلّف القلوب النّافرة، ويأتي بخير من الزّجر والتّأنيب والتّوبيخ»[1].

ثَوابِت أساسِيَّةٌ في حَرَكَةِ الْمُبَلِّغ:

١- الانفتاح على القطّاعات الاجتماعيّة كلّها قدر المستطاع وفق ما تقتضيه الحكمة والمصلحة الإسلاميّة.

٢- تَجَنُّبُ حالات الانفعال قدر المستطاع، والانضباط الرّساليّ عند أيّ محاولة استفزاز مقصودة أو عفويّة، ومن أيّ أحد.

٣- تجنّب المراء والجدال والمخاصمة مع أيّ أحد يحاول إثارة الخصومة، أو المعاداة، ومحاولة امتصاص نقمته، واستيعابه، وتمرير استفزازه بسلام.

٤- الاستفادة من جميع الطّاقات البشريّة لخدمة الإسلام، فلنأخذ من كلّ إنسان بمقدار ما يعطي من نفسه ووقته، ولو كان زهيداً، وعدم الاستغناء عن أيّ طاقة، أو الزّهد فيها مهما كانت بسيطة؛ لأنّنا لو جمعنا تلك الطّاقات لحصلنا على كمّيّات كبيرة لا يستهان بها أبداً عند العقلاء.

٥- ينبغي إذا أردنا التَّأثير على أيّ شخص أن ننظر إلى إيجابيّاته، ونتغاضى عن سيّئاته، بل يجب أن نبحث عن إيجابيّاته إذا لم تكن معروفة لدينا، وذلك من

---

(١) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٢٩٢/٥.

خلال قاعدة الحمل على الصّحّة في عمل المؤمن: «**احْملْ أَخاكَ الْمؤْمنَ عَلى سَبْعينَ مَحْمَلاً منَ الْخَيْر**»(١) في عمل المؤمن، وقوله عليه السلام: «**اطْلُبْ لأخيكَ عُذْراً، فَإنْ لَمْ تَجدْ لَهُ عُذْراً فَالْتَمسْ لَهُ عُذْراً**»(٢).

٦- لا ينبغي أن يكون الاختلاف في أساليب العمل داعياً إلى التّفرّق والاختلاف إذا كانت الأساليبُ شرعيّةً سليمةً؛ وذلك لأنَّ اختلاف الطّرق لا يضرّ في أصل المقصد.

٧- وفق مقياس ﴿**ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ**﴾(٣) يجب أن لا نعيش حالة الحسّاسيّة تجاه من يسيء إلينا؛ لنكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ**﴾(٤).

٨- عندما يُساء إلى شخصي أنا مثلاً لا إلى عقيدتي ينبغي أن أواجه الإساءة بحلم وأناة وتغاضٍ؛ لئلا تجرّني الإساءة إلى الحسّاسيّة والخصومة والتّقاطع، أمّا إذا كانت الإساءة إلى العقيدة، فيجب أن ندرس أسبابها ودوافعها، ونتّخذ الموقف المناسب بحكمة ورويّة، لعلّنا نصحّح وجهة نظر المقابل، فإنْ لم ينفع معه الموقف الحكيم فالإعراض أولى، والله تعالى يقول: ﴿**فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا**

---

(١) المحقّق البحرانيّ، الحدائق النّاضرة: ٣٥٣/١٥؛ رُويَ عن أبيّ بن كعب: «إذا رأيتم أحد إخوانكم في خصلة تستنكرونها منه، فتأوّلوها بسبعين تأويلاً، فإن اطمأنّت قلوبكم على أحدها، وإلا فلوموا أنفسكم حيث لم تعذروه، وأن تقدروا في خصلة يسرها عليه سبعين تأويلاً، فأنتم أولى بالإنكار على أنفسكم منه»، مصباح الشّريعة: ١٧٣-١٧٤.

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٦٢٢/٢.

(٣) فصّلت: ٣٤.

(٤) الرَّعد: ٢٢.

﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾(١).

٩- الاستعانة بالله تعالى لإزالة أيّ نوع من الحسّاسيّة والخصومة تجاه أيّ عامل إسلاميّ في السّاحة إذا كان هدفُهُ سليماً، ومسلكُهُ صحيحاً، ونحاول ترشيد عمله لخدمة الإسلام، والتّعاون معه لتصحيح خطّه ﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾(٢).

١٠- علينا أن نجعل مصلحة الإسلام فوق جميع المصالح والاعتبارات مهما كانت، ونعمل بنفس طيّبة مترفّعة عن كلّ شعور أنانيّ ضيّق، أو مزاج ذاتيّ متمحور.

١١- الاهتمام الحقيقيّ بالّذين أتعبهم طول الطّريق فتركوا العمل للإسلام لسبب من الأسباب، والانطلاق معهم في الأعمال الإصلاحيّة الّتي يرغبون فيها بقطع النَّظر عن العناوين، والمعنونات، والجهات، والأشخاص.

١٢- في المجالس العامّة ينبغي أن يكون الحديثُ جدّيّاً هادفاً، لا ثرثرة لا طائل منها، وعدم السَّماح بذكر أحد من المؤمنين بسوء وتوجيه الأحاديث بما يناسب المقام، ويعود على الحاضرين بالنَّفع والأنس.

١٣- بذل أقصى الجهد لأجل المحافظة على قيم الإسلام جميعاً، وتجسيد ذلك من خلال السُّلوك العمليّ، واستمداد العون من الله تعالى أن تكون هذه المحافظةُ والالتزامُ خالصةً لوجهه.

١٤- التّريّث في تقرير المواقف وعدم التّسرّع في المشاريع والأعمال قبل

---

(١) النَّجم: ٢٩.

(٢) النَّحل: ١٢٥.

الدّراسة والتّفكير الدَّقيق في رسم خط السَّير ومعرفة مدى أهمّيّتها للإسلام، وحاجة النّاس اليها، وقبولهم لها وملائمتها للظّروف الزّمنيّة والمكانيّة.

١٥- عدم الاندفاع في الخطب، والكلمات، وتجنّب الإثارات، والحسّاسيّات غير الملائمة للظُّروف الموضوعيّة، وطرح ما يناسب الظّرف الزّمانيّ والمكانيّ، وبناءً على ذلك ينبغي على المبلّغ أن يحسب لكلّ كلمةٍ يتفوَّهُ بها ألف حساب من حيث تأثيرها في السّامع سلباً أو إيجاباً، والأهمّ من ذلك كلّه أن يتذكّر دائماً أنَّه مسجلَّةٌ عليه في سجلّه الأخرويّ: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[1].

١٦- عدم الاستبداد في الرَّأي، بل لا بدَّ من مذاكرة الأخوة الواعين العاملين في المنطقة سواء كانوا علماء، أو أئمّة جمعة أو جماعة، أو دعاة إلى الله، فيما ينوي القيام به من مشاريع في جميع المجالات، وأن لا يضيق من أحد منهم، بل ينبغي أن ينفتح عليهم، ويستثمر طاقاتهم لخدمة الإسلام، كلّ بحسب طاقاته وقدراته الفكريّة والمادّيّة.

١٧- قبل الإقدام على أيّ عمل مهما كان بسيطاً على المبلّغ أن يتذكّر أنَّه لا يمثّل نفسه كشخص له موقع معيّن، أو منزلة خاصّة، بل يمثّل الإسلام، ومردود كلّ عمل سلبيّاً أو إيجابيّاً ينعكس على الإسلام.. فإنْ أحسَنَ فإحسانُهُ لنفسه، وخدمته للأمّة وللإسلام، وإن أساء كان مردود إساءته على الإسلام.. ويا لها من مصيبة إذا طُعِنَ الإسلامُ من جرّاء سلوك داعٍ إليه.

١٨- لا بدَّ من أن نحسب لكلّ شيء حسابه، ونُهيّئ لكلّ عمل جوابه، ولو سُئِلْنا عنه بعد عشر سنوات، ولا بدَّ من أن نتذكّر أنَّنا مسؤولون أمام الله تعالى قبل

---

(١) ق: ١٨.

مسؤوليّتنا أمام النّاس، ومن هنا كان الاحتياط طريق السَّلامة.

١٩- من أساسيّات الدَّعوة إلى الله عدم الدّخول في جدل أو بحث بقصد التّغلّب والانتصار والشّهرة.. بل لا بدّ من الحوار الهادف البنّاء بقصد التّفاهم والإفهام والتَّعاون مع الطّرف المحاور، إلا أن يكون المجادل يعادي الإسلام، فيجب تحطيم أفكاره في نفوس الآخرين.

٢٠- من خلال التّحرّك على الأخوة المتديّنين، ومحاولة تحريكهم لخدمة الإسلام ينبغي أن نفتّش عن نقاط الالتقاء، والوفاق، والانطلاق منها، والتّغاضي عن نقاط الاختلاف والافتراق وفق قاعدة: «نعمل بما نتفّق عليه، ونؤجّل ما نختلف فيه».

٢١- عند صدور اعتراض من بعض الأخوة على بعض أساليب العمل، أو بعض الطّروحات الفكريّة ينبغي مواجهة الاعتراض بروح إيجابيّة، ودراسة حقيقة الاعتراض، وتوجيهه الوجهة السَّليمة.

٢٢- لا بدَّ من وعي هذه الحقيقة، وهي أنَّ النّاس ينجذبون إلى المبلّغ ويَنْشَدّون إليه، ويستجيبون لتوجّهاته بمقدار ما يستطيع أن يثير فيهم من العواطف النَّبيلة، ويتعرَّف على أحوالهم، ويشاركهم آمالهم وآلامهم، ويستمع إلى مشاكلهم، ويحاول أن يعالج ما يستطيع معالجته.

٢٣- من خلال التّحرّك العامّ في وسط الأمّة لا بدَّ من أن يواجه المبلغ كثيراً من العقبات، والاعتراضات، والإشكالات، والشّبهات، وربّما التُّهم والافتراءات، وقد تكون مقصودة أو غير مقصودة؛ لسوء فهم، أو حسد، أو عداء فكريّ، أو سياسيّ، أو غير ذلك، وفي هذه الحالة عليه أن يواجه ذلك بروح إيجابيّة فاعلة،

وذلك بأن يثبت خلاف ذلك بفعله لا بقوله، من دون تشنّج وانفعال، وأن يعلم أنّه لا يمكن لأيّ عامل مصلح أن يسلم من ذلك مهما بلغ من درجات الكمال، وكيف يسلم من أمور لم يسلم أكمل خلق الله منها؛ فقد اتّهموه بالسّحر والكذب والشّعر والجنون والكهانة.

جاء في رواية: «قال موسى عليه السلام: **يا رَبِّ، إنَّ النّاسَ يَقولونَ فِيَّ ما لَيْسَ فِيَّ، فَاجْعَلْهُمْ يا رَبِّ، يَقولونَ فيما فِيَّ.** فَأَوْحى اللهُ تَعالى إِلَيْه: **يا موسى، لَمْ أَجْعَلْ ذلكَ لِنَفْسي، فَكَيْفَ أَجْعَلُه لَكَ؟!**»[1].

وقال المسيح عليه السلام: «**لا يُحْزِنْكَ قَوْلُ النّاسِ فيكَ، فَإِنْ كانَ كاذباً كانَتْ حَسَنَةً لَمْ تَعْمَلْها، وَإِنْ كانَ صادقاً كانَتْ سَيِّئَةً عَجَّلْتَ عُقوبَتَها**»[2].

٢٤- ينبغي أن لا يقف المبلّغ طويلاً أمام بعض الإسلاميّين الّذين يعيشون شكليّات الدّين لا جوهره، ولا يشغل نفسه بهم إذا لم يستجيبوا لحركة الوعي، ويتعامل معهم بروح إيجابيّة لئلا يتحوّلون إلى أعداء لحركة الوعي، ولعلّ هذا هو السّرُّ الّذي جعل كثيراً من مراجع الدّين العظام يسكتون عن بعض المظاهر غير السّليمة في الشّعائر الحسينيّة.

٢٥- لا بدَّ من معالجة أيّ مشكلة مهما صغرت؛ لئلا تتفاقم، وتتحوّل إلى مشاكل كبيرة معقّدة، وبناءً على ذلك لا بدّ من السّعي في حلّها، ورأب الصَّدع، ومدّ الجسور مع الجميع قدر المستطاع واستمداد العون والتَّوفيق من الله تعالى.

---

(١) ابن عبد البرّ، بهجة المُجالس وأنس المَجالس: ٤٠٥/١.

(٢) المصدر نفسه.

الشّيخُ أحْمد الْوائِلي أنْموذَجُ الْخِطابَةِ الْحُسَيْنِيَّةِ:

امتازت المدرسة الخطابيّة للمرحوم الشّيخ الوائليّ بأبعاد عدّة:

١- البعد الرّساليّ في تأكيد حقيقة مذهب أهل البيت عليهم السلام بأسلوب علميّ رصين، وحماسيّ مغيّر، واتّزان عقلائيّ سليم.

٢- البعد الفكريّ حيث اعتمد الفكر الإسلاميّ الأصيل كقاعدة صلبة انطلق منها، وهي القرآن والسّنّة، وأثبت أنَّ الإسلامَ المحمّديَّ الأصيلَ عقيدةٌ، وكيانٌ، ومنهجٌ للتّفكير، ونظامٌ كاملٌ شاملٌ لجميع نواحي الحياة، وفيه الحلّ الأفضل لمشاكل البشريّة اليوم.

٣- البعد الأدبيّ؛ إذ عُرِفَت هذه المدرسة بذوقها الأدبيّ الرَّفيع على نحوين:

أ- النَّحو اللَّفظيّ: جزالة في العبارة، وجمال في التَّعبير، وعمق في الفكرة، وسلاسة في الأسلوب، وهدفيّة في الطَّرح، وصدق في اللَّهجة.

ب- النَّحو السّلوكيّ: إنَّ هذه المدرسة امتازت بالمطابقة بين القول والعمل، فأنت تشعر حين تسمعه أنَّه يريد أن يجسّد رسالة الله تعالى، وأن يطبع الكلمة في قلب السّامع، وما عرف عن الوائليّ رحمه الله طيلة حياته في مختلف البلدان والأقطار مفارقة سلوكيّة تخالف الإسلام، فسلوكه أدبيّ إسلاميّ جذّاب، ولفظه أدبيٌّ رائع، بعيد عن التّكلّف والتّصنّع؛ تنطلق الكلمة من أعماق قلبه، ولذا تراه يأخذ بمجامع القلوب في خطابه.

٤- البعد العاطفيّ: العاطفةُ ركنٌ أساسيٌّ في الخطاب الحسينيّ، لكنَّها المنطلقة من فكر أصيل، وعقيدة سليمة؛ لتنتج عاطفة ناضجة متفجّرة حماساً وصدقاً بعيداً عن التّهويل والتّصنّع الَّذي اعتاده بعض الَّذين امتهنوا المنبر الحسينيّ

وسيلةً للمكاسب الدُّنيويّة، هؤلاء الَّذين لا يهمّهم سلامة الفكرة، وصحّة الخبر، وإنَّما الأصل عندهم ما يثير العاطفة، ويسيل الدَّمعة.

أمّا الشَّيخ الوائليّ؛ فقد مزج الفكر السَّليم بالعاطفة النّاضجة، فأنتجت تفاعلاً صادقاً ودموعاً غزيرةً تغسل القلب، وتطهّر النَّفس، وتنوّر العقل.

العَوامِلُ الرَّئيسَةُ لِنَجاحِ مَدْرَسَةِ الشَّيْخِ الْوائِلِيِّ وَشُهْرَتِهِ:

١- إيمانه العميق برسالته، ووعيه الدَّقيق للفكر الَّذي يحمله، واختياره السّليم للموضوع الَّذي يروم طرحه، وأسلوبه الخطابيّ الجميل في طرح الفكرة، وإلمامه الكامل بموضوعه الَّذي يتحدّث فيه، والتزامه بوحدة الموضوع؛ ولغزارته العلميّة، وثروته الأدبيّة الواسعة سعة الأدب العربيّ، وتبحّره في دراسة التّأريخ الإسلاميّ والعالميّ، واطّلاعه الواسع على العلوم والثّقافات الحديثة بمختلف مدارسها يجرّه البحثُ أحياناً خارج الموضوع، إلا أنَّه سرعان ما يرجع إلى أصل البحث.

٢- الحبّ الرّساليّ لأهل البيت عليهم السلام: لقد كان المرحوم الوائليّ رحمه الله ذائباً في حبّ أهل البيت عليهم السلام؛ لقد كان حبّه حبّاً واعياً مزج الفكر بالعاطفة، ونزل من عقله إلى قلبه، فلم يكن حبُّه مجرّدَ عاطفة ساذجة، ولا ارتباطاً هزيلاً، بل كان حبّاً عميقاً نابعاً من نفس تشبَّعت بمعرفة أهل البيت عليهم السلام، واتَّخذت حبَّهم رسالةً ومنهجاً في الحياة، وكأنَّه مصداقٌ لما رُوِيَ عن عليّ بن الحسين عليهما السلام: «**أَحِبّونا حُبَّ الإِسْلام**»[1].

٣- الهدفيّة الواعية: حين تتّبع خطابات الشّيخ الوائليّ رحمه الله تستطيع أن تقطع بأنَّ كلّ كلمة يقولها، وفكرة يطرحها قد خطَّط لها مسبقاً، وهيّأ لها أجواءها؛

---

(١) الشّيخ المفيد، الإرشاد: ١٤١/٢.

ليطبعها في نفوس السّامعين.

٤- الذّكاء والحافظة القليلة النَّظير.

٥- المثابرة والجدّ في الكسب المعرفيّ، والتّحصيل العلميّ.

طَبيعَةُ الْجَوِّ الْعِلْمِيِّ وَالأَدَبِيِّ الَّذي عاشَهُ الشَّيْخُ الْوائِلِيُّ:

عاش الشّيخ الوائليّ ﷺ في مدرسة النّجف الأشرف، وارتشف من بحرها العذب، وحلقات دروسها العميقة؛ فقد كان يدور بين مجالس الفقهاء الكبار، وقد عاصر كبار الفقهاء كالشَّيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء، والسّيّد أبو الحسن الأصفهانيّ، والشّيخ محمّد رضا المظفّر، والسّيّد محسن الحكيم، والشّهيد السّيّد محمّد باقر الصّدر، والشَّيخ مرتضى آل ياسين، والسَّيّد أبو القاسم الخوئيّ (قدّس الله أسرارهم).

وعاصر كبار الخطباء والأدباء كالشَّيخ محمّد علي اليعقوبيّ، والشّيخ محمّد علي القسّام، وغيرهم.

وعايش الكُتّاب بمختلف توجّهاتهم الفكريّة والأدبيّة، وكان متابعاً لما يصدر في السّاحة الفكريّة على مختلف الأصعدة في العراق، ولبنان، ومصر، وسوريا، وفي جميع السّاحات الفكريّة.

إذن الشّيخ الوائليّ ﷺ كان يدور بين الفقهاء العظام، والخطباء الكبار، والكُتّاب المتبحّرين، والأدباء المتمرّسين.

الْمَزايا الثَّقافِيَّةُ لِلشَّيْخِ الْوائِلِيِّ:

لم تنحصر ثقافة الشَّيخ الوائليّ ﷺ بالعلوم الدّينيّة المتعارفة في الجامعات

الإسلاميّة فقط، بل امتدَّت إلى التَّفسير، والفقه، والتّأريخ، والسّيرة، والأدب، وعلم النَّفس؛ فضلاً عن العلوم الحديثة كعلم النَّفس، والاجتماع، والسّياسة، والفنّ الإعلاميّ؛ فهو عالمٌ موسوعيٌّ بكلّ ما للكلمة من معنى، لم يتّخذ الكسب العلميّ مهنةً، وإنَّما حمله رسالةً مغيّرةً للواقع الفاسد إلى واقع سليم.

وأعطى صورة جذّابة للإسلام الأصيل (مذهب أهل البيت عليهم السلام)، وأكّد حقائقه من دون أن يثير أصحاب المذاهب المعاكسة.

الأساليبُ الَّتي اتَّبَعَها الشَّيْخُ الوائِليُّ للرَّدِّ عَلى الْمناوِئينَ لِمَنْهَجِ أهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام وَمَذْهَبِهِمْ:

في الواقع أنَّ طريقة الشَّيخ الوائليّ في الرَّدّ على المناوئين كانت أسلم طريقة وأشرفها وأحكمها؛ إذ لم يتعرّض لهم مباشرة، وإنَّما استعمل المنهج القرآنيّ في الطَّرح العلميّ، ويتلخّص بالنّقاط الآتية:

١- احترام آراء المخالفين له، والرَّدّ عليهم بأسلوب أدبيّ مهذّب يعتمد الدَّليل والبرهان المنطقيّ السَّليم.

٢- لم يجعل الرّدّ ردّاً مباشراً، أي لم يحدّد أسماء محدّدة، بل أخذ يطرح منهج أهل البيت عليهم السلام، ويُبَرّز فيه معالم الكمال والجمال والدّقّة، في تعبير أدبيّ رائع، مترّفعاً عن الألفاظ المبتذلة كالسّبّ، والطّعن، والشّتم، والانفعال غير المتّزن.

٣- اعتمد المصادر الأساسية للمخالفين في الرّدّ عليهم من باب «من فمك أُدينك».

٤- الاتّزان في الطّرح من دون انفعال، أو تجاوز في نقد، فنقده نقد بنّاء، فهو على منهج أهل البيت عليهم السلام، يردّ الفكر بالفكر، بعيداً عن التّهريج والتّهويل

والمغالطات اللَّفظية، وكأنَّه في طرحه الرّساليّ قد أسَّس لقاعدة إسلاميّة سليمة «اطرح الصَّحيح يزيح الخطأ»، وبهذا تجنَّب إثارة الأطراف المناوئة الَّتي تتصيّد في الماء العكر؛ لتشوّه الحقائق به.

دَوْرُ مَدْرَسَةِ الْوائِلِيِّ في تَطْويرِ الْمِنْبَرِ الْحُسَيْنِيِّ:

يمكن القول إنَّ منبر الشَّيخ الوائليّ رحمه الله أحدث نقلة كبيرة في أمرين:

الأوّل: في تغيير مفهوم الدّين والإسلام، وأكَّد بأنَّه عقيدةٌ ومنهجٌ ونظامٌ للحياة، وليس عادات متعارفةً، وتقاليد، وطقوساً اعتاد عليها النّاس، وإنّما هو رسالة الحياة لسعادة الإنسان في الدُّنيا والآخرة.

الثّاني: في تغيير منهج الطَّرح والتّفسير لثورة الإمام الحسين عليه السلام؛ فقد كان المنبر الحسينيّ - مع وجود خطباء استفاد منهم - قبل بروز هذه المدرسة، كان منحصراً في المراثي، وقراءة الشّعر بقسميه، والتّأكيد على الدَّمعة الحسينيّة، فلمّا برز الوائليّ استطاع أن يترك بصماته، وينقل الجمهور من الحالة القصصيّة إلى الحالة الرّساليّة.

إنَّه استطاع أن يثبت أنَّ المنبر الحسينيّ مدرسةٌ فكريّةٌ علميّةٌ رساليّةٌ، تحمل القرآن والسّنّة منهجاً؛ لتغيير المجتمع، ولإصلاح حال البشريّة، وهكذا استطاع أن ينقّي ثورة الإمام الحسين عليه السلام ممّا علق بها من حكايات، وأساطير، ومبالغات، ويعطيها بُعداً حضاريّاً مبنيّاً على العلم والمعرفة، واستطاع أن يبحث الجذور التّأريخيّة لثورة الإمام الحسين عليه السلام، ويربطها بمسار الإسلام على طول حركة الأنبياء والمرسلين كقوّة محرّكة، وباعثة للفكر الإسلاميّ، ومصحّحة لمسار المجتمع إلى يوم القيامة.

الإِيمانُ

«**اللّهُمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآله، وبَلِّغْ بإيماني أكْمَلَ الإيمان، وَاجْعَلْ يَقيني أفْضَلَ الْيَقينِ، وانْتَه بنِيَّتي إِلى أَحْسَنِ النِّيّات، وبِعَمَلي إِلى أحْسَنِ الأعْمال.**

اللّهُمَّ، وَفِّرْ بلُطْفكَ نيَّتي، وَصَحِّحْ بِما عِنْدَكَ يَقيني، وَاسْتَصْلِحْ بِقُدْرَتكَ ما فَسَدَ منِّي»[1].

تَعْريفُ الإِيمانِ:

في هذا النّصّ الشّريف يتضرّع الإمام زين العابدين عليه السلام بالله تعالى أن يجعلَ إيمانه في أعلى مراتب الكمال - رغم كماله فيه - إلا أنَّ المعصوم عليه السلام وهو في دائرة العصمة يشعر بالتَّقصير أمام الله؛ لسعة معرفته بالله، وعمق إيمانه به تعالى؛ ولذا يتصاغر أمام عظمة الله تعالى، ويرى نفسَه مقصراً في أداء حقّه، ومن هذا المنطلق نرى أكمل الخلق، وسيد الرّسل صلى الله عليه وآله يتضرّع لله تعالى: «**ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتكَ، وَما عَرَفْناكَ حَقَّ مَعْرِفَتك**»[2].

وفي هذا الدُّعاء نقف على أربعة مصطلحات عباديّة إيجابيّة؛ هي: الإيمان،

(١) الصحيفة السّجاديّة الكاملة: ٨١، دعاء:٢٠، دعاء مكارم الأخلاق.

(٢) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٢٣/٧١.

واليقين، والنّيّة، والعمل الصالح، وكلّها مترابطة متداخلة لبناء الشّخصيّة الإيمانيّة، وتكوينها.

أمّا الإيمان: فمنذ أن يفتح الإنسان عينه على الحياة الدُّنيا، ويبلغ مرحلة التّمييز بين مكوّنات الكون والحياة، يبدأ بالتّساؤل عن علل الأشياء والأحداث، وعن سبب كلّ شيء، أو حدث يراه، أو يشعر به من حيث الوجود، والحركة، والهدف.

ويمكن أن نعبّر عن ذلك بالشّعور بالسّببيّة الّذي هو أمر فطريٌّ غرسه الله تعالى في نفس الإنسان؛ لِيُرَقّيه إلى أنوار العلم، والمعرفة، فالإنسان بفطرته لا يقتنع بحدوث شيء بلا سبب، ويشترك في هذا العالِم، والجاهل، والبدويّ، والحضريّ... فكلُّ إنسان ذي شعور يبقى يفتّش عن سبب كلّ شيء يراه، أو يشعر به: من الّذي خلقه؟ وكيف خلقه؟ ولماذا خلقه؟ ومتى خلقه؟ وهكذا يتدرّج في معرفة الأسباب إلى أن يتوصّل إلى مُسَبّب الأسباب، وخالق الأشياء، وهو الله تعالى.

ومن خلال التّأمّل، والتّفكير، والبحث، والدّراسة، والاستنتاج تحصل له مجموعة من العلوم، والمعارف، والبراهين العقليّة والمنطقيّة توقفه على أن لا شيء مخلوق بلا خالق، بل **لكلّ شيءٍ خالقٌ**، وهذه المرحلة يمكن أن نسمّيها بـ(**مقدّمة الإيمان**)، ولا يكتفي العقل بالقدر البسيط من العلوم والمعارف، وإنّما يواصل البحث، ويطلب المزيد من ذلك، ويبقى مُتَنَقّلاً من مرتبة إلى أخرى حتّى تتشبعَ نفسُه بالمعارف، والعلوم النّفسيّة، أو الآفاقيّة، وحينئذ يتوصّل إلى أنَّ الله واحدٌ أحدٌ صمدٌ، وأنَّه لم يخلق هذه الأشياء، والأسباب عبثاً؛ وإنّما خلقها لتكميل خلقه، ووضْعِهم على جادّة الصواب؛ ليهديهم إلى سبيل السعادة، والنّجاة في الدُّنيا

والآخرة.

وهنا لا بدَّ من أن نشير أنَّنا لا يمكن أن نسمّي النّفس مؤمنة حقيقية إذا أحاطت واستوعبت العلوم الطّبيعيّة، أو النّفسيّة، أو الرّياضيّة، بل وحتّى الفقهيّة... أو ما إلى ذلك، فكم قد رأينا من إنسان ذي باعٍ واسعٍ في العلوم والمعارف النّفسيّة، أو الفلسفيّة، أو الطّبيعية، أو الفقهيّة... ولا نرى في سلوكه أثراً يدلّل على الإيمان بالله تعالى، فليس كلّ عالمٍ مؤمناً، وإنّما يتحقّق كمال الإيمان إذا نزل ما في العقل والإدراك من العلوم والمعارف إلى عالم القلب والوجدان، وملكت عليه مشاعره، وأحاسيسه، وصار يشعر بالهيمنة الإلهيّة في حياته الشّعوريّة، والعمليّة، وسيطرت على جوانحه، وجوارحه، وظهرت آثارها في أعماله، وتجسَّدت في سلوكه، وتجلَّت في أخلاقه وصفاته النَّفسيّة، فذلك هو الإيمان.

وبعبارة أخرى: عندما يمتزج الفكر بالعاطفة، يصبح الفكرُ مُوجِّهاً للعاطفة، والعاطفةُ مُفَجِّرةً للفكر، وباستمراريّة التّفاعل بينهما في النَّفس الإنسانيّة تتولّد قوّةٌ روحيّةٌ مُوَجِّهةٌ لسلوك الإنسان، ومسيطرةٌ على كيانه فكريّاً، وعاطفيّاً، وشعوريّاً، وسلوكياً... وتجري منه مجرى الدَّم في العروق، حتّى يصبح «الإيمان حسّاً داخليّاً يمتزج فيه الفكر بالعاطفة، فيمنح الفكر حركته من خلال خصوصيّته الشّعوريّة؛ لأنَّ الفكر الجاف الَّذي لم يرتشف من ينابيع الشُّعور لا يستطيع أن يهزّ الإنسان في حركة العواصف القادمة من هنا وهناك.

وفي ضوء ذلك كان الإيمانُ حركةً في الوعي، وإرادةً في الموقف، وانفتاحاً على الحقيقة، وليس - كما يُخَيَّل للبعض - حالة عمياء تختزن في داخلها معناها، ولا تفتح آفاقها للشُّروق، لأنَّها في آفاق العقل - كما يقول هذا البعض - فوق العقل، فهي ابنة الوجدان الَّذي يلتقي مع الغيب الشّعوريّ الَّذي يطلّ على

الذّات من بعيد، فيغمرها بالحقيقة كما هو المطر عندما يغمر الأرض»[١].

وما لم يمتزج الفكر بالعاطفة يبقى الإيمان كتلةً جامدةً جافةً لا تُحَرّكُ حاملَها، ويبقى «دعوةً فكريةً خالصةً تستهدف تطوير العقيدة طبقاً لها، وتقف عند هذا الحدّ كالمذاهب الفلسفيّة المجرّدة»[٢].

ولهذا يوجّه القرآنُ الكريم نداءه للمؤمنين الَّذين يحملون الفكر، ولا ينفعلون به، ولا تخشع قلوبهم له، فيقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[٣].

«بهذا يعلنُ الإسلامُ عن ضرورة ازدواج الفكر والعاطفة، واجتماع العقيدة، وما تتطلّبه من ألوان الانفعال والإحساس حتّى تدبّ الحياة في العقيدة، وتصبح مصدرَ حركة، وقوّةَ دفعٍ، وليست مجردَ فكرةٍ عقليّة لا يخفق، ولا يستجيب لها الحسُّ، ولا تتدفّق بالحياة»[٤].

وهكذا يتّضح «أنَّ الإيمان غير العلم والإدراك؛ لأنَّ العلمَ والإدراكَ حظُّ العقلِ، والإيمانَ حظُّ القلبِ، فالإنسان لا يكون مؤمناً لمجرّد علمه بوجود الله، والملائكة، والأنبياء، ويوم القيامة»[٥].

ولو كان العلم وحده يحقّق الإيمان لكان ذلك لإبليس الَّذي كان يعرف

---

(١) السّيّد محمّد حسين فضل الله، آفاق الرّوح: ٤٤٤/١.

(٢) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، رسالتنا: ٢٢.

(٣) الحديد: ١٦.

(٤) رسالتنا: ٢١.

(٥) الإمام الخمينيّ، جنود العقل والجهل: ٧١.

ذلك كلَّه، ولربما كان هناك كثير من أهل العلم لم يتجاوز علمُهم عالمَ العقل إلى القلب، فأصبح العلمُ مجرّدَ مخزون فكريّ أثقل حياتهم، كصخرة في صدر نهر لا تشرب الماء، ولا تسقي به غيرها.

ومن هنا أكّد علماء المعرفة الإيمانيّة أنَّ الإقرارَ بمفرده، والتّصديقَ لوحده، والعملَ بمجرده، لا يُسمّى إيماناً؛ لأنَّ «مجرّد العلم بالشّيء، والجزم بكونه حقّاً لا يكفي في حصول الإيمان، واتّصاف من حصل له به، بل لا بدَّ من الالتزامِ بمقتضاه، وعقد القلب على مؤدّاه بحيث يترتّب عليه آثاره العمليّة ولو في الجملة، فالَّذي حصلَ له العلم بأنَّ الله تعالى إلهٌ لا إله غيره فالتزم بمقتضاه، وهو عبوديّته وعبادته وحده، كان مؤمناً، ولو علم به، ولم يلتزم فلم يأتِ بشيء من الأعمال المظهرة للعبوديّة كان عالماً، وليس بمؤمن.

ومن هنا يظهر بطلان ما قيل: إنَّ الإيمان هو مجرّد العلم والتَّصديق؛ وذلك لما مرَّ أنَّ العلم ربّما يجامع الكفر»[1].

وهكذا يتضح لنا بطلان من حصر الإيمان بالعلم؛ لأنَّ العلم قد يمازج الكفر، وكذلك بطلان أنَّ الإيمان هو العمل؛ لأنَّ العمل قد يداخله النّفاق، والرّياء، فالإيمان إذن «هو العلم بالشّيء مع الالتزام به بحيث يترتّب عليه آثاره العمليّة»[2] كالخشية والخوف، والتَّواضع، والعبوديّة، والامتثال، والطّاعة المطلقة من خلال الالتزام بالأحكام الإلهيّة، حتّى يستقطب الإيمان كلّ كيان الإنسان المادّيّ والمعنويّ، ويسيطر على جوارحه وجوانحه كلّها، فما من جارحة ولا جانحة في الإنسان إلا وعليها فرض إيمان، وفرض الإيمان على الجوارح هو خضوعها،

---

(١) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٢٥٩/١٨.

(٢) المصدر نفسه.

وامتثالها لمقتضيات الإيمان ولوازمها، وقد جاء هذا المعنى مفصّلاً في حديث الزّبيريّ المفصّل، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قلْتُ له: أيّها العالم، أخبرني أيُّ الأعمال أفضل عند الله؟.

قال: **ما لا يَقْبَلُ اللهُ شَيْئاً إلا به.**

قلْتُ: وما هو؟ قال: **الإيمانُ بالله - الَّذي لا إلهَ إلا هُوَ - أَعْلى الأَعْمالِ دَرَجَةً، وأَشْرَفُها مَنْزِلَةً، وأَسْناها حَظّاً.**

قال: قلْتُ: ألا تخبرني عن الإيمان: أقولٌ هو وعملٌ، أم قولٌ بلا عمل؟

فقال: **الإيمانُ عَمَلٌ كُلُّه، والْقَوْلُ بَعْضُ ذلكَ الْعَمَلِ، بفَرْضٍ منَ الله، بَيِّنٍ في كتابه، واضحٍ نوره، ثابتَة حُجَّتُه، يَشْهَدُ لَه به الْكتابُ، ويَدْعوه إلَيْه.**

قال: قلْتُ: صِفْهُ لي، جعلْتُ فداك، حتّى أفهمه.

قال: **الإيمانُ حالاتٌ، ودَرَجاتٌ، وطَبَقاتٌ، ومَنازلُ؛ فَمنْهُ التّامُّ الْمُنْتَهي تَمامُهُ، وَمنْهُ النّاقصُ البيِّنُ نُقْصانُهُ، وَمنْهُ الرّاجحُ الزّائدُ رُجْحانُهُ.**

قلْتُ: إنَّ الإيمانَ ليتمُّ، وينقُص، ويزيد؟ قال: **نعم.**

قلْتُ: كيف ذلك؟ قال: **لأنَّ اللهَ - تَبارَكَ وتَعالى - فَرَضَ الإيمانَ عَلى جَوارحِ ابْنِ آدَمَ، وقَسَّمَهُ عَلَيْها، وفَرَّقَهُ فيها، فَلَيْسَ منْ جَوارحه جارحَةٌ إلا وَقَدْ وُكِّلَتْ منَ الإيمان بغَيْرِ ما وُكِّلَتْ به أُخْتُها، فَمنْها قَلْبُهُ الَّذي به يَعْقلُ، ويَفْقَهُ، ويفْهَمُ، وهو أَميرُ بَدنه الَّذي لا تَردُ الْجَوارحُ، ولا تَصْدُرُ إلا عَنْ رَأْيه، وأَمْره، ومنْها عَيْناهُ اللَّتان يُبْصرُ بهما، وأُذُناهُ اللَّتان يَسْمَعُ بهما، ويَداهُ اللَّتان يَبْطشُ بهما، ورِجْلاهُ اللَّتان يَمْشي بهما، وفَرْجُهُ الَّذي الباهُ[1] منْ قبَله، ولسانُهُ**

---

(١) قال الجوهريّ: «الباه مثل الجاه: لغة في الباءة وهي الجماع»، الصّحاح: ٢٢٢٨/٦، (بوه).

الَّذي يَنْطقُ به، ورَأْسُهُ الَّذي فيه وَجْهُهُ، فَلَيْسَ منْ هذه جارحَةٌ إلا وَقَدْ وُكِّلَتْ منَ الإيمان بغَيْر ما وُكِّلَتْ به أُخْتُها بفَرْضٍ منَ الله تَبارَكَ اسْمُهُ، يَنْطقُ به الْكتابُ لَها، ويَشْهَدُ به عَلَيْها...»[1].

ثمَّ يُفَصِّلُ الحديثُ عمل كلِّ جارحة من الجوارح، وما فرض الله تعالى عليها مع بيان دليل ذلك من القرآن الكريم... واستدلالُ الإمام عليه السلام بكتاب الله في بيان ما فرض على كلِّ جارحة دليلٌ على أهمِّيّة الموضوع. وهكذا أصبح «**الإيمانُ ما اسْتَقَرَّ في الْقَلْب، وأَفْضى به إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ بالطّاعَة لله وَالتَّسْليمُ لأَمْره**»[2].

آثارُ الإيمانِ:

الإيمان الحقيقيّ يستوعب حياة المؤمن كلّها، ويستقطب مشاعره وأحاسيسه كلّها، وكيانه الرّوحي والجسديّ، فلا بدَّ من أن ينعكس ذلك على سلوكه النّظريّ والعمليّ؛ لأنَّ الإيمان ليس مجرّدَ فكرة يعتنقها الإنسان، وإنّما هو فكرٌ، وعقيدةٌ تستبطن المسؤوليّةَ، وهي قوّةٌ دافعةٌ، ومحرّكةٌ نحو الهدف؛ وللحركة الإيمانيّة آثارٌ نفسيّةٌ وسلوكيّة عمليّة في حياة الإنسان نذكر بعضها:

١- **العمل الصّالح:** الإيمان بفكرة أو عقيدة إيماناً حقيقيّاً واعياً، يصنع شخصيّة الإنسان، ويرسم منهجه، ويحدّد سلوكه بمقتضاه، وإذا كان الإيمانُ صحيحاً وسليماً، فإنَّه سيدفع المؤمن إلى العمل الصّالح، جاء عن الإمام السجاد

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٣/٩٠-٩٢، ح/١٥٢١، وينظر تكملة الحديث.

(٢) المصدر نفسه: ٣/٧٤، ح/١٥١٥.

عليه السلام: «وما الْعلْمُ بالله، والْعَمَلُ إلا إلْفان مُؤْتلفان، فَمنْ عرَفَ اللهَ خافَهُ، وحثَّهُ الْخوْفُ على الْعَمَل بطاعَة الله، وإنَّ أَرْبَابَ الْعلْم، وأَتْباعَهُمُ الَّذين عَرَفوا الله، فعملوا لَهُ، ورَغبوا إلَيْه، وقَدْ قَالَ اللهُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1]»[2].

وهذا ما أكَّدَهُ القرآن الكريم، وهو ملازمة الإيمان والعمل كقوله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[3].

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[4].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[5].

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾[6].

وقد جاء اقتران الإيمان بالعمل الصّالح في موارد كثيرة جدّاً من القرآن الكريم، والسّرُّ في ذلك أنَّ الإيمان بلا عمل ادّعاءٌ لا حقيقة له؛ ولأنَّهَ عملٌ كلُّه، والقول بعضه كما تقدّم في حديث الزّبيريّ، بل إنَّ ثَباتَ الإيمان متوقّفٌ على العمل، وقبولَ العمل متوقّفٌ على الإيمان، فعن جميل بن درّاج، قال: «سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن الإيمان، فقال: شَهادَةُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسولُ

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) الكافي: ٥٢/١٥، ح/١٤٨١٧.

(٣) البقرة: ٢٥.

(٤) البقرة: ٦٢.

(٥) الأعراف: ٤٢.

(٦) الكهف: ٨٨.

الله»، قال: «قلتُ: أليس هذا عمل؟ قال: بَلى، قلْتُ: فالعملُ من الإيمان؟ قال: **لا يَثْبتُ لَهُ[١] الإيمانُ إلا بالْعَمَل، والْعَمَلُ مِنْه**»[٢].

٢- الإيمانُ والتّمسّكُ بمناهج الأنبياء عليهم السلام جميعاً اقتداءً، وتأسّياً، واتّباعاً؛ فإنَّ من أساسيّات عقائدنا هو الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله بلا تفريق وتمييز أبداً.

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[٣].

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٤].

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[٥].

فالإيمان بالرّسل لا يتوقّف عند حدود الإيمان بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله فقط، وإنّما نؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين؛ وذلك لأنَّ «أديان السَّماء كافّة - في رأي الإسلام - دينٌ إلهيٌّ واحد، وضع بوضع الشّريعة الأولى، واكتمل باكتمال الشَّريعة الأخيرة،

---

(١) الضَّمير راجع إلى المؤمن المدلول عليه بالإيمان.

(٢) الكافي: ١٠٢/٣، ح/١٥٢٦.

(٣) البقرة: ١٣٦.

(٤) البقرة: ٢٨٥.

(٥) آل عمران: ٨٤.

ولم يختلف إلا بما تفرضه سُنَّةُ التّطوّر في التّشريع، ولم يتبدّل إلا بما يقتضيه سير الحكمة وحاجة المجتمع.

فدين الله، هذا الَّذي أرسل به رسوله الأكبر ﷺ، هو - بذاته - دين الله الَّذي أوصى به أنبياءه السّالفين، وفرض على النّاس أن يقيموه، ونهاهم أن يتفرّقوا فيه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ﴾(1)»(2).

٣- الطّمأنينة والسّكون في النَّفس لما أراد الله تعالى مع تحمل الصّعاب والشّدائد في سبيله، وتجاوز العقبات الَّتي تعترض تحقيق أهدافه، فإنَّ الإيمان «هو الّذي يبعث السَّكينة لصاحبه، والرّاحة في النَّفس، والاطمئنان في القلب»، قال تعالى:

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(3).

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(4).

٤- والإيمان باعث على حبّ الله ورسوله، وتفضيله على كلّ ما يحبّ الإنسانُ ويهوى من الدّنيا من أموال وبنين، وكلّ متعلّقات الدّنيا مهما كانت مرغوبة

---

(1) الشّورى: ١٣.

(2) الشّيخ محمّد أمين زين الدّين، الإسلام ينابيعه مناهجه غاياته: ١٨٤-١٨٥.

(3) الفتح: ٢٦.

(4) الأنعام: ١٢٥.

لنفسه ومحبوبة إليها؛ لأن جوهر الإيمان وحقيقته أنَّ هذه الأعراض هي من نعم الله على الانسان ومنْحَةٌ إليه، فلا يجوز أن يقدّم حبّ النّعمة على حبّ المنعم: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[1].

٥- والإيمان باعثٌ على الصَّبر، والتّحمّل في المصاعب والمشاكل؛ لأنَّ صاحبه يعلم بأنَّ المصيبة الحقيقيّة في الدّين، وأنَّها أشدُّ من المصائب في النَّفس والمال... والمؤمن إذا أصابته مصيبة يُسَلّمُ أمرَه إلى الله عزّ وجلّ ويقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[2].

روى عبد الله بن شداد أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللّهمّ، رِضاً بِقَضائك، وبارِكْ لي في قَدَرِكَ**»[3].

وفي أشدّ المواقف حراجةً يرفع يديه متضرّعاً لله قائلاً: «**اللّهمَّ، إلَيْكَ أَشْكو ضَعْفَ قُوَّتي، وَقِلَّةَ حيلَتي، وَهَواني على النّاس، يا أَرْحَمَ الرّاحمين، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفين، وأَنْتَ رَبّي، إلى مَنْ تَكِلُني؟ إلى بَعيد يَتَجَهَّمُني[4]؟ أَمْ إلى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْري؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلا أُبالي، وَلكنَّ عافيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لي، أَعوذُ بِنورِ وَجْهِكَ الَّذي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُماتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ**

---

(١) التّوبة: ٢٤.

(٢) البقرة: ١٥٦.

(٣) علي بن يونس العامليّ، الصّراط المستقيم: ٣٢/١.

(٤) تجهّمه: استقبله بوجه كريه.

أَمْرُ الدُّنْيا وَالآخرَة، منْ أَنْ تُنْزلَ بي غَضَبَك، أَوْ يَحلَّ عَلَيَّ سُخْطُك، لَكَ الْعُتبى حَتّى تَرْضى، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بك»[1].

إذن من آثار الإيمان التَّسليمُ لله، والرِّضا بقضائه وقدره، قال تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ**﴾[2].

٦- **اجتناب المعاصي والمحرّمات:** فإذا عرضت للإنسان المعاصي والآثام أعرض عنها خوفاً، أو طاعةً، ولو صدرت منه معصيةٌ لجهل، أو نسيان، أو غفلة بادَرَ إلى التَّوبة والإنابة، قال عزَّ وجلّ: ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾[3].

٧- مراقبة النَّفس، ومحاسبتها، ومعاقبتها؛ لتزكيتها بتحميلها ما لا ترغب من أعمال البرّ، والاجتهاد في طلب مرضاة الله عزَّ وجلّ، وتهذيبها بالأخلاق الفاضلة.

٨- الارتباط بعالم الغيب والعبور إلى ما وراء المادّة، والوصول إلى حقائق الوجود المخفيّة عن الأبصار، والّتي لا تُدْرَك إلا بالبصائر النّافذة إلى عالم الملكوت، وهكذا يمنح الإيمانُ بالله ورسله واليومِ الآخرِ الإنسانَ: قوّةً في العقل، وسلامةً في القلب، وزكاةً في النَّفس، ونفاذاً في البصيرة، وصبراً عن المعاصي، وثباتاً على الطّاعات، واستقامةً في الشّدائد...الخ؛ وبذلك يعرف علّة وجوده، وسرّ إيجاده، وأنَّه مخلوقٌ مُخَيَّرٌ، ومسؤولٌ، ومحاسبٌ، لم يخلق عبثاً، ولم يترك سدًى.

وتَحَقُّقُ هذه الآثار إنّما يحصل إذا كان الإيمان عن وعي شامل، وأقصد

---

(١) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٢/٣٣-٣٤.

(٢) الحجّ: ٣٤-٣٥.

(٣) آل عمران: ١٣٥.

بالوعي ما تقدّم من امتزاج الفكر بالعاطفة، أو قُلْ نزول المعارف الإلهيّة من عالم العقل إلى عالم القلب، وخروجها كياناً واحداً متجسّداً بالسُّلوك، متوجّهاً إلى الله عزّ وجلّ.

الأُسُسُ الَّتي يَقومُ عَلَيْها الإيمانُ:

للإيمان بالله عزّ وجلّ لوازم وأسس لا يتحقّق من دونها، نذكر منها:

١- **المعرفة**: وهي من الأمور البديهيّة حيث إنَّ الإنسان ما لم يعرف الشّيء معرفة تامّة لا يمكن أن يؤمن به إيماناً صحيحاً وحقيقيّاً؛ ولهذا فإنَّ الأساس المهمّ في صحّة الإيمان، وثباته هو المعرفة الصَّحيحة بالله عزَّ وجلّ وجوداً، وتوحيداً، وعدلاً، وكمالاً، وأسماء، وصفات، وما لم تصحّ المعرفة لا يصحّ الإيمان؛ ولهذا أشرفُ العلومِ وأفضلُها «العلم بالله تعالى وكمالاته، وكيفيّة تأثيراته، والعلم بكتابه العزيز، وشرعه القويم، وصراطه المستقيم المأخوذ عن خاتم الأنبياء، وأفضل الأولياء بطريق عترته الأئمّة النّجباء، والبررة الأمناء صلوات الله عليه وعليهم ما تعاقب الظّلام والضّياء، واتّبع الصّباح المساء، وما يتوقّف إتقان هذين عليه من المعقولات والمنقولات، وتلك هي العلوم الإسلاميّة، والقوانين الشّرعيّة، صلوات الله على الصّادع بها وسلامه، وعلى أحمد عترته، وأطيب صحابته»(١).

إذن صحّة المعرفة وشمولها هي مفتاح الإيمان الَّذي يُدْخِل الإنسان إلى رحاب رحمة الله عزَّ وجلّ، ويغنيه عمّن سواه، قال سيّد العارفينَ أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَنْ عَرَفَ اللهَ سُبْحانَهُ لَمْ يَشْقَ أَبَداً».

---

(١) بحار الأنوار: ١٩٣/١٠٧.

«يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ اللهَ سُبْحانَهُ أَنْ يَرْغَبَ فيما لَدَيْهِ».

«مَنْ سَكَنَ قَلْبَهُ الْعِلْمُ بِاللهِ سَكَنَهُ الْغِنَى عَنْ خَلْقِ اللهِ»[١].

ومن حقائق الإيمان المهمّة: أنَّ الإنسان كلّما ازداد معرفة بالله زادت خشيتُه، وخوفُه منه تعالى، وحبّه ورجاؤه له عزَّ وجلَّ، فأعلمُ النّاس بالله أكثرهم خشية له.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[٢]، فلا يخشى إحساساً بهيمنته، ولا يخافه حقَّ مخافته، ولا يحذر معاصيه خوفاً من نقمته إلا العلماءُ الَّذين يعرفونه جلَّت قدرته معرفةً سليمةً برهانيّةً ووجدانيّةً، رُويَ عن الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: «يَعْني بِالْعُلَماءِ مَنْ صَدَّقَ قَوْلَهُ فِعْلُهُ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْ فِعْلُهُ قَوْلَهُ فَلَيْسَ بِعالِمٍ»، وعن ابن عبَّاس قال: «يريد إنَّما يخافني من خلقي من علم جبروتي، وعزّتي، وسلطاني»، وفي حديث آخر: «أَعْلَمُكُمْ بِاللهِ أَخْوَفُكُمْ للهِ»[٣].

ولهذا تكون «معرفة الله تعالى واجبة على كلّ مكلّف؛ لأنَّ ما هو لطف للمكلّف من العلم باستحقاق الثّواب والعقاب لا يتمّ إلا بها، وذلك عامٌّ في جميع المكلفين، فيجب أن يكون معرفته واجبة على كلّ مكلّف.

وإنّما قلنا: إنَّ اللُّطف في التّكلّف لا يتمّ إلا معها؛ لأنَّ من المعلوم ضرورة أنَّ من علم استحقاق العقاب على المعاصي زائداً على استحقاق الذّمّ كان ذلك صارفاً له عن فعل القبيح، وكذلك من علم استحقاق الثَّواب على الطّاعة زائداً على المدح كان ذلك داعياً إلى فعله، وإذا كان العلم باستحقاق الثَّواب والعقاب لا يتمُّ إلا بعد العلم بالله تعالى على صفاته من كونه قادراً عالماً وجبت معرفته بهذه

---

(١) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٨٢ ح/١٢٩٠-١٢٩٢-١٢٨٨.

(٢) فاطر: ٢٨.

(٣) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٦٣٥/٨.

الصّفة، فيعلم كونه قادراً؛ ليعلم أنَّه قادر على عقابه وثوابه، ويعلم أنَّه عالم؛ ليعلم بمبلغ المستحقّ، ويعلمه حكيماً؛ ليعلم أنَّه لا يخل بواجب من الثّواب، ولا يفعل القبيح من عقاب غير مستحقّ.

فاللُّطف في الحقيقة هو العلم باستحقاق الثّواب والعقاب، إلا أنَّه لا يتمُّ ذلك إلا بعد معرفته تعالى على صفاته وجبت معرفته على صفاته، ولما كانت معرفته لا يوصل إليها إلا بالنَّظر وجب النَّظر»[1].

وقد وردت كثيرٌ من الأحاديث تؤكّد هذه الحقيقة، وهي تلازم المعرفة والخشية من الله تعالى، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَعْلَمُ النّاس بالله أَكْثَرُهُمْ خَشْيَةً لَهُ».

«سَبَبُ الْخَشْيَةِ الْعِلْمُ».

«غايَةُ الْعِلْمِ الْخَوْفُ مِنَ الله سُبْحانَهُ».

«إذا زادَ عِلْمُ الرَّجُلِ زادَ أَدَبُهُ، وَتَضاعَفَتْ خَشْيَتُهُ لِرَبِّه»[2].

إذن سلامةَ الإيمان تتوقّف على صحّة المعرفة؛ ولذا أكَّدَ أئمّة الهدى عليهم السلام لأصحابهم بأهمّية المنبع الَّذي يتلقّون الإيمان منه لمعرفة دينهم، فلا بدَّ من أن يعرفوا عَمَّن يأخذون دينهم، وقد كان أصحابهم يتوجّهون إليهم بالسُّؤال في ذلك، فعن عليّ بن المسيّب الهمدانيّ، قال: «قلْتُ للرّضا عليه السلام: شقّتي بعيدة، ولسْتُ أصل إليك في كلّ وقت، فممَّنْ آخذ معالم ديني؟ قال: **مِنْ زَكَرِيّا بْنِ آدَمَ الْقُمِّيِّ الْمَأْمونِ عَلى الدّينِ والدُّنْيا**»[3].

---

(١) الشّيخ الطّوسيّ، الاقتصاد الهادي إلى طريق الرّشاد: ٩٩-١٠٠.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٦٣-٦٤، ح/٧٨٦-٧٨٧-٧٨٩-٧٩١.

(٣) الشّيخ الطّوسيّ، اختيار معرفة الرّجال (رجال الكشّي): ٨٥٨/٢ ح/١١١٢.

وعن عبد العزيز بن المهتدي القمّيّ، وحدّث الحسن بن عليّ بن يقطين بذلك أيضاً، قال: «قلْتُ لأبي الحسن الرّضا عليه السلام: جُعلْتُ فداك، إنّي لا أكاد أصل إليك أسألك عن كلّ ما أحتاج إليه من معالم ديني، أَفيونس بن عبد الرّحمن ثقة آخذ عنه ما أحتاج إليه من معالم ديني؟ فقال: **نَعَمْ**»(١).

وعن عبد العزيز بن المهتدي قال: «قلْتُ للرّضا عليه السلام: إنَّ شقّتي بعيدة، فلسْتُ أصل إليك في كلّ وقت، فآخذ معالم ديني من يونس مولى ابن يقطين؟ قال: **نَعَمْ**»(٢).

وهكذا يتّضح لنا أهمّيّة سلامة المنبع؛ لأخذ المعرفة من أهلها ممّن يتّسم بالعلم، والتّقى، والورع؛ والوعي، والإخلاص؛ ولهذا ينبغي للمؤمن أن يتأمّل جيّداً في مصادر المعرفة الّتي يتلقّى منها معالمَ دينه عقيدةً، أو شريعةً، أو أخلاقاً، ولا سيّما في عصرنا هذا الّذي اختلط فيه الحقُّ بالباطل، بل أُلْبسَ الباطلُ ثوبَ الحقّ؛ ليمرّر على الأمّة باسم الإسلام، ونحن نعلم أنَّ هناك مؤسَّسات كبرى أسَّسها أعداء الإسلام؛ لتعرضه بصورة مشوّهة، وبطريقة إعلاميّة حديثة يصعب فيها تمييز السَّليم من السَّقيم، ومن هنا لا بدَّ من أن نؤكّد أنَّ المرجع في ذلك كتاب الله عزَّ وجلّ، وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطّاهرين عليهم السلام؛ ففيهما سلامة الدُّنيا والآخرة، فهما يغنيان عن كلّ شيء، ولا يغني عنهما شيء.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنَّ هذا الْقرآنَ هُوَ النّورُ الْمُبينُ، وَالْحَبْلُ الْمَتينُ، وَالْعُرْوَةُ الْوُثْقى، وَالدَّرَجَةُ الْعُلْيا، وَالشَّفاءُ الأَشْفى، وَالْفَضيلَةُ الْكُبْرى، وَالسَّعادَةُ الْعُظْمى، مَنِ اسْتَضاءَ بِهِ نَوَّرَهُ اللهُ، وَمَنِ اعْتَقَدَ بِهِ في أُمورِهِ عَصَمَهُ**

---

(١) اختيار معرفة الرّجال: ٧٨٤، ح/٩٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ٧٨٥/٢، ح/٩٣٨.

الله، ومَنْ تمسَّك به أنقذه الله، ومنْ لمْ يفارقْ أحْكامه رفعه الله، ومن اسْتشْفى به شفاه الله، ومنْ آثره على ما سواه هداه الله، ومنْ طلب الْهدى في غيْره أضلَّه الله، ومنْ جعله شعاره ودثاره أسعده الله، ومنْ جعله إمامه الَّذي يقْتدي به، ومعوَّله الَّذي ينْتهي إليْه، أدّاه الله إلى جنّات النّعيم، والْعيْش السَّليم»[1].

وفي شأن أهل بيته عليهم السلام قال صلى الله عليه وآله: **«أيُّها النّاس، اسْمعوا قوْلي، واعْرفوا حقَّ نصيحتي، ولا تخْلفوني في أهْل بيْتي إلا بالَّذي أُمرْتمْ به منْ حفْظهمْ، فإنَّهم حامَّتي**[2]**، وقرابتي، وإخْوتي، وأوْلادي، وإنَّكمْ مجْموعونَ، ومساءلون عن الثَّقليْن، فانْظروا كيْف تخْلفوني فيهما. إنَّهمْ أهْل بيْتي، فمن آذاهمْ آذاني، ومنْ ظلمهمْ ظلمني، ومنْ أذلَّهمْ أذلَّني، ومنْ أعزَّهمْ أعزَّني، ومنْ أكْرمهمْ أكْرمني، ومنْ نصرهمْ نصرني، ومنْ خذلهمْ خذلني، ومنْ طلب الْهدى في غيْرهمْ فقدْ كذَّبني»**[3].

٢- سلامة الفطرة من أدران الذّنوب، وذمائم الأخلاق: فقد خلق اللهُ عزَّ وجلّ الإنسانَ مفطوراً على معرفته تعالى؛ فعن زُرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: **«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كلُّ مولود يولد على الْفطْرة، يعْني الْمعْرفة بأنَّ الله - عزَّ وجلَّ - خالقه، كذلك قوْله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾**[4]**»**[5].

---

(١) التّفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام: ٤٤٩-٤٥٠.

(٢) الحامّة: الخاصّة من الأهل والولد.

(٣) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ١٢٢؛ ينظر: ترتيب الأمالي للمحموديّ: ٤/٢٢٦-٢٢٧، ح/١٨٠٩.

(٤) لقمان: ٢٥.

(٥) الكافي: ٣/٣٥-٣٦، ح/١٤٦٩.

ولو بقيت الفطرةُ على ما خلقها الله تعالى، لم تلوّثها الذّنوب لَما اهتدت إلى غير الله، ولا تمسَّكت بغير دينه، إلا أنَّ التّربية والبيئة الّتي يعيش بها الإنسان لها تأثيرٌ بالغ الأهمّيّة في حجب الرُّؤية السَّليمة، يقول الله عزَّ وجلّ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(1).

إذن سلامة الفطرة شرط أساسيٌّ من شروط حصول الإيمان بالله... والفطرة لا تموت، وإنَّما تُدْفَنُ تحت ركام الذُّنوب، فعن أبي جعفر عليه السلام في الصَّحيح: «**ما منْ عَبْد إلا وَفي قَلْبه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ فَإذا أَذْنَبَ ذَنْباً خَرَجَ في النُّكْتَة نُكْتَةٌ سَوْداءُ، فَإنْ تاب ذَهَبَ ذلكَ السَّوادُ، وَإنْ تَمادى في الذُّنوب زادَ ذلكَ السَّوادُ حَتَّى يُغَطّيَ الْبَياضَ، فَإذا غُطّيَ الْبَياضُ لَمْ يَرْجِعْ صاحبُهُ إلى خَيْر أَبَداً، وَهُوَ قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾**(2)»(3).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**كُلُّ مَوْلود يولَدُ على الْفطْرَة، فَأَبواهُ يُهَوِّدانه، أَوْ يُنَصِّرانه، أَوْ يُمَجِّسانه**»(4).

٣- العمل بمقتضيات الإيمان: وهو من الأسس المهمّة في ثبات الإيمان؛ فعن محمّد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سألتُه عن الإيمان، فقال: **شَهادَةُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وَالإقْرارُ بما جاءَ منْ عنْد الله، وَما اسْتَقَرَّ في الْقُلوب منَ التَّصْديق بذلكَ**»، قال: «قلْتُ: الشَّهادة أليست عملاً؟ قال: **بلى**، قلْتُ: العمل من

---

(١) المطفّفين: ١٤.

(٢) المطفّفين: ١٤.

(٣) الكافي: ٣/٦٧٦-٦٧٧، ح/٢٤٣٠.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ١٢/١٠٤، ح/٧١٨١؛ ينظر: كتاب الخلاف للشّيخ الطّوسيّ: ٣/٥٩١.

الإيمان؟ قال: **نَعَمْ، الإيمانُ لا يَكونُ إلا بِعَمَلٍ، والْعَمَلُ مِنْه، ولا يَثْبتُ الإيمانُ إلا بِعَمَلٍ**»[(١)].

فمن آمن، ولم يعمل تزلزل إيمانه، ولعلَّ هذا مدلول الحديث المتقدّم: «**الإيمانُ عَمَلٌ كُلُّه**»[(٢)].

وعن النّبيّ ﷺ: «**الْعَمَلُ وَالإيمانُ شَرِيكانِ أَخَوانِ، لا يُقْبَلُ واحِدٌ مِنْهما إلا بِصاحِبِه**»[(٣)].

وعن يونس بن عبد الرّحمن، عن عجلان أبي صالح، قال: «قُلْتُ لأبي عبد الله عليه السلام: أوقفني على حدود الإيمان، فقال: **شَهادَةُ أَنْ لا إله إلا الله، وأَنَّ مُحَمَّداً رَسولُ الله، وَالإقْرارُ بِما جاءَ بِه مِنْ عِنْد الله، وَصَلاةُ الْخَمْس، وَأَداءُ الزَّكاة، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضانَ، وَحِجُّ الْبَيْت، ووَلايَةُ ولِيِّنا، وعَداوَةُ عَدُوِّنا، والدُّخولُ مَعَ الصّادِقين**»[(٤)].

الْفَرْقُ بَيْنَ الإِسْلامِ وَالإِيمانِ:

عن سَماعةَ قال: «قُلْتُ لأبي عبد الله عليه السلام: أخبرني عن الإسلام والإيمان أهما مختلفان؟ فقال: **إنَّ الإيمانَ يُشارِكُ الإسْلامَ، وَالإِسْلامَ لا يُشارِكُ الإيمانَ**، فقُلْتُ: فصِفْهما لي، فقال: **الإسْلامُ شَهادَةُ أَنْ لا إله إلا الله، وَالتَّصْديقُ بِرَسولِ الله ﷺ، بِه حُقِنَت الدِّماءُ، وَعَلَيْه جَرَت الْمَناكِحُ وَالْمَواريثُ، وَعَلى ظاهِرِه**

(١) الكافي: ٣/٩٩-١٠٠، ح/١٥٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣/٩١، ح/١٥٢١.

(٣) الذّهبيّ، ميزان الاعتدال: ١/٣١٢.

(٤) الكافي: ٣/٥٢، ح/١٤٩١.

جَماعَةُ النّاس، وَالإيمانُ الْهُدى، وَما يَثْبُتُ في الْقُلوب منْ صفَة الإسْلام، وَما ظَهَرَ منَ الْعَمَل به، وَالإيمانُ أَرْفَعُ منَ الإسْلام بدَرَجَة، إنَّ الإيمانَ يُشارِكُ الإسْلامُ في الظّاهر، وَالإسْلام لا يُشارِكُ الإيمانَ في الْباطن، وَإن اجْتَمَعا في الْقَوْل وَالصِّفَة»(١).

قال الإمَام الخمينيُّ قدس سره: «يظهر من هذا الحديث الشّريف أنَّ الشَّهادة بالوحدانيّة، والاعتقاد بالرّسالة هو الإسلام، وأمّا الإيمان فهو نور هداية يتجلّى في القلب، وما هو صفة للإسلام لو ثبت في القلب، ووصل إليه فهو الإيمان، ولازم الإيمان العمل، ويظهر من الأحاديث الكثيرة أنَّ العمل بالأركان من الإيمان، وهذا ليس من جهة أنَّ للعمل بالأركان دخلاً في حقيقة الإيمان، بل من جهة أنَّ لازمَ الإيمان العملُ بالأركان كما ذُكرَ من قبل»(٢).

ووردت أحاديث أخرى أوضحت الفرق من حيث العمل والإقرار، فعن محمّد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال: «**الإيمانُ إقْرارٌ وَعَمَلٌ، وَالإسْلامُ إقْرارٌ بلا عَمَلٍ**»(٣).

وتفريق آخر من حيث الآثار: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**الإسْلامُ يُحْقَنُ به الدَّمُ، وَتُؤَدّى به الأَمانَةُ، وَتُسْتَحَلُّ به الْفُروجُ، وَالثَّوابُ عَلَى الإيمان**»(٤).

وهكذا يتبيّن أنَّ الإسلامَ يَفْرُقُ عن الإيمان من حيث العمل، فمن أَسْلَمَ قُبلَت شهادَتُهُ، وحُفظَ دمه وحرمته، والإيمان عمل، وتصديق، ويقين.

---

(١) الكافي: ٧٢/٣، ح/١٥١١.

(٢) جنود العقل والجهل: ٨٠-٨١

(٣) الكافي: ٦٩/٣، ح/١٥٠٦.

(٤) المصدر نفسه، ح/١٥٠٥.

وقد يكون الإسلامُ ما استقرَّ من عقائد، وأفكار، ومفاهيم، وأحكام في العقل، ولم تنزل إلى عالم القلب، ولم تصل مرحلة التَّطبيق؛ وأمّا الإيمان فهو حالة دخول تلك العقائد، والأحكام، والمفاهيم إلى القلب، وامتزاج الفكر بالعاطفة حتّى تتحوّل إلى طبع، وعادة، وسلوك يتجسّد في أخلاق الإنسان الاجتماعيّة والفرديّة، فيكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[1].

وهكذا يتبيّن أنَّ الايمان إذا دخل في القلب، وتفاعل معه، ووعى لوازمه، تحقَّق، وهذه مرحلة متأخّرة عن الإسلام الَّذي هو إقرار بالتَّوحيد، واعترافٌ بالنّبوّة.

الْيَقِينُ الإيمانُ كُلُّهُ:

قال الرّاغب الأصفهانيّ: «اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدّراية وأخواتها، يُقال: عِلْمُ يقينٍ، ولا يقال: مَعْرِفَةُ يقينٍ»[2].

وقال الشّيخ الطّريحيّ في مجمع البحرين: «واليقين العلم وزوال الشّكّ، وربّما عبّروا بالظّنّ عن اليقين، وباليقين عن الظّنّ»[3].

وفي تفسير الميزان: «واليقين: هو اشتداد الإدراك الذّهنيّ بحيث لا يقبل الزّوال والوهن»[4].

إذن اليقينُ لغةً: هو العلم بالشّيء علماً قطعيّاً لا شكَّ، ولا تردُّدَ فيه بحيث

---

(١) الحجرات: ١٤.

(٢) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٧٥٧، (يقن).

(٣) الشّيخ فخر الدّين الطّريحيّ، مجمع البحرين: ٦/٣٣١.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ٢/٢٤٨.

إنَّ المُوقِنَ يدركه في ذهنه، ويراه في عينه، ويلمسه في يده، وتلك هي المراتب الثّلاثة الَّتي أكدها العلماء، وذكرها القرآن الكريم.

علم اليقين: وهو الاعتقاد الَّذي يصل حدّ الجزم والقطع بلا تردّد، ويحصل من الاستدلال باللّوازم والملزومات، فقد ضربوا له مثلاً بالاستدلال على النّار بمشاهدة الدّخان.

وعين اليقين: وهو حالة الرّؤية للشّيء المطلوب بالبصر، والبصيرة، وهذه المرتبة أوضح وأجلى من سابقتها، ومثّلوا لها بوجود النّار عند رؤيتها عياناً.

وحقُّ اليقين: «وهو العلم الحاصل بالاتّصال المعنويّ لأهل الشُّهود والفناء في الله، وهذه المرتبة هي الدّرجة العليا، والمنزلة الفضلى الّتي سألها الدّاعي عليه السلام»[1].

ثمَّ إنَّ اليقين أشرف الفضائل الخلقيّة وأهمّها، وأفضل الكمالات النّفسيّة وأعظمها؛ فالموقن بالله تعالى: هو الَّذي أوكل أموره كلّها لله تعالى، وتجرَّد عمَّن سواه، وسلّم إليه حتّى عاد لا يرى مؤثّراً في الوجود إلا الله عز وجلّ، «**فَلا يَرْجو إلا فَضْلَهُ، وَلا يَخْشى إلا عَدْلَهُ، وَلا يَعْتَمِدُ إلا قَوْلَهُ، وَلا يَتَمَسَّكُ إلا بِحَبْلِه**»[2]، ولا يطلب حاجة من سواه، ولا يلجأ إلى غيره، ولا يأمل إلا رحمته، ولا يطلب إلا رضوانه، وقد أوجز الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله هذه المعاني جميعاً بقوله:

«**يا عَلِيُّ، إنَّ الْيَقِينَ أَنْ لا تُرْضيَ أَحَداً عَلى سُخْطِ الله، وَلا تَحْمَدَنَّ أَحَداً عَلى ما آتاكَ اللهُ، وَلا تَذُمَّنَّ أَحَداً عَلى ما لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، فَإِنَّ الرِّزْقَ لا**

(١) ينظر: السّيّد علي خان، رياض السّالكين: ٣/٢٧٥-٢٧٦.

(٢) اقتباس من ألفاظ دعاء يوم الأحد من الصّحيفة السّجاديّة.

يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيص، وَلا يَصْرِفُهُ كُرْهُ كاره، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بحكْمَته وَفَضْله جَعَلَ الرّوحَ وَالْفَرَجَ في الْيَقينِ وَالرِّضا، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ في الشَّكِّ وَالسُّخْط»[1].

تلك هي َحقيقة اليقين: أنْ يعلمَ الإنسانُ علماً قطعيّاً لا شكَّ ولا تردّد فيه أنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الَّذي خلقه، وصوَّره، وعدله، وبيده مقاديره، وسعادته وشقائه... فإنْ أيقن المرءُ بأنَّ عينَّ الله عزَّ وجلّ ترقبه، ويده تقوّمه... ولا مؤثّر غيره، فلا يمكن أن يمدّ يده إلى سواه، يقول تعالى عن لسان أكرم عباده صلى الله عليه وآله: ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[2].

وعلى لسان موسى عليه السلام حين قيل له: ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۞ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾[3].

ومن خلال عرض معاني الإيمان واليقين وبيانهما اتّضح لنا دور النّيّة والعمل، فلا نريد أن ندخل في تفصيلها في هذه الأوراق، ولها محل آخر إن شاء الله تعالى.

---

(١) الشّيخ الصّدوق، التّوحيد: ٣٧٥-٣٧٦.

(٢) التّوبة: ٤٠.

(٣) الشّعراء: ٦١-٦٢.

الْعِبادَةُ

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: **أَفْضَلُ النّاس مَنْ عَشقَ الْعبادَةَ، فَعانَقَها، وأَحَبَّها بقَلْبه، وَباشَرَها بجَسَده، وتَفرَّغَ لَها، فَهوَ لا يُبالي عَلَى ما أَصْبَحَ منَ الدُّنْيا عَلَى عُسْرٍ أَمْ عَلَى يُسْرٍ**»[1].

العبادة لغةً: هي غاية الخضوع والتّذلّل، وهي أبلغ من العبوديّة، لأنَّه لا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى[2]؛ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿**أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ**﴾[3].

واصطلاحاً في الإسلام: هي التّوجّه، والخضوع، والطّاعة المطلقة لله، والتَّسليم المحض له تعالى بامتثال أوامره، والانتهاء عن نواهيه، والكدح المتواصل؛ لنيل رضوانه جَلَّ وعَلا.

وبعبارة أخصر: هي حركةٌ اختياريّةٌ واعيةٌ من الخَلق إلى الخالق، أو قل: إنَّها «حركة الوجود النّاقص نحو الوجود الكامل الَّذي لا نهاية له»[4]، وهذه إحدى درجات العبادة، ولها درجات أخرى أعلى منها، وأرفع درجاتها: أن يفني العبد

---

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٢١٥/٣، ح/١٦٧٠.

(٢) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن للرّاغب الأصفهانيّ: ٤٤١، (عبد)؛ ومجمع البحرين للشّيخ الطّريحي: ٩٥/٣، (عبد).

(٣) الرّعد: ٢، فصّلت: ١٤، الأحقاف: ٢١.

(٤) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٣٢/١٧.

إرادته فيما يحبّ، وفيما يكره في إرادة الله، فلا يملك لنفسه مع الله نفعاً، ولا ضرّاً، ولا موتاً، ولا حياةً، ولا نشوراً؛ وهذا المعنى صعب المنال لا تدركه إلا نفوسٌ ترسَّخت العقيدة الإلهيّة فيها، فسمت، وزكت، وتطهّرت من أرجاس الدُّنيا وأدران الذُّنوب، وبذلك تحرَّرت من قيود العادات والتَّقاليد والأعراف، «**عَظُمَ الْخالِقُ في أَنْفُسِهِمْ، فَصَغُرَ ما دونَهُ في أَعْيُنِهِمْ**»[١]؛ قال آية الله العظمى المرحوم السّيّد السّبزواريّ قُدِّسَ سِرُّه: «العبادة خضوع خاصٌّ ناشئ عن الاعتقاد بأنَّ للمعبود عظمةً، ولا يُحيط بها العقل في المعبود الحقيقيّ؛ لعدم وصول الإدراك إلى عظمته فضلاً عن ذاته... ثمَّ إنَّ العبادة هي التّوجّه إلى المعبود في القيام بما جعله من الوظيفة، وإتيان المطلوب الَّذي أراده من العبد»[٢].

ورأى آية الله العظمى السّيّد محمّد حسين فضل الله قُدِّسَ سِرُّه أنَّ العبادة معنى في الرّوح، وسرّ في القلب، ونشاط في الجسد، وحركة في الحبّ[٣].

وقال المفسّر العلامة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائيّ قُدِّسَ سِرُّه: «فحقيقة العبادة نصب العبد نفسه في مقام الذّلّة والعبوديّة، وتوجيه وجهه إلى مقام ربّه»[٤] بنيّة خالصة، ورغبة في نيل رضاه تعالى؛ فعن خيثمة بن عبد الرّحمن الجعفيّ قال: «سأل عيسى بن عبد الله القميّ أبا عبد الله عليه السلام وأنا حاضر، فقال: ما العبادة؟ قال: **حُسْنُ النِّيَّةِ بِالطّاعَةِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذي يُطاعُ اللهُ مِنْهُ**»[٥].

---

(١) نهج البلاغة: ٣٣٢، خطبة: ١٩٣.

(٢) السّيّد عبد الأعلى السّبزواريّ، مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن: ٣٨/١-٣٩.

(٣) السّيّد محمّد حسين فضل الله، آفاق الرّوح: ٢٢٠/١.

(٤) السّيّد محمّد حسين الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٣٨٨/١٨.

(٥) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٢٤٠.

الْعِبادَةُ حاجَةٌ أَساسِيَّةٌ في حَياةِ الإِنْسانِ:

للإنسان جانبان جانبٌ ماديٌّ، وجانبٌ معنويٌّ، و بعبارة أخرى: هو روح وجسد، أو سرٌّ وعلن... ولكلّ من الجانبين حاجات، وشروط ولوازم له لا بدَّ من توفّرها وتوازنها في سير الإنسان إلى الله، ومن دونها لا يمكن أن يستمرّ وجوده في الحياة بصورة سليمة وسعيدة، فإذا استغرق السّائر في متطلّبات جانب على حساب جانب آخر اختلَّ توازنه، وفقد استقامته، فكما أنَّ للجسد حاجةً كالأكلِ، والشّربِ، والدّواءِ، والماءِ، والهواءِ، فكذلك لا بدَّ للرّوح من لوازم وحاجات أساسيّة إذا فقدت حدث خلل في توازنه؛ وأهمُّ حاجات الرّوحِ العبادةُ، وهي حاجة أساسيّة فطريّة ثابتة «لا يؤثّر فيها عنصر الزّمن مطلقاً، ولا تقبل النّسخ والتّغيير»[1].

وهذه الحاجة أساسيّة في كلّ عصر، وفي كلّ مصر، ولكلّ إنسان مهما كان؛ فهي «حاجةٌ ثابتةٌ في حياة الإنسان خُلقَت معه، وظلّت ثابتةً في كيانه على الرّغم من التّطوّر المستمرّ في حياته؛ لأنَّ العلاج بصيغة ثابتة يفترض أنَّ الحاجة ثابتة»[2].

وفقدان هذه الحاجة الأساسيّة يؤدّي بالإنسان إلى القلق والاضطراب، بل إلى الضّياع، والتّذبذب، وربّما إلى الأمراض النّفسيّة، والرّوحيّة، والفكريّة؛ ولهذا نجد أنَّ الإنسان على طول خط التّأريخ البشريّ يفتّش دائماً عن معبود يعيش في ظلاله، ويستمدّ منه القوّة المعنويّة، ويسدّ فيه جوعته الرّوحيّة، قال الزّعيم الهنديّ جواهر لال نهرو: «أشعر أنَّ في روحي، وفي هذا العالم فراغاً لا يسدّه شيء إلا القضايا الرّوحيّة، وما هذا القلق والاضطراب الّذي يلفّ العالم إلا بسبب ضعف

---

(١) الشّهيد مرتضى مطهّري، الرّوح والنّور في القرآن الكريم: ٢٣-٢٤.

(٢) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، الفتاوى الواضحة: ٧٥٠.

البعد الرّوحيّ لدى بني الإنسان، والَّذي أدّى إلى بروز هذه الحالة من فقدان التّوازن»(١).

والعبادة في الإسلام عنصرٌ أساسيٌّ له الأولويّة - بعد الإيمان - على جميع التّعاليم الأخرى، فإذا صحَّ صحَّت، وإذا فسد فسدت؛ لأنَّ «العبادة من وجهة نظر الاسلام هي الهيكل العامّ لكلّ تعاليمه، ولها الصّدارة من بين تلك التَّعاليم، فإن كانت صحيحة صحَّت على أثرها جميع القضايا الاجتماعيّة والأخلاقيّة، والعكس صحيح أيضاً، ولا تصدّقوا أنَّ المرء يكون صالحاً في الجانب الاجتماعيّ والأخلاقيّ، وغير صالح في الجانب العباديّ»(٢).

الْعِبادَةُ سِرُّ الْخَلْقِ:

إنَّما خلق الله الخلق ليعبدوه، يقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٣).

فالعبادة لله بعد معرفته علّة إيجاد الإنسان، وسرّ وجوده، هذا السّرّ هو خضوع الإنسان لله خضوعاً مطلقاً بامتثال أوامره، والانتهاء عن نواهيه، والالتزام بما وضعه من أحكام، وبما سَنَّهُ من قوانين، فلا يمكن للإنسان أن يعرف سرَّ وجوده، وعلّة إيجاده إلا إذا عَبَدَ اللهَ عن إيمان، ومعرفة، ووعي، وإخلاص؛ فعن جميل بن درّاج، قال: «قلْتُ لأبي عبد الله عليه السلام: جُعِلْتُ فداك، ما معنى قول الله عز وجلّ: ﴿ وَمَا

---

(١) الرّوح والنّور في القرآن الكريم: ٢٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢٩.

(٣) الذّاريات: ٥٦.

خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾؟ فقال: خَلَقَهُمْ لِلْعِبادَةِ»[١].

وهذا السّرُّ هو عهد تكوينيٌّ وُضِعَ في فطرة الإنسان منذ لحظة تكوينه، فمنذ خلق الله الخلق أخذ عهده عليهم أن يتّخذوه ربّاً، ويعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾[٢].

وهذا العهد هو العهد الفطريُّ الّذي غرسه الله في أعماق الإنسان منذ خلقه، ومن هنا جاء العتاب الإلهيّ لبني آدم حين حادوا عن طريق الصّواب، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[٣].

الْعِبادَةُ تَحَرُّرٌ وَانْطِلاقٌ:

كثيرة هي العبوديّات الّتي تسترقّ الإنسان كعبوديّة الهوى، والشَّيطان، والظّالمين، والمناصب، والكراسي، والأموال... الخ، ولا يمكن أن يتحرّر من هذه العبوديّات المحدودة ما لم يعرف الله تعالى، ويعبده بوعي، قال الإمام الحسين عليه السلام: «أَيُّها النّاسُ، إِنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ ما خَلَقَ الْعِبادَ إِلا لِيَعْرِفوهُ، فَإِذا عَرَفوهُ عَبَدوهُ، فَإِذا عَبَدوهُ اسْتَغْنَوا بِعِبادَتِهِ عَنْ عِبادَةِ مَنْ سِواهُ»[٤].

والإسلام حين شَرَّعَ العبادةَ حَدَّدَ لها أحكاماً خاصّةً، وحركات، وألفاظاً موقوفة لا يجوز أن يزيد فيها، ولا يُنقص منها، وكلّ حركة ولفظ له دلالة تربويّة

---

(١) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٦١.

(٢) الأعراف: ١٧٦.

(٣) يس: ٦٠.

(٤) علل الشّرائع: ٥٦.

روحيّة يعود أثرها على العابد نفسه في بناء شخصيّته بتنمية عنصر الخوف والخشية والحبّ والرّجاء لله في نفسه، وتصعيد روح التَّضحية بمصالحه الذّاتيّة، وتجاوز الذّات، وبذلك يكون عابداً حقّاً، ففي حديث المعراج: «**يا أَحْمَدُ، هَلْ تَدْري مَتى يَكونُ الْعَبْدُ عابداً؟ قالَ: لا يا رَبِّ، قالَ: إذا اجْتَمَعَ فيه سَبْعُ خصال: وَرَعٌ يَحْجزُهُ عَنِ الْمَحارمِ، وَصَمْتٌ يَكُفُّهُ عَمّا لا يَعْنيه، وَخَوْفٌ يَزْدادُ كَلَّ يَوْمٍ من بُكائه، وحَياءٌ يَسْتَحْيي منْهُ في الْحَلال، ويَأْكُلُ ما لا بُدَّ منْهُ، ويَبْغَضُ الدُّنْيا لبُغْضي لَها، ويُحِبُّ الأَخْيارَ لحُبّي إيّاهُمْ**»[١].

وهكذا يتّضح «أنَّ الإسلام إذ يؤكّد على هذه الممارسات العباديّة، فلا يؤكّد عليها بما هي أصوات، وحركات، وطقوس.. وإنّما ينبع تأكيده عليها، لصلته الوثيقة بالارتباط النَّفسيّ والرّوحيّ بالله سبحانه.. أي بوصفها عاملاً تربويّاً، وسبباً من أسباب تصعيد الإيمان في المشاعر، والعواطف، والإرادة. فهذا الحثُّ الأخلاقيّ والتّشريعيّ يكشف عن (صلة واقعيّة) بين الممارسات العباديّة والمحتوى الدّاخليّ للشَّخصيّة الإسلاميّة، وهي صلة لا يمكن عمليّاً - بموجبها - أن نتصوّر مستوى روحيّاً جيّداً، من دون ممارسة عباديّة جادّة، تتمثّل في مجموعة من الحركات العباديّة والأذكار والصّلوات - المستحبّة بالطَّبع - وهكذا تلاوة القرآن الكريم، ومتابعة الأدعية، وما شاكل ذلك»[٢].

ثمّ إنَّ «العبادات تقوم بدور كبير في هذه التّربية الضّروريّة؛ لأنَّها - كما مرَّ بنا - أعمالٌ يقوم بها الإنسانُ من أجل الله سبحانه وتعالى، ولا تصحُّ إذا أدّاها العابد

---

(١) الدّيلميّ، إرشاد القلوب: ٣٨١/١.

(٢) الشّهيد الشّيخ حسين معن، نظرات في الإعداد الرّوحيّ: ٩٢.

من أجل مصلحة من مصالحه الخاصّة، ولا تسوغ إذا استهدف من ورائها مجداً شخصيّاً، وثناء اجتماعيّاً، وتكريساً لذاته في محيطه وبيئته، بل تصبح عملاً محرّماً، يعاقب عليه هذا العابد»[1].

وفي الإسلام يعدُّ «العمل فاضلاً ونبيلاً إذا تجاوزت دوافعُهُ الذّاتَ، وكان في سبيل الله، وفي سبيل عباد الله، وبقدر ما يتجاوز الذّات، ويدخل سبيل الله وعباده في تكوينه يسمو العمل، وترتفع قيمته»[2].

وما أجمل ما فسَّر به السّيّد الشّهيد الصّدر قُدِّسَ سِرُّهُ معنى سبيل الله بأنَّه ما وقع خالصاً لله في سبيل خدمة الإنسانيّة، فقال قُدِّسَ سِرُّهُ: «وسبيل الله هو التَّعبير التّجريديّ عن السّبيل لخدمة الإنسان؛ لأنَّ كلَّ عمل من أجل الله فإنَّما هو من أجل عباد الله؛ لأنَّ الله هو الغنيُّ عن عباده، ولمّا كان الإله الحقّ المطلق فوق أيّ حدّ، وتخصيص، لا قرابة له لفئة، ولا تحيّزَ له إلى جهة، كان سبيله دائماً يعادل من الوجهة العمليّة سبيل الإنسانيّة جمعاء، فالعمل في سبيل الله ومن أجل الله هو العمل من أجل النّاس، ولخير النّاس جميعاً، وتدريب نفسي وروحي مستمرٌّ على ذلك.

وكلّما جاء سبيل الله في الشَّريعة أمكن أن يعني ذلك تماماً سبيل النّاس أجمعين، وقد جعل الإسلام سبيل الله أحد مصارف الزّكاة، وأراد به الإنفاق لخير الإنسانيّة ومصلحتها، وحثَّ على القتال في سبيل المستضعفين من بني الإنسان، وسمّاه قتالاً في سبيل الله، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ

(١) الفتاوى الواضحة: ٧٦٢.

(٢) المصدر نفسه: ٧٦٤.

﴿وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ... ﴾[(١)]»[(٢)].

والعبادة سبيل التّحرّر؛ لأنَّها رفضٌ لكلّ المطلقات الوهميّة في كلّ لفظ من ألفاظها، قال الشّهيد الصّدر قُدِّسَ سِرُّه: «ونلاحظ أنَّ العبادات الرَّشيدة بوصفها تعبيراً عمليّاً عن الارتباط بالمطلق يندمج فيها عمليّاً الإثبات والرَّفض معاً، فهي تأكيد مستمرٌّ من الإنسان على الارتباط بالله تعالى، وعلى رفض أيّ مطلق آخر من المطلقات المصطنعة، فالمصلّي حين يبدأ صلاته بـ «الله أكبر» يؤكّد هذا الرَّفض، وحين يقيم في كلّ صلاة نبيَّه بأنَّه عبده ورسوله، يؤكّد هذا الرَّفض، وحين يُمْسك عن الطّيّبات، ويصوم حتّى عن ضرورات الحياة من أجل الله متحدّياً الشَّهوات، وسلطانها يؤكّد هذا الرَّفض»[(٣)].

إذن العبادة لله عز وجلّ سبيل التّحرّر من كلّ القيود الدّاخليّة في النّفس من الأهواء، والشّهوات، والنّزوات المادّيّة والمعنويّة، ومن القيود الخارجيّة كالخضوع للطّغاة من شياطين الإنس، والجنّ بكلّ أشكالهم.

كُلُّ عَمَلٍ في سَبيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبادَةٌ:

العبادات في الإسلام محدّدة، ولها أحكامها الخارجيّة، ولا يصحّ للإنسان أن يزيدَ فيها، أو ينقصَ منها، أو يُغَيِّرَ بعضها، وإنّما يجب أن يؤدّيها كما أمره الله عز وجلّ في كتابه، وسنّة نبيه، فهي أمور توقيفيّة على حدّ تعبير الفقهاء، وهذا عامٌّ في كل العبادات كالصَّلاة، والصَّوم، والحجّ، والزَّكاة... الخ؛ وهذه العبادات لا

---

(١) النّساء: ٧٥.

(٢) الفتاوى الواضحة: ٧٦٢.

(٣) المصدر نفسه: ٧٦٠.

يكفي عنها شيءٌ في كلّ زمان، وفي كلّ مكان، ولكلّ إنسان، ولا تُتْرَكُ بحال إذا توفّرت شروطُها، ولوازمُها.

والعبادة في المصطلح الفقهيّ ما كانت مشروطة بنيّة القرب، فلا تكون العبادة صحيحة إلا إذا توفرت فيها نيّة القربة، وأمّا الأعمال الأخرى غير العباديّة فلا يشترط فيها ذلك، وهو ما يعبّر عنها بـ«التّوصّليّات»[1]، ولكن يمكن أن يجعلها الإنسانُ عبادةً إذا نوى فيها نيّة القربة، أي قصد بها وجه الله عز وجلّ دون غيره.

إذن كلُّ عمل يمكن أن يجعله الإنسان عبادة إذا ابتغى به وجه الله عزَّ وجلّ كالنّوم، والأكل، والنّكاح، والسّفر... الخ، فجميع شؤون الإنسان يمكن أن تكون عبادةً لله وهو الأفضل كما جاء في وصية رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر رحمه الله: «**يا أَبا ذَر، لِيَكُنْ لَكَ في كُلِّ شَيْءٍ نِيَّةٌ، حَتّى في النَّوْمِ وَالأَكْلِ**»[2].

والسّرُّ في ذلك أنَّ الإنسان حين يكون عملُهُ خالصاً لوجه لله يبقى منشدّاً في كلّ حركاته وسكناته لله عزَّ وجلّ ذاكراً له تعالى، وبذلك تصبح حياتُه عبادةً دائمةً، ومن هنا عدَّت كثيرٌ من الأحاديث أنَّ العبادةَ هي النّيّةُ الحسنةُ؛ فعن أبي بصير قال: «سألْتُ أبا عبد الله عليه السلام عن حدّ العبادة الّتي إذا فعلها فاعلُها كان مؤدّياً؟ فقال: **حُسْنُ النِّيَّة بالطّاعَة**»[3].

وقال عليه السلام: «**إنَّ اللهَ يَحْشُرُ النّاسَ عَلى نِيّاتِهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ**»[4].

---

(١) التّوصّليّ من الأعمال ما لا يشترط في صحّته نيّة القربة.

(٢) الحرّ العامليّ، تفصيل وسائل الشّيعة: ٤٨/١، ح/٩٠.

(٣) الكافي: ٢٢٠/٣، ح/١٦٧٨.

(٤) البرقيّ، المحاسن: ٤٠٩/١، ح/٩٢٩.

وعنه عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: نيّةُ الْمُؤْمن خَيْرٌ منْ عَمَله، ونيَّةُ الْكافر شَرٌّ منْ عَمَله، وكُلُّ عامل يَعْمَلُ على نيَّته**»[١].

وقال عليه السلام: «**النِّيَّةُ أَفْضَلُ مِن الْعَمَلِ، أَلا وإِنَّ النِّيَّةَ هِيَ الْعَمَلُ**»[٢].

أَبْعادُ الْعِبادَةِ للّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ:

لعبادة الله أبعادٌ كثيرة تشمل جميع نواحي حياة الإنسان الفرديّة، والاجتماعيّة، والبدنيّة، والنّفسيّة، والمادّيّة، والمعنويّة... فما من عبادة إلا وهي تعالج حالة من حالات الإنسان، وتسدّ حاجة من حاجاته، ونحن نذكر بعض أبعادها بصورة مختصرة:

١- على المستوى الفرديّ: فإنَّ العبادةَ تعالج جميع جوانب الحياة الفرديّة، فمن النّاحية الصّحّيّة فإنَّ العبادةَ مشروطةٌ بالطّهارة البدنيّة الخَبثيّة والحَدثيّة، ومن دونهما لا تصحّ العبادة كما هي في الصّلاة، والصّيام، والحجّ... الخ؛ ومعلوم أنَّ هذا الالتزام له مردود صحّيٌّ جيّد على بدن الإنسان، وإن لم يكن هو المقصود من العبادة، ولا يجوز أن يقصدهُ الإنسان لذاته، كما جاءت روايات أهل بيت العصمة عليهم السلام مؤكّدةً لأهمّيّة النّظافة في الحديث المشهور: «**النَّظافَةُ مِنَ الإيمان**»[٣]، وفي حديث آخر: «**صوموا تَصِحّوا**»[٤].

وقد أثبت العلمُ الحديث أنَّ للصّوم فوائد صحّيّةً جيّدةً، فهو دورةٌ تطهّر

(١) الكافي: ٢١٩/٣، ح/١٦٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ٤٦/٣، ح/١٤٨٥.

(٣) بحار الأنوار: ٢٩١/٦٢.

(٤) الرّاونديّ، سلوة الحزين وتحفة العليل (الدّعوات): ٨٠، ح/٢٠٢.

البدن كما تطهّر الرّوح، ولعلَّ هذا معنى ما ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام: «**لكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ، وزَكَاةُ الأَجْسادِ الصَّوْمُ**»(١).

وأمّا أثر العبادة في الجانب النَّفسيّ، فإنَّ العبادة تنقذ الإنسان من أخطر الأمراض، وأفتكها في حياة الإنسان، وهو القلق الرّوحيّ، أو الفكريّ الَّذي عُدَّ في عصرنا من أخبث الأمراض النّفسيّة؛ لأنَّ العابد يوكل أمره إلى الله عز وجلّ، ويسلم نفسه إليه، فيرزقه الله الاطمئنانَ، والرّاحةَ في أشدّ الظروف، وأصعبها، من خلال لجوئه إليه تعالى، فممّا لا شكَّ فيه أنَّ العبادة إذا كانت عن إيمانٍ ووعيٍ، وأداء صحيحٍ وفق الموازين الشّرعيّة، فإنَّها تعالج جميع الأمراض النّفسيّة، يقول الله عز وجلّ: ﴿**إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ**﴾(٢).

فالصَّلاة إذن طاردة لحالة الهلع: «وهو أسوأ الجزع وأفحشه... [و]رجل هَلوعٌ إذا كان لا يصبر على خير ولا شرّ حتّى يفعل في كلّ واحد منهما غير الحقّ»(٣).

فالعبادة صمّامُ أمان من الأمراض النَّفسيّة الَّتي تفتك بالإنسان، وتجعله في حيرة وقلق لا يدري ماذا يفعل، وأمّا العابد لله، فإنَّه يرجع إليه في أيّ مصيبة، أو مشكلة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما أَهَمَّني ذَنْبٌ أُمْهِلْتُ بَعْدَهُ حَتّى أُصَلِّيَ**

(١) الكافي: ٣٧٠/٧، ح/٦٢٥٥.

(٢) المعارج: ١٩-٢٦.

(٣) ابن منظور، لسان العرب: ٣٧٤/٨-٣٧٥، (هلع).

رَكْعَتَيْنِ، وَأَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ»[١].

٢- ومن ناحية أخرى فإنَّ للعبادة دوراً في تنظيم أوقات الإنسان، فنحن إذا تأمّلنا في العبادات الإسلاميّة نرى أنَّ هناك عبادةً يوميّةً كالصّلاة الرّاتبة، وعبادةً أسبوعيّةً كصلاة الجمعة، وعبادةً سنويّةً كالحجّ والصّيام... فالعابد لله عزَّ وجلّ ينظّم أوقاته وفق هذا النّظام الكونيّ، ويضعه ضمن نظام دقيق يبدأ من أوّل يومه إلى ساعة نومه، فنظام العبادات إذن يضع الإنسان أمام نظام دقيق، وسلوكيّة مسؤولة، وهذا يعالج في الإنسان حالة الضّياع والتّذبذب؛ لأنَّ «التّحرّك الضّائع بدون مطلق تحرّك عشوائيّ كريشةٍ في مهبّ الرّيح، تنفعل بالعوامل من حولها، ولا تؤثّر فيها»[٢].

٣- على المستوى الاجتماعيّ: للإنسان في كدحه إلى الله عز وجلّ حركتان: حركة عموديّة تمثّل علاقتَه بربّه، وسعيَه لنيل رضاه، وهي الأساس في العبادة، ولكنَّ هذه الحركة لا تعني العزلة، والانزواء، والابتعاد عن المجتمع بحجّة التّفرّغ لعبادة الله تعالى، وإنّما من هذه الحركة تولد العلاقة الأفقيّة، وهي علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، قال الشّهيد الصّدر قدس سره: «العبادة في الأساس تمثّل علاقة الإنسان بربّه، وتمدّ هذه العلاقة بعناصر البقاء والرّسوخ، غير أنّها صيغت في الشّريعة الإسلاميّة بطريقة جعلت منها -في أكثر الأحيان أيضاً - أداة لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وهذا ما نقصده بالجانب الاجتماعيّ في العبادة»[٣].

ولو وقفنا عند كلّ فريضة عبادية لوجدنا أنَّ البعد الاجتماعيّ فيها متجسّدٌ

---

(١) نهج البلاغة: ٥٣٧، قصار الحكم: ٢٩٠.

(٢) الفتاوى الواضحة:٧٥٣

(٣) المصدر نفسه: ٧٢٩.

واضحٌ، فالصّلاة الّتي هي عبادةٌ فرديّةٌ شرّعت فيها صلاة الجماعة؛ لتتحوّل فيها العبادة الفرديّة إلى عبادة جماعيّة، ولعلَّه لهذا فُضّلت صلاة الجماعة على صلاة الفرد بكثير من الأجر والثّواب الخارج عن تصوّراتنا المحدودة، فركعة واحدة في جماعة تعادل عند الله من الثّواب ما لا تدركه العقول، ففي بعض الرّوايات في فضل صلاة الجماعة: «...**فَإنْ زادوا عَلى الْعَشَرَة فَلَوْ صارتْ السَّماواتُ كُلُّها مداداً، وَالأَشْجارُ أَقْلاماً، وَالثَّقَلان مَعَ الْمَلائكَة كُتّاباً لَمْ يَقْدروا أَنْ يَكْتُبوا ثَواب رَكْعَة واحدَة**»[1].

ولعلَّ التّأكيد على المشي إلى المساجد، وحضور الصّلاة فيها؛ لأجل تمتين العلاقة الاجتماعيّة بين المؤمنين، فقد روى الإمام الصّادق عليه السلام عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال لأحد أصحابه: «**يا فَضْلُ، إنَّهُ لا يَرْجعُ صاحبُ الْمَسْجد بأَقَلّ منْ إحْدى ثَلاث: إمّا دُعاء يَدْعو به يُدْخلُهُ اللهُ به الْجَنَّةَ، وَإمّا دُعاء يَدْعو به، فَيَصْرفُ اللهُ به عَنْهُ بَلاءَ الدُّنْيا، وَإمّا أَخ يَسْتَفيدُهُ في الله عَزَّ وَجَلَّ**»، قال: «**ثُمَّ قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: ما اسْتَفادَ امْرُؤٌ مُسْلمٌ فائدَةً بَعْدَ فائدَة الإسْلام مثْلَ أَخ يَسْتَفيدُهُ في الله**»، ثمَّ قال: «**يا فَضْلُ، لا تَزْهَدوا في فُقَراء شيعَتنا، فَإنَّ الْفَقيرَ منْهُمْ لَيَشْفَعُ يَوْمَ الْقيامَة في مثْل رَبيعَةَ وَمُضَر**»[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: «**مَن اخْتَلَفَ إلى الْمَسْجد، أَصابَ إحْدى الثَّمان: أَخاً مُسْتَفاداً في الله، أَوْ علْماً مُسْتَطْرَفاً، أَوْ آيَةً مُحْكَمَةً، أَوْ سَمعَ كَلمَةً تَدُلُّهُ عَلى الْهُدى، أَوْ رَحْمَةً مُنْتَظَرَةً، أَوْ كَلمَةً تَرُدُّهُ عَنْ رَدًى، أَوْ**

---

(١) موسوعة الشّهيد الثّاني (روض الجنان): ٥٩٤/١١؛ ينظر: جواهر الكلام للشّيخ الجواهريّ: ١٥٤/١٣.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، كتاب الأمالي: ٨١-٨٢؛ ينظر: ترتيب الأمالي للمحموديّ: ٤٨٠/٧، ح/٤٢٧٠.

يَتْرُكُ ذَنْباً خَشْيَةً أَوْ حَياءً»(١).

وأصرح من ذلك كلّه ما رُوِيَ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**عَلَيْكُمْ بالصَّلاة في الْمَساجِد، وَحُسْنِ الْجوار للنّاس، وَإقامَة الشَّهادَة، وَحُضور الْجَنائز، إنَّهُ لا بُدَّ لَكُمْ مِن النّاس، إنَّ أَحَداً لا يَسْتَغْني عَنِ النّاسِ حَياتَهُ، وَالنّاسُ لا بُدَّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ**»(٢).

والصّيام رغم كونه عبادةً فرديةً يمتنع فيها العبد عن تناول الطّيّبات والمباحات في شهر رمضان، أو الاستحباب في بعض الأيام، إلا أنَّ البعد الاجتماعيّ فيه أمر واضح من خلال ما أكّدته الأحاديثُ الشّريفة عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، حيث أوضحت أنَّ من حكمة الصَّوم خلقَ الإحساس بآلام الآخرين، ومشاركتهم فيما يعانونه من مصاعب الحياة؛ فقد سأل هشام بن الحكم أبا عبد الله عليه السلام عن علّة الصّيام، فقال: «**إنَّما فَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الصّيام؛ لِيَسْتَوِيَ بِهِ الْغَنيُّ وَالْفَقيرُ؛ وَذلكَ أَنَّ الْغَنيَّ لَمْ يَكُنْ لِيَجِدَ مَسَّ الْجوعِ، فَيَرْحَمَ الْفَقيرَ؛ لأَنَّ الْغَنيَّ كُلَّما أَرادَ شَيْئاً قَدِرَ عَلَيْه، فَأَرادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ خَلْقِه، وَأَنْ يُذيقَ الْغَنيَّ مَسَّ الْجوعِ وَالأَلَم؛ لِيَرِقَّ عَلى الضَّعيف، فَيَرْحَمَ الْجائعَ**»(٣).

وفي حديث آخر عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام في بيان علّة الصَّوم، قال: «...**لِيَعْلَمَ شِدَّةَ مَبْلَغِ ذلكَ مِنْ أَهْلِ الْفَقْرِ وَالْمَسْكَنَةِ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ**»(٤).

---

(١) الشّيخ الطّوسيّ، النّهاية: ١٠٨.

(٢) الكافي: ٦٧٩/٤، ح/٣٥٩٨.

(٣) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٧٣/٢، ح/١٧٦٦.

(٤) المصدر نفسه، ح/١٧٦٧.

وكتب حمزة بن محمّد إلى أبي محمد عليه السلام: «لِمَ فرض الله الصّوم؟»، فورد في الجواب: «**لِيَجِدَ الْغَنِيُّ مَسَّ الْجوعِ، فَيَمُنَّ عَلى الْفَقيرِ**»[١].

وظاهر من فحوى الأحاديث أنَّ الإسلامَ يريد أن ينمّي الرّوحَ الاجتماعيّة في المسلم، ويخلق فيه روح التّعاطف مع الآخرين، ولعلَّ من هذا الباب ما ورد في استحباب تفطير الصّائمين لما فيه من بعد اجتماعيّ، جاء في الحديث الشريف، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**وَمَنْ فَطَّرَ فيه مُؤْمِناً صائِماً كانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ بِذلِكَ عِتْقُ رَقَبَةٍ، وَمَغْفِرَةٌ لِذُنوبِهِ فيما مَضى**»، فقيل: «يا رسول الله، ليس كلّنا يقدر على أن يفطّر صائماً»، فقال: «**إِنَّ اللهَ كَريمٌ يُعْطي هذا الثَّوابَ لِمَنْ لا يَقْدِرُ إِلا عَلى مَذْقَةٍ**[٢] **مِنْ لَبَنٍ يُفَطِّرُ بِها صائِماً، أَوْ شَرْبَةِ ماءٍ عَذْبٍ، أَوْ تَمَراتٍ لا يَقْدِرُ عَلى أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ**»[٣].

كلّ ذلك لأنَّ الإطعام في سبيل الله عزّ وجلّ يخلق روح الألفة بين المؤمنين، ويمتّن الرّوابط الاجتماعيّة بينهم.

والحجُّ عبادة جماعيّة تبرز فيها النّاحية الاجتماعيّة من خلال معظم شعائره ومناسكه، بل جميعها، فالإحرام لباسٌ موحّد يجسّد المساواة الاجتماعيّة، ويبعّد الإنسان عن التّمايز الطّبقيّ، والطّواف حركة ضمن الرّكب العباديّ السّائر إلى الله بلا تمييز بين حاكم ومحكوم، وبين حرّ وعبد، وبين امرأة ورجل، وبين غنيّ وفقير، والسَّعي حركة موحّدة باتّجاه واحد يوحّد بين المسلمين، والوقوف بعرفة، واللّقاء

---

(١) المصدر نفسه، ح/١٧٦٨.

(٢) قال الفيّوميّ: «مذقْتُ: اللّبن والشّراب بالماء»، المصباح المنير: ٥٦٧، (مذق)؛ وقال ابن منظور: «المذقة: الشّربة من اللّبن الممذوق»، لسان العرب: ٣٤٠/١٠، (مذق).

(٣) موسوعة الشّيخ المفيد (المقنعة): ٣٠٦/١٥-٣٠٧.

الَّذي يتمُّ بين المؤمنين في جوّ مفعم بذكر الله، وطافح بالضّراعة والخشوع له، كلّ ذلك يعطي هذه العبادة بعداً اجتماعيّاً، وهكذا بقية الشَّعائر والمناسك، فضلاً عن اللّقاءات الّتي تتمّ بين المسلمين من مختلف أنحاء المعمورة حيث يحصل التّلاقح الفكريّ، والتّرابط العقائديّ، والتّآلف الاجتماعيّ من خلال تَعَرُّف بعض المسلمين على بعض، وما يعانون من مشاكل ومصاعب، واللافت للنّظر أنَّ علماء تصنيف الحديث وضعوا أحكام العشرة والصّحبة في باب الحجّ، ولعلَّ هذا التّصنيف لما تنطوي عليه فريضة الحجّ من بعد اجتماعيّ؛ فعن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: **«كانَ أَبي يَقولُ: ما يُعْبأُ مَنْ يَؤُمُّ هذا الْبَيْتَ إذا لَمْ يَكُنْ فيه ثَلاثُ خصال: خُلُقٌ يُخالِقُ بِه مَنْ صَحِبَهُ، أَوْ حِلْمٌ يَمْلِكُ بِه مِنْ غَضَبِه، أَوْ وَرَعٌ يَحْجُزُه عَنْ مَحارِمِ الله»**(١).

وهكذا نجد البعد الاجتماعيّ في الفرائض الإسلاميّة الأخرى كلّها كالزَّكاة، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، و«نلاحظ أنَّ العلاقة الاجتماعيّة تتواجد غالباً بصورة وأخرى إلى جانب العلاقة العباديّة بين الإنسان العابد وربّه في ممارسة عباديّة واحدة، وليس ذلك إلا من أجل التّأكيد على أنَّ العلاقة العباديّة ذات دور اجتماعيّ في حياة الإنسان، ولا تعتبر ناجحة إلا حين تكون قوّةً فاعلةً في توجيه ما يواكبها من علاقات اجتماعيّة توجيهاً صالحاً.

ويبلغ الجانب الاجتماعيّ من العبادة القمّة في ما تطرحه العبادة من شعارات تشكّل على المسرح الاجتماعيّ رمزاً روحيّاً لوحدة الأمة، وشعورها بأصالتها، وتميّزها، فالقبلة أو بيت الله الحرام شعار طرحته الشَّريعة من خلال ما شرّعت من

---

(١) الكافي: ٨/٢٦٠، ح/٦٩٩٥.

عبادة وصلاة، ولم يأخذ هذا الشعار بعداً دينيّاً فحسب، بل كان له أيضاً بعده الاجتماعيّ بوصفه رمزاً لوحدة هذه الأمة وأصالتها»[١].

كَيْفَ يُنَمّي الإِنْسانُ مَشاعِرَ الْعُبودِيَّةِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ؟

من الحقائق الإسلاميّة أنَّ العبادة «امتدَّت إلى كلّ قطاعات النّشاط الإنسانيّ، فالجهاد عبادة، وهو نشاط اجتماعيٌّ، والزّكاة عبادة، وهي نشاط اجتماعيٌّ ماليٌّ، والخمس عبادة، وهو نشاط اجتماعيٌّ ماليٌّ أيضاً، والصّيام عبادة، وهو نظام غذائي، والوضوء والغسل عبادتان، وهما لونان من تنظيف الجسد؛ وهذا الشّمول في العبادة يعبّر عن اتّجاه عامّ في التّربية الإسلاميّة، يستهدف أن يربط الإنسان في كلّ أعماله ونشاطاته بالله تعالى، ويحوّل كلّ ما يقوم به من جهد صالح إلى عبادة مهما كان حقله ونوعه»[٢].

ولكن كيف ينمّي الإنسان هذا الإحساس والشّعور؛ ليجعلَ من جهده الجسديّ، والماليّ، والفكريّ عبادةً، ونقصد بمشاعر العبوديّة: كلّ ما يُشْعِرُ الإنسانَ بالفقر والخضوع والخشوع والذّلّة والحاجة لله تعالى، ويبعث في نفسه الخوف والخشية والمسكنة له تعالى، ويعمّق في نفسه الحبّ والشّوق والتّلهّف إليه تعالى، وبالنّتيجة ينعكس في سلوكه تضرّعاً، واستغفاراً، وذكراً، تسبيحاً، وتكبيراً، وتهليلاً، ودعاءً، وتوسّلاً، وإحساساً بالقصور والتّقصير في معرفته وعبادته، فمهما بلغ العبد من الكمال في معرفة الله وعبادته يبقى شاعراً بالتّقصير والقصور، وهذا

---

(١) الفتاوى الواضحة: ٧٧٨-٧٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ٧٧١-٧٧٢.

الحبيب المصطفى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ أكمل خلق الله بالله معرفة وأكثرهم عبادة قال: «**ما عَبَدْناكَ حَقَّ عبادَتك، وَما عرَفْناكَ حَقَّ مَعْرِفَتك**»(١)، وقال: «**لا أُحْصي ثَناءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَما أَثْنَيْتَ عَلى نَفْسِكَ**»(٢).

تلك المشاعر كلّها يمكن أن تتحقّق من خلال:

١- استشعار الرّقابة والهيمنة الإلهيّة في حالاته كلّها سواء كان بالذّكر، والدّعاء، والمراقبة لخواطر النّفس، وارداتها، فالمؤمن يشعر بأنَّ الله تعالى معه في حلّه، وترحاله وهو في عينه، يقول تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾(٣).

وهذا الشّعور بمعيّة الله ورقابته يعمّق الإحساس بالعبوديّة لله، ويدفعه لمواصلة السَّير والكدح نحو الله رغم كلّ الصّعاب والمحن، يقول عز وجلّ عن لسان كليم الله موسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ حين قيل له: ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾(٤) من قبل جيش فرعون حيث لا مفرَّ منه، فالجيش من خلفه والبحر من أمامه، ولكن من خلال شعوره بالمعيّة الإلهيّة واستشعاره العبوديّة لها أجاب بثقة واطمئنان: ﴿**كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾(٥)، وحين تظلمّ دنيا النّاس، وتطبق على حرب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ وهو وحيد فريد، لا ناصرَ له، ولا معين، إلا شخص مضطرب خائف، يقول له: ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾(٦).

---

(١) بحار الأنوار: ٢٣/٧١.

(٢) مسند الإمام أحمد: ١٤٧/٢، ح/٧٥١.

(٣) الحديد: ٤.

(٤) الشّعراء: ٦١.

(٥) الشّعراء: ٦٢.

(٦) التّوبة: ٤٠.

وكما أنَّ الشعور بمعية الله تمنح الإنسان القوّة والصّبر فهي تمنعه عن الوقوع في المخالفات الشّرعية مهما كانت، قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «أَيَكونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهور ما لَيْسَ لَكَ حَتّى يَكونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَك، متى غِبْتَ حَتّى تَحْتاجَ إلى دَليلٍ يَدُلُّ عَلَيْك، وَمَتى بَعُدْتَ حَتّى تَكونَ الآثارُ هِيَ الَّتي توصِلُ إِلَيْك، عَميَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقيباً»[١].

فمن استشعر برقابة الله عليه، وتأصَّلت في نفسه، واستحضرها في سلوكه حَكَمت جوارحه وجوانحه، وحصَّنه الله بهذا الشُّعور من الوقوع في المخالفات الشّرعيّة، قال أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء الصّباح: «مَنْ ذا يَعْرِفُ قَدْرَكَ فَلا يَخافُكَ، وَمَنْ ذا يَعْلَمُ ما أَنْتَ فَلا يَهابُكَ»[٢]، فلو عرف الإنسان قدرة الله عليه، واستشعر رقابته، تعمّق الخوف والخشية في نفسه، وهذا من أعظم الأمور الّتي تمنع الإنسان من الوقوع في المحرّمات الشّرعيّة.

ضرب لنا الإمام السّجّاد عليه السلام مثالاً لذلك، فقال: «إِنَّ رَجُلاً رَكِبَ الْبَحْرَ بِأَهْله، فَكُسِرَ بِهِمْ، فَلَمْ يَنْجُ مِمَّنْ كانَ في السَّفينَة إلا امْرَأَةُ الرَّجُلِ؛ فَإِنَّها نَجَتْ عَلى لَوحٍ مِنْ أَلْواحِ السَّفينَة حَتّى أَلْجَأَتْ عَلى جَزيرَة مِنْ جَزائِرِ الْبَحْر، وَكانَ في تِلْكَ الْجَزيرَة رَجُلٌ يَقْطَعُ الطَّريق، وَلَمْ يَدَعْ لله حُرْمَةً إِلا انْتَهَكَها، فَلَمْ يَعْلَمْ إِلا وَالْمَرْأَةُ قائِمَةٌ عَلى رَأْسه، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْها، فَقالَ: إِنْسِيَّةٌ أَمْ جِنِّيَّةٌ؟ فَقالَتْ: إِنْسِيَّةٌ، فَلَمْ يُكَلِّمْها كَلِمَةً حَتّى جَلَسَ مِنْها مَجْلِسَ الرَّجُلِ مِنْ أَهْله، فَلَمّا أَنْ هَمَّ بِها اضْطَرَبَتْ، فَقالَ لَها: ما لَكِ تَضْطَرِبينَ؟ فَقالَتْ: أَفْرَقُ[٣] مِنْ

(١) بحار الأنوار: ٢٢٦/٩٨.

(٢) المصدر نفسه: ٣٤١/٨٧.

(٣) الفَرَقُ: الخوف والفزع.

هذا، وأَوْمَأَتْ بيدها إلى السَّماء.

قالَ: فَصَنَعْت منْ هذا شَيْئاً؟ قالَتْ: لا وعزَّته، قال: فَأَنْت تَفْرَقين منْه هذا الْفرَقَ ولَمْ تَصْنَعي منْ هذا شَيْئاً، وإنَّمَا اسْتَكْرَهْتك اسْتكْراهاً، فَأَنا والله أَوْلى بهذا الْفرَق والْخوْف وأَحَقُّ منْك.

قالَ: فَقامَ، ولَمْ يُحْدثْ شَيْئاً، ورَجَعَ إلَى أَهْله، ولَيْسَتْ لَهُ همَّةٌ إلا التَّوْبَةُ والْمُراجعَةُ، فَبيْنا هوَ يَمْشي إذْ صادفَه راهبٌ يَمْشي في الطَّريق، فَحَميَتْ عَلَيْهما الشَّمْسُ، فَقالَ الرَّاهبُ للشّابِّ: ادْعُ الله يُظلَّنا بغَمامَة، فَقَدْ حَميَتْ عَلَيْنا الشَّمْسُ، فقالَ الشّابُّ: ما أَعْلَمُ أَنَّ لي عنْدَ ربِّي حَسَنَةً فَأَتَجاسَرَ عَلَى أَنْ أَسْأَلَهُ شَيْئاً، قالَ فَأَدْعو أَنا وتُؤَمِّنُ أَنْتَ، قالَ: نَعَمْ، فَأَقْبَلَ الرّاهبُ يَدْعو وَالشّابُّ يُؤَمِّنُ، فما كانَ بأَسْرَعَ منْ أَنْ أَظَلَّتْهما غَمامَةٌ، فَمَشَيا تَحْتَها مَليّاً[1] منَ النَّهار، ثُمَّ تَفَرَّقَت الْجادَّةُ جادَّتَيْن، فَأَخَذَ الشّابُّ في واحدَة، وأَخَذَ الرّاهبُ في واحدَة، فإذا السَّحابَةُ مَعَ الشّابِّ.

فَقالَ الرّاهبُ: أَنْتَ خَيْرٌ منّي، لَكَ اسْتُجيبَ ولَمْ يُسْتَجَبْ لي، فَأَخْبرْني ما قصَّتُكَ؟ فَأَخْبَرَهُ بخَبَر الْمرْأَة، فقالَ: غُفرَ لَكَ ما مَضى حَيْثُ دَخَلَكَ الْخَوْفُ، فَانْظُرْ كَيْفَ تَكونُ فيما تَسْتَقْبلُ»[2].

٢- المحافظة على طهارة النَّفس من أدران الذُّنوب، ومذامّ الأخلاق، وعلى طهارة الجسد من الأخباث والأحداث، وهو عامل فعّال في صفاء النَّفس، وسلامتها من الحَجب عن الله عزَّ وجلّ، فكلّما كان الإنسانُ طاهراً جسديّاً من الخبائث،

(١) المليّ: الطّائفة من الزّمان لا حدَّ لها.

(٢) الكافي: ١٧٨/٣-١٧٩، ح/١٦٠٦.

ونفسيّاً من الذُّنوب الموبقة، ومساوئ الأخلاق قَرَّبه ذلك إلى الله عزَّ وجلّ، فعن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قال: «**يا أَنس، أَكْثِرْ من الطَّهور يُزد الله في عُمرك، وإن اسْتَطَعْتَ أَنْ تكونَ باللَّيْلِ والنَّهارِ على طَهارةٍ فافْعَلْ، فإنَّك تكونُ إذا متَّ على الطّهارةِ شهيداً**»(١).

وعنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**يَقولُ اللهُ تَعالى: مَنْ أَحْدَثَ، ولَمْ يَتَوضَّأْ فَقَدْ جَفاني**»(٢).

والوضوء لم يكن مجرّد تنظيف للبدن، وإنَّما هو عمليّة استعداد وتهيّؤ للولوج في رحاب رحمة الله عزَّ وجلّ، والعيش بظلّها، فهو يقرّب الإنسان إلى الله إذا ابتغى مرضاته؛ ولذا ينبغي للإنسان عندما يتقدّم للماء كي يتوضّأ أن يستذكر رحمة الله، وفضله بهذا الماء، ورد في مصباح الشَّريعة المنسوب للإمام الصّادق عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: «**إذا أَرَدْتَ الطَّهارةَ والْوُضوءَ فتقدَّمْ إلى الماء تَقدُّمَك إلى رَحْمَة الله تَعالى، فإنَّ اللهَ تَعالى قَدْ جَعَلَ الْماءَ مِفْتاحَ قُرْبَته ومُناجاته، ودَليلاً إلى بساط خِدْمَته، وكَما أَنَّ رَحْمَةَ الله تُطَهِّرُ ذُنوبَ الْعباد، كَذلكَ النَّجاساتُ الظّاهرةَ يُطَهِّرُها الْماءُ لا غَيْر**.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا**﴾(٣)، وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾(٤)، فكَما أَحْيا به كُلَّ شَيْءٍ مِنْ نَعيمِ الدُّنْيا، كَذلكَ بِرَحْمَته وفَضْله

---

(١) الشّيخ المفيد، الأمالي: ٦٠؛ ينظر: جواهر الكلام: ١٨/١؛ ترتيب الأمالي: ٣٣٥/٦، ح/٣٠٠٩.

(٢) إرشاد القلوب: ١٣٠/١؛ جواهر الكلام: ١٨/١.

(٣) الفرقان: ٤٨.

(٤) الأنبياء: ٣٠.

جَعَلَ حَيَاةَ الْقَلْبِ، وَالطّاعات، وَالتَّفَكُّرَ في صَفاء الْماء، وَرقَّته، وَطُهْره، وبَرَكَته، ولَطيف امْتزاجه بكُلّ شَيْءٍ، واسْتَعْمَلَهُ في تَطْهيرِ الأَعْضاء الَّتي أَمَرَكَ اللهُ بتَطْهيرها»(١).

فالطَّهارة والوضوء إذن عمليّة تطهير ماديّ، ومعنويّ، يتقرّب بها العبد إلى الله عزَّ وجلّ، والتّقرّب إلى الله يخرج الإنسان من سيطرة الشَّيطان، «وما لم يحصل الخروج من أمّهات المذامّ الأخلاقيّة الَّتي هي مبدأ لفساد المدينة الفاضلة الإنسانيّة، ومنشأ للخطيئات الظّاهريّة والباطنيّة لم يجد السّالك طريقاً إلى المقصد، ولا سبيلاً إلى المقصود»(٢).

٣- التّأسّي بأكمل الخلق، والوعي لأنباء الرّسل صلوات الله عليهم أجمعين:

إنَّ الإنسان في سيره إلى الله عزَّ وجلّ يحتاج إلى مُعَلّمٍ مربّ، وهادٍ مرشد ما دام الطَّريق إلى الله محفوف بالعقبات، والأشواك، والمحن، والفتن، والصّعاب، والشّدائد، فلا بدَّ له أن يجعل له مثالاً يتأسّى به كي يواصل سيره، ولا توقفه تلك الصّعاب، ومن هنا أمر الله تعالى رسوله بالتّأسّي، والاقتداء بمن سبقه من الرُّسل، والأنبياء كنوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وإسحاق، ويعقوب، وداود، وسليمان، وأيّوب، ويوسف، وهارون، وزكريّا، ويحيى، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوطاً صلوات الله عليهم أجمعين الَّذين عبَّرت عنهم الآية الكريمة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾(٣)، ثمَّ عقَّبت الآية بعد ذكرهم بآية

---

(١) مصباح الشَّريعة: ١٢٨-١٢٩.

(٢) الإمام الخمينيّ، الآداب المعنويّة للصَّلاة: ١٥٣.

(٣) الأنعام: ٨٩

أخرى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

إنَّ الاستشعار بالسَّير في موكب النّبيّين، والاهتداء بهداهم يعمّق الشُّعور والإحساس بالعبوديّة لله، ومن هنا أمرنا الله تعالى أن نتأسّى برسوله الكريم ﷺ الَّذي مَثَّلَ أكمل عبوديّة لله على طول خط التّأريخ، قال عزَّ وجلّ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(٢).

وفي ذكر خليل الرَّحمن إبراهيم عليه السلام الَّذي استكمل التّوحيد والعبوديّة لله يقول عزَّ وجلّ: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾(٣).

فالتّأسّي إذن منهجٌ إسلاميٌّ لتعبيد الإنسان إلى الله، وتعميق الإحساس بالعبوديّة لله تعالى، ولعلَّ هذا سرٌّ من أسرار قصص الأنبياء في القرآن، يقول عز وجلّ: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤).

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٥).

---

(١) الأنعام: ٩٠.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) الممتحنة: ٤.

(٤) الأعراف: ١٧٦.

(٥) يوسف: ١١١.

٤- التّفكّر في نعم الله تعالى الّتي لا تعدُّ ولا تحصى كنعمة الخلق والوجود، ونعمة الجوارح، ونعمة الإيمان، والهداية، والولاية لأولياء الله، وهذا مدلول قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[1].

وقد كان رسول الله ﷺ يربّي أصحابه على تذكّر نعم الله تعالى، «فَقالَ: إنِّي لأَتخوَّلُكُمْ بالْمَوْعظَة تخوّلاً[2]، مَخافَةَ السَّآمَة عَلَيْكُمْ، وَقَدْ أَوْحى إلَيَّ رَبّي جَلَّ وَتَعالى أَنْ أُذَكِّرَكُمْ بالنِّعْمَة، وَأُنْذرَكُمْ بما اقْتَصَّ عَلَيْكُمْ منْ كتابه، وَتَلا: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ﴾[3] الآيَة، ثُمَّ قالَ لَهُمْ: قولوا الآنَ قَوْلَكُمْ: ما أَوَّلُ نعْمَة رَغَّبَكُمُ اللهُ [فيها] وَبَلاكُمْ بها؟

فَخاضَ الْقَوْمُ جميعاً، فَذَكَروا نعَمَ الله الّتي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَأَحْسَنَ إلَيْهِمْ بها منَ الْمَعاش، وَالرِّياش[4]، وَالذُّرِّيَّة، وَالأَزْواج إلى سائر ما بَلاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ به منْ أَنْعُمه الظّاهرَة، فَلَمّا أَمْسَكَ الْقَوْمُ أَقْبَلَ رَسولُ الله ﷺ على عَليٍّ ؏، فَقالَ: يا أَبا الْحَسَن، قُلْ، فَقَدْ قالَ أَصْحابُكَ، فَقالَ: فَكَيْفَ لي بالْقَوْل، فداكَ أَبي وَأُمّي، وَإنَّما هَدانا اللهُ بكَ.

قالَ: وَمَعَ ذلكَ فَهات، قُلْ ما أَوَّلُ نعْمَة بَلاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْعَمَ عَلَيْكَ بها؟

قالَ: أَنْ خَلَقَني جَلَّ ثَناؤُهُ، وَلَمْ أَكُ شَيْئاً مَذْكوراً.

---

(١) النّحل: ١٥.

(٢) يتخوّل: يتعهّد.

(٣) لقمان: ٢٠.

(٤) الرّياش: اللّباس الفاخر.

قالَ: صَدَقْتَ، فَما الثّانيةُ؟

قالَ: أَنْ أَحْسَنَ بي إذ خَلَقَني، فَجَعَلَني حَيّاً لا مَواتاً.

قالَ: صَدَقْتَ، فَما الثّالثةُ؟

قالَ: أَنْ أَنْشأَني - فَلَهُ الْحَمْدُ - في أَحْسَنِ صورَةٍ، وَأَعْدَلِ تَرْكيبٍ.

قالَ: صَدَقْتَ، فَما الرّابعَةُ؟

قالَ: أَنْ جَعَلَني مُتَفَكّراً واعياً، لا بُلْهاً ساهياً.

قالَ: صَدَقْتَ، فَما الْخامسَةُ؟

قالَ: أَنْ جَعَلَ لي شَواعِرَ أُدْرِكُ ما ابْتَغَيْتَ بِها، وَجَعَلَ لي سِراجاً مُنيراً.

قالَ: صَدَقْتَ، فَما السّادسَةُ؟

قالَ: أَنْ هَداني لِدينِه، وَلَمْ يُضِلّني عَنْ سَبيلِه.

قالَ: صَدَقْتَ، فَما السّابعَةُ؟

قالَ: أَنْ جَعَلَ لي مَرَدّاً في حَياةٍ لا انْقِطاعَ لَها.

قالَ: صَدَقْتَ، فَما الثّامنَةُ؟

قالَ: أَنْ جَعَلَني مَلِكاً مالِكاً لا مَمْلوكاً.

قالَ: صَدَقْتَ، فَما التّاسعَةُ؟

قالَ: أَنْ سَخَّرَ لي سَماءَهُ وَأَرْضَهُ، وَما فيهِما، وَما بَيْنَهُما مِنْ خَلْقِه.

قالَ: صَدَقْتَ، فَما الْعاشرَةُ؟

قالَ: أَنْ جَعَلَنا سُبْحانَهُ ذُكراناً قُوّاماً عَلى حَلائِلِنا لا أُناثاً.

قالَ: صَدَقْتَ، فَما بَعْدَ هذا؟

قالَ: كَثُرَتْ نعمُ اللهِ يا نَبيَّ اللهِ وَطابَتْ، وتَلا: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾(١)، فَتَبَسَّمَ رَسولُ اللهِ ﷺ، وَقالَ: لتَهْنئكَ الْحكْمَةُ، ليَهْنئكَ الْعلْمُ يا أَبا الْحَسَنِ، أَنْتَ وارثُ علْمي، والْمبيِّنُ لأُمَّتي ما اخْتَلَفَتْ فيه منْ بَعْدي، مَنْ أَحبَّكَ لدينكَ، وأَخَذَ بسبيلكَ، فَهُوَ ممَّنْ هُديَ إلى صراط مُسْتَقيم، وَمَنْ رَغَبَ عَنْ هَواكَ، وأَبْغَضَكَ، وتَخَلاكَ لَقيَ اللهَ يوْمَ الْقيامَة لا خَلاقَ لَهُ»(٢).

الْعِبادَةُ الْمَصْلَحِيَّةُ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۞ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۞ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾(٣).

هذه حالة من حالات التّذبذب في النّاس، فكثير من النّاس يريد أن ينال الدُّنيا بعمل الآخرة، ويتعامل مع الإيمان، والعبادة لله تعالى تعاملاً تجاريّاً، تعامل الرّبح والخسارة، وهذه نتيجة اعتناق الدّين اعتناقاً مصلحيّاً يطلب من ورائه ربحاً دنيويّاً، فإذا ما حصل له ما يأمل ثبت عليه، واستمرَّ ملتزماً به، فإذا ما واجهَتْهُ عواصف المحن، ارتدَّ عن الإيمان إلى الكفر.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ أي طرف أو جانب من جوانب الدّين،

---

(١) النّحل: ١٨.

(٢) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٧٢٦-٧٢٧؛ ينظر: ترتيب الأمالي: ٣٦٢/٦-٣٦٣، ح/٣٠٤٩.

(٣) الحجّ: ١١-١٣.

وهي استعارة تمثيليّة لحالة المُعْتَنق لرسالة الله من دون وعي، وإخلاص، اعتناقاً متزلزلاً، فهو ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي «على طرف من الدّين لا في وسطه وقلبه؛ وهذا مثلٌ لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة، كالَّذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحسَّ بظفر وغنيمة قرَّ واطمأنَّ، وإلا فرَّ وطار على وجهه»[١]، أو كمن يريد أن يقف على طرف حبل سائب معلّق في الهواء! فكيف يكون حاله؟ لا شكَّ أنَّه يبقى مضطرباً قلقاً لا يقرّ له قرار؛ لأنَّه لم يقف على أرض صلبة.

وقد اختلفت الأقوال في نزول هذه الآية، فقيل: إنَّها نزلت في رجال كانوا يقدمون المدينة؛ ليُسْلموا، فإن أصابوا خيراً اطمأنّوا، وإن أصابتهم محنة ارتدّوا، روى البخاريّ عن ابن عبّاس رَحِمَهُ اللهُ قال: «كان الرّجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً، ونُتِجَتْ خيله، قال: هذا دينٌ صالحٌ، وإن لم تلد امرأته، ولم تُنْتَجْ خيله، قال: هذا دين سوء»[٢].

وعن أبي سعيد الخُدريّ، قال: «أسلم رجل من اليهود، فذهب بصره، وماله، وولده، وتشاءم بالإسلام، فأتى النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فقال: أقلني، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: **إنَّ الإسْلامَ لا يُقالُ**، فقال: إنّي لم أصب في ديني هذا خيراً، ذهب بصري، ومالي، ومات ولدي، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: **يا يَهوديُّ، الإسْلامُ ليَسْبكُ الرّجالَ كما تَسْبكُ النّارُ خَبَثَ الْحَديد، والْفضَّة، والذَّهَب**»، قال: «ونزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍ﴾»[٣].

---

(١) الزّمخشريّ، الكشّاف: ١٤٦/٣.

(٢) صحيح البخاريّ: ٢٤٢/٥.

(٣) الواحديّ، أسباب نزول القرآن: ٥٠١؛ وينظر: الدّرّ المنثور للسّيوطيّ: ٤٢٨/١٠-٤٢٩.

وعلى كلّ حال فمورد الآية لا يختصُّ بمورد النّزول، وإنَّما هو عامٌّ لكلّ زمان ومكان، وهذه الحالة تتكرّر على مرّ الأزمان، ثمّ تبيّن الآية عاقبة هذا الإنسان القلق المضطرب في عقيدته، وهي الانقلاب، والارتداد عن دين الله تعالى بعد أن تصيبه المحن، فلم يصبر عليها، والنتيجة هي خسران الدّنيا؛ لعدم صبره، واستقامته، وخسران الآخرة؛ لكفره، ونفاقه، وارتداده...

إنَّنا لا بدَّ من أن نعلمَ أنَّ الانتماء للإسلام، والارتباط بخطّ الأنبياء عليهم السلام لم يكن مجرّد ألفاظ تُردّد على الألسن، أو طقوس تؤدّى بالعضلات، وإنَّما هو عقيدة، ورسالة تتبعها مسؤوليّات جسام، وتكاليف ثقيلة، فهو عمليّة كدح متواصل، وليس حالة ترف مؤقّتة، وما لم يتسلّح المؤمنُ بالإيمان الرّاسخ القائم على أساس العلم، والتّبصّر في دين الله لم يصبر عليه، ولا يستطيع المواصلة، والاستمرار، والثّبات، والاستقامة على ما أمره الله تبارك وتعالى؛ «لأنَّ الشّرط عليه من الله أن يؤدّي المفروض بعلم، وبصيرة، ويقين، كي لا يكون ممّن وصفه الله، فقال تبارك وتعالى: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ** ﴾؛ لأنَّه كان داخلاً فيه بغير علم، ولا يقين، فلذلك صار خروجه بغير علم ولا يقين.

وقد قال العالم[١] عليه السلام: «**مَنْ دَخَلَ في الإيمان بعلْمٍ ثَبَتَ فيه، ونفعهُ إيمانُهُ، ومَنْ دَخَلَ فيه بغَيْر علْم، خَرَجَ منهُ كما دَخَلَ فيه**».

وقال عليه السلام: «**مَنْ أَخَذَ دينَه منْ كتابِ الله، وَسُنَّة نَبيِّه - صَلَواتُ الله عَلَيْه**

(١) المقصود من (العالم) الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، وهذا ما عليه كثير من أهل العلم وإن شكّك في ذلك المحدّث المجلسيّ.

وآله - زالت الْجبالُ قَبْلَ أَنْ يزولَ، ومَنْ أَخَذَ دينَهُ منْ أَفْواه الرِّجال، ردَّتْهُ الرّجالُ».

وقال عليه السلام: «**منْ لَمْ يَعْرفْ أَمْرَنا منَ الْقُرآن لَمْ يَتَنَكَّب الْفتنَ**»(١)»(٢).

ولهذا رأينا كثيراً ممّن تساقطوا في أوّل الطّريق، ومنهم من سقط في وسطه أو في آخره، وقليل هم الثّابتون.

ومن هنا منع الإسلام من التّقليد في العقيدة، وأوجب المعرفة بأصولها، معرفةً أساسها العلم، ونتاجها العمل... وسبيلها تحمّل مسؤوليّاتها، وما يستتبع عليه من تكاليف، فالاعتقاد الرّاسخ هو الرّكيزة الّتي تبتني بها شخصيّة المؤمن، فرسوخ الإيمان في قلب المؤمن يجعله صابراً محتسباً إزاء كلّ ما يصيبه في سبيل الله تعالى، ويرى في ذلك نفعاً كبيراً، وفوزاً عظيماً.

ولا يتحقّق الإيمان ما لم يكن عن بيّنة وبرهان، وأَخذ من الأبواب الّتي أمر الله عزَّ وجلّ أن يُدْخل منها، ويؤخذ عنها؛ فعن ابن أبي عُمَيْر، عن عمر بن أُذَيْنة، عن الفُضَيل وزُرارة، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزَّ وجلّ: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ**﴾ قال زرارة: «سألتُ عنها أبا جعفر عليه السلام، فقال: **هؤُلاء قَوْمٌ عَبدوا اللهَ، وَخَلَعوا عبادَةَ مَنْ يُعْبَدُ منْ دون الله، وَشَكّوا في مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، وَما جاءَ به،**

(١) قال المازندرانيّ: «تنكّبها تجنّبها، وتباعد عنها، يعني لا يقدر على العدول عنها، ولا يأمن الوقوع فيها؛ لأنّ فتنة الشُّبْهة والشُّكوك قد تزيله عن عقايده، وفيه دلالة على وجوب الاستدلال في الأُصول». شرح أصول الكافي: ٥٥/١.

(٢) الكافي: ١٤/١-١٥.

فتكلّموا بالإسْلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وأقرّوا بالْقُرْآن، وهُمْ في ذلك شاكّون في محمّد ﷺ وما جاء به، وليْسوا شكّاكاً في الله، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ يعْني على شكّ في محمّد ﷺ، وما جاء به، ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ﴾ يعْني عافيةً في نفْسه، وماله، وولده ﴿ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ﴾ ورضي به، ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ يعْني بلاءً في جسده، أوْ ماله تطيّر، وكره الْمقام على الإقْرار بالنّبيّ ﷺ، فرجع إلى الْوقوف والشّكّ، فنصب الْعداوة لله، ولرسوله، والْجحود بالنّبيّ، وما جاء به»[١].

وعن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن عليّ بن الحكم، عن موسى بن بكر، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «سألْتُه عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾، قال: هُمْ قوْمٌ وحّدوا الله، وخلعوا عبادة منْ يعْبد منْ دون الله، فخرجوا من الشّرْك، ولمْ يعْرفوا أنّ محمّداً ﷺ رسول الله، فهُمْ يعْبدون الله على شكٍّ في محمّد ﷺ وما جاء به، فأتوا رسول الله ﷺ، وقالوا: ننْظرُ فإنْ كثُرتْ أمْوالُنا، وعوفينا في أنْفسنا، وأوْلادنا علمْنا أنّه صادقٌ، وأنّه رسول الله، وإنْ كان غيْر ذلك نظرْنا، قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ﴾ يعْني عافيةً في الدّنْيا، ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ يعْني بلاءً في نفْسه وماله ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ انْقلب على شكّه إلى الشّرْك، ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا

(١) الكافي: ٤/١٩٥-١٩٦، ح/٢٩٢٠.

يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾.

قال: **«يَنْقَلِبُ مُشْرِكاً، يَدْعُو غَيْرَ اللهِ، وَيَعْبُدُ غَيْرَهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُ، فَيَدْخُلُ الإيمانُ قَلْبَهُ، فَيُؤْمِنُ، وَيُصَدِّقُ، وَيَزُولُ عَنْ مَنْزِلَتِهِ مِنَ الشَّكِّ إلى الإيمانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَثْبُتُ عَلى شَكِّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْقَلِبُ إلى الشِّرْكِ»**[1].

وخلاصة الكلام أنَّ الآية تصوّر أنموذجاً من النّاس يؤمنون بالإسلام إيماناً مرتبطاً بمصالحهم الدّنيويّة، وهذا الأنموذج لم يلامس الإيمانُ أعماقَ قلوبهم، بل بقيَ طافياً على السَّطح متزلزلاً، لا يقرّ له قرار، فإذا أصاب خيراً ركن، واطمأن، وهدأ، وإن أصابته محنة، أو واجهته عقبة أو مشكلة تراجع، وارتدَّ عن دينه، وهذا ينبئ أنّه أَخَذَ دينَهُ أَخْذَ تَقْلِيد، أو وراثة عن غير علم، ومعرفة، وبصيرة، فبقي يعيش على الهامش، ولم يغص إلى الأعماق.

ومن أسباب ذلك: الجهل بالرّسالة الإسلاميّة، وما يترتّب عليها من تكاليف ومسؤوليّات، وما تقف أمامها من عقبات وعوائق، وهذا شأن طلاب العافية ممّن يعيشون الاسترخاء في أرواحهم كما يعيشونه في أبدانهم، فهم طلاب عافية، وسلامة، وراحة في دنيا لم تخلق للرّاحة والاستقرار، وإنّما للعمل والابتلاء وللعبور إلى دار الخلود، وسرُّ اضطرابهم أنَّهم لم تمتدّ آفاقهم إلى ما هو أبعد من دنياهم:

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾[2].

ومن أسباب ذلك: الجهل بسنن الله في التّأريخ والمجتمع، فمن سنن الله أنَّ

---

(١) الكافي: ١٩٦/٤-١٩٧، ح/٢٩٢١.

(٢) المائدة: ٧١.

الصّراع بين الحقّ والباطل قائمٌ من أوّل الخليقة إلى يوم القيامة، ولا يمكن أن يتوقّف يوماً ما، ولمّا كان الإسلام هو الحقّ من دون غيره لا بدَّ وأن تقف بوجهه تيّارات الكفر، والشّرك، والنّفاق، وهذا يعني أنَّ الَّذي يحمل رسالة الله عليه أن يعي هذه الحقيقة، ولا يأمل أن يعيش بسلام في وسط الأهواء، والنّزوات المتصارعة، وتسلم له دنياه من كلّ ما يعكّر صفوها، فمن ظنَّ أنَّ مجرد الإيمان بالله، ورسوله يهيّئ له كلّ وسائل الحياة من دون صعاب فقد أخطأ الطَّريق، وسقط في صراعات الحياة؛ ولهذا جعل اللهُ الابتلاءَ والاختبارَ سنّةً من السّنن الّتي لا يفلت منها أحدٌ أبداً، يقول تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾(١).

ومن اعتقد أنَّه يحمل رسالة الله تعالى، ويسعى لتبليغها ونشرها وتحكيمها في الواقع الاجتماعيّ لنيل رضوان الله من دون معاناة وابتلاءات فقد أخطأ ظنُّه، يقول تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾(٢).

---

(١) العنكبوت: ١-٣.

(٢) البقرة: ٢١٤.

الصِّيامُ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[1].

الصّيام لغةً: هو «الإمساك عن الشّيء، والتّرك له، وقيل الصّائم صائم لإمساكه عن المطعم والمشرب والمنكح»[2].

واصطلاحاً: هو الكفُّ عن المفطرات مع نيّة التّقرّب الى الله، وهذا الإمساك - بما هو إمساك - امتثالاً لأمر الله من (لوازم العبوديّة) لله تعالى، فإذا أمسك العبد عن كلّ ما نهاه الله تعالى، قاصداً بذلك طلب رضوانه تعالى عنه فهو صائم لله تعالى؛ لأنَّ من لوازم (الوصول إلى الحياة الحقيقيّة) المعنويّة الكفّ عن جملة من الأمور المادّيّة، بل والتّرفّع عنها، والتّنزّه عن الملذّات الجسمانيّة لمن أراد الوصول إلى المقامات الرّوحيّة العالية بالتّقرّب من الواحد الأحد.

والإمساك المطلوب في الصيام الإسلاميّ ليس إمساكاً عن الطّعام والشّراب وحسب، وإنّما هو إمساك يشمل كلَّ جوارح الإنسان: العين، والأذن، واليد، والرّجل، واللّسان، بل والقلب، وقد ورد في الحديث الشّريف عن الإمام الصّادق عليه السلام: «**إِذا صُمْتَ فَلْيَصُمْ سَمْعُكَ، وبَصَرُكَ، وفَرْجُكَ، ولِسانُكَ، وتَغُضُّ**

---

(١) البقرة: ١٨٣.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ٣٥١/١٢، (صوم).

بَصَرَكَ عمّا لا يَحلُّ النَّظَرُ إلَيْه، وَالسَّمْعَ عمّا لا يَحلُّ اسْتماعُهُ إلَيْه، وَاللِّسانَ منَ الْكَذب وَالْفُحْش»(١).

وعنه عليه السلام أنَّه قال لمحمّد بن مسلم: «يا مُحَمَّدُ، إذ[ا] صُمْتَ فَلْيَصُمْ سَمْعُكَ، وَبَصَرُكَ، وَلسانُكَ، وَلَحْمُكَ، وَدَمُك، وَجِلْدُكَ، وَشَعْرُكَ، وَبَشَرُكَ، وَلا يَكونُ يَوْمُ صَوْمكَ كَيَوْمِ فطْرِكَ»(٢).

و في رواية أخرى: «إذا صُمْتَ، فَلْيَصُمْ سَمْعُكَ وَبَصَرُكَ منَ الْحَرامِ وَالْقَبيح، وَدَع الْمراءَ، وَأَذى الْخادم، وَلْيَكُنْ عَلَيْكَ وقارُ الصّيام، وَلا تَجْعَلْ يَوْمَ صَوْمكَ كَيَوْمِ فطْرِكَ»(٣).

وفي رواية مفصّلة عنه عليه السلام أشار فيها إلى بُعد آخر أشمل وأعمق في كيان الإنسان، وهو صوم الجوانح الَّذي عبَّر عنه بـ (صمت الدّاخل) حيث قال: «إنَّ الصِّيامَ لَيْسَ منَ الطَّعامِ وَالشَّراب وَحْدَهُ، إنَّما للصَّوْمِ شَرْطٌ يَحْتاجُ أَنْ يُحْفَظَ حَتّى يَتمَّ الصَّوْمُ، وَهُوَ صَمْتُ الدّاخلِ، أَما تَسْمَعُ ما قالَتْ مَرْيَمُ بنْتُ عُمْرانَ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾(٤) يَعْني صَمْتاً.

فَإذا صُمْتُمْ فَاحْفَظوا أَلْسنَتَكُمْ عَن الْكَذب، وَغُضّوا أَبْصارَكُمْ، وَلا تنازَعوا، وَلا تَحاسَدوا، وَلا تَغْتابوا، وَلا تَماروا، وَلا تَكْذبوا، وَلا تُباشروا، وَلا تُخالفوا، وَلا تَغاضَبوا، وَلا تَسابّوا، وَلا تَشاتَموا، وَلا تَفاتَروا، وَلا تُجادلوا،

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب الهداية: ١٨٩.

(٢) موسوعة الشّيخ المفيد (المقنعة): ٣١٠/١٤.

(٣) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٤٣٧/٧-٤٣٨، ح/٦٣٢٢.

(٤) مريم: ٢٦.

ولا تتأذّوا، ولا تظلموا، ولا تسافهوا، ولا تضاجروا، ولا تغفلوا عنْ ذكْر الله، وعنْ الصَّلاة.

والْزموا الصَّمْت، والسُّكوت، والْحلْم، والصَّبْر، والصِّدْق، ومجانبة أهْل الشَّرِّ.

واجْتنبوا قوْل الزّور، والْكذب، والْفري، والْخصومة، وظنَّ السّوء، والْغيبة، والنَّميمة.

وكونوا مشْرفين على الآخرة، منْتظرين لأيّامكمْ، منْتظرين لما وعدكم الله، متزوِّدين للقاء الله، وعليْكم السَّكينة، والْوقار، والْخشوع، والْخضوع، وذلّ الْعبيد الْخيِّف منْ موْلاه، خيِّرين، خائفين، راجين، مرْعوبين، مرْهوبين، راغبين، راهبين، قدْ طهَّرْت الْقلْب من الْعيوب، وتقدَّسْت سرائركمْ من الْخبث، ونظَّفْت الْجسْم من الْقاذورات، وتبرّأْت إلى الله منْ عداه، وواليت الله في صوْمك بالصَّمْت منْ جميع الْجهات، ممّا قدْ نهاك الله عنْه في السِّرِّ والْعلانية، وخشيْت الله حقَّ خشْيته في سرِّك وعلانيتك، ووهبْت نفْسك لله في أيّام صوْمك، وفرَّغْت قلْبك له، ونصبْت نفْسك له فيما أمرك، ودعاك إلْيه.

فإذا فعلْت ذلك كلَّه فأنْت صائمٌ لله بحقيقة صوْمه، صانعٌ له لما أمرك، وكلَّما نقَّصْت منْها شيْئاً فيما بيَّنْت لك، فقدْ نقص منْ صوْمك بمقْدار ذلك.

وإنَّ أبي عليه السلام قال: سمع رسول الله صلى الله عليه وآله امْرأةً تساب جاريةً لها، وهي صائمةٌ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله بطعام، فقال لها: كلي! فقالتْ: أنا صائمةٌ يا رسول الله! فقال: كيْف تكونين صائمةً، وقدْ سببْت جاريتك؟

إنَّ الصَّوْمَ لَيْسَ منَ الطَّعامِ وَالشَّراب، وَإنَّما جَعَلَ اللهُ ذلكَ حجاباً عَنْ سواهُما منَ الْفَواحِشِ منَ الْفعْلِ وَالْقَوْلِ يُفْطِّرُ الصّائم، ما أَقَلَّ الصُّوّامَ وَأَكْثَرَ الْجُوّاعَ؟»(١).

والصّوم استجارةٌ من عذاب الله تعالى، وحجابٌ يحجب الإنسان عن كلّ فاحشة مهما صغرت؛ فعن الصّادق جعفر بن محمّد، عن آبائه عليهم السلام، قال: «**قال رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: ما منْ عَبْد صالحٍ يُشْتَمُ، فَيَقول: إنِّي صائمٌ سَلامٌ عَلَيْكَ، لا أَشْتُمُكَ كَما شَتَمْتَني، إلا قالَ الرَّبُّ تبارَكَ وَتَعالى: اسْتَجارَ عَبْدي بالصَّوْمِ منْ شَرِّ عَبْدي، فَقَدْ أَجَرْتُهُ منَ النّار**»(٢).

وبناءً على هذه الأحاديث الشَّريفة يتبيّن لنا أنَّ الصّيام يستوعب كلّ كيان الإنسان، الجوارح والجوانح، فهو ليس امتناعاً عن الأكل والشرب، وإنما هو امتناعٌ عن كلّ ما يخالف دين الله تعالى، وهو بناءٌ تربويٌّ للفكر والأخلاق والسّلوك، وتطهيرٌ لروح الإنسان، وقلبه، وعقله، وضميره، وصحّة لبدنه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**صوموا تَصِحّوا**»(٣).

قال الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه: «**وَأَعِنّا عَلى صيامه بكَفِّ الْجَوارِحِ عَنْ مَعاصيكَ، وَاسْتعْمالها فيه بما يُرْضيكَ، حَتّى لا نُصْغيَ بأَسْماعنا إلى لَغْو، وَلا نُسْرِعَ بأَبْصارنا إلى لَهْو، وَحَتّى لا نَبْسُطَ أَيْدِيَنا إلى مَحْظورٍ، وَلا نَخْطُوَ بأَقْدامنا إلى مَحْجورٍ، وَحَتّى لا تَعيَ بُطونُنا إلا ما أَحْلَلْتَ،**

---

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٢٩٢/٩٦-٢٩٣.

(٢) الكافي: ٤٣٨/٧-٤٣٩، ح/٦٣٢٤.

(٣) الرّاونديّ، سلوة الحزين وتحفة العليل (الدّعوات): ٨٠ ح/٢٠٢.

ولا تَنْطقَ أَلْسنَتَنا إلا بما مَثَّلت، ولا نتكلَّفَ إلا ما يُدْني من ثوابك، ولا نَتَعاطى إلا الَّذي يَقي منْ عقابكَ، ثُمَّ خلِّصْ ذلكَ كُلَّهُ منْ رياء الْمُرائين، وسُمْعَة الْمُسْمعين، لا نُشْرِكُ فيه أَحَداً دونَك، ولا نَبْتَغي فيه مُراداً سواكَ»[1].

ولكنَّ هذا لا يتحقق إلا لمن توفّر على الشّروط الآتية:

١- معرفة المقام التّكريميّ الَّذي أعطاه الله للمؤمنين في هذا الشَّهر الشّريف، فقد أكرم الله تعالى فيه السّائرين إليه بالدَّعوة إلى ضيافته، فهو دار ضيافة الله عزَّ وجلّ؛ ولهذا يمكن القول: إنَّ الصّيامَ تشريفٌ يوجب لله شكراً على هذه النّعمة، قال الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه: «**والْحَمْدُ لله الَّذي حَبانا بدينه، واخْتَصَّنا بملَّته، وسَبَّلَنا في سُبُل إحْسانه... والْحَمْدُ لله الَّذي جَعَلَ منْ تلْكَ السُّبُل شَهْرَهُ رمضانَ، شهْرَ الصِّيام، وشهْرَ الإسْلام، وشهْرَ الطَّهور، وشهْرَ التَّمْحيص، وشَهْرَ الْقيام، ﴿الَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾**[2]، **فأبانَ فضيلَتَهُ على سائر الشُّهور بما جعلَ لهُ من الْحُرمات الْمَوْفورة، والْفضائل الْمَشْهورة، فحرَّمَ فيه ما أَحَلَّ في غَيْره إعْظاماً، وحجرَ فيه الْمطاعم والْمَشارب إكْراماً**»، إلى أن يقول عليه السلام: «**اللّهمَّ، صلِّ على مُحمَّد وآله، وأَلْهمْنا معْرفَةَ فضْله، وإجْلال حُرْمته، والتَّحفُّظَ ممّا حظَرْتَ فيه**»[3].

٢- أن يجتهد الإنسان في تصحيح نيّته، وتخليصها من جميع الشّوائب؛ لتتحقّق له تلك الفوائد، فإنَّ النّيّةَ شرطُ كلّ عمل عباديّ، جاء في الحديث القدسيّ عن النّبيّ صلى الله عليه وآله قال: «**قالَ اللهُ تباركَ وتَعالى: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ هُوَ لَهُ غَيْرَ**

(١) الصحيفة السّجّاديّة الكاملة: ١٦٦-١٦٧، دعاء: ٤٤.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ١٦٥-١٦٦، دعاء: ٤٤.

الصِّيامِ هُوَ لي، وَأَنا أُجْزي بِهِ...»(١).

إنَّ وقفة تأمّل دقيقة عند هذا الحديث القدسيّ تعرفنا أنَّ للصّيام خصائصَ لا تتوفّر في غيره من العبادات، فقوله تعالى: «**غَيْرَ الصِّيامِ هُوَ لي**» قد اختلف العلماء في الجواب عنه، فقيل في معناه:

أ- إنَّه أمر خفيٌّ وسرٌّ لا يمكن الاطّلاع عليه؛ وذلك شرف بخلاف العبادات الأخرى، فإنَّها ظاهرةٌ للعيان، فيمكن أن يقع فيها الرّياء، إلا الصَّوم فإنَّ الإخلاصَ فيه أوفر حظّاً من غيره من العبادات الأخرى، فالصّائم لا يَعْلم به أحدٌ أنَّه صائم إلا الله عزَّ وجلّ.

ب- إنَّ الصَّوم يوجب صفاء العقل، والفكر؛ لتضعيف القوّة الشّهويّة بسبب الجوع؛ ولذا قال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «**لا تَدْخُلُ الْحِكْمَةَ جَوْفاً مَليءٌ طَعاماً**»(٢)، وصفاء العقل والفكر يوجب حصول المعارف الرّبّانيّة الّتي هي أشرف أحوال النَّفس.

٣- أن يكون الصّائم في حالة إقبال دائم، وانفتاح على الله تعالى كاستحضار مراقبته، والتّفكّر في نعمه، والاشتغال بذكره، وأن يقلّل ما استطاع من الانشغال بأمور الدُّنيا التّافهة، وأن يُسلّمَ أمره لله تعالى خاضعاً، خاشعاً، منكسراً، خائفاً، داعياً اللهَ تعالى، متوسّلاً إليه أن يجعل عملَهُ خالصاً لوجهه الكريم.

قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «**اللّهُمَّ، اشْحَنْهُ بعبادَتنا إيّاكَ، وزَيِّنْ أَوْقاتَهُ بطاعَتنا لَكَ، وَأَعِنّا في نَهاره عَلى صيامه، وَفي لَيْله عَلى الصَّلاة، وَالتَّضرُّعِ إِلَيْكَ، وَالْخُشوعِ لَكَ، وَالذِّلَّة بَيْنَ يَدَيْكَ؛ حَتّى لا يَشْهَدَ نَهارُهُ عَلَيْنا بِغَفْلَةٍ،**

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٤٥، ح/٤٢.

(٢) موسوعة الشّهيد الأوّل (القواعد والفوائد): ٢٨٥/١٥.

ولا لَيْلَه بتَفْريط»[1].

٤- إضافةً إلى الانشغال بذكر الله تعالى، فعلى الإنسان أن يتخلّق بأخلاق الصّائم، وممّا يعين على ذلك:

أ- أن يجدَّ في تحسين أخلاقه مع أهله، ومع جميع النّاس، قال النّبيّ ﷺ: **«أَيُّها النّاسُ، مَنْ حَسَّنَ مِنْكُمْ في هذا الشَّهْرِ خُلُقَهُ كانَ لَهُ جَوازاً عَلى الصِّراطِ يَوْمَ تَزِلُّ فيه الأَقْدامُ»**.

ب- أن يحاول كفَّ غضبه، وشرّه عن النّاس، ويتّزن في انفعالاته، ويحافظ على هدوئه، قال رسول الله ﷺ: **«وَمَنْ كَفَّ فيه شَرَّهُ كَفَّ اللهُ عَنْهُ غَضَبَهُ يَوْمَ يَلْقاهُ»**.

ج- إكرام الأيتام، قال ﷺ: **«وَمَنْ أَكْرَمَ فيه يَتيماً أَكْرَمَهُ اللهُ يَوْمَ يَلْقاهُ»**.

د- أن يصل فيه رحمه، قال ﷺ: **«وَمَنْ وَصَلَ فيه رَحِمَهُ وَصَلَهُ اللهُ بِرَحْمَتِه يَوْمَ يَلْقاه، وَمَنْ قَطَعَ رَحِمَهُ قَطَعَ اللهُ عَنْهُ رَحْمَتَهُ يَوْمَ يَلْقاهُ»**.

هـ- أن يُفطّر الصّائمين، قال ﷺ: **«أَيُّها النّاسُ، مَنْ فَطَّرَ مِنْكُم صائماً مُؤْمِناً في هذا الشَّهْرِ كانَ لَهُ بذلكَ عِنْدَ الله عِتْقُ نَسَمَة، ومَغْفِرَةٌ لما مَضى مِنْ ذُنوبه»**، فقيل: «يا رسول الله، وليس كلُّنا يقدر على ذلك؟»، فقال ﷺ: **«اتَّقوا النّارَ وَلَوْ بشِقِّ تَمْرَة، اتَّقوا النّارَ وَلَوْ بشَرْبَة مِنْ ماء»**.

و- أن يكثرَ من التّطوّع بالصَّلاة والعبَادات الأخرى، قال ﷺ: **«وَمَنْ تَطَوَّعَ فيه بصَلاة كَتَبَ لَهُ بَراءةً مِنَ النّار، وَمَنْ أَدّى فيه فَرْضاً كانَ لَهُ ثَوابُ مَنْ أَدّى سَبْعينَ فَريضَةً فيما سِواهُ مِنَ الشُّهورِ»**.

---

(١) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ١٦٩، دعاء: ٤٤.

ز- أن يكثر من الصّلاة على النّبيّ صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ، قال صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «وَمَنْ أَكْثَرَ فيهِ مِنَ الصَّلاةِ عَلَيَّ ثَقَّلَ اللهُ ميزانَهُ يَوْمَ تَخِفُّ الْمَوازينُ».

ح- الإكثار من قراءة القرآن، قال صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**وَمَنْ تَلا فيهِ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ كانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ في غَيْرِهِ مِنَ الشُّهورِ**»[١].

آثارُ الصِّيامِ:

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ** ﴾[٢].

لكلّ فريضةٍ من فرائض الله تعالى على عباده أثرٌ في بناء شخصيّة الإنسان الممتثل، يظهر في أخلاقه، وسلوكه، وفكره شريطة أن يتوفّر في التزامه الوعي والإخلاص، ومن هذه الفرائض فريضة الصَّوم ولا سيّما صوم الشّهر المبارك، شهر الله، شهر الرَّحمة، والبركة، والمغفرة، فالخير والنَّفع يعود على الإنسان نفسه، فإنَّ الله عزَّ وجلّ غنيٌّ عن عبادة النّاس، فلا تنفعه طاعتهم، ولا تضرّه معصيتهم، ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ** ﴾[٣].

فمردود الصّيام وحصيلته للإنسان هو رجاء حصول التقوى، «فإنَّ كلَّ إنسان يشعر بفطرته أنَّ من أراد الاتّصال بعالم الطّهارة والرّفعة، والارتقاء إلى مدرجة

---

(١) هذه النصوص الشّريفة من الخطبة الشّعبانيّة لرسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ وقد نقلناها من كتاب مصنّفات الشّيخ الصّدوق (فضائل الأشهر الثّلاثة): ٤٣٠، ح/٦١، وأوردها الحرّ العامليّ في تفصيل وسائل الشّيعة: ٣١٣/١٠-٣١٤ ح/١٣٤٩٤.

(٢) البقرة: ١٨٣.

(٣) فاطر: ١٥.

الكمال والرّوحانيّة، فأوّل ما يلزمه أن يتنزّه عن الاسترسال في استيفاء لذائذ الجسم، وينقبض عن الجماح في شهوات البدن، ويتقدّس عن الإخلاد إلى الأرض، وبالجملة أن يتّقي ما يبعده الاشتغال به عن الرّبّ تبارك وتعالى»[١].

وآثار الصّوم تشمل جميع جوانب حياة الإنسان الرّوحيّة، والجسديّة، الفرديّة، والاجتماعيّة، فكما له آثارٌ على الفرد كذلك له آثار على المجتمع، ويمكن أن نذكر أهمّ الآثار، وهي:

١- **السّموّ الرّوحيّ:** حيث إنّ الإنسان عندما يمتنع عن تناول الملذّات لمدّة معيّنة فهو بذلك يتشبّه بالملائكة، ويتسامى من حضيض عالم البدن إلى سموّ سماء الرّوح.

٢- **تهذيب غرائز الجسد وتلطيفها:** حيث إنّ الصوم يجعل الدّافع الجنسيّ ضعيفاً؛ لامتناعه عن المواد المهيّجة مدّة من الزّمن؛ ولذا ورد في بعض الأخبار أنّ الصّيام يذلّل طغيان الشّهوات، ودليل ذلك «قوله عليه الصّلاة والسّلام لعثمان بن مظعون رحمه الله لمّا أراد الاختصاء والسياحة: «**خصاءُ أُمَّتي الصِّيامُ**»، وهذا القول مجازٌ؛ لأنّه عليه الصّلاة والسّلام أراد أنّ الصّيام يميت الشّهوات، ويشغل عن اللّذات، كما أنّ الخصاء في الأكثر يكسر النّزوة، ويقطع الشّهوة، وممّا يؤكد ذلك الخبر الآخر المرويّ عنه عليه الصّلاة والسّلام: «**مَن اسْتَطاعَ مِنْكُمُ الْباهَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْهُ فَلْيَصُمْ؛ فَإِنَّ الصَّوْمَ وَجاءٌ**»، والوجاء: الخصاء»[٢].

وعنه صلى الله عليه وآله: «**يا مَعْشَرَ الشَّبابِ، عَلَيْكُمْ بِالْباه، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطيعوهُ، فَعَلَيْكُمْ**

(١) العلامة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٨/٢

(٢) الشّريف الرّضيّ، المجازات النّبويّة: ٥٠-٥١.

بالصِّيام؛ فَإِنَّهُ وِجاؤُهُ»(١).

وقال الإمام الرّضا عليه السلام: «**وَلِيَكونَ الصّائِمُ خاشعاً، ذَليلاً، مُسْتَكيناً، مَأْجوراً، مُحْتَسباً، عارفاً، صابراً عَلى ما أَصابَهُ مِنَ الْجوعِ وَالْعَطَشِ، فَيَسْتَوْجِبَ الثَّوابَ مَعَ ما فيهِ مِنَ الإِمْساكِ عَنِ الشَّهَواتِ**»(٢).

٣- تقوية إرادة الصُّمود أمام الأزمات والمشاكل: ولذا جاء في بعض التّفاسير لقوله تعالى: ﴿**وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ**﴾(٣) أنَّ معنى الصَّبر هنا يعني الصَّوم، ولا شكَّ أنَّ الإنسان حينما يمتنع عن اللّذائذ البدنيّة، بل حتّى النّفسيّة امتثالاً لأمر الله تعالى، وطلباً لمرضاته فإنَّ الله تعالى يرزقه العزم، والبصيرة، ويعزّز في نفسه إرادة الصُّمود أمام المشاكل، والأزمات، والعقبات الّتي تعترض طريقه إلى الله تبارك وتعالى، ويرزقه الله الصَّبر على الطّاعات، والصّبر عن المعاصي، والصّبر في المصائب... وفي ذلك من الخير ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإنَّ العزم والإرادة هي الّتي تحقّق إنسانيّة الإنسان، وتسمو به إلى معارج الكمال الإنساني الرَّفيعة، فمن فَقَدَ إرادته فقد إنسانيّته، فالإرادة والعزم هي القوّة الّتي تميّز الإنسان بها عن غيره من المخلوقات.

٤- المواساة: وهذا أثرٌ اجتماعيٌّ حيث إنَّ الصَّوم واجب عامٌّ على كلّ مكلف سواء كان فقيراً، أو غنيّاً، والشّعور بألم الجوع والعطش والحرمان واحد عند الجميع؛ ولذلك سيشعر الغنيُّ بمرارة الجوع كما يشعر بها الفقير؛ فقد سأل

---

(١) الكافي: ٦٨٣/٧، ح/٦٧٠٠.

(٢) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٣٥٤/١.

(٣) البقرة: ٤٥.

هشام بن الحكم أبا عبد الله عليه السلام عن علّة الصّيام، فقال: «**إنّما فَرَضَ اللهُ عزَّ وجَلَّ الصّيامَ؛ ليَسْتَوي به الْغَنيُّ والْفقيرُ؛ وذلكَ أَنَّ الْغَنيَّ لَمْ يكُنْ ليَجدَ مَسَّ الْجوعِ، فَيَرْحَمَ الْفقيرَ؛ لأنَّ الْغَنيَّ كُلّما أَرادَ شَيْئاً قَدرَ عَلَيْه، فَأَرادَ اللهُ عزَّ وجَلَّ أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ خَلْقه، وأَنْ يُذيقَ الْغَنيَّ مَسَّ الْجوعِ والأَلَمِ؛ ليَرِقَّ على الضَّعيفِ، فَيَرْحَمَ الْجائعَ**»[١].

٥- **تركيز روح الإخلاص:** ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَرَضَ اللهُ... الصِّيامَ ابْتلاءً لإخْلاصِ الْخَلْقِ**»[٢]؛ لأنَّ الإنسان يمتنع عن الشَّهوات بمحض إرادته، واختياره، طاعةً لله تعالى، وطلباً لرضاه، وهذا يؤكّد روح الإخلاص، ويرسّخها في أعماق المؤمن ولا سيّما إذا تجرَّد عن كلّ دافع آخر، قالت الزّهراء عليها السلام: «**فَفَرَضَ... الصِّيامَ تَثْبيتاً للإخْلاصِ**»[٣].

٦- **تذكّر النّعم الإلهيّة:** قد يعيش الإنسان مدّة طويلة، وهو متمتّع بنعم الله تبارك وتعالى بلا حدود ولا قيود حتّى تصبح عنده كعادة اعتادها في نفسه، فلا يذكرها ما دام يعيش فيها، ويتلذّذ بها، فإذا حُرِمَ من الطَّعام والشّراب ولو لمدّة زمنيّة معيّنة سيعرف قيمة بعض النّعم الّتي مُنِعَ منها في هذه المدّة، فحين يشتدُّ به العطش يذكر نعمة الله في الماء، وفيما رزقه من الطّيّبات، وبذلك يتذكّر نعم الله خصوصاً النّعم المطلقة الّتي لا يشعر الإنسان بوجودها ما دامت متوفّرة تحت يده؛ فالصَّوم إذن عاملٌ أساسيٌّ في تذكّر نعم الله تعالى، وتذكّر النّعم الإلهيّة له دور

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٧٣/٢، ح/١٧٦٦.

(٢) نهج البلاغة: ٥٢٥، قصار الحكم: ٢٤٣.

(٣) علل الشّرائع: ٣٣٠/١.

كبير في تعميق الإيمان بالله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾(١).

٧- **الحكمة الصّحّيّة:** فقد ورد في الحديث الشّريف: «**صوموا تَصحّوا**»(٢)، وقد أثبت الطّبّ القديم والحديث أنّ الصَّوم يصفّي الجسم من كثير من سموم الأغذية والأدوية، قال ابن سينا: «وصفة الصَّوم تكفي لمدّة ثلاثة أسابيع، أو أكثر من الدواء».

وقال الطّبيب الأمريكي (كارلو): «إنَّ على كلّ إنسان مريض أن يمتنع عن الطّعام مدّةً كلَّ عام سواء كان غنياً أو فقيراً، لأنَّ الجراثيم ما دامت تجد الطَّعام أمامها متوفّراً في الجسم؛ فإنَّها تنمو وتتكاثر، ولكنَّها بالصَّوم تموت وتضعف».

وقال البروفيسور روبير توكيه، وهو يتحدّث عن النّظام الغذائيّ للإنسان: «قبل أن نقوم بذكر النّظام الغذائيّ الأنسب لكلّ حالة من الحالات المرضيّة المزمنة، لا بدَّ لنا من الإشارة إلى نقطة هامّة. ففي كلّ مرض، أكان حادّاً أو مزمناً، يلعب الصَّوم عن السّوائل، أو الصّوم الجزئيّ (المشفوع بشرب عصير بعض الفاكهة أو بتناول حساء من الخضار فقط) دوراً رائعاً، خاصّة إذا ما ترافق مع حالة من الارتياح التّامّ، على الصّعيدين الجسمانيّ والفكريّ.

فالصَّوم يؤدّي إلى استكانة الأعضاء والأحشاء، وتوفير الطّاقة، وحرق وصرف العناصر الدّهنيّة والسّامّة من الجسم، إذ إنَّها تعرقل نشاط الأعضاء الفاعل والسّليم.

---

(١) فاطر: ٣.

(٢) سلوة الحزين وتحفة العليل (الدّعوات): ٨٠، ح/٢٠٢.

وكأنّي بجهاز الحياة بأكمله يرتاح لفترة وجيزة من عبء عمليات الهضم والاستيعاب؛ لكي يتفرّغ لمهمّات أخرى»[١].

وقد قاموا بتجارب على بعض الحيوانات كالأرانب والجرذان؛ ليثبتوا صحّة مدّعاهم في الصّوم، قال العالم المذكور: «فالأرانب الّتي أُخْضِعَت ليومين أو ثلاثة لصوم كامل قد تبيَّن لاحقاً عندما عادت إلى الطَّعام الاعتياديّ أنَّ جسمها يقاوم بشكل أفضل دخول العصيّات (الكولونيّة) في أنسجتها، وهو أمر يؤدّي مباشرة إلى موت الأرانب الأخرى الّتي لم تخضع للصّوم أبداً.

كما تبيَّن أنَّ أمد حياة الجرذ الأبيض، والّذي هو ٦٠٠ يوم، يطول عندما يخضع هذا الجرذ لفترات صوم؛ إضافة لذلك فإنَّ الجرذ المذكور يتمتّع لاحقاً بقدرة أفضل على مقاومة الأمراض المُعدية، والتّورّمات من الجرذان الأخرى الَّتي تتابع أكلها بشكل متواصل»، ثمَّ أكمل قائلاً: «كما أنَّنا نشير إلى أنَّ الصَّوم القصير (الامتناع عن وجبة أو وجبتين) يساعد الجسم على تجاوز حالات التّسمّم والأخطار القصوى الَّتي قد تهدّد حياة الإنسان من النّاحية الصّحّيّة»[٢].

تلك الحِكَم كلّها لم تكن هي المقصودة بالذّات، وإنَّما الغاية الأساسيّة هي طاعة الله، وطلب رضا تعالى، وهذه الحِكَم أو العلل هي تحصيل حاصل، وإنما ذكرناها كمؤيد لقوله صلى الله عليه وآله: «**صوموا تَصِحّوا**».

شَهْرُ الرَّحْمَةِ وَالْغُفْرانِ:

عن الإمام الرّضا عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**إنَّ**

(١) البروفيسور روبير توكيه، العمر المديد: ١٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٧٩-١٨٠.

رَسولَ الله ﷺ خَطَبَنا ذاتَ يومٍ فقال: أيُّها النّاسُ، إنَّهُ قدْ أَقْبلَ إلَيْكُمْ شهْرُ الله بالْبرَكَةِ، والرَّحْمَةِ، والْمَغْفرَةِ، شَهْرٌ هُوَ عنْدَ الله أَفْضَلُ الشُّهور، وأيّامُهُ أَفْضَلُ الأيّامِ، ولَياليه أَفْضَلُ اللَّيالي، وَساعاتُهُ أَفْضَلُ السّاعات، هُوَ شَهْرٌ دُعيتُمْ فيه إلى ضيافَة الله، وَجُعلْتُمْ فيه منْ أَهْلِ كَرامَة الله، أنْفاسُكُمْ فيه تَسْبيحٌ، ونَوْمُكُمْ فيه عبادَةٌ، وعَمَلُكُمْ فيه مَقْبولٌ، ودُعاؤُكُمْ فيه مُسْتَجابٌ، فَاسْأَلوا اللهَ ربَّكُمْ بنيّات صادقَة، وقُلوب طاهرَة أنْ يُوفِّقَكُمْ لصيامه، وتلاوَةِ كتابه، فَإنَّ الشَّقيَّ منْ حُرِمَ غُفْرانَ الله في هذا الشَّهْرِ الْعظيم»[1].

إنَّ هذا النَّصَّ الشّريف يشعر الإنسان بعظمة هذا الشّهر، ويثير شعوره وإحساسه؛ ليستقبل هذا الشّهر بروح طافحة بالأمل (برحمة الله تعالى)، مفعمة بالإيمان عند اشتراكه في هذه الدَّورة التّربويّة التّعبويّة الّتي أحيطت بطابع التَّقديس، والإجلال الرّبّانيّ، وهذا الشُّعور الّذي يريد رسول الله ﷺ أن يثيره فينا؛ ليوجّه اهتمامنا إلى هذه المدّة الزّمنيّة المباركة؛ ليستغلها الإنسان، ويرتقي من خلالها إلى سلّم الكمال، والرّقيّ بوصفها مدّة طافحة برحمة الله عزَّ وجلّ الّتي وسعت كلّ شيء، والّتي لا تحدّ بحدود الزّمان والمكان، فهي فيض من الله سبحانه بالعطايا الّتي تصلح حال الإنسان، وتعينه على نفسه، وعلى غيره، يقول عزّ وجلّ:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

---

(١) مصنّفات الشّيخ الصّدوق (فضائل الأشهر الثّلاثة): ٤٢٩، ح/٦١؛ وينظر: تفصيل وسائل الشيعة: ٣١٣/١٠، ح/١٣٤٩٤.

(٢) الأعراف: ١٥٦.

وهي الأمل الَّذي يتطلّع إليه كلّ إنسان آمن بالله تعالى ليغمره بفيوضاته.

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(١).

﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(٢).

ولعظمة هذا المطلب وجلالته نجد الأنبياء العظام يدعون ربَّهم أن يدخلهم برحمته، فهذا النّبيّ سليمان عليه السلام رغم ما أعطاه الله من الملك، والنّبوّة، وسخّر له الجنَّ، والشّياطين نراه يقول: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾(٣).

لأنَّه عليه السلام يعلم أنَّ عمل الإنسان لا ينفعه إذا لم تدركْه رحمة الله عزَّ وجلّ؛ ولذا نجد أئمّة الهدى عليهم السلام يسألون الله أن لا يحاسبهم بعدله بل برحمته(٤).

وشهر رمضان شهر الرَّحمة، فما أحرى بالإنسان المؤمن أن يتوجّه إلى فيض رحمة الله، ويسأله أن يدخله برحمته.

وكما هو شهر الرَّحمة، فهو **شهر المغفرة**، والمغفرة تعني تطهير الإنسان من سيّئاته كلّها؛ ليصان العبد من أن يمسّه العذاب، وهي من أعظم الأفضال الإلهّية على العبد؛ ولذا نجد العارفين، قالوا مُتَحَدّين فرعون: ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾(٥).

---

(١) يونس: ٥٧.

(٢) الزّخرف: ٣٢.

(٣) النّمل: ١٩.

(٤) الرّحمة من الله عزّ وجلّ: إنعام وإفضال، ومن الآدميّين: رقّة وتعطّف.

(٥) طه: ٧٣.

وهذا نبيّ الله إبراهيم عليه السلام رغم علوّ شأنه وجلالة قدره، يقول لقومه: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾(١).

والمغفرة هي أمنية الصّالحين كلّهم، ومن هنا نجد أنَّ الله عزَّ وجلّ يمدح الطّامعين بمغفرته حيث يقول في وصف الرّبّيين: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(٢).

ولعظمة المغفرة الإلهيّة يأمر الله نبيّه الكريم أن يخبر عنها، يقول عزّ وجلّ: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾(٣)، فهنا ترابط بين الرَّحمة والمغفرة.

ونتيجةُ الرَّحمة، والمغفرة، والعتق الخلاصُ من النّار، ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾(٤).

فشهر رمضان إذن شهر ضيافة الرَّحمن المفعمة بالرَّحمة والمغفرة والعتق من النّار، وبالتّالي الفوز بالخلود في دار رحمة الله تعالى، وهي دار الرّضوان فعلى المؤمن أن يستثمر هذه الأيّام المعدودة؛ ليفوز بغفران الله، وإلا فسيكون من الأشقياء، «**فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ غُفْرانَ اللهِ في هذا الشَّهْرِ الْعَظيمِ**»، ثمَّ أشار النَّصُّ المبارك إلى قيمة الزَّمن المبارك في هذا الشَّهر العظيم، وإن كان لكلّ زمنٍ قيمةٌ، ولكنّه في هذا الشَّهر أرفع قيمةً في كلّ مفردة من مفرداته الزّمانيّة: أيّامه،

(١) الشّعراء: ٨٢

(٢) آل عمران: ١٤٧.

(٣) الحجر: ٤٩-٥٠.

(٤) آل عمران: ١٨٥.

لياليه، ساعاته، فهو نفحةٌ إلهيّة ينبغي أن يتعرّض لها الإنسان، ولا يُعرض عنها، قال ﷺ: «**إنَّ لربِّكُمْ في أيّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحات فَتَعَرَّضوا لَهـ[ـا]**»[1]، وقال ﷺ: «**وتَعَرَّضوا لنَفَحات رَحْمَة الله، فَإنَّ لله نَفَحات منْ رَحْمَته**»[2].

والنَّفْحةُ: «دفْعَةُ الرّيح، طَيِّبَةً كانت أو خبيثَةً»[3]، فالنَّفحة الإلهيّة هي الطّيب الّذي ترتاح له النَّفس، وتنتعش به الرّوح، وهو تعبير مجازيٌّ عن هبوط الفيوضات الإلهيّة في البرهة القصيرة من الزَّمن، فينبغي للإنسان أن يتوجّه إليها، وتستعمل كذلك في حالات العذاب كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ** ﴾[4].

والأمر الثّالث هو: شهر الضّيافة عند الله تعالى، وهذا تكريم، وتشريف للمؤمنين، ونحن نعلم أنَّ على المُضيِّف أن يكرم ضيفَه، والله أكرم الأكرمين... إنَّها إشارة عظيمة ينبغي أن يُلْتَفَتَ إليها... يفرح الإنسان عندما يدعى من رئيس أو عالم كريم، ويتشرّف بمحضره، ولكن ينبغي أن يفرح بهذه الدَّعوة من الله عزَّ وجلّ، ولكنَّ لها شروطاً وآداباً ينبغي أن يحفظها.

ثمَّ إنَّ الله عزَّ وجلّ جعل صيام هذا الشّهر كرامةً لأمّة محمّد ﷺ: «**وَجُعلْتُمْ فيه منْ أَهْلِ كَرامَة الله**»، وقد ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن**

---

(١) الطّبرانيّ، المعجم الكبير: ١٩/٢٣٤، ح/٥١٩.

(٢) المصدر نفسه: ١/٢٥٠، ح/٧٢٠.

(٣) لسان العرب: ٢/٦٢٢، (نفح).

(٤) الأنبياء: ٤٦.

﴿قَبۡلِكُمۡ﴾ أنّه عليه السلام قال: «**إنَّما فَرَضَ اللهُ صيامَ شَهْرِ رَمَضانَ عَلى الأَنْبياءِ دونَ الأُمَمِ، فَفَضَّلَ بِهِ هذهِ الأُمَّةَ، وَجَعَلَ صِيامَهُ فَرْضاً عَلى رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَعَلى أُمَّتِه**»[1].

وبعد هذه الإشارات العظيمة من إضافة الرّحمة، والمغفرة، والعتق من النّار، والدعوة الكريمة للحضور بالحضرة القدسيّة، وبيان الهبة العظيمة بيَّن صلى الله عليه وآله أنَّ هذه كلَّها إنَّما تحصل بإخلاص الدُّعاء، وتلاوة الكتاب الكريم؛ ليفوز الصّائم بقبول الأعمال.

وخلاصة القول: إنَّ شهر رمضان شهر العمل الخالص لله، والدُّعاء المتواصل، والذّكر الكثير؛ لتطهير القلوب من الأرجاس، وشهر القرآن العظيم الّذي ينبغي أن يلازمه الإنسان في هذا الشّهر بالخصوص ملازمة الظّل للسّائر في الشّمس، وإذا لم يقم الإنسان بذلك كلّه فهو أشقى الأشقياء.

وفي فقرة من الخطبة المباركة، قال صلى الله عليه وآله: «**وَاذْكُروا بِجوعِكُمْ وَعَطَشِكُمْ فيهِ جوعَ يومِ الْقِيامَةِ وَعَطَشِه**»[2]، فالمؤمن يتذكّر في هذا الشَّهر شدّة يوم **﴿تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾**[3]، ولكنَّ عطش شهر رمضان يختلف عن عطش يوم القيامة، فهذه ساعات محدودة، وتبتلّ العروق، وترفع الأعمال إلى الله، وعطش ذلك اليوم دائم لا ينتهي.

---

(١) كتاب من لا يحضره الفقيه: ٢/١٠٠، ح/١٨٤٤.

(٢) مصنّفات الشّيخ الصّدوق (فضائل الأشهر الثّلاثة): ٤٢٩، ح/٦١.

(٣) الحج: ٢.

ولنتذكّر بعطشنا عطش أهل بيت الرّسالة يوم عاشوراء حين ذبلت الشّفاه، وجفّت محالب الأمهات، وكان الإمام الحسين عليه السلام أشدَّ النّاس عطشاً.

بَرْنامَجٌ عَمَلَيٌّ مُقْتَرَحٌ لِشَهْرِ رَمَضان:

هذه اقتراحات عمليّة لاستثمار أيام شهر رمضان في البناء الفكريّ والرّوحيّ والأخلاقيّ، وعلى المستوى الفرديّ والاجتماعيّ، نطرحها في هذا البحث لعلَّ الله تعالى ينفع بها من يريد أن يأخذ من شهر رمضان المبارك منطلقاً للتّغيير والإصلاح النّفسيّ والاجتماعيّ.

نفتتح هذا البرنامج بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله لجابر الأنصاريّ رحمه الله؛ لنستدلّ به على ما نقترحه من خطوات عمليّة لحركتنا في الشّهر المبارك، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**قالَ رسولُ الله** صلى الله عليه وآله **لجابرِ بْنِ عَبْدِ الله: يا جابرُ، هذا شَهْرُ رمضانَ، مَنْ صامَ نَهارَهُ، وَقامَ وِرْداً مِنْ لَيْلِه، وعفَّ بطْنَهُ وفرْجَهُ، وكفَّ لسانَهُ خرجَ مِنْ ذُنوبِه كَخُروجِه مِنَ الشَّهْر، فَقالَ جابرٌ: يا رَسولَ الله، ما أَحْسَنَ هذا الْحَديثَ! فقالَ رَسولُ الله** صلى الله عليه وآله**: يا جابرُ، وما أَشَدَّ هذه الشُّروطَ**»[١].

في استقبال شهر رمضان:

١- الاستعداد النَّفسيّ لاستقبال شهر رمضان قبل حلوله بروحٍ طافحة بالإيمان، والحبّ لله تعالى، والأمل برحمته، لنشرح صدورنا للإسلام، ونتطلّع بأرواحنا إلى لقاء الله في طاعته، وندعو بما دعا به الإمام السّجّاد عليه السلام في استقبال شهر رمضان قائلاً:

(١) الكافي: ٤٣٦/٧-٤٣٧، ح/٦٣٢١.

«وَالْحَمْدُ للهِ الَّذي حَبانا بدينه، وَاخْتَصَّنا بملَّته، وَسَبَّلَنا في سُبُلِ إحْسانه، لنَسْلُكَها بمَنِّه إلى رضْوانه، حَمْداً يَتَقَبَّلُهُ منّا، وَيَرْضى به عَنّا، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذي جَعَلَ منْ تلْكَ السُّبُلِ شَهْرَهُ رَمَضانَ، شَهْرَ الصِّيامِ، وَشَهْرَ الإسْلامِ، وَشَهْرَ الطَّهورِ، وَشَهْرَ التَّمْحيصِ، وَشَهْرَ الْقيامِ»[1].

٢- علينا أن نتوسّل بالله تعالى بقلوب ملؤها الحبّ، والخوف، والرّجاء؛ ليعرّفنا فضيلة هذا الشّهر الكريم، ويكشف الحجب عن بصائرنا؛ لنعي أسراره، وما ينطوي عليه من دلالات روحيّة وفكريّة وأخلاقيّة واجتماعيّة، وما له من عظمة وجلال، وحرمة عند الله تعالى، وندعو بما دعا به الإمام السّجّاد عليه السلام قائلاً: **«اللّهُمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآله، وَأَلْهِمْنا مَعْرِفَةَ فَضْله، وَإجْلالَ حُرْمَته، وَالتَّحَفُّظَ ممّا حَظَرْتَ فيه، وَأَعِنّا عَلى صيامه بكَفِّ الْجَوارِحِ عَنْ مَعاصيكَ، وَاسْتعْمالها فيه بما يُرْضيكَ»**[2].

٣ - لنحرص جميعاً على أن نصوم صوماً حقيقيّاً يربّي النفوس، ويطهّر القلوب، ويمحق الذّنوب، وهذا لا يتحقّق إلا لمن عرف أنَّ الصّيام ليس من الطّعام والشّراب فقط، وإنّما الصّوم هو الّذي يستوعب كلّ كيان الإنسان الرّوحيّ والبدنيّ، وفي مختلف أبعاده: الأخلاقيّة، والاجتماعيّة، والفكريّة، والسّياسيّة كما تقدّم بيانه في الأحاديث الشّريفة في هذا البحث، فلا نعيد.

٤- وعلينا أن نحافظ على أوقات الصّلاة بدقّة، والتزام، ووعي، وندعو الله أن يوفقنا الله لذلك كما دعا إمامنا السّجّاد عليه السلام قائلاً: **«اللّهُمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ**

---

(١) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ١٦٥، دعاء: ٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٦٧، دعاء: ٤٤.

وآله، وَقِفْنا[١] فيه عَلى مَواقيت الصَّلَوات الْخَمْس بحُدودها الَّتي حَدَّدْتَ، وَفُروضها الَّتي فَرَضْتَ، ووَظائفها الَّتي وَظَّفْتَ، وأوْقاتَها الَّتي وَقَّتَّ»[٢].

والسِّرُّ في ذلك أنَّ قيمة الصَّلاة في شهر رمضان يتضاعف ثوابها عند الله، وقد جاء في الخطبة الشّعبانيّة: **«وَمَنْ أَدّى فيه فَرْضاً كانَ لَهُ ثَوابُ مَنْ أَدّى سَبْعينَ فَريضَةً فيما سِواهُ مِنَ الشُّهور»**[٣].

٥- ومن الأمور الهامّة اجتماعيّاً: أن نعيد النَّظر قبل حلول شهر رمضان في علاقتنا الاجتماعيّة، ونعيد وصل ما قُطِعَ منها لندخل شهر رمضان، وليس لأحد علينا تبعة أو حقٌّ يجب أن يؤدّيه، وندعو الله بدعاء الإمام السجاد عليه السلام قائلين: **«اللّهُمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآله... ووَفِّقْنا فيه لأنْ نَصِلَ أرْحامَنا بالْبرِّ وَالصِّلَة، وَأَنْ نَتَعاهَدَ جيراننا بالإفْضال والعَطيَّة... وَأَنْ نُراجِعَ مَنْ هاجَرَنا، وَأَنْ نُنْصِفَ مَنْ ظَلَمَنا، وَأَنْ نُسالِمَ مَنْ عادانا... حاشا مَنْ عُودِيَ فيكَ وَلَكَ؛ فَإنَّهُ الْعَدُوُّ الَّذي لا نُواليه، وَالحزْبُ الَّذي لا نُصافيه»**[٤].

٦- وعلى المؤمنين جميعاً المحافظة على أوقات شهر رمضان بدقّة متناهية؛ فإنَّ أيّامه ولياليه وساعاته، بل دقائقه وثوانيه هي نفحات إلهيّة يمنُّ بها الله على عباده، فلا ينبغي لمؤمن أن يُضيّع منها، ولو لحظة واحدة عبثاً، بل يجب أن يستغلّ

---

(١) قفنا: أطلعنا، قال السّيد عليّ خان: «وقفْتُ فلاناً على الأمر: أطلعته عليه، ولا تقل أوقفته» رياض السّالكين: ٦/٤٨.

(٢) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ١٦٦، دعاء: ٤٤.

(٣) مصنّفات الشّيخ الصّدوق (فضائل الأشهر الثّلاثة): ٤٣٠، ح/٦١.

(٤) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ١٦٧، دعاء: ٤٤.

فيه كلَّ لحظة في خدمة الإسلام والمسلمين عبادةً لله، وطلباً لنيل رضوانه، قال الإمام السّجّاد عليه السلام: «**اللّهمَّ، اشْحَنْهُ بعبادَتنا إيّاكَ، وزَيِّنْ أَوْقاتَهُ بطاعَتنا لَكَ، وَأعنّا في نَهاره عَلى صيامه، وَفي لَيْله عَلى الصَّلاة وَالتَّضَرُّع إلَيْكَ، وَالْخُشوعِ لَكَ، وَالذِّلَّة بَيْنَ يدَيْكَ، حَتّى لا يَشْهَدَ نهارُهُ عَلَيْنا بغَفْلَة، ولا لَيْلُهُ بتَفْريط**»[1].

إنَّ كلَّ ما تقدم في حديثنا هذا يخص شخصيّة المؤمن ليكون الأنموذج الإلهيّ الَّذي يُقتدى به يُذَكّر النّاس بالله في سلوكه قبل كلامه، ورغم ذلك فلا بدّ للمؤمن الدّاعية كحركيّ مغيّر للواقع الفاسد إلى واقع سليم أن يستثمر أيّام شهر رمضان المبارك - الّذي تَرِّقُّ فيه القلوب، وتتوجّه فيه النّفوس إلى الله تعالى - في تكثيف الدَّعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر... فإنَّ لشهر رمضان في حياتنا مقاماً خاصّاً؛ لأنَّه عند الله كذلك، فلا ينبغي أن نقطع أيّامه إلا بذكر الله وعبادته والدَّعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لذا فلأجل أن نجعل شهر رمضان ربيعاً للمؤمنين علينا أن نرسم برنامجاً يستوعب جميع أوقاته لخدمة الإسلام والمسلمين تذكيراً، وتحسيساً بالمسؤوليّة، وتناصحاً، وتراشداً، وتعاوناً على البرّ والتقوى؛ ولهذا نرجو من المؤمنين الواعين أن يحقّق الله على أيديهم ما يأتي:

١- العمل بجدّ على إحياء ليالي شهر رمضان بإقامة مجالس التّوعية الإسلاميّة في المساجد والحسينيّات والمكاتب، والبيوت، واختيار الخطباء والمحاضرين الواعين المخلصين؛ ليثيروا في نفوس النّاس الوعي والإخلاص والحماس، ويُرسخّوا الإيمان بالله، وحبّ الإسلام في القلوب، ويحثّوا النّاس على الدَّعوة إليه؛ ولأجل ذلك علينا أن نقوم بحملة إعلاميّة موسّعة؛ لحثّ النّاس نساءً

(١) المصدر نفسه: ١٦٩، دعاء: ٤٤.

ورجالاً لحضور هذه المجالس بعد تهيئة لوازم الحضور لكلا الجنسين.

٢- عقد جلسات موسّعة لقراءة القرآن في المساجد أو البيوت، أو المكاتب، فعلى سبيل المثال: يجتمع ثلاثون مؤمناً ليقرؤوا في كّل يوم جزءاً أو جزءين من القرآن بشكل جماعيّ، وهذا - إضافة للجو الإيمانيّ الّذي تصنعه قراءة القرآن - يساعد على تصحيح القراءة عند الأخوة المؤمنين، وتفسير بعض الآيات والتّباحث بها؛ لتزكية النّفوس، وتطهير القلوب من أدران الذُّنوب.

٣- عقد دروس في تفسير القرآن، أو دراسة الأحكام الشّرعيّة من خلال الرّسائل العمليّة للمقلَّدين، أو تدريس الأخلاق الإسلاميّة، أو طرح المفاهيم الفكريّة المُغَيِّرَة، أو حفظ أحاديث السّنّة النّبويّة المُطَهَّرَة.

٤- إجراء مسابقات فكرية بين الشَّباب من خلال طرح الأسئلة الفقهيّة، أو التّأريخيّة، أو السّياسيّة، أو الجغرافيّة؛ لأجل نشر الوعي الإسلاميّ.

٥- إقامة مآدب الإفطار في بيوت المؤمنين، ولتكن المآدب طبيعيّة عاديّة تخلو من التَكَلُّف والإسراف... وقد ورد كثير من الأحاديث باستحباب تفطير المؤمنين، فقد قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّها النّاس، مَنْ فَطَّرَ منْكم صائماً مؤْمناً في هذا الشَّهْر كانَ لَهُ بذلكَ عنْدَ الله عتْقُ نَسَمَة، ومَغْفَرَةٌ لما مَضى مَنْ ذُنوبه**»، فقيل: «يا رسول الله، وليسَ كلُّنا يقدر على ذلك؟»، فقالَ ﷺ: «**اتَّقَوا النّارَ ولَوْ بشقِّ تَمْرَة، اتَّقوا النّارَ ولَوْ بشَرْبَة منْ ماء**»[1].

٦- مَحاولة إحْياء ليالي القدر وإقامة السَّهرات العباديّة فيها بشكل جماعيّ في المساجد أو الحسينيّات أو البيوت، وتتخلّلها أحاديث توعويّة، وقد أكدت بعض الأحاديث الشّريفة أنَّ الدّعاء الجمعيّ يستمطر الرَّحمة الإلهيّة، ويستجيب

---

(١) مصنّفات الشّيخ الصّدوق (فضائل الأشهر الثّلاثة): ٤٣٠، ح/٦١.

الله لدعاء الدّاعين، ولا سيّما الأدعية المرويّة عن أهل البيت عليهم السلام حيث يمكن من خلالها إيجاد مناخ إيمانيّ مفعم بذكر الله، والخشوع، والبكاء من خشية الله من خلال قراءتها بشكل جماعيّ، ويمكن من خلال المفاهيم السّامية المطروحة في الدّعاء تقديم الدّروس الرّوحيّة والأخلاقيّة والفكريّة؛ فعن أبي خالد، قال: «قالَ أَبو عَبْد الله عليه السلام: **ما منْ رَهْط أَرْبَعين رَجُلاً اجْتَمَعوا، فَدَعَوا اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - في أَمْرٍ إلا اسْتَجابَ اللهُ لَهُمْ، فَإِنْ لَمْ يكونوا أَرْبعين فَأَرْبَعَةٌ يَدْعونَ اللهَ - عَزَّ وجَلَّ - عَشْرَ مرّات إلا اسْتَجابَ اللهُ لهمْ، فَإِنْ لَمْ يكونوا أَرْبَعَةً، فَواحدٌ يَدْعو اللهُ أَرْبَعين مَرَّةً، فَيَسْتَجيبُ اللهُ الْعَزيزُ الْجَبّارُ لَهُ**»(١).

٧- تكوين لجان خيريّة لجمع أموال للفقراء، وخاصّة زكاة الفطرة، وتقديمها للعوائل المحتاجة بأسلوب تكريميّ هادف لا يُشْعِرُ الفَقير بالذّلّة والمنَّة عليه، ولنعلم أنَّ زكاةَ الفطرة موردٌ كبيرٌ محترمٌ، فعلى المؤمنين أن يُجِدُّوا في جمعه بشكل منظّم، وتقسيمه بشكل هادف.

٨- وعلينا أن نسعى بجدّ لتحذير النّاس من حضور مجالس اللّغو والعبث، واللّهو الفارغ الّذي ابتدعته الرّؤوس الفارغة، وهو ما يسمى (لعبة المحيبس) الّتي روَّج لها البعثيّون الأوباش، وتروّج لها بعض الفضائيّات العلمانيّة؛ لتشغل النّاس عن ذكر الله في شهر رمضان، وتخدّر العقول، وتصدّها عن الله، وهذا ما أشار له القرآن الكريم: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾(٢).

٩- نرجو من الله أن يوفّقنا جميعاً لأداء النّوافل في شهر رمضان، ولا سيّما

(١) الكافي: ٣٤٠/٤، ح/٣١٥٠.

(٢) لقمان: ٦.

صلاة اللَّيل فإنَّها تبيِّض الوجه، وتَدرُّ الرّزق، وتطيل العمر، وتدفع البلاء؛ وأن يوفقّنا لتلاوة القرآن وقراءة دعاء السَّحَر، ولمحاسبة النفس، والعمل لتغيير المجتمع وفق تخطيط هادف، متوكّلين على الله تعالى؛ ولهذا لا بدَّ على المؤمن «من أن يجهد نفسه، ليصير له مزاج - بتوالي الأيام - يتحكم فيه كلا المفهومين [التّوكّل والتّخطيط]، يعمل قربةً لله، ويخطّط قربة لله، ويخطو الخطوة التّالية قربةً لله تعالى... إذ لا قيمة إسلاميّة لأيّ عمل إلاّ إذا قصد به وجه الله تعالى وَتوَكَّل فيه عليه»[1].

إنَّ شهر رمضان ربيع المؤمنين، فيه ترقُّ القلوب، وتتوجّه النُّفوس إلى الله؛ ولذا ينبغي علينا أن نستغل هذه المدّة المباركة للهداية والإرشاد، ومن هنا علينا أن ندعو أن يوفّقنا الله لخدمة الاسلام في الخطوات الآتية:

١- علينا أن نتحرَّك قاصدين وجه الله؛ لنشر الوعي الإسلاميّ وسط الأمّة؛ لكي نحول الفكر الإسلاميّ إلى واقع ملموس متجسّداً في سلوكنا قبل أقوالنا، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**كونوا دُعاةً للنّاس بغَيْرِ أَلْسنَتكُمْ**»[2].

٢- وعلينا مواصلة الحركة الدّؤوبة في وسط الأمّة؛ لنضعها على جادّة الصَّواب من خلال نشر المفاهيم الإيمانيّة، وتصحيح الأفكار والرّؤى المغلوطة عند النّاس، ولنؤثّر فيهم بسلوكنا ومواقفنا، وعلينا أن نتفاعل مع الأمّة، وننقل لها الفكر الإسلاميّ الأصيل، وهذا لا يتحقّق إلا إذا أَحَّب المؤمن الأمّة الإسلاميّة وأحبّته، وقد قيل: «**املكوا القلوب تملكوا العقول**».

٣- وعلى العاملين لخدمة الإسلام أن يوصلوا للأمّة الرّأي الإسلاميّ الصّحيح، والموقف المناسب في الأحداث والقضايا المهمّة والمواقف الحاسمة؛

---

(١) ثقافة الدّعوة الإسلاميّة: ٢/٣٣٧.

(٢) الكافي: ٢٠٢/٣، ح/١٦٤١.

ولهذا يجب على العاملين لوجه الله تعالى أن يتدارسوا فيما بينهم كيفيّة التّفاعل مع الأمّة، وكيفيّة التّأثير فيها بترسيخ الفكر الإسلاميّ المُغيِّر، وعليهم أن يَجِدُّوا في تعميق التّيّار الإسلاميّ الفاعل المُؤثّر.

٤- ولنعلم أنَّ المؤمن هو من يحمل همَّ الدَّعوة إلى الله تعالى في فكره وروحه وسلوكه كهدف ومسؤوليّة، وليس المؤمن من يدّعي الإيمان بالله واليوم الآخر، ولا يعمل على تقوية منهج الإيمان، وترسيخ أسسه في النّفوس، وإنَّما المؤمن الحقيقيُّ هو الَّذي يشعر بمسؤوليّته الدّعويّة تجاه خالقه، ويتحرّك بدافع التّعبّد والتّقرّب إلى الله سبحانه وتعالى، طالباً بذلك رضوان الله تعالى فقط، ومتى ما عرف الدّاعية بأنَّه متعبّد لله في عمله اندفع بصورة تلقائيّة من دون حاجة إلى من يدفعه للعمل، ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾[1].

---

(١) التّوبة: ١٠٥.

التِّلاوَةُ الْحَقيقِيَّةُ

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[1].

اختلف المفسّرون في تفسير الّذين آتاهم الله الكتاب، من هم؟ قيل: هم قوم من اليهود والنصارى ليسوا متّبعين للهوى من أهل الحقّ، وقيل: هم المؤمنون برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، والمعنى واضح هو توجيه المؤمنين إلى تلاوة كتاب الله تلاوة حقيقيّة بتدبّر وتفكّر كي يتفقّهوا به، ويعملوا بأحكامه.

والتّلاوة لغةً: «الاتّباع، يقال: تَلَوْتُهُ إذا تبعْتُهُ، ومنه تلاوة القرآن؛ لأنّه يُتْبِعُ آيةً بعد آية...»[2].

«فإنَّ التّالي يجعل القرآن أو الآيات، أو كلمات الله المتعال، أو ما أوحى منه، أمامه في مقام الإظهار، والإعلان، أو في مقام الإبلاغ، أو في مقام التَّكريم والتَّشريف والتَّعظيم، أو في مقام الاتّباع والإطاعة، أو غيرها»[3].

والتّلاوة هنا «تختص باتّباعِ كتب الله المنزّلة تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتسام لما فيها من أمر، ونهي، وترغيب، وترهيب»[4].

---

(١) البقرة: ١٢١.

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: ٣٥٣/١، (تلا).

(٣) العلامة المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن الكريم:٤٢٥/١-٤٢٦، (تلا).

(٤) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ١٠٧، (تلا).

أمّا التّلاوة الحقيقيّة المطلوب أداؤها، فالآية توحي بأن يقرأ الإنسانُ القرآنَ الكريم بتدبّر وتأمّل فكريّ، وتفاعل روحيّ يهزّ كيانه، فيخشع قلبه، ويلين، ويقشعرّ جلده، ويفيض دمعه... وليست التّلاوةُ حركةَ لسان، وترديدَ ألفاظ، وإنَّما هي عمليّة تلقّ واعٍ لرسالة الله تعالى تفتح العقل، وتنوّر القلب، وتحرّك الجوارح إلى طاعة الله، وتنير سبيل الرّشاد، وتهدي إلى ساحل النَّجاة، فتضع الإنسان على جادّة الهدى والرَّشاد، وقد جاءت المعاني المفسّرة كلّها لحقيقة التّلاوة؛ لتنتهي إلى نتيجة واحدة نذكرها في نقاط:

أوّلاً: يتّبعونه حقَّ اتّباعه، ولا يحرّفونه، ثمّ يعملون بحلاله، ويقفون عند حرامه.

ثانياً: يصفونه حقَّ صفته في كتبهم لمن يسألهم من النّاس.

ثالثاً: يقفون عند ذكر الجنّة والنّار يسألون الأولى، ويستعيذون من الثّانية.

رابعاً: يقرؤونه حقَّ قراءته، يرتّلون ألفاظه، ويفهمون معانيه.

خامساً: يقرؤونه حقَّ قراءته، فيعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه(١).

وإذا تدبّرنا في هذه المعاني الَّتي أوردها أغلب المفسّرين نجد أنَّها تنتهي إلى نتيجة واحدة، وهي أنَّ التلاوة يجب أن تهدي الإنسان إلى التّمسّك بما تمليه عليه من عقائد، ومفاهيم، وأحكام، وما تهدي اليه من أخلاق، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** ﴾(٢)، وسبيل التّمسّك بالكتاب الكريم والاعتصام به أن يتلوه

(١) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن للشّيخ الطّبرسيّ: ١/٣٧٤-٣٧٥.

(٢) الزّخرف: ٤٣-٤٤.

حقَّ تلاوته، وهي «الَّتي يريد بها القراءة عن تدبّر، وتفكير، وروحيّة واعية تتحرَّك من موقع البحث عن الحقّ، لا من موقع التّعصّب الأعمى؛ فإنَّ ذلك هو سبيل الانفتاح على آيات الله، وما تشتمل عليه من دلائل الحقّ وبراهينه، حيث يقود ذلك إلى الإيمان، ومن خلال ذلك نفهم أنَّ الكفر لا ينشأ من حالّة فكريّة مضادّة، بل من حالة اللامبالاة، والغفلة النّاشئة من عدّم التّوفّر على القراءة الواعية، والفكر المسؤول، ما يجعل من الإنسان إنساناً يتحرّك في جوّ التّعنّت، والتّعصّب، والعناد الَّذي لا يملك معه الانفتاح على الحقّ من قريب أو بعيد»[1].

وقد أوجز الإمام الصّادق عليه السلام تفسير هذه الآية الكريمة بقوله: «**يُرَتِّلُونَ آياته، وَيَتَفَقَّهُونَ فيه، ويَعْمَلُونَ بِأَحْكامه، ويَرْجُونَ وَعْدَهُ، ويَخافونَ وَعيدَهُ، وَيَعْتَبِرونَ بقصصه، ويَأْتَمِرونَ بِأَوامره، ويَنْتَهونَ عَنْ نَواهيه.**

ما هُوَ وَاللهِ حِفْظُ آياته، ودَرْسُ حُروفه، وَتِلاوَةُ سُوره، وَدَرْسُ أَعْشاره وَأَخْماسه، حَفِظوا حُروفَهُ، وَأَضاعوا حُدودَهُ، وَإِنَّما هُوَ تَدَبُّرُ آياته، وَالْعَمَلُ بِأَحْكامه، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[2]»[3].

وَمَن خلال هذا الحديث تتّضح لنا وسائل التّلقّي نظريّاً وعمليّاً بعبارات موجزة جامعة مانعة، وهذه الوسائل هي:

١- **ترتيل آياته:** والتَّرتيل هو نطق الكلمة بسهولة، واستقامة، وتمهّل، وترسّل، قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[4]، أي بسهولة في تبيين، وتوضيح،

---

(١) السّيّد محمّد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن: ٤١٥/١.

(٢) ص: ٢٩.

(٣) الدّيلميّ، إرشاد القلوب: ١٦١/١.

(٤) المزمّل: ٤.

وتثبّت، واسترسال، وتمكين؛ ليقرع به القلوب القاسية... فمعنى ورتّلناه ترتيلاً أي بيّناه تبييناً، وأرسلناه إرسالاً، بعضه في أثر البعض، رُوِيَ أنَّ النّبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال: «**يا ابْنَ عَبّاس، إذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ، فرَتِّلْهُ تَرْتيلاً**»، قال: «وما الترتيل؟» قال: «**بيِّنْهُ تَبْييناً، وَلا تَنْثُرْهُ نَثْرَ الدَّقْلِ، ولا تَهُذَّهُ هَذَّ الشِّعْرِ**[١]، **قفوا عِنْدَ عَجائبه، وَحَرِّكوا به الْقُلوبَ، وَلا يَكونَنَّ هَمُّ أَحدِكُمْ آخِرَ السّورَةِ**»[٢].

وعن عبد الله بن سنان قال: «سألْتُ أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا**﴾ قال: **قالَ أَميرُ الْمُؤْمنينَ صَلَواتُ الله عَلَيْه: بيِّنْهُ تِبْياناً، وَلا تَهُذَّهُ هَذَّ الشِّعْرِ، ولا تَنْثُرْهُ نَثْرَ الرَّمْلِ، وَلَكِنْ أَفْزِعوا**[٣] **قُلوبَكُمُ الْقاسِيَةَ، ولا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السّورَةِ**»[٤].

وهكذا يظهر «أنّ التَّرتيل بمعنى قراءة القرآن على نحو إبانة الحروف والكلمات والتّمهّل فيها، والتّمكّث والتّأنّق: إنّما هو مصطلحٌ خاصٌّ ومن مصاديق الأصل في القراءة خاصّة»[٥].

والهدف من ذلك كلّه أن تكون قراءة القرآن ذات تأثير في وجدان الإنسان، ولا تكن مجرّد لقلقة لسان، وإنّما ينبغي للقارئ أن يتوقَّف عند آياته متفكّراً في عجائبه، متدبّراً في أسراره؛ فعن عليّ بن أبي حمزة، قال: «دخلْتُ على أبي عبد الله

---

(١) الدّقل: رديء التّمر ويابسه، وما ليس له اسم خاص، فتراه ليبسه ورداءته لا يجتمع ويكون منثوراً، والهذّ سرعة القراءة.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢٦٦/٧.

(٣) في بعض النّسخ: «أقرعوا».

(٤) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٦٢٨/٤-٦٢٩، ح/٣٥٢٤.

(٥) التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٥١/٤، (رتل).

عليه السلام، فقال له أبو بصير: جُعلْتُ فداك، أقرأ القرآنَ في شهر رمضان في ليلة؟ فقال: لا، قال: ففي ليلتين؟ قال: لا، قال: ففي ثلاث؟ قال: ها، وأشار بيده، ثمَّ قال: **يا أَبا مُحمَّد، إنَّ لرمضانَ حقّاً، وحُرْمَةً، لا يُشْبِهُهُ شيْءٌ من الشُّهور، وكانَ أَصْحابُ مُحمَّدٍ صلّى الله عليه وآله يَقْرأُ أَحدُهمُ القُرْآنَ في شَهْرٍ، أَوْ أَقلَّ؛ إنَّ القُرْآنَ لا يُقْرأُ هذْرمةً**[1]**، ولكنْ يرتّلُ ترْتيلاً، فَإذا مررْتَ بآيةٍ فيها ذكْرُ الْجنَّة، فَقفْ عنْدَها، وَسَلِ اللهَ عزَّ وجلَّ الْجنَّةَ، وَإذا مررْتَ بآيَةٍ فيها ذكْرُ النّار، فَقفْ عنْدَها، وتَعوَّذْ بالله من النّار**»[2].

إذن ليس العبرة في مقدار ما يقرأ الإنسان من القرآن، وإنَّما العبرة والأهمّيّة في مقدار ما يفهم ويعي منه، ويتفاعل معه فكريّاً وعاطفيّاً؛ ليترسَّخ في وجدانه، فيلين به قلبه، ويخشع له، ويقشعرّ جلده، ويفيض دمعه لما عرف من الحقائق والأسرار الإلهيّة، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾[3].

﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾[4].

﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ**

---

(١) الهذرمة: السُّرعة في القراءة.

(٢) الكافي: ٤/٦٣٦-٦٣٧، ح/٣٥٣٩.

(٣) المائدة: ٨٣.

(٤) الأنفال: ٢.

﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[١].

٢- التّفقّه بأحكامه: الفقه هو «العلم بالشّيء، والفهم له... والفقه: الفطنة»[٢]، وقال الرّاغب في مفرداته: «الفقه هو التّوصّل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخصّ من العلم، قال: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[٣]، ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[٤]»[٥].

«ويُسمّى العلمُ بالأحكام فقهاً، والفقيه: الّذي علم ذلك، واهتدى به إلى استنباط ما خفي عليه»[٦].

والحقيقة أنَّ التّفقّه في أحكام القرآن هو التّبصّر بها، والوعي لها، والعمل بها، قال المولى المازندرانيّ: «قال شيخ العارفين بهاء الملّة والدّين: ليس المراد بالفقه الفهم، ولا العلم بالأحكام الشّرعيّة العمليّة عن أدلّتها التّفصيليّة؛ فإنَّه معنى مستحدث، بل المراد به البصيرة في أمر الدّين، والفقه أكثر ما يأتي في الحديث بهذا المعنى، والفقيه هو صاحب هذه البصيرة، وإليها أشار النّبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: «**لا يَفْقَهُ الْعَبْدُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتّى يَمْقُتَ النّاسَ في ذات الله، ويَرَى للْقُرآن وُجوهاً كَثيرَةً، ثُمَّ يُقْبِلُ عَلى نَفْسه، فَيَكونَ لَها أَشَدَّ مَقْتاً**»، ثمّ هذه البصيرة إمّا موهبيّة،

---

(١) الزّمر: ٢٣.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ١٣/٥٢٢-٥٢٣، (فقه).

(٣) النّساء: ٧٨.

(٤) المنافقون: ٧.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن: ٥٣٠، (فقه).

(٦) الشّيخ الطّريحيّ، مجمع البحرين: ٦/٣٥٥، (فقه).

وهي الّتي دعا بها النّبيّ ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام حين أرسله إلى اليمن بقوله: «**اللّهمَّ، فقِّهْهُ في الدّين**»، أو كسبيّة، وهي الّتي أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال لولده الحسن عليه السلام: «**وتفقَّهْ يا بُنَيَّ في الدّين**».

وفي كلام بعض الأعلام أنَّ اسم الفقه في العصر الأول إنَّما كان يطلق على علم الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النُّفوس، ومفسدات الأعمال، وقوّة الإحاطة بحقارة الدُّنيا، وشدّة التّطلّع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾(١)، فقد جعل العلّة الغائيّة من الفقه الإنذار والتَّخويف، ومعلوم أنَّ ذلك لا يترتّب إلا على هذه المعارف لا على معرفة فروع الطّلاق، والمساقاة، والسّلم، وأمثال ذلك»(٢).

وقال المحدّث المجلسيّ قدس سره: «والفقهُ: العلمُ بالأحكام من الحلال والحرام، وبالأخلاق، وآفات النّفوس، وموانع القرب من الحقّ، وقيل: بصيرة قلبيّة في أمر الدّين تابعة للعلم والعمل، مستلزمة للخوف والخشية»(٣).

والبصيرة: هي قوّة القلب المدركة لحقائق الأمور، والواعية لأسرارها، والعارفة بتطبيقها، وكيفية بيانها للآخرين بإخلاص ورَويَّة: ﴿**قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾(٤)، فالفقيه لا بدَّ

(١) التّوبة: ١٢٢.

(٢) المولى محمّد صالح المازندرانيّ، شرح أصول الكافي: ٢/٢٩-٣٠.

(٣) المحدث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٣٧٤/٧٠.

(٤) يوسف: ١٠٨.

أن يكون على بصيرة، أي بيّنة واضحة جليّة من أمره، بلا لبس ولا اختلاف؛ ليؤدّي رسالته إلى النّاس، ويحبّبها إليهم، فلا يقنطهم من رحمة الله تعالى، ولا يؤمنهم من عذابه، ولا يرخصهم في معاصيه، وإنَّما يخاطبهم بما يشفي به أمراض قلوبهم؛ ليعالج كلّ إنسان بما يناسبه من دواء، قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**أَلا أُخْبِرُكُمْ بِالْفَقيه حَقِّ الْفَقيه؟ مَنْ لَمْ يُقَنِّط النّاسَ منْ رَحْمَة الله، وَلَمْ يُؤْمنْهُمْ منْ عَذاب الله، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ في مَعاصي الله، وَلَمْ يَتْرُك الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إلى غَيْره، أَلا لا خَيْرَ في علْمٍ لَيْسَ فيه تَفَهُّمٌ، أَلا لا خَيْرَ في قراءَةٍ لَيْسَ فيها تَدبُّرٌ، أَلا لا خَيْرَ في عبادَةٍ لَيْسَ فيها تَفَكُّرٌ**»[(١)].

فالفقيه إذن هو العالم بأحكام الله تعالى، المتبصّر بها عن وعي رساليّ لا حفظ مصطلحات، وقواعد جامدة لا مساس لها بواقع الحياة؛ لأنَّ تلك الاصطلاحات والقواعد إنَّما وُضعت لتحصيل القدرة على استنباط الأحكام الشّرعيّة من الكتاب والسّنّة، والعمل على تفعيل تلك الأحكام في حياة النّاس، ولعلَّ هذا هو البصير الّذي وصفه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**فَإنَّما الْبَصيرُ مَنْ سَمعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعبَر، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً**[(٢)] **واضحاً يَتَجَنَّبُ فيه الصَّرْعَةَ في الْمَهاوي، وَالضَّلالَ في الْمَغاوي، وَلا يُعينُ عَلى نَفْسه الْغُواةَ بتَعَسُّفٍ في حَقٍّ، أَوْ تَحْريف في نُطْق، أَوْ تَخَوُّف منْ صدْق**»[(٣)].

فَالتّفقّه في أحكام الله يعْني: فهمهاً، وحفظها، وَوَعيها، والعَمل بها، والدَّعوة إليها بتبليغها ونشرها بين الملأ، والسَّعي لتطبيقها على الواقع الّذي يعيشه، ومحاولة

---

(١) الكافي: ١/٨٧ ح/٦٩.

(٢) الجدد: الأرض الصّلبة.

(٣) نهج البلاغة: ٢٤٤، خطبة: ١٥٣.

تحكيمها على قدر المستطاع، وليس العلم حفظ الحروف، وتضييع الحدود كما في نهاية الحديث.

ورد في الحديث عن ابن أبي يعفور، عن أبي عبد الله عليه السلام: «**أَنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله خَطَبَ النّاسَ في مَسْجد الْخَيْف، فَقالَ: نَضَّرَ**[1] **اللهُ عَبْداً سمعَ مَقالَتي، فَوَعاها، وَحَفظَها، وبَلَّغَها منْ لَمْ يَسْمَعْها، فَرُبَّ حامل فقْه غَيْرُ فقيه، وَرُبَّ حامل فقْه إلى منْ هُوَ أَفْقَهُ منْه**»[2].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**رَحمَ اللهُ عَبْداً سَمعَ حُكْماً فَوَعى، وَدُعيَ إلى رَشاد فَدَنا، وأَخَذَ بحُجْزَة هاد فَنَجا، راقَبَ رَبَّهُ، وَخافَ ذَنْبَهُ، قَدَّمَ خالصاً، وَعَملَ صالحاً، اكْتَسَبَ مَذْخوراً، وَاجْتَنَبَ مَحْذوراً، رَمى غَرَضاً، وَأَحْرَزَ عوَضاً، كابَرَ هَواهُ، وَكَذَّبَ مُناهُ، جَعَلَ الصَّبْرَ مَطيَّةَ نَجاته، وَالتَّقْوى عُدَّةَ وَفاته، رَكبَ الطَّريقَةَ الْغَرّاءَ، وَلَزمَ الْمَحَجَّةَ الْبَيْضاءَ، اغْتَنَمَ الْمَهَلَ، وَبادَرَ الأَجَلَ، وَتَزَوَّدَ منَ الْعَمَل**»[3].

٣- العمل بأحكامه: إنَّ التّلاوة والتّفقّه في القرآن الكريم ما لم تؤدّ إلى الالتزام بمبادئ القرآن، والعمل بأحكامه فلا قيمة لها، ولعلَّ القارئ الَّذي يقرأ القرآن، والقرآن يلعنه هو غير العامل به كما في قوله صلى الله عليه وآله: «**كَمْ منْ قارئ للْقُرْآن، وَالْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ**»[4]؛ وذلك لأنَّ العلم للعمل، «**وَالْعلْم يَهْتفُ بِالْعَمَل، فَإنْ**

---

(١) نَضُرَ وجهه، أي حَسُنَ، ونضَّر الله وجهه: أي جعله حسناً.

(٢) الكافي: ٢/٣٣٦، ح/١٠٥٨.

(٣) نهج البلاغة: ١٢٣، خطبة: ٧٥.

(٤) موسوعة الشّهيد الثّاني (الرّسائل): ٢/١٦٦.

أَجابَهُ وَإلا ارْتَحَلَ»(١).

وقد أشار الإمام عليّ عليه السلام إلى ذلك بقوله: «**يا حَمَلَةَ الْقُرْآن، اعْمَلوا به؛ فَإنَّما الْعالمُ مَنْ عَلمَ، ثُمَّ عَملَ بما عَلمَ، وَوافَقَ عِلْمُهُ عَمَلَهُ، وَسَيَكونُ أَقْوامٌ يَحْملونَ الْعلْمَ لا يُجاوزُ تَراقيهمْ، يُخالفُ سَريرَتُهُمْ عَلانيَتَهُمْ، وَيُخالفُ عَمَلَهُمْ علْمَهُمْ، يَجْلسونَ حَلَقاً، فَيُباهي بَعْضُهُمْ بَعْضاً، حَتّى أَنَّ الرَّجُلَ يَغْضَبُ عَلى جَليسه أَنْ يَجْلسَ إلى غَيْره وَيَدَعَهُ، أُولئكَ لا تَصْعَدُ أَعْمالُهُمْ في مَجالسهمْ تلْكَ إلى الله**»(٢).

وإنَّما لا تصعد أعمالهم؛ لأنَّهم لم يعملوا بما في كتاب الله الكريم من أوامر، ولم ينتهوا عن نواهيه، ولم يتّعظوا بمواعظه، ولم يعتبروا بقصصه، فعلمهم سقط من الاعتبار؛ لأنَّه خالفَ عملهم؛ فالقارئ للقرآن، والتّالي له حقّ تلاوته هو **من عمل بما أمره الله، وانتهى عما نهاه**، وهذا هو ما أكَّده رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «**أَنْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ما نَهاكَ، فَإذا لَمْ يَنْهَكَ فَلَسْتَ تَقْرَأُهُ**»(٣).

وعنه صلى الله عليه وآله: «**اقْرأَ الْقُرْآنَ ما نَهاكَ، فَإنْ لَمْ يَنْهَكَ فَلَسْتَ تَقْرَأُهُ**»(٤)؛ لأنَّ القراءة للعمل، والالتزام، والتّمسّك، والاعتصام، وهذا هو دليل الإيمان الحقيقيّ

---

(١) نهج البلاغة: ٥٤٦، قصار الحكم: ٣٥٦.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ٤٢/٥٠٩-٥١٠؛ ونهج السّعادة في مستدرك نهج البلاغة للمحموديّ: ٣/٩٠.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠/٢٣.

(٤) الدّيلميّ، كتاب فردوس الأخبار: ١/٥٢٥، ح/١٧٦٩، وكنز العمال للمتّقي الهنديّ: ١/٦٠٦، ح/٢٧٧٦.

بالقرآن الكريم، قال ﷺ: «**ما آمَنَ بالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحارِمَهُ**»(١).

٤- **الوقوف بتأمل عند وعده ووعيده**: في القرآن الكريم وعدٌ ووعيدٌ، وترغيبٌ وترهيبٌ، والقارئ عندما يتلو آياته ينبغي أن يقف عند ذلك بدقة، وتأمل، وتفاعل، وقد صور الإمام الحسين عليه السلام ذلك بقوله: «**إنَّ الْمُؤْمِنَ اتَّخَذَ اللهَ عِصْمَتَهُ، وَقَوْلَهُ مِرْآتَهُ، فَمَرَّةً يَنْظُرُ في نَعْتِ الْمُؤْمِنينَ، وَتارَةً يَنْظُرُ في وَصْفِ الْمُتَجَبِّرِينَ، فَهُوَ مِنْهُ في لَطائِفَ، وَمِنْ نَفْسِهِ في تَعارُفٍ، وَمِنْ فِطْنَتِهِ في يَقينٍ، وَمِنْ قُدْسِهِ عَلى تَمْكِينٍ**(٢)»(٣).

ولعلَّ هذا المعنى هو الَّذي قصده الإمام عليّ عليه السلام في وصف المتَّقين بقوله: «**فَإذا مَرّوا بِآيَةٍ فيها تَشْويقٌ رَكَنوا إلَيْها طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفوسُهُمْ إلَيْها شَوْقاً، وَظَنّوا أنَّها نُصْبَ أعْيُنِهِمْ، وإذا مَرّوا بِآيَةٍ فيها تَخْويفٌ، أصْغَوْا إلَيْها مَسامِعَ قُلوبِهِمْ، وَظَنّوا أنَّ زَفيرَ جَهَنَّمَ وَشَهيقَها في أُصولِ آذانِهِمْ**»(٤).

ومن خلال التّأمّل بهذين النَّصَّين الشَّريفين نجد أنَّ المتّقين التّالينَ للقرآن يعيشون بين الرَّجاء والخوف، فهم مع القرآن في ترغيبه وترهيبه ينقلهم من حالة إلى أخرى، فتارة يصبحون في شوق، وتلهّف، وتطلّع إلى رضوان الله شوقاً إلى لقائه وابتغاء لرضوانه، «**وَلَوْلا الأَجَلُ الَّذي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْواحُهُمْ في أَجْسادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقاً إلى الثَّوابِ**»، وتارة ترتعد فرائصهم، وتنخلع

(١) أبو الفتح الكراجكيّ، كنز الفوائد: ١/ ٣٥٠.

(٢) أي ومن طهارة نفسه على قدرة وسلطنة.

(٣) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٢٤٨؛ وينظر: بحار الأنوار: ١١٩/٧٨.

(٤) نهج البلاغة: ٣٣٢-٣٣٣، خطبة: ١٩٣.

قلوبهم «**خَوْفاً مِنَ الْعِقاب، عَظُمَ الْخالِقُ في أَنْفُسِهِمْ، فَصَغُرَ ما دونَهُ في أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّة كَمَنْ قَدْ رَآها، فَهُمْ فيها مُنَعَّمونَ، وَهُمْ وَالنّار كَمَنْ قَدْ رَآها فَهُمْ فيها مُعَذَّبونَ**»[١].

فهم يفتحون مسامع قلوبهم، لا صيوان[٢] آذانهم؛ لذلك يفزعون من عذاب ربّهم حتّى يصلوا إلى درجة كأنَّهم يسمعون زفير جهنم في أصول آذانهم، وهذا هو المنهج السَّليم؛ لتهذيب النَّفس، وإعدادها للقاء الله.

٥- الاعتبار بقصصه: إنَّ حركة الأنبياء على طول خط الرّسالة اشتملت على قصص فيها دروس وعبر تزكّي النّفوس، وتربّي العقول، وتوقظ الضّمائر، فالعاقل الرَّشيد لا يمرُّ على الأحداث مرور الغافلين، بل يفكّر فيها، ويتأمّل في أسبابها، وأهدافها، ومجرياتها، ونتائجها؛ ليفهم من خلالها سنن الله تعالى في التّأريخ، ويأخذ منها الدّروس والعبر، «ووجه الاعتبار بتلك القصص إنَّ الَّذي قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الجبّ، وإعلائه بعد حبسه في السّجن، وتمليكه مصر بعد أن كان كبعض أهلها في حكم العبيد، وجمعه بينه وبين والديه وإخوته على ما أحبّوا بعد مدّة طويلة، وشقّة بعيدة لقادرٌ أن يعزَّ محمّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، ويُعلي كلمته، وينصره على من عاداه»[٣].

فلم تأتِ القصّة في القرآن الكريم لمجرّد العرض الفنّيّ -وإن كان القصص القرآنيّ في أعلى صور الفنّ القصصيّ - ولا لتسلية النُّفوس، ولا لأجل العرض

---

(١) نهج البلاغة: ٣٣٢، خطبة: ١٩٣.

(٢) الصّيوان: هو الجزء المنحني الظّاهر من الأذن خارج الرّأس.

(٣) الشّيخ الطّوسيّ، التّبيان في تفسير القرآن: ٢٠٩/٦.

التّأريخي، وإنّما جاءت لأجل أن «تُثيرَ دَفائنَ الْعُقول»[١]، وتنفض أدران الغفلة عن القلوب اللاهية؛ لِتُهَيئها لتلقّي الدّروس الرّوحيّة، والفكريّة، والجهاديّة...الخ لمواصلة الكدح إلى الله، والاعتبار بما مضى، أي الاتّعاظ والتّذكر «بمعنى الاعتداد بالشَّيء في ترتّب الحكم»[٢].

ولقد حثَّ القرآنُ الكريم على هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٣].

إلا أنّه لا يستوحي هذه العبر، ولا يتلقّى هذه الدّروس القيّمة إلا أولو الألباب السَّليمة، والبصائر النّافذة، والنّفوس الطّاهرة، ومن هنا ينبغي لكلّ عاقل أن يقف ويتأمّل في كلّ قصة من القصص القرآنيّ، وهي وقائع حقيقيّة حدثت من خلال الصّراع بين الحقّ والباطل، بين رسل الله وطغاة عصورهم، وهي ترسم طريق السّلوك إلى الله تعالى، وتوضّح أهمّيّة رسالته في حياة البشريّة، وتبيّن رعاية الله لعباده، وتفضح أساليب الظّالمين لمقاومة الدّعاة إلى الله تعالى.

إنَّ المتأمّل في قصص القرآن يجد في كلّ قصة من قصصهم ما يرسم له

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «واصْطَفى سُبْحانَهُ منْ وَلَده أَنْبياءَ، أَخَذَ عَلى الْوَحْيِ ميثاقَهُمْ، وَعَلى تَبْليغ الرِّسالَة أَمانَتَهُمْ، لَمّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقه عَهْدَ الله إِلَيْهِمْ، فَجَهلوا حَقَّهُ، واتَّخذوا الأَنْدادَ مَعَهُ، وَاجْتالَتْهُمُ الشَّياطين عَنْ مَعْرفَته، واقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عبادَته، فَبَعَثَ فيهمْ رُسُلَهُ، وَواتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبياءَهُ، ليَسْتَأْدوهمْ ميثاقَ فطْرَته، ويُذَكّروهُمْ مَنْسيَّ نعْمَته، ويَحْتَجّوا عَلَيْهِمْ بالتَّبْليغ، ويُثيروا لَهُمْ دَفائنَ الْعُقول»، نهج البلاغة: ٤٥-٤٦، خطبة: ١.

(٢) الفيّوميّ، المصباح المنير: ٣٩٠، (عبر).

(٣) يوسف: ١١١.

طريق الرَّشاد، ويضعه على الصّراط السّويّ، وتبرز من خلال هذه القصص حكمة الله، وقدرته، ونصرته لعباده بعد ابتلائهم، واختبارهم، وإبادته لأعدائه كما تتجسّد في هذه القصص سنن الله في التّأريخ، ومن خلالها يتّضح لنا دور رسالة الله تعالى في الحياة البشريّة، ومقدار معاناة رسله في سبيل إبلاغها، ومقدار ما تحمَّلوا من أجلها من العذاب في مقاومة تيّارات الكفر، والشّرك، والنّفاق، وكلّ أشكال الطّاغوت، وتبرز في قصص القرآن أخلاق أولياء الله تعالى، وعناصر القوّة فيهم، وتتجلّى رعاية الله لعباده الصّالحين، وتبرز في الجبهة المقابلة أخلاق أعداء الله تعالى، وأساليبهم، وظلمهم.

إذن من خلال (**التّلاوة الحقيقيّة**) يستلهم الإنسانُ الدّروس والعبر من قصص الأنبياء ما يرسم له سبيل الثّبات، والاستقامة على خطّهم، ورسالتهم، يقول تعالى: ﴿ **وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾(١).

ففي كلّ قصة أنباء وأخبار رساليّة وقعت في حياتهم في سبيل إعلاء كلمة الله، ومن هذه الأخبار نستوحي المواعظ، والعبر، والذكر؛ لتَثبت به أفئدتنا عندما تشتدّ المحن، وتظلم دنيا النّاس؛ ولذا نجد أنَّ الله تعالى يأمر رسوله أن يقصّ القصص للنّاس؛ ليثير فيهم الفكر، ويحرّك العواطف النّاضجة، يقول تعالى: ﴿ **فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾(٢).

﴿ **إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾(٣).

---

(١) هود: ١٢٠.

(٢) الأعراف: ١٧٦.

(٣) آل عمران: ٦٢.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[١].

الآدابُ النَّفْسيَّةُ لِتِلاوَةِ الْقُرْآنِ:

ينبغي لمن يريد أن يتلو القرآن الكريم تلاوة حقيقيّة أن يعرف ماذا يقرأ؟ ولمن يقرأ؟ وكيف يقرأ؟ ويوحي إلى نفسه أنَّه يتلقّى كتاب الله ورسالته، فما هي الحالة الَّتي يجب أن يكون عليها القارئ كي يكون ظرفه قابلاً للتّلقّي.

وقد ذكر العلماءُ أموراً هامّة ينبغي أن يُؤَصّلها القارئ في نفسه كي يتفاعل مع الوحي الإلهي، وهي:

أوّلاً: أن يكون مؤمناً ناصحاً لكتاب الله: و«النَّصيحة لكتاب الله تعالى: هي الإيمان بأنَّه كلام الله تعالى وتنزيله، لا يشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله الخلق بأسرهم، ثمّ تعظيمه وتلاوته حقَّ تلاوته، وتحسينها والخشوع عندها، وإقامة حروفه في التلاوة، والذّبّ عنه؛ لتأويل المحرّفين، وتعرُّض الطّاغين، والتَّصديق بما فيه، والوقوف مع أحكامه، وتفهّم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه، والتّفكّر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتَّسليم بمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه، وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه، والدّعاء إليه، وإلى ما ذكرنا من نصيحته»[٢].

وقد جاء في روايات عدّة لزوم تربية النّفس على النّصيحة لله، ولرسوله، ولأئمّة الهدى، ولكتاب الله، وللمسلمين، والمؤمنين، فقد رُوِيَ أنَّ النبي ﷺ قال:

---

(١) يوسف: ٣.

(٢) النّووي، التّبيان في آداب حملة القرآن: ١٨٧-١٨٨.

«إنَّ الدّين النَّصيحَة، إنَّ الدّين النَّصيحَة، إنَّ الدّين النَّصيحَةُ لله، ولكتابه، ولنبيِّه، ولأئمَّة المُسْلمين وعامَّتهم»(١).

وعن رسول الله ﷺ: **«منْ يضْمنْ لي خَمْساً أَضْمنْ لهُ الْجنَّة»** قيل: «وما هي يا رسول الله؟» قال ﷺ: **«النَّصيحَةُ لله عزَّ وجلَّ، والنَّصيحَةُ لرسوله، والنَّصيحَةُ لكتاب الله، والنَّصيحَةُ لدين الله، والنَّصيحَةُ لجماعَة المُسْلمين»**(٢).

«ومعنى النَّصيحة لله هو الإيمان والإقرار بوحدانيّته، وبما يصحّ له، ويمتنع عليه، والتزام تكاليفه، والعمل بها على الوجه المطلوب من إخلاص النّيّة وغيره»(٣)، وإذا تمَّ النّصح لله تمّ كلّ ما يلحق به، ويتفرّع منه فلا حاجة إلى المزيد.

ثانياً: أن يبذل قصارى جهده لفهم كلام الله تعالى، ووعي علوّ شأنه، وأن يعمل بجدّ في طرد موانع الفهم، وليس هناك من مانع عن فهم القرآن أسوأ من المعاصي والذّنوب؛ لأنّها تلوّث النّفس، وتطبع أدرانها على صفحاتها، وتحجب نور السّماء عنها؛ ولهذا كان للقرآن أثران متعاكسان في النُّفوس، فالنَّفس الطّاهرة الزّكيّة يزيدها إيماناً، والنّفس الدّرنة الملوّثة يزيدها كفراً وطغياناً، يقول تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾(٤).

﴿ **وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ**

---

(١) الشّافعيّ، الرّسالة: ٥١، ح/١٧٢.

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٢٩٤/١.

(٣) شرح أصول الكافي: ١٠٢/٩.

(٤) الأنفال: ٢.

﴿ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[١].

والسّرّ في ذلك أنَّ الظّرف النّفسيّ للمؤمنين طاهر زكيّ من الأرجاس، فأصبح مهيّأً لقبول النّور الإلهيّ، وأمّا النّفوس الملوّثة بالأمراض الرّوحيّة، والأخلاقيّة، والفكريّة، فلا يمكن أن تتقبّل النّور، فالقرآن كماء المطر الَّذي ينزل على الأرض بدرجة واحدة، وبالمقدار نفسه إلا أنَّ الأرض الطّيّبة المحروثة تخرج الأزهار والأثمار، وأمّا الأرض السَّبخة، فلا يزيدها الماء إلا خشونة وعفونة، وهكذا القرآن الكريم في الوقت الَّذي يكون للمؤمنين شفاء ورحمةً يكون للظالمين خساراً، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾[٢].

الْمَوانِعُ الَّتي تَحْجِبُ الْقُرآنَ عَنِ النَّفْسِ:

القرآن ماء الحياة، ولكنَّ الماء في كثير من الأحيان ينزل على الأرض، فلا يجديها نفعاً، فلا تنبت الزّرع والكلأ؛ والسَّبب في ذلك ليس في الماء، ولكن لوجود موانع في الأرض، وهذه الموانع إمّا وجود صخور تمنع الماء من التّغلغل إلى أعماق الأرض، وإمّا لوجود الأملاح أو لشيء آخر، كذلك الإنسان قد يتلو القرآن، ويفهم ما فيه، ولكن لا يجديه نفعاً فلا يتأثّر به، ولا تتغيّر به نفسه، وتبقى على ما هي عليه؛ لوجود موانع في ظرفه النّفسيّ؛ إمّا لعدم الإيمان التّامّ به لشكّ، أو

(١) التّوبة: ١٢٤-١٢٥.

(٢) الإسراء: ٨٢

شبهة فكريّة، أو عقائديّة، أو لاتّخاذه وسيلةً للشُّهرة والسُّمعة، أو تقرّباً به لحُكّام الجور طمعاً لما في أيديهم، أو لاتخاذ قراءته مهنة يعتاش بها، أو ما إلى ذلك من عوامل تحجب القرآن عن قلبه.

وقد أوضح رسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ ذلك بأروع تمثيل، فقال صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ به من الْهُدى والْعلْم كَمَثَل الْغَيْث الْكَثير أَصاب أَرْضاً، فَكانَ منْها نَقيَّةٌ قَبلَت الْماءَ، فَأَنْبَتَت الْكَلأ والْعُشْبَ الْكَثيرَ، وكانَتْ منْها أَجادبَ**[1] **أَمْسَكَت الْماءَ، فَنَفَعَ اللهُ بها النّاس، فَشَربوا منْها، وَسَقوا، وَزَرَعوا، وأَصابَ منْها طائفَةٌ أُخْرى، إنَّما هيَ قيعانٌ لا تُمْسكُ ماءً، ولا تُنْبتُ كَلأً، فَذلكَ مَثَلُ مَنْ فَقهَ في دين الله، ونَفَعَهُ ما بَعَثَني اللهُ به، فَعَلمَ وَعَلَّمَ، ومَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْساً، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدى الله الَّذي أُرْسلْتُ به**»[2].

وأهمّ الأسبابَ الَّتي تمنعَ من تنَوّر النَّفس بالقرآن هي[3]:

أ- (**حجاب رؤية النّفس**): هو جانب من جوانب العجب حيث يرى الإنسان نفسه متّصفة بالكمالات كلّها، وينظر إلى الآخرين نظرة استصغار، ويرى أنَّ ما عنده هو أساس العلم والحياة، ويقتصر على هذا الجانب دون سواه، مثلاً أن

(١) قال النّوويّ: «أمّا الأجادب؛ فبالجيم والدّال المهملة، وهي الأرض الّتي لا تنبت كلأً، وقال الخطابيّ: هي الأرض الّتي تمسك الماء فلا يسرع فيه النّضوب، قال ابن بطّال وصاحب المطالع وآخرون: هو جمع جدب على غير قياس، كما قالوا في حسن جمعه محاسن، والقياس أنَّ محاسن جمع محسن»، صحيح مسلم بشرح النّوويّ: ٤٦/١٥.

(٢) صحيح البخاريّ: ٢٨/١، وينظر: منية المريد للشّهيد الثّاني: ١٠٢، باختلاف طفيف.

(٣) هذه النّقاط مستفادة من كتاب الآداب المعنويّة للصّلاة للإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: ٣٣٩-٣٤٧، ترجمة السّيّد الفهريّ.

يرى أهل التَّجويد أنَّه هو الأساس، وأنَّ باقي العلوم القرآنيّة لا شيء بالنسبة لهم، وهكذا لمن تعشّق الأدب والتّفسير المعتاد الّذي يهتمّ بالبحث اللّغويّ، والإعرابيّ، والقراءات، وجمع الآراء، وأسباب النّزول، وكون الآيات مدنيّة أو مكيّة... الخ، ومن هنا يحتاج الإنسان لكي يفهم القرآن، ويعيه، ويحوّله إلى قوّة مؤثّرة في حياته، وموجّهة لها، وحاكمة فيها أن لا يقتصر على فهم هذه المعاني فقط، وإنَّما لا بدَّ أن ينظر إلى كتاب الله نظرة كلّيّة، وعلى أنَّه رسالة واحدة لا تقبل التَّبعيض، ولا يكتفي بالتّوقّف عند علم واحد، وإنَّما ينبغي أن يغور في بحر القرآن؛ ليستخرج جواهره، وقد توعّد الله تعالى من يأخذ بعضاً من الرّسالة، ويترك البعض الآخر بالخزي والعذاب الشَّديد: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[(١)].

ب- **(حجاب الآراء الفاسدة والمسالك والمذاهب الباطلة):** قد يرث الإنسان العديد من الآراء، والعقائد، والمسالك، والمذاهب الباطلة، وتكون منطبعة في ذهنه، ومنعكسة في سلوكه، وعندما يريد أن يتلقّى القرآن تبقى هذه الرّواسب مؤثّرة في نفسه، فيحاول أن يعطف القرآن إليها، ويؤوّله حسب مقتضيات تلك الرَّواسب، ولا سيما أنَّ القرآن «**حَمّالٌ ذو وُجوهٍ**»[(٢)]، فيصرف الآيات عن

(١) البقرة: ٨٥.

(٢) جملة من كتاب كتبه أمير المؤمنين عليه السلام لابن عبّاس حين أرسله لمحاجة الخوارج جاء فيه: «**لا تُخا صِمْهُمْ بالْقُرْآن، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمّالٌ ذو وُجوه، تَقولُ ويَقولونَ، ولَكِنْ حاجِجْهُمْ بالسُّنَّة، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدوا عَنْها مَحيصــاً**» نهج البلاغة: ٤٨٣، كتاب: ٧٧، ومعنى هذه الجملة: «أي يحمل معاني كثيرة إن أخذْتَ بأحدها احتجَّ الخصم بالآخر».

مقاصدها الحقيقيّة؛ ولذا حذَّر القرآن من الالتزام بالأفكار الغريبة عنه، والسّير على سنن الآباء والكبراء، فذَكَر هؤلاء بنحو الازدراء والتَّحقير، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(1).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾(2).

﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(3).

وهكذا يكون اعتناق العقائد والآراء الفاسدة حجاباً غليظاً يحجب القرآن عن القلوب: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(4).

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(5).

ج- القول: «بأنَّه ليس لأحد حقّ الاستفادة من القرآن الشّريف إلا بما كتبه المفسّرون أو فهموه»: إنَّ جميعَ طبقات النّاس - كما أشرنا سابقاً - قادرةٌ على الاستفادة من القرآن، كلّ بحسب معرفته، وسعة ظرفه النّفسيّ، فمن كان وعاءُ فكره واسعاً وطاهراً من الأرجاس الخلقيّة، وأدران الذّنوب، ونقيّاً من الأمراض الفكريّة يستوعب منه الكثير، ومن كان ظرفُه صغيراً يمكن أن يتلقّى بمقداره، فالقرآن كالشَّمس الَّتي تشرق على كلّ أحد، وكلّ إنسان يستفيد منها بمقدار

(١) المائدة: ١٠٤.

(٢) لقمان: ٢١.

(٣) الشّعراء: ٧٤.

(٤) محمّد: ٢٤.

(٥) النّساء: ٨٢.

معرفته، وطاقته، وجدّيّته.

وفنون الاستفادة من القرآن كثيرة؛ منها: تعلّم العقائد والأحكام، والمواعظ، والعبر، والآداب، والسّلوك، ومنها: التّفاعل الرّوحيّ والنّفسيّ الّذي يمنح الإنسان الاطمئنان النّفسيّ، والثّقة المبدئيّة، ويضعه على جادّة الصّواب، ويشدّه إلى الله تعالى قياماً وقعوداً، ويجعله متفكّراً في خلق السّماوات والأرض، ويعرّفه سرّ وجوده، وعلّة إيجاده، وبذلك يمنحه الله الوضوح في الهدف، والجدّيّة في الحركة، والإخلاص في العمل، وأمّا لو اقتصرنا على ما كتبه المفسّرون، وجمعنا آراءهم نرى تضارباً وتفاوتاً، وربّما تهجم بعضهم على البعض الآخر...

ولا يعني هذا الإعراض عن كلّ ما تفضّل به المفسّرون، وأخذ القرآن بالرّأي البسيط، بل لا بدّ من الرّجوع إلى ما كتبه المفسّرون؛ لفهم القرآن، ولكنّ هذا لا يتوفّر للجميع، ولا يمكن للجميع أن يميّزوا بين الغثّ والسّمين.

وعلى كلّ حال لا بدَّ من أن نتلقّى القرآن غضّاً طريّاً كما أنزله الله تعالى؛ لتخشع له القلوب، وليترسّخ فيها التّوحيد، والعدل، والحبّ، والإخلاص، والوفاء، والصّدق، والحقّ، والخير، والجمال... الخ، ونبتعد عن التّعقيدات والتّفصيلات الّتي لا موجب لها، ونتركها للمتخصّصين فيها، والباحثين عنها، مع اجتناب التّفسير بالرّأي[(١)] من دون الرّجوع إلى خُزّان الوحي صلوات الله عليهم أجمعين.

---

(١) قال الميرزا حبيب الله الخوئيّ: «المراد من التّفسير بالرّأي حمل اللّفظ على خلاف ظاهره أو أحد احتماليه، لرجحان ذلك في نظره القاصر، فلا يشمل حمل ظواهر الكتاب على معانيها اللّغويّة والعرفيّة الظّاهرة» منهاج البراعة: ٢٢٨/٢؛ وقال محمّد عليّ أيازي: «ويظهر من كلمات العلماء أنّ معنى التّفسير بالرّأي هو أن يقول المفسّر في معنى الكلمة أو الآية ما لا يؤيّده ظاهر اللّفظ بوجه من الوجوه، ولا يوجد نصّ يوافقه في رأيه من النّبيّ صلى الله عليه وآله أو أهل بيته عليهم السلام»، تفسير القرآن المجيد المستخرج من تراث الشّيخ المفيد: ٢١.

د- (حجاب المعاصي والكدورات الحاصلة من الطّغيان والعصيان):

لكلّ عملٍ من أعمال الإنسان أثرٌ على القلب إمّا سلباً، أو إيجاباً، فإذا كانت الأعمالُ حسنةً أورثت القلب نورانيّة؛ لكونه طاهراً ومُنَوّراً، وتكون النّفس كالمرآة الصَّقيلة تعكس الصّورة واضحة صافية... وإذا كانت الأعمال قبيحة - والعياذ بالله - انعكس أثرها على القلب ظلاماً معتماً لا يقبل النّور المتمثّل بالعلوم الإلهيّة، وفي هذا يكون كالمرآة الَّتي يغطّيها الغبار، فلا تعكس الصَّورة كما يراد، والقرآن الكريم قد جسَّد هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿ **إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۞ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ** ﴾[١].

وهكذا يبقى الإنسان محجوباً في ظلمات المعاصي، ولا يستفيد من القرآن شيئاً، ولا يتفقّه في الدّين، ويحرم من التّفكير في آيات الله تعالى، ويكون مصداقاً لما وصفه الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾[٢].

هـ- (حجاب حبّ الدنيا): ممّا لا شكَّ فيه أنَّ حُبَّين لا يجتمعان في قلب واحد، فـ﴿ **مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** ﴾[٣]، فإذا امتلأ القلب بحبّ الدُّنيا استقطبت كلّ قواه، وطاقاته النّفسيّة والبدنيّة، ولا يعود يلتفت إلى ما سواها، فالقلب

---

(١) المطفّفين: ١٣-١٥.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) الأحزاب: ٤.

المُولَع بحبّ الدّنيا لا بدّ وأن يحجب عن الأنوار الإلهيّة، وبذلك نخرج بحقيقة، وهي أنَّ ازدياد حب الدنيا، وشدّته، والولع بها يحجب القلب عن قبول المعارف الإلهيّة، فلا يجتمع حبُّ الدُّنيا مع الأنوار الإلهيّة مطلقاً؛ لأنَّ النتيجة تتبع أخسّ المقدّمتين كما يقول المناطقة؛ ولذا إذا تلوّث القلب بحبّ الدُّنيا لا يمكن أن يمسّه نور القرآن؛ لأنّه ﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾[1].

قال الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّه: «فكما أنَّ غير المطهّر الظّاهريّ ممنوع عن ظاهر هذا الكتاب ومسّه في العالم الظّاهر تشريعاً وتكليفاً، كذلك ممنوع من معارفه، ومواعظه، وباطنه، وسرّه، من كان قلبه متلوّثاً بأرجاس التّعلّقات الدّنيويّة، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[2]... فغير المتّقي بحسب تقوى العامّة وغير المؤمن بحسب إيمان العامّة محروم من الأنوار الصّوريّة لمواعظه وعقائده الحقَّة، وغير المتّقي، وغير المؤمن بحسب سائر مراتب التَّقوى، وهي تقوى الخاصّ، وتقوى خاصّ الخاصّ، وتقوى أخصّ الخواصّ محروم من سائر مراتبها»[3].

ثالثاً: التّوجّه الكامل، أو الاستعداد للتّلقّي: أو ما يسمّى في لغة العرفاء حضور القلب، وهو عبارة عن التّجرّد الكامل؛ لتركيز الفكر، وتخلية القلب من كلّ الشّواغل الدّنيويّة بجدّ، ومعاناة، واجتهاد خالص لله تعالى، ولعلَّ هذه ما عبَّر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ

---

(١) الواقعة: ٧٨-٧٩.

(٢) البقرة: ٢.

(٣) الآداب المعنويّة للصّلاة: ٣٤٦-٣٤٧.

تَتَّقُونَ ﴾[١].

﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ﴾[٢].

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[٣].

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٤].

والأخذ بقوّة هو: التّلقّي لوحي السَّماء بفهم، ووعي، والتزام حيث يستقطب كلّ قوى الإنسان البدنيّة والنّفسيّة والعقليّة والقلبيّة، ويحرّك جميع جوارحه وجوانحه؛ وينزل القرآن في نفس المتلقي من عالم الفكر الى عالم القلب؛ ليمتزج الفكر بالعاطفة، فيوجّه الفكرُ العاطفةَ ليُنضجها، وتفجّر العاطفةُ الفكرَ، وتحوّله إلى طاقة حركيّة مُغيِّرة أو مُصلحة، ولعلَّ هذا هو مصداق دخول الإيمان في القلوب في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[٥].

وهذا الأمر يحتاج إلى قوّة مادّيّة ومعنويّة، سُئِلَ الإمام الصّادق عليه السلام عن تفسير هذه الآية: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾[٦]: «أقوّة في الأبدان أو قوّة في

(١) البقرة: ٦٣.

(٢) البقرة: ٩٣.

(٣) مريم: ١٢.

(٤) الأعراف: ١٤٥.

(٥) الحجرات: ١٤.

(٦) البقرة: ٦٣، البقرة: ٩٣، الأعراف: ١٧١.

القلب؟» قال عليه السلام: «**فيهما جميعاً**»[١].

رابعاً: التّدبّر في القرآن: وهو أهمّ ما في القراءة؛ فإنّها إذا لم تكن عن تدبّر وتفكّر، ستكون لقلقة لسان فارغة المحتوى، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**ألا لا خَيْرَ في قِراءَةٍ لَيْسَ فيها تَدبُّرٌ**»[٢].

إذن التّدبّر في القرآن أمرٌ في غاية الأهمّيّة، وعلى الإنسان أن يبذل قصارى جهده؛ ليفهمه، ويعيه، ويطبقه، يقول تعالى: ﴿**كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ**﴾[٣]، فإنَّ الله تعالى أنزل آياته لخلقه؛ ليتدبروا فيها، ويتفكروا، ويستجلوا ما فيها من عقائد، وحكم، ومواعظ، وأحكام؛ ليعالجوا بها أمراض القلوب فـ«لا يتفكّر فيه متفكّر إلا ويطول حزنه، ويعظم خوفه، إن كان مؤمناً بما فيه»[٤].

وإنّما أمر الله تعالى بالتّدبّر في كتابه؛ لأجل أن يتوصّل القارئ إلى استجلاء حقائقه، ووعي أحكامه، ومفاهيمه؛ ليتربّى عليها، وليصنع نفسه وفق مبادئه وأحكامه، ويتحلّى بأخلاقه متجسّدة في سلوكه وعلاقاته مع الله، ومع نفسه، ومع مجتمعه، ومع الطبيعة؛ فإنَّ «القرآن الكريم كتاب هداية وتربية وتوجيه، وقد أنزله الله تعالى؛ لتربية هذه الأمّة وإنشائها وإعدادها إعداداً كاملاً؛ لتكون أمّةً صالحةً، فلا بدَّ أن يكون جامعاً وحاوياً لجميع ميادين التَّربية في حياة الإنسان، فهو كتاب توحيد خالص من شوائب الشّرك والإلحاد، وكتاب حكمة ومعارف حقّة، وكتاب

(١) البرقيّ، المحاسن: ٤٠٧/١، ح/٩٢٣.

(٢) الكافي: ٨٧/١ ح/٦٩.

(٣) ص: ٢٩.

(٤) الإمام الغزاليّ، إحياء علوم الدّين: ٣٨٧/٣.

تربية الرّوح والعقل، وتزكية النَّفس، وتربية الجسد، وكتاب تربية الفرد والاجتماع، وسَوْق كلّ منهما إلى منتهى الكمال، وكتاب أخلاق يحتوي على جميع الفضائل العامّة الإنسانيّة.

و القرآن الكريم كتاب يوازن بين مطالب الجسد ومطالب الرّوح، وبين الدّنيا والآخرة، بلا اختلاف يتداخل فيه جميع الشّؤون المرتبطة بالإنسانيّة على نحو الإعجاز في كلّ جانب، فهو كتاب كما وصفه عليٌّ عليه السلام: «**ظاهِرُهُ أَنِيقٌ، وَباطِنُهُ عَميقٌ، لا تَفْنى عَجائِبُهُ، وَلَا تَنْقَضي غَرائِبُهُ، وَلا تُكْشَفُ الظُّلُماتُ إلا بِه**»[١]، فهدفه إعداد الإنسان الصّالح، وترقّيه من حضيض الرّذيلة إلى أوج الشَّرف والكمال»[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الْقُرْآنُ هُدًى مِنَ الضَّلالَة، وَتِبْيانٌ مِنَ الْعَمى، وَاسْتِقالَةٌ مِنَ الْعَثْرَة، وَنورٌ مِنَ الظُّلْمَة، وَضِياءٌ مِنَ الأَحْداث، وَعِصْمَةٌ مِنَ الْهَلَكَة، وَرُشْدٌ مِنَ الْغِوايَة، وَبَيانٌ مِنَ الْفِتَن، وَبَلاغٌ مِنَ الدُّنْيا إِلَى الآخِرَة، وَفيهِ كَمالُ دينِكُمْ، وَما عَدَلَ أَحَدٌ عَنِ الْقُرْآنِ إلا إِلَى النّار**»[٣].

ولفهم القرآن الكريم درجات، كلّ يفهمه بمقدار ما آتاه الله من إيمان، وفطنة، وتأمّل، وطهارة نفس، وسعة أفق، وانشراح صدر، ويقظة قلب، وهدفيّة واضحة، فوعي الإمام للقرآن الّذي هو قمّة الكمال غير وعي الآخرين له؛ ولذا ينبغي الرُّجوع لحملة القرآن الكريم الّذين خوطبوا به؛ لأنّه لا يفهم القرآن الفهم الكامل لجميع أبعاده وأسراره إلا من خوطب به، وهذا لا ينفي أن يتدبّر الآخرون

(١) نهج البلاغة: ٧١، خطبة: ١٨.

(٢) السّيّد عبد الأعلى السّبزواريّ، مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن: ٧٩/٩.

(٣) الكافي: ٥٩٩/٤، ح/٣٤٨٠.

في القرآن لوعي ما فيه بمقدار ما آتاهم الله من فطنة وفهم، وطهارة ظرف، وإلى هذا المعنى أشار الإمام الباقر عليه السلام بقوله لقتادة بن دعامة: «**وَيْحَكَ يا قُتادَةُ، إنَّما يَعْرِفُ الْقُرْآنَ من خوطِبَ به**»[(١)].

وقال له عليه السلام: «**فَإنْ كُنْتَ تُفَسِّرُهُ بعِلْمٍ فَأَنْتَ أَنْتَ**»[(٢)]، «أي أنت المفسّر الّذي يجوز له التَّفسير والرُّجوع إليه، والحاصل أنت كامل في العلم، وفي هذا الخبر دلالة على أنَّ متشابهات القرآن، بل متشابهات الأحاديث أيضاً، وجب ردُّها إلى أهل الذّكر عليهم السلام، ولا يجوز التَّفسير بما استحسنه الرّأي، واختلف مخالفونا، فبعضهم قال: وجب الرَّدُّ إلى الله سبحانه، وذهب معظم المتكلّمين إلى أنَّها تصرف عن ظاهرها المحال، ثمَّ تأوّل على ما يليق، ويقتضيه الحال»[(٣)].

وقال المرحوم المجاهد المرجع الدّينيّ السّيّد عبد الأعلى السّبزواريّ في تفسيره القيّم مواهب الرَّحمن: «إنَّ القرآن مما يناله الفهم العاديّ، فلو لم يكن كذلك لما أمر الله سبحانه بالتّدبّر والتّأمّل فيه لمعرفة الحق، وإنَّ التّأمّل فيه يهدي صاحبه إلى كون القرآن من عند الله تعالى العليم بمصالح عباده الّذي يهديهم بما يصلح أمرهم»[(٤)].

وقد ذمَّ اللهُ أقواماً لم يحرّكوا عقولهم بالتَّفكير والتّدبّر في القرآن، فقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[(٥)].

---

(١) الكافي: ٦٩٩/١٥، ح/١٥٣٠٠.

(٢) المصدر نفسه: ٦٩٩/١٥، ح/١٥٣٠٠.

(٣) شرح أصول الكافي: ٤٧٥/١٢.

(٤) مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن: ٧٨/٩.

(٥) محمّد: ٢٤.

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾[١].

وهكذا ننتهي إلى نتيجة رائعة، وهي: أنَّ تلاوة القرآن حقّ تلاوته ليس مقدار ما يُقرأ منه، ولا عدد مرّات قراءته من ختمات... وإنَّما هو: تلاوة، وفهم، وتدبّر، ووعي، واعتبار، وعمل بأحكامه، ومضامينه، ومفاهيمه، بتحليل حلاله، وتحريم حرامه، وهذا نهاية الإيمان به، قال ﷺ: «**ما آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ حَرَامَهُ**»[٢].

ونختم هذا البحث ببعض ما ورد من أحاديث شريفة في تلاوة القرآن، قال الإمام الباقر عليه السلام: «**قُرّاءُ الْقُرْآنِ ثَلاثَةٌ: رَجلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ، فَاتَّخَذَهُ بضاعَةً، وَاسْتَدَرَّ به الْمُلوكَ، وَاسْتَطالَ به عَلى النّاس؛ ورَجَلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ، فَحَفظَ حُروفَهُ، وضَيَّعَ حُدودَهُ، وأَقامَهُ إقامَةَ الْقدْحِ**[٣]**، فَلا كَثَّرَ اللهُ هؤلاءِ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ؛ وَرَجَلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ، فَوَضَعَ دَواءَ الْقُرْآنِ عَلى داءِ قَلْبِه، فَأَسْهَرَ به لَيْلَهُ، وَأَظْمَأَ به نَهارَهُ، وَقامَ به في مَساجِده، وَتَجافى به عَنْ فِراشه، فَبِأُولئكَ يَدْفَعُ اللهُ الْعَزيزُ الْجَبّارُ الْبَلاءَ، وَبِأُولئكَ يُديلُ**[٤] **اللهُ عَزَّ وَجَلَّ من الأَعْداء، وَبِأُولئكَ يُنَزِّلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْغَيْثَ مِنَ السَّماءِ، فَوَاللهِ لَهؤُلاءِ في قُرّاءِ الْقُرْآنِ أَعَزُّ مِنَ**

---

(١) المؤمنون: ٦٨.

(٢) تحف العقول: ٥٦.

(٣) اختلف في المراد من هذه الجملة، فقال الفيض: «يعني نبذه وراء ظهره؛ فإنَّ الرّاكب يعلّق قدحه من خلفه»، وقال المجلسيّ: «ويحتمل أن يكون التّشبيه من حيث إنَّ القدح - وهو السّهم بلا ريش - مستقيم ظاهراً، ولا ينتفع به؛ لعدم الوقوع على الهدف»، وهناك آراء أخرى، ينظر: هامش المصدر.

(٤) الدَّولة في الحرب: أن تُدال إحدى الفئتين على الأخرى، والإدالة: الغلبة.

الْكبْريت الأَحْمر»[١].

وقَال ﷺ: «اقْرؤوا الْقُرْآنَ بأَلْحان الْعَرَب وأَصْواتها، وإِيّاكُمْ ولُحون أَهْلِ الْفسْق، وأَهْلِ الْكَبائر، فَإِنَّهُ سَيَجيءُ منْ بَعْدي أَقْوامٌ يرَجِّعُون الْقُرْآنَ تَرْجيعَ الْغناء، والنَّوْحِ، والرَّهْبانيَّة، لا يَجوزُ تَراقيهُمْ، قُلوبُهُمْ مقْلوبة، وقُلوبُ مَنْ يُعْجبُهُ شأْنُهُمْ»[٢].

الْقُرْآنُ بَصائِرُ لِلنّاسِ:

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[٣].

﴿هَٰذَا﴾ إشارة تعظيم وتفخيم للقرآن، وبيان لدوره في حياتنا الفكريّة والرّوحيّة والعلميّة، وتنبيه وتذكير بنعم الله الكريم المتمثّلة في هذا القرآن، هذا العطاء لنْ يعدلَه عطاء، ولا يُقَيَّم بقيمة، ولا يحدّ بحدود الزّمان والمكان؛ ولذا صار «الْقُرْآنُ غنًى لا فَقْرَ بَعْدَه، ولا غنًى دونَهُ»[٤].

فَتَعلّمُه وتعليمه -إذا كان لله- أفضل وأسمى ما يعطى العبد، ورد عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «مَنْ قرأَ الْقُرْآنَ فرأى أَنَّ أَحداً أُعْطِيَ أَفْضَلَ ممّا أُعْطِيَ فَقَدْ حَقَّرَ ما عَظَّمَهُ اللهُ، وعَظَّمَ ما حَقَّرَهُ اللهُ»[٥].

(١) الكافي: ٦٥٨/٤، ح/٣٥٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ٦٢٩/٤-٦٣٠، ح/٣٥٢٦.

(٣) الأعراف: ٢٠٣-٢٠٤.

(٤) الطّبرانيّ، المعجم الكبير: ٢٥٥/١، ح/٧٣٨.

(٥) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٨٥/١.

وقد وصف الله كتابه كما في الآية المتقدّمة بثلاثة أوصاف لا يستغني البشر عن أحدها أبداً مهما كان، ومن كان، وأين ما كان، تلك الأوصاف هي:

١- **بصائر**: والبصائر جمع بصيرة، وهي القوّة الّتي تدرك الحقائق العلميّة، أو هي نور في القلب يدرك الدّلائل الإلهية من خلال التّفكّر في آلاء الله ومخلوقاته؛ ليعتبر بالسّنن الإلهيّة في الكون، فمعنى كون القرآن بصائر أنَّ «هذا القرآن دلائل ظاهرة، وحجج واضحة، وبراهين ساطعة من ربّكم، يبصر الإنسان بها أمور دينه»(١).

فالأدلّة والبراهين القرآنيّة دلائل حق وصدق لا يأتيها الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال عدلُ القرآن الإمامُ عليّ عليه السلام: «**وَاعْلَموا أَنَّ هذا الْقُرْآنَ هُوَ النّاصِحُ الَّذي لا يَغُشُّ، وَالْهادي الَّذي لا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذي لا يَكْذِبُ، وَما جالَسَ هذا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلا قامَ عَنْهُ بِزِيادَةٍ أَوْ نُقْصانٍ: زِيادَةٌ في هُدًى، أَوْ نُقْصانٍ مِنْ عَمًى**»(٢).

فالبصائر إذن هي الإدراكات العقليّة مقابل البصر الّذي يدرك الأشياء الحسّيّة، جاء في العقد الفريد: «دخل عقيل [بن أبي طالب] على معاوية، وقد كُفَّ بصره، فأجلسه معاوية على سريره، ثمّ قال له: أنتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم! قال: وأنتم معشر بني أمية تصابون في بصائركم»(٣).

فالقرآن بصائر: أي دلائل تهدي إلى سبيل الرّشاد في الدُّنيا والآخرة، فهو

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٩٠/٤.

(٢) نهج البلاغة: ٢٨٣-٢٨٤، خطبة: ١٧٦.

(٣) ابن عبد ربّه، العقد الفريد: ٨٣/٤.

نور يكشف ظلمات الدّنيا أمام البشر، ويميّز لنا الحقَّ من الباطل، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**كتابُ الله تُبْصِرونَ به، وتَنْطِقونَ به، وتَسْمَعونَ به**»[١].

فالبصير إذن هو الذي يتلقّى الكلمة (يستمع)، ويفكّر، ويتأمّل؛ ليشخّص الحقَّ من الباطل، والهدى من الضّلال؛ قال الإمام عليّ عليه السلام: «**فَإنَّما الْبَصيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، ونَظَرَ فَأَبْصَرَ، وانْتَفَعَ بالْعبرِ**»[٢].

وقال عليه السلام: «**رَحِمَ اللهُ امْرَأً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ**»[٣]، فالبصيرة إذن تحصل بالتّفكّر في خلق الله، والاعتبار بمواعظه وسننه.

٢- هدى: القرآن كتاب هداية، وإرشاد، وصلاح، وإصلاح للفرد، والعائلة، والمجتمع، والدّولة، قال الإمام الخمينيّ قدس سره: «هو كتاب المعرفة، والأخلاق، والدّعوة إلى السّعادة والكمال... [وهو] كتاب إحياء القلوب بالحياة الأبديّة العلميّة، والمعارف الإلهيّة»[٤]، وهو «كتاب الهداية، وهادي سلوك الإنسانيّة، ومربي النّفوس، وشافي الأمراض القلبيّة، ومنير طريق السَّير إلى الله»[٥].

فالقرآن الكريم هو الدَّليل الَّذي لا ريب فيه لهداية البشر، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**وَهُوَ الدَّليلُ يَدُلُّ عَلى خَيْرِ سَبيلٍ**»[٦].

وعنه صلى الله عليه وآله: «**وَمَنْ طَلَبَ الْهُدى في غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ**»[٧].

---

(١) نهج البلاغة: ٢٢٢، خطبة: ١٣٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢٤٤، خطبة: ١٥٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٧٧، خطبة: ١٠٢.

(٤) الآداب المعنويّة للصَّلاة: ٣٣٣-٣٣٥.

(٥) المصدر نفسه: ٣٢٣.

(٦) الكافي: ٥٩٥/٤، ح/٣٤٧٤.

(٧) التّفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام: ٤٤٩-٤٥٠.

٣- رحمة: أي فيوضات إلهيّة تغمر عباد الله من حَمَلَة القرآن الكريم التّالين له، المتدبّرين فيه، المتّبعين لأوامره، الدّاعين إلى مبادئه بإخلاص وتجرّد عن كلّ غاية غير رضاه، ﴿ **وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾[1].

﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[2].

وخلاصة الكلام: إنَّ القرآن وُصِفَ بهذه الأوصاف الثّلاثة: «بصائر تكشف وتنير، وهدى يرشد ويهدي، ورحمة تغمر وتفيض.. ﴿ **لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾»[3].

وبعد هذه الإشارة السّريعة الدّقيقة يأتي الأمر الإلهيّ صريحاً بوجوب الاستماع إلى هذا النّداء الإلهيّ الكاشف المنير، والهادي الرّشيد، والمفيض للعلم والمعرفة: ﴿ **وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾[4].

اختلفت أقوال المفسّرين والفقهاء في هذه الآية إلى أقوال عدّة، فمنهم من قال بوجوب الاستماع مطلقاً، ومنهم من قال: يجب الاستماع في الصّلاة لقراءة الإمام، ومنهم من قال إلى خطبة يوم الجمعة، والأكثر قالوا بوجوب الاستماع على المأموم إذا قرأ الإمام، وبالاستحباب في غير ذلك، وقد أورد العيّاشيّ في تفسيره روايات عدّة في ذلك، منها عن زُرارة، قال: «سمعْتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: **يَجِبُ الإنْصاتُ لِلْقُرْآنِ في الصَّلاةِ وَغَيْرِها، وَإذا قُرِئَ عِنْدَكَ الْقُرْآنُ وَجَبَ عَلَيْكَ الإنْصاتُ وَالاسْتِماعُ**».

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قَرَأَ ابْنُ الْكَوّاءِ خَلْفَ أَميرِ الْمُؤْمنينَ** عليه السلام:

(١) الأعراف: ٥٢.

(٢) الإسراء: ٨٢.

(٣) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٣/ ٧٢٠.

(٤) الأعراف: ٢٠٤.

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[(١)]، **فَأَنْصَتَ لَهُ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ عليه السلام**»[(٢)].

وعن عبد الله بن أبي يعفور، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قلتُ له: الرّجل يقرأ القرآن، أيجب على من سمعه الإنصات له والاستماع؟ قال: **نَعَمْ، إذا قُرِئَ عِنْدَكَ الْقُرْآنُ، وَجَبَ عَلَيْكَ الإِنْصاتُ وَالاسْتِماعُ**»[(٣)].

وهذه الرّواية صحيحة سنداً، فعبد الله بن أبي يعفور قال عنه النّجاشيّ: «ثقةٌ ثقة، جليلٌ في أصحابنا، كريمٌ على أبي عبد الله عليه السلام»[(٤)].

وروى الكشّيّ، عن زيد الشّحّام، قال: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام: **ما وَجَدْتُ أَحَداً أَخَذَ بِقَوْلي، وَأَطاعَ أَمْري، وَحَذا حَذْوَ أَصْحابِ آبائي غَيْرَ رَجُلَيْنِ رَحَمَهُما اللهُ: عَبدِ اللهِ بْنِ أَبي يَعْفورٍ، وَحَمْرانَ بْنِ أَعْيَنَ، أَما إِنَّهُما مُؤْمِنانِ خالِصانِ مِنْ شيعَتِنا، أَسْماؤُهُمْ عِنْدَنا في كِتابِ أَصْحابِ الْيَمينِ الَّذي أَعْطى اللهُ مُحَمَّداً**»[(٥)]، وقال عليه السلام: «**ما وَجَدْتُ أَحَداً يَقْبَلُ وَصِيَّتي، وَيُطيعُ أَمْري إِلا عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبي يَعْفورٍ**»[(٦)].

هذا سند الرّواية، أمّا متنها فواضح صريح بوجوب الإنصات والاستماع في

---

(١) الزّمر: ٦٥.

(٢) العيّاشيّ، التّفسير: ١٧٩/٢، ح/١٦٧٥-١٦٧٦، وينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٩١/٤-٧٩٢.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٩٢/٤.

(٤) رجال النّجاشيّ: ٢١٣.

(٥) الشّيخ الطّوسيّ، اختيار معرفة الرّجال (رجال الكشّيّ): ٤١٨/٢، ح/٣١٣.

(٦) المصدر نفسه: ٥١٤، ح/٤٥٣.

قوله عليه السلام: «**إذا قُرِئَ عِنْدَكَ الْقُرْآنُ...**».

ولا بدَّ من أن نشير أنَّ هناك فرقاً بين السّماع والاستماع، فـ«الاستماع أبلغ من السّمع؛ لأنَّه إنَّما يكون بقصد، ونيّة، وتوجيه الحاسّة إلى الكلام لإدراكه، والسّمع: ما يحصل ولو بغير قصد، والإنصات: السّكوت لأجل الاستماع حتّى لا يكون شاغلاً عن الإحاطة بكلّ ما يقرأ... والآية تدلّ على وجوب الاستماع والإنصات للقرآن إذا قُرِئ»[١].

وروايات أهل البيت عليهم السلام المتقدّمة تدلّ أيضاً على الوجوب.

وقد كان المشركون من قريش يتخوّفون من الاستماع إلى كتاب الله تعالى خشية من أن يؤثّر فيهم؛ ولذلك لما عجزوا عن معارضته احتالوا على غيرهم، وتواصلوا بترك الاستماع له، واللّغو أثناء تلاوته بحيث لا يتمكّن أحدٌ استماعه، وهذا نهاية عجزهم لافتقارهم عن مواجهة الحجّة بالحجّة، ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ**﴾[٢].

«وهي مهاترةٌ لا تليق، ولكنَّه العجز عن المواجهة بالحجّة والمقارعة بالبرهان، ينتهي إلى المهاترة، عند من يستكبر على الإيمان، ولقد كانوا يلغون بقصص اسفنديار ورستم، كما فعل مالك بن النّضر، ليصرف النّاس عن القرآن، ويلغون بالصّياح والهرج، ويلغون بالسَّجع والرّجز، ولكنَّ هذا كلَّه ذهب أَدارج الرّياح، وغلب القرآن؛ لأنَّه يحمل سرّ الغلب.. إنَّه الحق، والحقُّ غالبٌ مهما جهد المبطلون»[٣].

---

(١) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: ٥٥٢/٩.

(٢) فصّلت: ٢٦.

(٣) في ظلال القرآن: ٢٣٩/٧.

مُمَيِّزاتُ الإِسْلامِ

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«الْحَمْدُ للهِ الَّذي شَرَعَ الإِسْلامَ، فَسَهَّلَ شَرائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ، وأَعَزَّ أَرْكانَهُ عَلى مَنْ غالَبَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ[(١)]، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ[(٢)]، وَبُرْهاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشاهِداً لِمَنْ خاصَمَ عَنْهُ، وَنُوراً لِمَنِ اسْتَضاءَ بِهِ، وَفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ، وَلُبّاً لِمَنْ تَدَبَّرَ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ، وَعِبْرَةً لِمَنِ اتَّعَظَ، وَنَجاةً لِمَنْ صَدَّقَ، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ، وَراحَةً لِمَنْ فَوَّضَ، وَجُنَّةً[(٣)] لِمَنْ صَبَرَ.

فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَناهِجِ[(٤)]، وأَوْضَحُ الْوَلائِجِ[(٥)]، مُشْرَفُ الْمَنارِ[(٦)]، مُشْرِقُ الْجَوادِّ[(٧)]، مُضِيءُ الْمَصابيحِ، كَريمُ الْمِضْمارِ[(٨)]، رَفيعُ الْغايَةِ، جامِعُ الْحَلْبَةِ[(٩)]،

---

(١) عَلِقَهُ: - كعَلِمَه - تعلق به.

(٢) من دخله لا يحارَب.

(٣) جُنَّة: - بضمّ الجيم - أي وقاية وصوناً.

(٤) أبلج المناهج: أشدّ الطّرق وضوحاً وأنورها.

(٥) الولائج: جمع وليجة: هي الدّخيلة وهي المذهب.

(٦) مُشْرَف: - بفتح الرّاء - هو المكان ترتفع عليه، فتطّلع من فوقه على شيء، ومنار الدّين: هي دلائله من العمل الصّالح يطّلع منها البصير على حقائق العقائد ومكارم الأخلاق.

(٧) جمع جادّة: الطّريق الواضح.

(٨) كريم المضمار: أي إذا سوبق سبق.

(٩) الحلبة: خيل تجمع من كلّ صوب للنّصرة. والإسلام جامعها يأتي إليه الكرائم والعتاق.

مُتَنافِسُ السُّبْقَةِ[١]، شَرِيفُ الْفُرْسانِ.

التَّصْدِيقُ مِنْهاجُهُ، وَالصَّالِحاتُ مَنارُهُ، وَالْمَوْتُ غايَتُهُ[٢]، وَالدُّنْيا مِضْمارُهُ[٣]، وَالْقِيامَةُ حَلْبَتُهُ، وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ[٤]»[٥].

أوضح أمير المؤمنين عليه السلام خصائص الإسلام، وما تَميَّزَ به من عناصر القوّة، هذه الخصائص هي:

١- إنَّ شريعته سهلة سمحاء لا حرج، ولا عسر فيها لمن ورد إليه بصدق، واعتنقه بوعي، وطَبَّقَهُ بإخلاص.

٢- إنَّه عزيز الأركان، أي قويّ لا تستطيع أيُّ قوّة أن تهدّمه مهما حاولت مصارعته، فإنَّه منتصر لا محال، إن عاجلاً أو آجلاً، يقول تعالى: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ** ﴾[٦].

﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾[٧].

٣- إنَّه أمان، أي إنّه يحقّق للإنسانيّة الأمان من شقاء الدّنيا والآخرة، والهلاك فيهما، إذا اعتنقْتَه بوعي، والتزمْتَ بأحكامه، وتخلّقْتَ بأخلاقه.

---

(١) السُّبقة بالضمّ: جزاء السّابقين.

(٢) يريد الموت عن الشّهوات البهيميّة والحياة بالسّعادة الأبديّة كما يعلم من قوله رفيع الغاية، وإلا فالموت المعروف غاية كلّ حيّ.

(٣) لأنَّها مزرعة الآخرة من سبق فيها سبق في الأخرى.

(٤) سبقته: جزاء السّابقين به.

(٥) نهج البلاغة: ١٨١-١٨٢، خطبة: ١٠٥، وأوردنا شرح الشّيخ محمّد عبده للخطبة في الهامش، ينظر: شرحه على النّهج: ١/٢٠٣-٢٠٤.

(٦) غافر: ٥١.

(٧) المجادلة: ٢١.

٤- هو حجّةٌ قاطعةٌ لمن تكلّم به لما يتّصف من واقعيّة وعقلانيّة.

٥- ثمّ وصفه بأنَّه لُبٌّ لمن تدبّر، أي إنَّه يزوّد الإنسان بقوّة فكريّة، وروحيّة، ونفسيّة، وذلك أنَّ معتنق الإسلام يزداد قوّة عقليّة كلّما ازداد فهماً للإسلام ووعياً له.

٦- وهو يحقّق الرّاحة النّفسيّة والفكريّة لمن فَوَّضَ أمره إلى الله بالتّسليم، والطّاعة، والانقياد، والامتثال لأحكام الله تعالى قولاً وفعلاً.

٧- مناهجه واضحة مشرقة لا غموض فيها، وهو أوضح الطّرق لسعادة الإنسان في الدُّنيا والآخرة، بل هو السَّبيل الوحيد لذلك ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[١].

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢].

٨- ثمّ حدَّد الرّكائز العقائديّة الّتي يقوم عليها، وهي: التَّصديق، والعمل الصّالح في الدّنيا الّتي هي (مضمار) أي ميدان مسابقة إلى الله، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[٣].

فالإسلام إذن يتميّز: بالسّهولة، والوضوح، والشّمول، والقوّة، ويمنح معتنقيه: العبرة، والنَّجاة، والطمأنينة، والثّقة، والرّاحة، والرّفاه، والفهم، والسَّبق إلى أعمال الخير.

جاءت هذه الخصائص الأساسيّة في الشّريعة الإسلاميّة لما تتّصف به من

---

(١) طه: ١٢٣.

(٢) البقرة: ٣٨.

(٣) طه: ١١٢.

مميّزات وخصائص مهمّة برزت في نظامه وعقيدته، ويمكن تحديد الخصائص العامّة في التّشريع الإسلاميّ بصورة مختصرة بستّ مميّزات رئيسة:

أوّلاً: الواقعيّة:

ونعني بها مطابقة النّظام الإسلاميّ لطبيعة الحياة الإنسانيّة، وعدم مخالفتها لفطرة الإنسان المستقيمة، على عكس النَّظريّات الخياليّة غير القابلة للتَّطبيق... كما هو حال النّظريات الّتي تعزل الإنسان عن الميدان الاجتماعيّ، وتجعله آلة في ماكنة المجتمع، وبذلك ضَمِنَ الإسلامُ حقوقَ الفرد ضِمْنَ نطاقٍ معيّن كما ضَمِنَ حقوق المجتمع.

وتتجسّد واقعيّة الإسلام من خلال النّقاط الآتية:

أ- صلته بالحياة الإنسانيّة: إنَّ ممّا لا شكَّ فيه أنَّ شرائع الإسلام كلَّها جاءت لمعالجة مشاكل الحياة، وتنظيم شؤون الفرد، والمجتمع، والدّولة؛ فما من قانون مشرَّع في الإسلام إلا لحاجة إنسانيّة.

وخلاصة القول: إنَّ الإسلام لم يقف من الحياة موقفاً سلبيّاً، وإنَّما كانت جميع تشريعاته إيجابيّة: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ** ﴾(١).

﴿ **وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ** ﴾(٢).

ب- الانسجام بين النّظام التّشريعيّ والتّركيب النّفسيّ والبدنيّ

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) القصص: ٧٧.

والعقليّ للإنسان: فلم يخالف التّشريع الإسلاميّ فطرة الإنسان، بل طابق جميع حاجاته الفطريّة من جميع النّواحي الفكريّة، والسّياسيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة... فمثلاً من ناحية الملكيّة: فقد منح الإسلام للإنسان حقّ الملكيّة الخاصّة في حدود معيّنة يمتلكها من محصول عمله، وله حقُّ البيع، والشّراء، والصَّدقة، والهبة، والوقف، والإجارة... وغير ذلك كما جعل هناك الملكيّة العامّة، وملكيّة الإمام... وفي جانب الملكيّة الخاصّة جعل العمل سبب الملكيّة، وفقاً للميل الطّبيعي في الإنسان إلى تملّك نتاج عمله[1]، فلم يحرم الفرد، ولم يجحف المجتمع.

وأمّا النّاحية الجنسيّة: فقد أعطى الإسلام هذه النّاحية أهمّيّة قصوى فأمر بتوجيه الغريزة الجنسيّة توجيهاً مستقيماً في عملية التَّزاوج، وحرّم ما ينافي كرامة الإنسان، وما يضايقه، ويكبت غرائزه، فلم يسمح بالرّهبانية كما في المسيحيّة «لا رَهْبانِيَّةَ في الإِسْلامِ»[2]، ولم يسمح بالشّيوع الجنسيّ كما هي في بعض إفرازات الحضارة المادّيّة الغربيّة.

ومن ناحية العمل الخيريّ: فكل المبادئ الإنسانيّة تدعو لعمل الخير إلا أنَّها اصطدمت بعقبة (حبّ الذّات) عند الإنسان، فلم توفّق لحلّ هذا التَّعارض بين المصلحة الخاصّة والمصلحة العامّة، أمّا الإسلام فقد استطاع أن يوائم بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع من خلال ربط العقيدة بالنّظام، فكلّ ما يعمله الإنسان من الخير في هذه الحياة إنَّما يعمله لنفسه مدّخراً له عند ربّه، يقول تعالى: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُواْ**

---

(١) ينظر: السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، اقتصادنا: ٣٨٥.

(٢) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٨٠/٢.

لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1].

ثانياً: الشّموليّة لجميع متطلّبات الحياة:

إنَّ المتتبّع المنصف للإسلام في أصوله وفروعه عقيدةً ونظاماً يجد أنَّ الإسلام قد وضع لجميع جوانب الحياة نظماً ودساتير توجّه حياته، وتضعه على سبيل السَّعادة والنَّجاة، فيجيبه على جميع ما يدور في خلده من تساؤلات حول الكون والحياة، وينظّم مسيرة حياته في جميع شؤونه؛ فمن النّاحية العقائديّة يحدّد للإنسان دوره في الكون وفي الحياة، ويعرّفه على مبدئه ومعاده، من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟

وأمّا النّاحية التّشريعيّة والتّنظيميّة: فقد وضع الإسلامُ لكلّ مفردة من حياة الإنسان الفرديّة والاجتماعيّة نظاماً يهديه إلى سعادته، وهذا النّظام يبدأ مع الإنسان منذ اللّحظة الأولى لتكوين الخليّة الاجتماعيّة (العائلة)، فالرّجل يقترن بالمرأة وفق تشريع معروف، بل من ساعة وضع النّطفة في رحم المرأة إلى ساعة تكامله وخروجه إلى الحياة، ويتابعه صبيّاً وشابّاً وكهلاً، ولا يفارقه النّظام حتّى ساعة وضعه في لحده.

وعلى المستوى الفرديّ، فقد وضع له نظاماً دقيقاً كآداب الأكل والشّرب، والنّوم، والتّخلّي، والكلام، والسَّير في الشّارع، والعبادة، والعمل... الخ.

وعلى المستوى الاجتماعيّ، فقد شَرّع نظاماً للعلاقات الاجتماعيّة، والسّياسيّة، والتّربويّة، والاقتصاديّة، والأخلاقيّة... وفي ذلك كلّه نظّم علاقة الزّوج بزوجته، والابن بأبيه، والأخ بأخيه، والجار بجاره، والصّديق بصديقه، والعدوّ

---

(١) البقرة: ١١٠.

بعدوه، والحاكم بالمحكوم، والكبير بالصّغير، فلم يترك أيّ ناحية من نواحي حياة الإنسان إلا وضع لها حكماً، وهذه حقيقة ما ورد في مؤدّى الرّوايات: ما من واقعة إلا ولله فيها حكم، حتّى أرش الخدش(١).

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يا أيُّها النّاسُ، واللهِ ما منْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ منَ الْجَنَّة، ويُباعِدُكُمْ منَ النّار إلا وَقَدْ أمَرْتُكُمْ به، وما منْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ منَ النّار، ويُباعِدُكُمْ منَ الْجَنَّة إلا وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْه**»(٢).

وروى عمرو بن قيس، عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**إنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى لَمْ يَدَعْ شَيْئاً تَحْتاجُ إلَيْه الأُمَّةُ إلى يَوْم الْقيامَة، إلا أنْزَلَهُ في كتابه، وبَيَّنَهُ لرَسوله صلى الله عليه وآله، وَجَعَلَ لكُلِّ شَيْءٍ حَدّاً، وجَعَلَ عَلَيْه دَليلاً يَدُلُّ عَلَيْه، وجَعَلَ عَلى مَنْ تَعَدّى الْحَدَّ حَدّاً**»(٣).

وعن مُرازم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالى أَنْزَلَ في الْقُرْآن تبْيانَ كُلِّ شَيْء، حَتّى واللهِ ما تَرَكَ اللهُ شَيْئاً يَحْتاجُ إلَيْه الْعبادُ، حَتّى لا يَسْتَطيعَ عَبْدٌ يَقولُ: لَوْ كانَ هذا أُنْزلَ في الْقُرْآن، إلاّ وَقَدْ أَنْزَلَهُ اللهُ فيه**»(٤).

وعن سماعة، عن أبي الحسن موسى عليه السلام، قال: «قلْتُ له: أكلُّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله، أو تقولون فيه؟ قال: **بَلْ كُلُّ شَيْءٍ في كتاب الله وَسنَّة**

---

(١) تنظر الرّوايات في كتاب بصائر الدّرجات للصّفار: ٣/٢٦٥-٢٧٢، وأرش الخدش: أي ديّة الخدش، والخدش هو جرح ظاهر الجلد، أدماه أو لم يدمه، ينظر: الطّراز الأوّل للسّيد عليّ خان المدنيّ: ١١/٣٦٥.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٣/١٨٨، ح/١٦٢١.

(٣) المصدر نفسه: ١٤/١٣، ح/١٣٦٦٠.

(٤) المصدر نفسه: ١/١٥٠، ح/١٨٣.

نبيّه صلى الله عليه وآله»(١).

قال السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصَّدر قدس سره: «إنَّ هذه الرّسالة جاءت شاملة لكلّ جوانب الحياة، وعلى هذا الأساس استطاعت أن توازن بين تلك الجوانب المختلفة، وتوحّد أسسها، وتجمع في إطار صيغة كاملة بين الجامع والجامعة، والمعمل والحقل، ولم يعد الإنسان يعيش حالة الانشطار بين حياته الرّوحيّة وحياته الدّنيويّة»(٢).

ثالثاً: الإنسانيّة:

الإسلام دينٌ إنسانيٌّ نظر إلى النّوع الآدميّ على أساس إنسانيّته، وعدَّ الكرامة الإنسانيّة أحد قواعد الإيمان، ففي وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر: «**وَلا تَكونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُم، فَإِنَّهُمْ صِنْفانِ: إمّا أَخٌ لَكَ في الدّينِ، وَإمّا نَظيرٌ لَكَ في الْخَلْقِ**»(٣).

وتتجلّى إنسانيّة الإسلام في أمور عدّة:

أ- تكريم الجنس البشريّ على باقي المخلوقات: يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾(٤).

«إنَّ المراد بالآية بيان حالٍ لعامّة البشر مع الغضّ عمّا يختصّ به بعضهم من

(١) الكافي: ١/١٥٧، ح/١٩٢.

(٢) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، الفتاوى الواضحة: ٨٩-٩٠.

(٣) نهج البلاغة: ٤٥٠، كتاب: ٥٣.

(٤) الإسراء: ٧٠.

الكرامة الخاصّة الإلهيّة، والقرب، والفضيلة الرّوحيّة المحضة، فالكلام يعمّ المشركين، والكفّار، والفسّاق، وإلا لم يتم معنى الامتنان والعتاب...

وبالجملة بنو آدم مكرّمون بما خصَّهم الله به من بين سائر الموجودات الكونيّة، وهو الّذي يمتازون به من غيرهم، وهو العقل الّذي يعرفون به الحقّ من الباطل، والخير من الشَرّ، والنّافع من الضّار»[١].

ب- تسخير كلّ ما في الكون للإنسان: فممّا لا شكَّ فيه أنَّ المخلوقات الكونيّة كلّها خلقت لأجل الإنسان من أصغر شيء إلى أكبر جرم، كما يقول تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** ﴾[٢].

وفي آية أخرى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾[٣].

وخلاصة القول: إنَّ كلَّ ما في الأرض والسّماء سخّره الله للإنسان، ولخدمة الإنسانيّة... فالشّمس، والقمر، والأنهار، والبحار، واللّيل، والنّهار، والجبال، والرّياح، والأنعام، والسّحاب، وعليه أن يستثمرها فيما يُؤَمّن سعادته في الدّنيا والآخرة، فأيّ تكريم أكبر من هذا؟

ج- لم يفرّق الإسلام بين أبناء البشر بمختلف قوميّاتهم، وأوطانهم، وألوانهم، ولغاتهم إلا على أساس التّقوى، والعلم، والجهاد: كما ورد صريحاً

(١) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ١٥٥/١٣-١٥٦.

(٢) إبراهيم: ٣٢-٣٣.

(٣) الحجّ: ٦٥.

في القرآن الكريم:

العلم: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾(١).

التّقوى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(٢).

الجهاد: ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٣).

وبناءً على ما تقدَّم، جاء في المادّة الثّانية من دستور الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة: «الإيمان بكرامة الإنسان، وقيمته الرّفيعة، وحرّيّته الملازمة لمسؤوليّته أمام الله»(٤).

وفي المادّة الرّابعة عشرة: «وعلى المسلمين أن يعاملوا الأشخاص غير المسلمين بالأخلاق الحسنة، والقسط، والعدل الإسلاميّ، وأن يراعوا حقوقهم الإنسانيّة»(٥).

وقبل هذا وذاك ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يوصي به قادة جيشه عندما يبعثهم لخوض المعارك في مراعاة الجوانب الإنسانيّة في التّعامل مع الَّذين يقاتلونهم، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**كانَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله إِذا أَرادَ أَنْ يَبْعَثَ سَرِيَّةً دَعاهُمْ،**

---

(١) الزّمر: ٩.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) النّساء: ٩٥.

(٤) دستور الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران: ٢٤.

(٥) المصدر نفسه: ٢٣.

فَأَجْلَسَهُمْ بَيْنَ يدَيْه، ثُمَّ يَقولُ: سيروا بسْمِ الله، وَبالله، وَفي سَبيلِ الله، وَعَلى ملَّة رَسول الله، لا تَغَلّوا، ولَا تُمَثِّلوا، وَلَا تَغْدروا، ولَا تَقْتُلوا شَيْخاً فانياً، وَلَا صَبيّاً، وَلا امْرَأَةً، وَلا تَقْطَعوا شَجَراً إلا أَنْ تُضْطَرّوا إلَيْها، وَأَيُّما رَجُلٍ منْ أَدْنى الْمُسْلمينَ أَوْ أَفْضَلهمْ نَظَرَ إلى رَجُلٍ منَ الْمُشْرِكين، فَهُوَ جارٌ حَتّى يَسْمَعَ كَلامَ الله، فَإنْ تَبعَكُمْ فَأَخوكُمْ في الدّين، وَإنْ أَبى فَأَبْلغوهُ مَأْمَنَهُ، وَاسْتَعينوا بالله عَلَيْه»[١].

علّق الفقيه الحضاريّ الشّيخ محمّد جواد مغنيّة ﭬ قائلاً: «ولا شيء في هذه الأقوال يحتاج إلى الشَّرح والتَّوضيح، وقد أفتى بها الفقهاء، وأجمعوا كلمة واحدة على صحّتها ووجوب العمل بها، ولو قارنّا بينها وبين ما عليه الدُّول الكبرى من تسميم الجوّ بتفجير القنابل، وإلقائها على الولدان والنّساء والعجز وتدميرها العمران ومصادر الحياة، لعرفنا إنسانيّة الإسلام وعدله ورحمته، وتمدّنه وحضارته، ووقاحة الغرب وصفاقته، وجهله وتوحّشه، وإفراطه بالشّرّ والخبث، والتّسلّط والاغتصاب، وما إلى ذاك ممّا يعجز القلم عن تصوير قبحه وبشاعته»[٢].

رابعاً: الإِحْسانُ:

بقدر ما لكلمة الإحسان من وقع جميل مؤثّر على النّفس، أعطاها الإسلام أهمّيّة بل أكثر من ذلك، فالإسلام شريعة الإحسان، وأراد من الإنسان أن يكون محسناً في كلّ شيء، عمله، وقوله، علاقاته مع الله، ومع النّاس، ولا يقتصر الإحسان

---

(١) الكافي: ٩/٤٠٨-٤٠٩، ح/٨٢٢٩.

(٢) الشّيخ محمّد جواد مغنيّة، فقه الإمام جعفر الصّادق: ٢٧٢/٢.

في الإسلام مع الموافقين في الرّأي والدّين، بل مع المخالفين والمناوئين والمعادين - الا أن يكونوا معادين لله ورسوله - بقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾(١).

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾(٢).

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾(٣).

والموعظة الحسنة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾(٤).

والقول الحسن: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾(٥).

والتّحيّة الحسنة: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾(٦).

والاتّباع الأحسن: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ

---

(١) المؤمنون: ٩٦.

(٢) فصّلت: ٣٤.

(٣) الرّعد: ٢٢.

(٤) النّحل: ١٢٥.

(٥) البقرة: ٨٣

(٦) النّساء: ٨٦

قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾(١).

فالإسلام دين الإحسان في جوانبه كلّها، فلا بدَّ أن يكون المسلمُ إنساناً محسناً معطاءً يستثمر كلّ مناسبة؛ ليثير في النّاس عوامل الخير والنّبل والطّهارة، ويهديهم إلى ما فيه سعادتهم ونجاتهم في الدُّنيا والآخرة، وسيأتي حديث مفصّل عن الإحسان بعونه تعالى.

خامساً: الإيجابيَّةُ في التَّشْريعِ الإسْلاميِّ:

لم يقف الإسلام من الحياة موقفاً سلبيّاً كما وقفت بعض الأديان والمذاهب الّتي تجعل الحياة في معزل عن الدّين؛ ولذلك وضع الإسلام لكلّ قضيّة حكماً وموقفاً محدّداً، وإذا كان هناك بعض المواقف السّلبيّة في التّشريع فلهدف إيجابيّ، ومن تلك المواقف:

أ- **مقاطعة شخص منحرف**: في بعض الأحيان لا يستجيب بعض النّاس لدعوة الخير والإحسان بالّتي هي أحسن، ولا ينفع معهم أسلوب النُّصح والإرشاد والعقل والمنطق، فمن الأصوب أن يكون آخر الدّواء الكيّ، وهو أسلوب المقاطعة، روى الحارث بن المغيرة أنَّ أبا عبد الله عليه السلام قال له: «**أما لأَحْمِلَنَّ ذُنوبَ سُفهائكُمْ على عُلَمائكُمْ... ما يَمْنَعُكُمْ إذا بلَغَكُمْ عَن الرَّجُلِ منْكُمْ ما تَكْرَهونَ، وَما يَدْخُلُ عَلَيْنا به الأَذى أَنْ تَأْتوهُ، فَتُؤَنِّبوهُ وتَعْذلوهُ، وتَقولوا لَهُ قَوْلاً بليغاً**»، قال الحارث: «جُعِلْتُ فداك إذن لا يطيعونا ولا يقبلون منّا»، فقال عليه السلام: «**اهْجُروهُمْ، واجْتَنِبوا مَجالسَهُمْ**»(٢).

---

(١) الأعراف: ٣.

(٢) الكافي: ١٥/٣٨٦-٣٨٧، ح/١٤٩٨٤.

ب- **الموقف من الحكّام الظّالمين:** لقد وقف الإسلامُ موقفاً حدّيّاً من الحكّام الظّالمين، وعدَّ الرّضا بعملهم والسّكوت عنهم اشتراكاً معهم في الظُّلم، والمقاطعة أقلّ قدر من المقاومة؛ لأنَّ الإسلام أمر بوجوب الثّورة عليهم واجتثاثهم، وأضعف أنواع المقاومة هو أن لا نرجع إليهم في قضيّة، ولا نحضر مجالسهم، فعن عمر بن حنظلة، قال: «سألْتُ أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث، فتحاكما إلى السُّلطان، وإلى القضاة أيحلّ ذلك؟ قال: **مَنْ تَحاكَمَ إلَيْهِمْ في حَقٍّ أَوْ باطِلٍ فَإنَّما تَحاكَمَ إلى الطّاغوت، وَما يَحْكُمُ لَهُ فَإنَّما يَأْخُذُ سُحْتاً، وَإنْ كانَ حَقّاً ثابِتاً لَهُ؛ لأَنَّهُ أَخَذَهُ بِحُكْمِ الطّاغوت، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ أَنْ يُكْفَرَ بِه، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾**[1]، قلْتُ: فكيف يصنعان؟ قال: **يَنْظُران إلى مَنْ كانَ مِنْكُمْ مِمَّنْ قَدْ رَوى حَديثَنا، وَنَظَرَ في حَلالنا وَحَرامنا، وَعَرَفَ أَحْكامَنا، فَلْيَرْضوا بِهِ حَكَماً، فَإنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ عَلَيْكُمْ حاكِماً، فَإذا حَكَمَ بِحُكْمِنا، فَلَمْ يَقْبَلْهُ مِنْهُ، فَإنَّما اسْتَخَفَّ بِحُكْمِ الله، وَعَلَيْنا رَدَّ، وَالرّادُّ عَلَيْنا الرّادُّ عَلى الله، وَهُوَ عَلى حَدِّ الشِّرْكِ بِالله**»[2].

سادِساً: الْوَسَطِيَّةُ في التَّشْريعِ الإِسْلامِيِّ:

الوسطيّة هي الاعتدال والتّوازن في مسيرة الإنسان في الحياة بين الإفراط والتّفريط، أو بين اليمين والشّمال، بلا ميل أو ترجيح لأحدهما على الأخرى، وهذا

(١) النّساء: ٦٠.

(٢) الكافي: ١/١٦٨-١٦٩، ح/٢٠٢.

هو شأن الأمّة الشّاهدة على الأمم الأخرى، يقول تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾[١]، ومن هنا أمر الإسلام بسلوك الطّريق الوسط؛ ليضمن للإنسان سعادته، ونجاته في الدُّنيا والآخرة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْيَمينُ وَالشّمالُ مَضلَّةٌ، وَالطَّريقُ الْوُسْطى هِيَ الْجادَّةُ**»[٢].

وخلاصة الكلام: «إنَّ الوسطيّة في مفهوم الإسلام منهجٌ أصيلٌ، ووصفٌ جميلٌ، ومفهومٌ جامعٌ لمعاني العدل والخير والاستقامة، فهي حقٌّ بين باطلين، اعتدالٌ بين طرفين، وعدلٌ بين ظلمين»[٣].

إذن لا بدَّ من الاعتدال والتّوازن في شؤون الحياة كلّها نذكر منها:

أ- في الانفعالات والعواطف من الحبّ والبغض وغيره... قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَحْبِبْ حَبيبَكَ هَوْناً ما، عَسى أَنْ يَكونَ بَغيضَكَ يَوْماً ما**»[٤].

ومعنى هذا أن يكون الإنسانُ معتدلاً في حبّه، وبغضه، ويتوسّط في انفعالاته بلا إفراط ولا تفريط، والاعتدال واجب حتّى في حبّ أولياء الله تعالى، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**سَيَهْلكُ فيَّ صِنْفان: مُحبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ به الْحُبُّ إلى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلى غَيْرِ الْحَقِّ**»[٥].

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) نهج البلاغة: ٦٦، خطبة: ١٦.

(٣) تعريف الوسطيّة للعالم السّودانيّ محمد الحبر يوسف من صفحات الشّبكة العنكبوتيّة.

(٤) نهج البلاغة: ٥٣٢، قصار الحكم: ٢٥٩.

(٥) المصدر نفسه: ٢١٥، خطبة: ١٢٧.

وقال عليه السلام: «**هَلَكَ فِيَّ رَجُلانِ: مُحِبٌّ غالٍ، ومُبْغِضٌ قالٍ**»(١).

ب- وكذا حالة الرّضا والغضب، فلا يكون بليداً ولا متهوّراً، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْحِدَّةُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنونِ؛ لأَنَّ صاحِبَها يَنْدَمُ، فَإِنْ لَمْ يَنْدَمْ فَجُنونُهُ مُسْتَحْكَمٌ**»(٢).

وأيضاً ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ثَلاثُ خِصالٍ مَنْ كُنَّ فيه اسْتَكْمَلَ خِصالَ الإيمانِ: إذا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضاهُ في باطِلٍ، وَإِذا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ الْغَضَبُ مِنَ الْحَقِّ...**»(٣).

ج- التّوسّط في الإنفاق، فلا تقتير، ولا إسراف، وإنّما اقتصاد، وهو التّوسّط في البذل، يقول تعالى في وصف عباد الرّحمن: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا** ﴾(٤).

﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا** ﴾(٥).

د- وفي السّلوك الاجتماعيّ: في المشي أو الكلام يقول تعالى: ﴿ **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ** ﴾(٦).

---

(١) نهج البلاغة: ٥٠٥، قصار الحكم: ١١١.

(٢) المصدر نفسه: ٥٢٦، قصار الحكم: ٢٤٦.

(٣) الكافي: ٦٠٦/٣، ح/٢٣٠٨.

(٤) الفرقان: ٦٧.

(٥) الإسراء: ٢٩.

(٦) لقمان: ١٩.

ونتيجةً لسلوك المجتمع البشريّ جانبي الإفراط والتّفريط حادوا عن جادّة الوسط، فبرزت في العالم جبهتان: جبهة اليمين المتمثّلة بأمريكا، وجبهة اليسار المتمثّلة بالكتلة الشّرقيّة، وهما نهجان متعاكسان تماماً - طبعاً إلا في حرب الإسلام فإنّهما متّفقان- فقد دعت الرّأسماليّة إلى صهر المجتمع في الفرد، ودعت الشّيوعيّة إلى صهر الفرد في المجتمع، وهذا ما وقع به النّظامان من خطأ شنيع حين أطلق الأوّل الحرّيّة الفرديّة، وجعلها عماد الدّولة في الوقت الّذي أطلق الثّاني الحريّة الاجتماعيّة من دون حدود، ذلك كلّه منع الإسلامُ منه، وأمر بالتّوسّط؛ لأنَّ «**الْيَمينَ وَالشّمالَ مَضلَّةٌ، وَالطَّريقَ الْوُسْطى هيَ الْجادَّةُ**»[1].

ونختم هذا البحث بما ورد من أحاديث تؤكّد على الوسطيّة في التّشريع:

عن الإمام الرّضا عليه السلام أنّه قال: «**نَحْنُ آلَ مُحَمَّدٍ النَّمطُ الأَوْسَطُ الَّذي لا يُدْرِكُنا الْغالي، وَلا يَسْبِقُنا التّالي**»[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**خَيْرُ هذه الأُمَّة النَّمَطُ الأَوْسَطُ يَلْحَقُ بِهِمُ التّالي وَيَرْجَعُ إِلَيْهِمُ الْغالي**»[3].

وقال عليه السلام: «**أَلا إِنَّ خَيْرَ شيعَتي النَّمَطُ الأَوْسَطُ، إِلَيْهِمْ يَرْجَعُ الْغالي، وَبِهِمْ يَلْحَقُ التّالي**»[4].

(١) نهج البلاغة: ٦٦، خطبة: ١٦.

(٢) الكافي: ٢٤٩/١، ح/٢٧٥.

(٣) ابن ميثم البحرانيّ، شرح نهج البلاغة: ١٣٥/٣؛ الزّمخشريّ، الفائق في غريب الحديث: ٢٧/٤، (نمط).

(٤) الشّيخ الطّوسيّ، كتاب الأمالي: ٨٩٣؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ٣٨٧/٤، ح/٢٠٠٥.

وفي دعاء الإمام الصّادق عليه السلام: «**اللّهمَّ، لا تَجْعَلْني ممَّنْ تَقدَّمَ فمرقَ، ولا ممَّنْ تخلَّفَ فمحقَ، واجْعَلْني من النَّمطِ الأَوْسَطِ**»[1].

(١) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ٣١٤/١١.

التَّأسّي طَريقُ الاسْتِقامَةِ وَالنَّصْرِ

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1].

إنَّ مواصلةَ السَّير في النّهج الإلهيّ لأمرٌ ثقيلٌ بثقل الرّسالة، وحملُها وأداءُ مسؤوليتِها أمرٌ أصعب؛ لذلك لا بدَّ للإنسان من مثال كامل يقتدي به، ويترسّم خطاه، ويجعله أُسوةً يقتدي به، ولهذا الأمر جعل الله التّأسّي برسوله الكريم تكليفاً من عنده، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله هو الشّخصيّة الكاملة من جميع وجوهها، حتّى أنَّ الأعداء لم يجدوا ثغرة يجعلونها وسيلة للطَّعن أبداً، فكان مثالاً في كلّ شيء ظاهراً وباطناً، فحسن ظاهره ينبئك عن صفاء باطنه، وحلمه ينبئ عن علمه، وصدقه وأمانته يجلب القلوب إليه، وحسن خلقه يفرض شخصيّته على أعدائه، وبحلاوة منطقه يجذب العقول، ويزكي النفوس، خصوصاً عندما كان يتلو آيات الله تعالى في حالات التّحدّي من أعدائه، وحتّى الَّذين كانوا يساومونه على التّنازل عن رسالته رغم ذلك كانوا يتأثّرون بها إلا أنَّهم أخذتهم العزّة بالإثم، فجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم حتّى قال مبعوثهم: «قد سمعْتُ من محمّد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس والجنّ، إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمغدق، وإنَّه ليعلو ولا يُعلى»[2].

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ١٦٧/٩.

ولذلك جعل الله طاعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كطاعته تعالى، بل عيّن طاعته، وجعل التّأسّي به تكليفاً مستمرّاً إلى يوم القيامة، قال العلامة الطّباطبائيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «والتّعبير بقوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾ الدّالّ على الاستقرار والاستمرار في الماضي إشارة إلى كونه تكليفاً ثابتاً مستمرّاً»[1].

الأسوة لغةً: «الأُسوة والإِسْوَة كالْقِدْوَة والْقُدْوَة، وهي الحالة الّتي يكون الإنسان عليها في اتّباع غيره إن حَسَناً وإن قبيحاً، وإن سارّاً وإن ضارّاً»[2].

وحقيقة الأسوة: هي الاتّباع العمليّ، والسَّير على نهج المُتَّبَع، بحيث يضع المتأسّي أقدامَه حيثما وضع القدوةُ أقدامَه، ولا يحيد عنه قيد أنملة.

والتّأسّي مبدأ قرآنيٌّ صريح في نصوص الذّكر الحكيم، ومعناه أن تترسّم خطوات الكاملين من البشر، وتتّخذ تلك الخطوات منهجَ عملٍ، وأدلّة قطعيّة في صحّة المنهج، وجدّيّة الحركة، ودقّة السَّير، ثمَّ لا بدّ من تَصوّر مواقفهم، ومحاكاتها بدقّة ووعي عملي يصبّها في قالب يناسب البيئة والمجتمع المُعاش، وجعل تلك المواقف كمصابيح منيرة في طريق تحقيق الأهداف المرسومة، ولعلَّ من هذا المنطلق جاء النَّصُّ القرآنيّ مؤكّداً على أهمّيّة التّأسّي بالرُّسل، والأنبياء، وخلفائهم، وأتباعهم الصّادقين كإبراهيم وموسى وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ... يقول تعالى:

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ

(١) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٢٨٨/١٦.

(٢) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٣١، (أسا).

أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[١].

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[٢].

ولو تأمّلنا قليلاً في قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ لأدركنا عظم هذا الأمر، وضـرورة وعيه، والتّحرّك الواعي فيه... فما أجملها وأروعها من عبارة تحرّك المشـاعر الكريمة، وتثير العواطف النَّبيلة في روح الإنسـان، حين تربطه بأعظم شخصيّة طُبعت بطابع الحسن، وصُبَّت في قالب الجمال بأبعاده كلّها، حتّى وُسمَت بالخلق العظيم الَّذي يعدّ بحق أعظم شهادة منحتها السّماء لإنسان جعله الله أكمل البشريّة على الإطلاق، بل قمّة كمالها ورأس هذا الكمال عظمة الخلق، فبالتّأسّـي يشـعر الإنسـان بأنَّه حلقةٌ من الرّتل الرّسـاليّ المرتبط بوحي السّـماء، فيمنحه الله: الصَّبر، والعزم، والاستقامة، والمواصلة في طريق ذات الشَّوكة على خطى نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمّد صلوات الله عليهم وسلامه.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَتَأَسَّـى مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ، وَاقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ، وَإِلا فَلا يَأْمَنِ الْهَلَكَةَ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله عَلَماً لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّراً بِالْجَنَّةِ، وَمُنْذِراً بِالْعُقُوبَةِ، خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَمِيصاً، وَوَرَدَ الآخِرَةَ سَلِيماً، - لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَى حَجَرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ، فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَـلَفاً نَتَّبِعُهُ، وَقَائِداً**

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) الممتحنة: ٦.

نَطأُ عَقِبَه»(١).

وبهذا ندرك السّرَّ في سرد قصص الأنبياء والرّسل في القرآن الكريم، فلم يكن سرداً تاريخيّاً لبيان عظمة هؤلاء الرّجال الكاملين وحسب، ولم يكن لغرض الفنّ القصصيّ لإبراز البلاغة القرآنيّة، ولا لغرض التّسلّي كقصص الأبطال الأسطوريّين، وإنَّما ممّا لا شكَّ فيه أنَّ الهدفَ هو تربيةُ أمّة التّوحيد، ووضعُها في مدرج التّكامل، وإشعالُ الضّوء الأخضر لها، وتعبيدُ الطّريق أمامها ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾(٢).

ومن هنا نجد التَّأكيد، والحثَّ المتواصل من قبل أهل بيت العصمة عليهم السلام على التّأسّي بالأنبياء والرّسل وبالخصوص سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ولَقَدْ كانَ في رَسول الله صلى الله عليه وآله كاف لَكَ في الأُسْوَة... فَتَأَسَّ بنَبيِّكَ الأَطْيَب الأَطْهَر صلى الله عليه وآله؛ فَإنَّ فيه أُسْوَةً لمَن تَأَسَّى، وعَزاءً لمَن تَعَزّى، وأَحَبُّ الْعِباد إلى الله الْمُتَأَسّي بنَبيِّه، والْمُقْتَصُّ لأَثَره**»(٣).

ومن كلامه عليه السلام نفهم أنَّ التّأسّي عملٌ عباديٌّ مقدّس «**أَحَبُّ الْعِباد إلى الله الْمُتَأَسّي بنَبيِّه**»، ففي كلّ جانب من جوانب حياته يجد الدّعاة لهم أسوة حسنة ولا سيّما في مواقع الشّدّة، والدَّليل على ذلك ما وقع في معركة أحد حين انهزم المسلمون، وجرح رسول الله صلى الله عليه وآله، قال أبو عبد الله عليه السلام: «**انْهَزَمَ النّاسُ**

(١) نهج البلاغة: ٢٥٩، خطبة:١٦٠.

(٢) يوسف: ١١١.

(٣) نهج البلاغة: ٢٥٧-٢٥٨، خطبة: ١٦٠.

يَوْمَ أُحُد عَنْ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، **فَغَضِبَ غَضَباً شَدِيداً**»، قال: «**وَكَانَ إذا غَضِبَ انْحَدَرَ عَنْ جَبِينه مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ مِنَ الْعَرَقِ**»، قال: «**فَنَظَرَ فإذا عَلِيٌّ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **إلى جَنْبِه، فَقَالَ لَهُ: الْحَقْ بِبَنِي أَبِيكَ مَعَ مَنِ انْهَزَمَ عَنْ رَسُولِ الله، فَقَالَ: يا رَسُولَ الله، لي بِكَ أُسْوَةٌ، فَقَالَ: فَاكْفِنِي هؤُلَاء، فَحَمَلَ فَضَرَبَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيَ مِنْهُمْ، فَقَالَ جَبْرَئِيلُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **إنَّ هذه لَهِيَ الْمُوَاسَاةُ يا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: إنَّهُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، فَقَالَ جَبْرَئِيلُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **وَأَنَا مِنْكُمَا يا مُحَمَّدُ**»(١).

والأمر الأهمّ في سيرة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الَّذي يجب أن نَعِيَهُ؛ لكي نتأسّى به هو أن نعرف كيف **خطّط رسول الله** صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لنشر رسالته؟ وكيف **نَفَّذَ خطته؟** وكيف **واجه تحدّيات أعدائه؟** هذا أهمّ ما نحتاجه اليوم من التّأسّي في رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وإن كان الكلُّ مهمّاً وضروريّاً - ونحن نواجه أشرس تحدّ عرفته الرّسالة على طول خطّ التّأريخ، والأهمّ أن نعرف أنَّ الأمر بالتّأسّي نزل في حالة هجوم شرس على الإسلام، وهو لم يزل طريّاً في النّفوس، فلا بدّ من التّأسّي برسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في شتّى جوانب حياته: نشأته، وأخلاقه، وحياته الشّخصيّة، والبيئيّة، وصبره، وكفاحه، وسلمه، وحربه، وتعامله مع أصدقائه وأصحابه، وأهل بيته، وأعدائه، وموقفه من الدّنيا وزخارفها، وكيف تعامل مع كلّ صنف من أصناف النّاس، ونقتصر هنا على ذكر الجوانب العمليّة الّتي برزت في تبليغه للرّسالة المقدّسة على شكل نقاط نشير إليها إشارة سريعة، وهي:

١- اتّخذ الأسلوب السّريّ في التّبليغ والهداية في بداية الأمر، وأمر أصحابه أن تكون دعوتهم إلى الإسلام سرّاً، واستمرَّت هذه المرحلة ثلاث سنوات،

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٢٦٩/١٥، ح/١٤٩٠٥.

وحتّى عبادته وصــلاته كان يؤدّيها بعيداً عن أعين النّاس، قال ابن الأثير: «وكان النّبيّ ﷺ إذا أراد الصَّـلاة انطلق هو وعليّ إلى بعض الشّـعاب بمكّة فيصـلّيان ويعودان»(١).

«وقد كان هذا الأسـلوب في تلك الفترة ضــروريّاً من أجل الحفاظ على مستقبل الدّعوة، حتّى لا تتعرّض لعمل مسلّح يقضي عليها في مهدها، حيث لا بدَّ من إيجاد ثلّة من المؤمنين، ومن مختلف القبائل يحملون هذه العقيدة، ويدافعون عنها، حتّى لا يبقى مجال لتصفيتهم السّريعة والحاسمة من قبل أعدائهم الأشرار.

كما أنَّه ﷺ أراد أن لا تهدر الطّاقات، وتذهب الجهود سـدًى، وينتهي الأمر إلى تمزُّق، وتوزّع في الثّلّة المؤمنة، ثمّ إلى ضياع مدّمر.

وأيضـاً فقد كانت هذه الفترة بمثابة إعداد نفسـيّ، وتربية عقيديّة وروحيّة لتلك الصَّفوة المؤمنة بربّها، وبرسالة نبيّه الأكرم ﷺ، تمكّنهم من الصُّمود في وجه التّحدّيات الّتي تنتظرهم»(٢).

فالسّــريّة إذن منهجٌ عمليٌّ مرَّت به الرّســالة؛ لغرض تكامل أتباعها كمّاً وكيفاً؛ ولذا اتَّخذ ﷺ دار الأرقم مقرّاً، ومركزاً لحركته، ونشـاطه، وتربية أصحابه للمرحلة المقبلة.

«وقد حرص الأنبياء عليهم السلام توسّــلاً لبلوغ أهدافهم على إحاطة كثير من مخطّطاتهم وتحرّكاتهم بالكتمان، وغالباً ما أدّى إخلال أتباعهم بحفظ الأســرار إلى إعاقة مسيرتهم، بل واستشهادهم عليهم السلام، ففي تفسير الآية: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنْبِيَآءَ

(١) ابن الأثير، الكامل في التّأريخ: ٥٨/٢.

(٢) السّيّد جعفر مرتضى العامليّ، الصّحيح من سيرة النّبيّ الأعظم ﷺ: ٣٤٣/٢.

بِغَيْرِ حَقٍّ﴾(١) ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام: «**وَالله ما قَتَلوهُمْ بأَسْيافِهِمْ، ولَكِنْ أَذاعوا سِرَّهُمْ، وأَفْشَوْا عَلَيْهِمْ، فَقَتَلوا**»(٢)، وبقي نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله يمارس دعوته طيلة السّنوات الثّلاث الأولى في إطار من السّرّيّة الكاملة، كما اضطرّ الأئمّة عليهم السلام أمام حملات التّضييق والحصار إلى اعتماد السّرّيّة أيضاً في كلّ نشاط يمكن أن يثير حفيظة السُّلطات وأوصوا مؤيّديهم بذلك»(٣).

ولذلك نجد في كتب الحديث أبواباً مطوّلة في ذلك؛ ففي كتاب الكافي الَّذي يعدّ من مصادر الشّيعة المهمّة أورد ثقة الإسلام الكلينيّ رحمه الله باباً بعنوان (الكتمان) تضمّن ستّة عشر حديثاً، منها قول أبي عبد الله عليه السلام: «**أُمِرَ النّاسُ بِخَصْلَتَيْنِ، فَضَيَّعوهُما، فَصاروا مِنْهُما عَلى غَيْرِ شَيْءٍ: الصَّبْرِ وَالْكِتْمانِ**»(٤).

ولا شكَّ أنَّ الكتمان الَّذي أمر به الأئمّة عليهم السلام هو كتمان الخطط والأهداف الَّتي يُراد تحقيقها، وليست السّرّيّة سرّيّة الأفكار، والعقائد، والطقوس الدّينيّة، والدَّليل على ذلك أنَّ الأئمّة عليهم السلام كانوا يعظون النّاس، ويروّجون الفكر الإسلاميّ علانية، بل كانوا يعظون طغاة عصورهم، فالسّرّيّة إذن ليست سرّيّةَ الأفكار والمفاهيم والعقائد، وإنّما سرّيّة الأهداف والمخطّطات، والسّيرة العمليّة خير دليل على ذلك، قال الإمام الصّادق عليه السلام في معرض بيانه لحقيقة الكتمان: «**فَصَبَرْنا لأَمْرِ اللهِ، ونَحْنُ قُوّامُ اللهِ عَلى خَلْقِهِ، وَخُزّانُهُ عَلى دينِهِ، نَخْزِنُهُ، وَنَسْتُرُهُ،**

---

(١) آل عمران: ١١٢.

(٢) الكافي: ١١٤/٤، ح/٢٨١٢.

(٣) ثقافة الدّعوة الإسلاميّة: ٢٥٨/١.

(٤) الكافي: ٥٦١/٣-٥٦٢، ح/٢٢٦٥.

ونَكْتُمُ به منْ عَدُوِّنا كَما اكْتَتَم رَسُــولُ الله ﷺ حتّى أُذن لَهُ في الْهجْرَة، وَجهادَ الْمُشْــركين، فَنَحْنُ عَلى منْهاجِ رَسُــول الله ﷺ حتّى يأْذَنَ الله بإظْهار دينه بالسَّيْف، ونَدْعُو النّاسَ إلَيْه، ونَضْربهُمْ عَلَيْه عَوْداً كَما ضَرَبَهُمْ رَسولُ الله ﷺ بدْءاً»(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «في التَّوْراة مَكْتوبٌ - فيما ناجى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ به موســى بْنَ عمْرانَ عليه السلام -: يا موســى، اكْتُمْ مَكْتومَ ســرِّي في ســريرَتك، وأَظْهرْ في عَلانيَتكَ الْمُداراةَ عَنّي لعَدُوّي وعَدُوِّكَ منْ خَلْقي، وَلا تَسْتَسبَّ(٢) لي عنْدَهُمْ بإظْهار مَكْتومِ سرِّي، فَتَشْركَ عَدُوَّكَ وعَدُوّي في سَبِّي»(٣).

وعن أبي عبيدة الحذّاء، قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: وَالله إنَّ أَحَبَّ أَصْــحابي إلَيَّ أَوْرَعُهُمْ، وأَفْقَهُهُمْ، وأَكْتَمُهُمْ لحَديثنا، وإنَّ أَسْــوأَهُمْ عنْدي حالاً، وأَمْقَتَهُمْ للَّذي إذا سمعَ الْحَديثَ يُنْسَبُ إلَيْنا، ويُرْوى عنّا، فَلَمْ يَقْبَلْهُ، اشْــمَأَزَّ منْهُ، وَجَحَدَهُ، وكَفَّرَ مَنْ دانَ به، وَهُوَ لا يَدْري لَعَلَّ الْحَديثَ منْ عنْدنا خَرَجَ، وإلَيْنا أُسْندَ، فَيَكونَ بذلكَ خارجاً منْ وَلايَتنا»(٤).

والكتمان يقتضي الحكمة والفراسة؛ ليعرف الإنسان المؤمن كيف ينشر

---

(١) محمّد بن الحسن الصّفّار، بصائر الدّرجات: ٢/٩٢٣-٩٢، ح/١٨١٨.

(٢) لا تستسبّ له، أي لا تعرّضه للسّبّ، وتجرّه إليه، والمراد: لا تطلب سبّي، فإنَّ من لم يفهم السّرّ يسبّ من تكلّم به، فتشرك، أي تكون شريكاً له؛ لأنّك أنت الباعث له عليه.

(٣) الكافي: ٣/٣٠٣-٣٠٤، ح/١٨٤٣.

(٤) المصدر نفسه: ٣/٥٦٥، ح/٢٢٧٠.

رســالة الله تعالى بين خلقه، فلا يكون مهذاراً مع كلّ أحد، وإنَّما يضــع الكلام المناسب عند الشَّخص المناسب الَّذي يطمئنّ إليه، ويحرز قبوله، ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الطُّمَأْنِينَةُ إِلى كُلِّ أَحَد قَبْلَ الاخْتِبارِ عَجْزٌ**»[1].

ومن الأشعار المنسوبة إليه عليه السلام: [من البسيط][2]

لا تودع السّــرَّ إلا عند ذي كرم — والسّــرُّ عنـد كرام النّـاس مكتوم
والسّــرُّ عنـدي في بيت لـه غلق — قد ضـــاع مفتاحه والباب مختوم

والأحاديث في ذلك كثيرة نكتفي بما ذكرناه؛ ففيه دلالة كافية.

٢- في المرحلة الأولى من حياة الدَّعوة عمل صلى الله عليه وآله على بناء نواة صـالحة للدَّعوة، وخلق قاعدة متماســكة من الثّلّة الّتي ربّاها، وهذه الثّلّة أصــبحت قادرة على تحمّل أعباء الرّسالة قبل إعلان الدَّعوة، وهذا ما تمَّ بالفعل، فقد خَرَّجَ رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه المدّة القصيرة ثلّة مباركة من أصحابه كان لها الدَّورُ الفعّالُ في انتشار الدّعوة في أغلب أنحاء الجزيرة العربية، والّتي امتدّت إلى الحبشة.

٣- من أجل استقامة المسيرة واستمراريّتها أخذ صلى الله عليه وآله يرسّخ الإيمان بالله في نفوس أصــحابه، ويربّيهم على الكدح إلى الله عن طريق الإعداد الرّوحيّ والدّعويّ؛ لتنطلق الشّخصـيّة الرّسـاليّة من منطلق القوّة لا الضّعف؛ ولذا لم ينقل التّأريخ أنَّ رســول الله صلى الله عليه وآله أوعد أصــحابه بأمر من أمور الدُّنيا، وإنَّما أوعدهم بنصــر الله وبالجنة؛ ولذا عندما قال له الأنصــار حين بايعوه في العقبة الثّانية: «ما لنا بذلك يا رســول الله إن نحن وفّينا (بذلك)؟» قال: «**الْجَنَّةُ**»، قالوا: «ابســط يدك»،

(١) نهج البلاغة: ٥٥٠، قصار الحكم: ٣٧٤.

(٢) المولى محمد صالح المازندرانيّ، شرح أصول الكافي: ١/٢٥٧-٢٥٨.

فبسط يده، فبايعوه[1].

٤- التَّخطيط لنشر الدَّعوة: من المعالم البارزة في سيرة رسول الله ﷺ التّخطيط لأيّ عمل يقوم به، ويخطئ من يظنّ أنَّ رسول الله ﷺ واصل عمله في جميع مراحل حياته بشكل عفويّ من دون أن يخطّط لتبليغ رسالته، وتربية أصحابه، ومقاومة أعدائه، فالتَّخطيط من أولويّات أيّ عمل، ولو كان بسيطاً، فكيف لمشروع يروم قائده أن يغزو العالم، ويفتح مجاهل الأرض، ويوصل الرّسالة إليها، أيكون هذا المشروع الضخم بلا تخطيط؟! وحياة رسول الله ﷺ وسيرته على طول تأريخها خير دليل على ذلك، ومن تلك المعالم:

أ- التّدرّج في التّبليغ: يكاد يجمع المؤرّخون أنَّ رسول الله ﷺ لم يعلن الدَّعوة منذ أوّل البعثة، وإنَّما قسم عمليّة التَّبليغ إلى أربع مراحل:

«المرحلة الأولى: الدّعوة سرّاً، واستمرّت ثلاث سنوات.

المرحلة الثّانية: الدّعوة جهراً، وباللّسان فقط، واستمرّت إلى الهجرة.

المرحلة الثّالثة: الدّعوة جهراً، مع قتال المعتدين والبادئين بالقتال أو الشّرّ، واستمرت هذه المرحلة إلى عام صلح الحديبية.

المرحلة الرّابعة: الدّعوة جهراً مع قتال كلّ من وقف في سبيل الدّعوة، أو امتنع عن الدّخول في الإسلام - بعد فترة الدّعوة والإعلام - من المشركين أو الملاحدة أو الوثنيّين»[2].

فهل هذا العمل المتدرّج كان عفويّاً من دون تخطيط؟ لا أظنّ عاقلاً يقبل ذلك، وليس من الصَّحيح أن ينسب ذلك إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٥٩/٢؛ الكامل في التّأريخ: ٩٩/٢-١٠٠.

(٢) محمّد سعيد البوطيّ، فقه السّيرة: ١٠٥.

ب- ما وقع في بيعة العقبة الثّانية من خلال اللّقاء بالوفد القادم من يثرب، وأخذ العهود عليهم، فبعد أن بايعوه قال لهم: «**أَخْرِجوا إِليَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقيباً، لِيكونوا عَلى قَوْمِهِمْ بما فيهم**»، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس(١)، وهذا يدلّ على أنَّه ﷺ كان يخطّط لمستقبل الدَّعوة من أوّل الأمر إلى آخره...

ج- ما ورد في الرّوايات عنه ﷺ وعن أهل بيته عليهم السلام من التّدبّر والتّأمّل لكلّ أمر يريد المؤمن أن يقوم به، منها قوله ﷺ لرجل طلب الوصيّة منه، فقال: «**إذا أَنْتَ هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَتَدَبَّرْ عاقِبَتَه، فَإِنْ يَكُ خَيْراً ورُشْداً فَامْضِه، وَإِنْ يَكُ غَيّاً فَانْتَه عَنْهُ**»(٢).

وفي هذا المعنى وردت روايات عديدة عن أمير المؤمنين عليه السلام تؤكّد على وجوب التَّفكير قبل أيّ عمل يعتزم الإنسان القيام به، وهل التّفكير إلا لأجل التّخطيط؟ نذكر من هذه الأحاديث:

«**تَفَكَّرْ قَبْلَ أَنْ تَعْزِمَ، وَشاوِرْ قَبْلَ أَنْ تُقْدِمَ، وَتَدَبَّرْ قَبْلَ أَنْ تَهْجُمَ**».

«**رَوِّ قَبْلَ الْفِعْلِ كَيْ لا تُعابَ بِما تَفْعَلُ**».

«**إذا أَمْضَيْتَ أَمْراً فَأَمْضِه بَعْدَ الرَّوِيَّةِ، وَمُراجَعَةِ الْمَشورَةِ**».

«**أَصْلُ السَّلامَةِ مِنَ الزَّلَلِ: الْفِكْرُ قَبْلَ الْفِعْلِ، وَالرَّوِيَّةُ قَبْلَ الْكَلامِ**».

«**دَوامُ الْفِكْرِ وَالْحَذَرِ يُؤْمِنُ الزَّلَلَ، وَيُنْجي مِنَ الْغِيَرِ**».

---

(١) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٥٦/٢؛ ينظر: تاريخ الطّبريّ: ٣٦٣/٢؛ والبداية والنّهاية لابن كثير الدّمشقيّ: ١٩٦/٣؛ تاريخ ابن خلدون: ٢٩١/٢.

(٢) الكافي: ٣٦٠/١٥، ح/١٤٩٤٥.

«**إذا قَدَّمْتَ الْفِكْرَ في جَميعِ أَفْعالِكَ حَسُنَتْ عَواقِبُكَ في كُلِّ أَمْرٍ**»(١).

٥- الإصرار على مواصلة الدّرب: من المعالم المهمّة في شخصيّة رسول الله ﷺ هي الإصرار رغم كلّ الإغراءات الّتي قدّمتها قريش له، إضافة للضغوط والتَّعذيب المتواصل له ولأصحابه حتّى قال ﷺ: «**ما أوذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ ما أوذيتُ**»(٢).

ومن صور الإصرار عندما عرضت عليه قريش الملك، والمال، والنّساء، ووسّطوا له عمّه أبا طالب، فقال ﷺ: «**يا عَمِّ، واللهِ لَوْ وَضَعوا الشَّمْسَ في يَميني، وَالْقَمَرَ في يَساري على أَنْ أَتْرُكَ هذا الأَمْرَ حَتّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ فيه، ما تَرَكْتُهُ**»(٣).

٦- منذ أن أعلن الدّعوة ورفضتها قريش أخذ في كلّ عام يأتي إلى الموسم، ويزور الحجاج إلى منازلهم، ويدعوهم إلى الله، «ويقول: **يا أَيُّها النّاسُ، قولوا لا إِلهَ إِلا اللهُ تُفْلِحوا، وَتَمْلِكوا بِها الْعَرَبَ، وَتَذِلَّ لَكُمُ الْعَجَمَ**... وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه؛ فإنّه صابئ كاذب، فيردّون على رسول الله ﷺ أقبح الرّدّ، ويؤذونه، ويقولون: أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتّبعوك، ويكلّمونه، ويجادلونه، ويكلّمهم ويدعوهم إلى الله، ويقول: **اللّهُمَّ، لَوْ شِئْتَ لَمْ يَكونوا هكَذا**...»(٤).

---

(١) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٥٦-٥٨، ح/٥٤٦-٥٤٧-٥٦٦-٥٩٠-٥٩٧.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/٣٩.

(٣) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٣٠٣/١، الكامل في التّأريخ: ٦٤/٢.

(٤) ابن سعد، كتاب الطّبقات الكبير: ١٨٤/١.

ومع ذلك لم يثنِهِ هذا التّثبيط والمواجهة الحادّة، قال ابن الأثير: «ولم يزل رسول الله ﷺ يعرض نفسه على كلّ قادم له اسم وشرف، ويدعوه إلى الله، وكان كلّما أتى قبيلة يدعوهم إلى الإسلام تبعه عمّه أبو لهب، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من كلامه، يقول لهم أبو لهب: يا بني فلان، إنَّما يدعوكم هذا إلى أن تسلخوا اللات والعُزّى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن إلى ما جاء به من الضّلالة والبدعة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا له»(١).

٧- أمر أصحابه بالهجرة؛ ليوسّع من رقعة الدَّعوة أوّلاً، وليخلّصهم من العذاب ثانياً... وكانت قد حدثت هجرات عدّة إلى الحبشة والطّائف والمدينة.

ويدلّنا ذلك على أنَّ رسول الله ﷺ أراد من عرض نفسه على القبائل وعلى الحجّاج، ومن الهجرة أموراً عدّة:

أ- حاول أن يوصل صوت الدّعوة إلى كلّ مكان وجماعة بشكل مباشر بشخصه المبارك.

ب- التّعرّف على القبائل ورؤسائهم؛ ليأخذ فكرة واضحة عنهم، وليفتّش عن مناخ مناسب للدّعوة.

ج- حاول أن يُعرّفَ نفسه وشخصيّته الحقيقيّة لقبائل العرب.

د- ليفتّش عن قاعدة جديدة صالحة لنشر الإسلام؛ لأنَّ مكّة لم تعد صالحة لنشر الدّعوة والانطلاق بها إلى عالم أوسع.

٨- ومن المعالم البارزة في سيرة الرَّسول الأكرم ﷺ أنّه كان يعيش حتميّة النَّصر لا محال، ويطفح الأمل في قلبه ومن لسانه، ويوعد بالنّصر، وإسقاط

---

(١) الكامل في التّأريخ: ٢/٩٤.

قوى الطّاغوت في أصعب المواقف والظُّروف، ومن تلك المشاهد الّتي يعد بها بإسقاط طاغوتي الشّرق والغرب وهو مطارد وحيد لا ناصر له إلا الله، حينما قال ﷺ لسراقة الّذي أعطته قريش مئة ناقة حمراء إن ردَّ عليها محمّداً: «**كَيْفَ بِكَ يا سُراقَةُ إذا سُوِّرْتَ بِسوارَيْ كِسْرى؟**» قال: «كسرى بن هرمز؟» قال: «**نَعَمْ**»(١).

وفي رواية: «**كَيْفَ بِكَ يا سُراقَةُ إذا أُلْبِسْتَ بَعْدي سِوارَيْ كِسْرى؟**»، فلمّا فُتِحَت فارس دعاه عمر، وألبسه سوارَي كسرى(٢).

وفي حالة اشتداد التَّعذيب عليه وعلى أصحابه يأتيه خبّاب، وهو ﷺ متوسّد ببردة في ظلّ الكعبة بعد أن لقي من الكافرين شدّة شديدة، فقال: «ألا تدعو الله؟» فقعد وهو محمرٌّ وجهه، فقال: «**قَدْ كانَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِأَمْشاطِ الْحَديد ما دونَ عظامه منْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، ما يَصْرِفُهُ ذلكَ عَنْ دينه، وَيوضَعُ الْمنْشارُ على مفْرَق رَأْسه، فَيُشَقُّ باثْنَين ما يَصْرِفُهُ ذلكَ عَنْ دينه، وَلَيُتمنَّ اللهُ هذا الأَمْرَ حَتّى يَسيرَ الرّاكِبُ مِنْ صَنْعاءَ إلى حَضْرَموتَ ما يَخافُ إلا اللهَ عزَّ وَجلَّ... وَالذِّئْبَ عَلى غَنَمِه، وفي رواية: وَلكنَّكُمْ تَسْتَعْجِلونَ**»(٣).

هكذا كان ﷺ يعيش روح التّفاؤل والأمل برحمة الله ونصره على كلّ حال، وكلّما ازدادت المحن عليه وعلى أصحابه كان يزداد إصراراً وأملاً بالنَّصر.

«فمهما طال النّصر على أجيال الرّسالة، وضاقت الأرض بهم، فإنَّ النّتيجة

---

(١) الكامل في التّأريخ: ١٠٥/٢.

(٢) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٣٢٤/١.

(٣) ابن كثير، السّيرة النّبويّة: ٤٩٦/١.

الحاســـمة.. في المنطق الرّبّاني الَّذي لا يكذب، ولا يخطأ.. هي للّذين آمنوا وعملوا الصّالحات، وللإيمان والعمل الصّالح»[1].

فما أحرانا أن نعيش اليوم هذه الرّوحيّة، ونحن نعيش أشـــرس مواجهة مع القوى الكافرة الّتي تريد أن تطفئ نور الله في الأرض: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2].

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3].

---

(١) الشّهيد الشّيخ حسين معن، نظرات في الإعداد الرّوحيّ: ١٣٢.

(٢) التّوبة: ٣٢.

(٣) الصّفّ: ٨

البِرُّ

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[1].

الآية المباركة جمعت كلّ معالم الدّين الحنيف عقيدةً، وشريعةً، وأخلاقاً، ورسمت الخطوط العريضة للشّخصيّة الإسلاميّة، وأرست القواعد الأساسيّة لها من حيث: الاعتقاد، والعمل، والأخلاق، أو قل من حيث التّصوّر، والشّعور، والأعمال، والسّلوك، أو من حيث الفكر الإيمانيّ، والممارسة الذّاتيّة في العلاقة بالله تعالى، وبالنّاس، وبالنّفس.

كلّ ذلك جاء تحت عنوان **البرّ**، وهو: «التّوسّع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تعالى تارةً، نحو: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[2] وإلى العبد تارةً، فيقال: بَرَّ العبدُ ربَّه، أي توسّع في طاعته، فمنَ الله تعالى الثّوابُ، ومنَ العبدِ الطّاعةُ، وذلك ضربان: ضربٌ في الاعتقاد، وضربٌ في الأعمال، وقد اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ

(١) البقرة: ١٧٧.

(٢) الطّور: ٢٨.

﴿أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ الآية، وعلى هذا ما رُوِيَ أنَّه سُئِلَ عليه الصّلاة والسّلام عن البرّ، فتلا هذه الآية، فإنَّ الآية متضمّنة للاعتقاد، والأعمال: الفرائض، والنّوافل. وبرُّ الوالدين: التّوسّعُ في الإحسان إليهما، وضدُّه العقوق قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾[(١)]، ويستعمل البرّ في الصّدق؛ لكونه بعضَ الخير المتوسَّع فيه، يقال: بَرَّ في قوله، وبَرَّ في يمينه»[(٢)].

فالبِرُّ إذن يعني التّوسّع في فعل الخير والإحسان على شتّى الأصعدة الّتي تتكوّن منها الشّخصيّة الإسلاميّة، فهناك البرُّ الفكري، والرّوحي، وهذا يستبطن البرّ الإيمانيّ، وهناك البرّ العمليّ الّذي يجعل دوافع العمل دوافع خير خالص دون مطلب ذاتيّ، وهناك البرُّ الأخلاقيُّ الّذي يعطي الإيمان رونقاً جذّاباً، والعمل طابعاً حسناً.

وبالجملة الآية الكريمة جامعة «لجميع المعارف الحقّة الّتي يريد الله سبحانه من عباده الإيمان بها...»[(٣)]، «وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد، وتكاليف النّفس والمال، وتجعلها كلاً لا يتجزّأ، ووحدة لا تنفصم، وتضع على هذا كلّه عنواناً واحداً هو «البرّ»، أو هو «جماع الخير»، أو هو «الإيمان» كما ورد في بعض الأثر»[(٤)]، بل قيل: «إنّها جامعة للأعمال الإنسانيّة بأسرها دالَّة عليها صريحاً أو ضمناً؛ فإنّها لكثرتها وتشعّبها منحصرة في ثلاثة أشياء: صحّة الاعتقاد، وحسن

---

(١) الممتحنة: ٨.

(٢) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٦٢-٦٣.

(٣) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٤٢٨/١.

(٤) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٢٢٩/١.

المعاشرة، وتهذيب الأخلاق»[١].

وجاء هذا العرض لا بنحو طرح فكرة مجرّدة، بل عرضت الأفكار من خلال بيان سمات الإيمان الكامل، ولهذا جاء في الحديث: «**مَنْ عَمِلَ بِهذِهِ الآيَةِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإيمانَ**»[٢].

وعرضت الآية لكلّ مفردة من مفردات البرّ بشكل مجسّد واضح؛ لتُكوِّن بمجموعها معالم الرّسالة في شخصيّتها الناطقة... فعلى صعيد البرّ الإيمانيّ جاءت المفردات متتالية:

١- **الإيمان بالله تعالى**: الَّذي هو أساس البرّ، وهو الشُّعور العميق بالارتباط والاتّصال بالواحد المطلق، والإحساس بهيمنة القدرة المطلقة، العادلة، الرَّحيمة، الرَّؤوفة، الغنيّة، وبذلك يشعر المؤمن بمسؤوليّته أمام تلك القوّة الَّتي ترقبه، وتعلم ما في ضميره، وتمدّه بالعون، والتّسديد، والتّأييد.

٢- **الإيمان باليوم الآخر**: الَّذي يجعل المؤمن يشعر بأنَّه يسير نحو ميدان الحساب الإلهيّ الَّذي يُسْأَلُ به عن أعماله وأقواله، وأنَّ تلك الأعمال والأقوال هي الَّتي تقرّر مصيره، إمّا إلى سعادة أبديّة أو شقاء أبديّ، وبذلك يتعمّق في نفسه الشُّعور بالمسؤوليّة عن أعماله، وأقواله، ومواقفه.

٣- **الإيمان بالملائكة**: الَّذي يضع الإنسان أمام عالم غيب محتشد بجنود الله النّورانيّين، وأنَّه واقع تحت رقابتهم بأمر الله ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾[٣].

---

(١) الجواد الكاظميّ، مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام: ١٣/٢.

(٢) الواحديّ النّيسابوريّ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: ٢٦٣/١.

(٣) ق: ١٨.

ولكي يترسّخ الإيمان بالملائكة في النَّفس لا بدَّ وأن نفهم دورهم الَّذي حدَّده الله لهم، فهم عباد مكرمون يعملون بأمر الله تعالى، وهم «وسائط بينه تعالى وبين العالم المشهود، فما من حادثة أو واقعة صغيرة أو كبيرة إلا وللملائكة فيها شأن، وعليها ملك موكّل أو ملائكة موكّلون بحسب ما فيها من الجهة أو الجهات، وليس لهم في ذلك شأن إلا إجراء الأمر الإلهيّ في مجراه، أو تقريره في مستقرّه كما قال تعالى: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[(١)]»[(٢)]، ولا يستقلّون بعمل، ولا يغيّرون أمراً من أوامر الله تعالى، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وهم على مراتب منهم الآمر ومنهم المأمور، يقول تعالى عنهم: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾[(٣)]، وبما أنَّهم يعملون بأمر الله تعالى وإرادته، فلا يغفلون عن أمر من أوامره تعالى.

وخلاصة القول: إنَّهم وسائط في التَّدبير، فهم رسل لله يحملون رسالته إلى أنبيائه: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[(٤)].

ويمدّ بهم المؤمنين في ساعة العسرة ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[(٥)].

---

(١) الأنبياء: ٢٧.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٢/١٧.

(٣) الصّافّات: ١٦٤.

(٤) الحجّ: ٧٥.

(٥) الأنفال: ٩.

وهم يثبّتون المؤمنين في السّاعات الحرجة: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[(١)].

وكما يثبّتون المؤمنين يستغفرون لهم ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾[(٢)].

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٣)].

ومع الاستغفار هناك الصّلاة على المؤمنين، وهي ضرب من الدّعاء ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾[(٤)].

وبالتّالي هم الّذين يتوفّون الأنفس، أي يقبضونها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[(٥)].

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ

---

(١) الأنفال: ١٢.

(٢) غافر: ٧.

(٣) الشّورى: ٥.

(٤) الأحزاب: ٤٣.

(٥) النّساء: ٩٧.

ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾[(١)].

فعندما يعيش المؤمن هذه المشاعر الإيمانيّة بدور الملائكة في: المراقبة، والرّصد، والحفظ، والتّدبير، والدّعاء، والاستغفار للمؤمنين والصَّلاة عليهم، والملازمة له في حلّه وترحاله كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ قوله: «**فَإِنَّ كُلَّ واحد مِنْكُمْ مَعَهُ مَلَكٌ عَنْ يَمينه يَكْتُبُ حَسَناته، ومَلَكٌ عَنْ يَساره يَكْتُبُ سَيِّئاته**»[(٢)].

وهكذا يصبح الإيمان ذا بعد عميق نابض في النّفس، يشعر المرء بالرّقابة، والمسؤوليّة أمام الله تعالى بواسطة عمّاله وجنوده، وإن كان تعالى أعلم منهم بعباده إلا أنَّه عزَّ وجلَّ لا بدَّ أن يجري الأمور بأسبابها ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[(٣)].

٤- **الإيمان بالكتاب:** الّذي يعني الكتب المنزّلة من عند الله تعالى، والمتضمّنة لرسالة الله الواحدة الّتي أوحاها إلى أنبيائه ورسله قبل أن تمسّها يد التّحريف، والّتي اكتملت واختتمت بالقرآن الكريم الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[(٤)].

٥- **الإيمان بالنّبيين:** من آدم عليه السلام حتّى محمّد ﷺ، وهذا يمثل وحدة

---

(١) الأنعام: ٩٣.

(٢) التّفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام: ٣٩٦.

(٣) الفتح: ٤.

(٤) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن للشّيخ الطّبرسيّ: ٤٧٦/١؛ والتّفسير الكبير للفخر الرّازيّ: ٤٣/٥؛ وتفسير المراغيّ لأحمد مصطفى المراغيّ: ٥٥/٢.

الرّسالة على طول خط التّأريخ الرّساليّ، بلا اختلاف بينهم، ولا تفريق بينهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[١]؛ وذلك لأنَّ «أديان السّماء كافّة - في رأي الإسلام- دين إلهيٌّ واحد، وضع بوضع الشّريعة الأولى، واكتمل باكتمال الشَّريعة الأخيرة، ولم يختلف إلا بما تفرضه سنّة التّطوّر في التَّشريع، ولم يتبدّل إلا بما يقتضيه سير الحكمة وحاجة المجتمع، فدين الله هذا الَّذي أرسل به رسوله الأكبر صلى الله عليه وآله هو - بذاته - دين الله الَّذي أوصى به أنبياءه السّالفين، وفرض على الناس أنْ يقيموه ونهاهم أن يتفرّقوا فيه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٢]...

وقد جرى الإسلام على هذه الفكرة لما لازم بين أديان السَّماء في العقيدة، وربط ما بينها في الإيمان، فالمؤمن لن يكون مؤمناً حتّى يصدّق بكلّ من بعث الله من نبيّ، وبكلّ ما أنزل إلى الأنبياء من كتاب، وبكلّ ما أوحى إليهم من شريعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَالْكِتَٰبِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَالْكِتَٰبِ الَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[٣].

﴿قُولُوٓا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ

---

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) الشّورى: ١٣.

(٣) النّساء: ١٣٦.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(١)»(٢).

٦- يأتي البرّ الاقتصاديّ الّذي تمثّله الآية الكريمة في البذل الماليّ أوّلاً للفقراء والمساكين والغارمين، وذي الرّقاب، وأبناء السّبيل، ومن المعلوم أنَّ هذا العطاء يطهّر النّفس، ويزكّيها من أخس الرَّذائل وهي البخل والشُّحّ؛ لأن الإنفاق في سبيل الله هو انتصار على حبّ المال الَّذي هو أحد الغرائز المهمّة في النَّفس الإنسانيّة الّتي تحبّه حبّاً جمّاً، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٣).

٧- ثمّ تشير الآية الكريمة الى الأعمال العباديّة المهمّة ثانياً كإقامة الصَّلاة، والصّيام، والحجّ، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر...الخ؛ وبذلك يترابط الجانب العباديّ بشقّيه العلاقة مع الله، والعلاقة مع النّاس.

٨- ثمَّ يأتي البرُّ الأخلاقي، وتمثّله الآية الكريمة في:

أ- الوفاء بالعهد: وهو أصدق مصاديق الانضباط الأخلاقيّ، والإحساس بمسؤوليّة الكلمة وقدسيّتها ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾(٤).

ب- الصّبر: الّذي يعدّ العمود الفقريّ لبقيّة الأعمال والأحوال الّتي تحتاج إلى الصّبر على مختلف وجهاتها سواء في الصَّبر على النّعمة، وحفظ النّفس من البطر، والغرور، أو الصَّبر في الضّرّاء، وحفظ النّفس من الانهيار، أو الصّبر على

(١) البقرة: ١٣٦.

(٢) الشّيخ محمّد أمين زين الدّين، الإسلام ينابيعه، مناهجه، غاياته: ١٨٤-١٨٦.

(٣) التّوبة: ١٠٣.

(٤) الأحزاب: ١٥.

الطّاعة، أو الصّبر عن المعصية... وهكذا فالصَّبر عصب الحياة الإيمانية في جميع الأحوال.

ج- الصّدق: الصّدق في الاعتقاد، والصّدق في العمل، والصّدق في حسن الأخلاق، أي الصّدق مع الله، ومع النَّفس، ومع المجتمع البشريّ.

فإذا توفّرت هذه الخصال كلّها: الوفاء، والصَّبر، والصّدق، تحقّق الكمال الإنسانيّ، وهو التَّقوى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾(١).

وبهذه المعالم الاعتقاديّة، والعمليّة، والأخلاقيّة، تكتمل الحقيقة الجامعة لكلّ أبعاد البرّ الإيمانيّ، وتبرز الصّورة الواقعيّة للشَّخصيّة الرّساليّة المتّقية.

(١) البقرة: ١٧٧.

الدَّعْوَةُ إلى اللهِ تَعالى

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

في هذه الآيات المباركة بيان موجز في منتهى الدّقّة والبلاغة لحقيقة الدَّعوة إلى الله تعالى، وعظمتها، وأهمّيّتها في حياة المجتمع البشريّ، وتأكيد على أنَّها: هدايةٌ، وإرشادٌ، وتذكيرٌ، وجذبٌ، وتحبيبُ دين الله تعالى للنّاس، وفتحُ الطّرق إليه تعالى أمام الخلق بكلّ السُّبُلِ الشّرعيّة الممكنة؛ «فمهمّة الدّاعية إذن - في مجال الدّعوة - هي إعانة الإنسان على أن يصل إلى الإيمان بفكره وروحه، ولا بدّ له في سبيل ذلك من استخدام الوسائل الّتي تتلاءم وهذه المهمّة؛ لتصل به إلى ذلك الهدف»[2].

والدَّعوة قد تكون باللّسان، وقد تكون بالسّلوك، ولا ينفع الأوّل من دون الثّاني، بل الثّاني أبلغ أثراً في النّفوس، وأدوم استمراراً فيها، وقد كان أهل البيت عليهم السلام يؤكّدون على ذلك، ويوصون به أصحابهم ومريديهم؛ فعن ابن أبي يعفور

---

(١) فصّلت: ٣٣-٣٦.

(٢) السّيّد محمّد حسين فضل الله، أسلوب الدّعوة في القرآن: ٣٦.

قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: **كونوا دُعاةً للنّاس بغَيْر أَلْسنَتكُمْ؛ ليَرَوْا منْكُمُ الْوَرَع، وَالاجْتهادَ، وَالصَّلاةَ، وَالْخَيْرَ، فَإنَّ ذلكَ داعيَةٌ**»(١).

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «**وَكونوا دُعاةً إلى أَنْفُسكُمْ بغَيْر أَلْسنَتكُمْ، وَكونوا زَيْناً، وَلا تَكونوا شَيْناً**»(٢).

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «**كونوا دُعاة للنّاس بالْخَيْر بغَيْر أَلْسنَتكُمْ؛ ليَرَوْا منْكُمُ الاجْتهادَ، وَالصّدْقَ، وَالْوَرَعَ**»(٣).

وغيرها من الأحاديث الّتي تؤكّد على تجسيد الفكر في السّلوك؛ لأنَّ الدّاعية حينما يكون مصداقاً لدعوته في سلوكه يكون أكثر أثراً، وأبلغ تأثيراً في النّفوس، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ الْوَعْظَ الّذي لا يَمُجُّهُ سَمْعٌ، وَلا يَعْدلُهُ نَفْعٌ ما سَكَتَ عَنْهُ لسانُ الْقَوْل، وَنَطَقَ به لسانُ الْفعْل**»(٤)؛ لأنَّ من يخالف قولُه فعلَه يكون كاذباً، والكاذب مذمومٌ مرفوضٌ.

عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: «**إنَّ الْعالمَ إذا لَمْ يَعْمَلْ بعلْمه، زَلَّتْ مَوْعظَتُهُ عَن الْقُلوب كَما يَزلُّ الْمَطَرُ عَن الصَّفا**»(٥).

فالدَّعوة إلى الله إذن مشروطة بكون الدّاعي عاملاً بما يدعو إليه؛ لأنّه لا يمكن أن تقبل دعوته من قبل المدعوّين ما لم يطابق عملُه قولَه، ثمّ أوضحت الآيات الكريمة الأسلوب الأمثل في مواجهة عقبات الدَّعوة إلى الله تعالى، وبيّنت

---

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٢٠٢/٣، ح/١٦٤١.

(٢) المصدر نفسه: ١٩٨/٣-١٩٩، ح/١٦٣٦.

(٣) المصدر نفسه: ٢٧٢/٣-٢٧٣، ح/١٧٧٨.

(٤) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٢٥، ح/٤٥٦٠.

(٥) الكافي: ١٠٩/١، ح/١١٣.

المنال العظيم الّذي يحظى به الدّاعي عند الله تعالى، ثمّ حدَّدت أسلوب الحصانة من نزغات الشّيطان، وأكَّدت أنَّ القول الأحسن، والأفضل، والأسمى من الكلام في حركة الإنسان في الوسط الاجتماعيّ هو الدَّعوة إلى الله في معرفته، وتوحيده، وطاعته، وعبادته، وحبّه، وتوجيه النّاس إلى التَّمسُّك والاعتصام بحبله، وتحكيم شريعته في حياة المجتمع البشريّ.

صِفاتُ الدّاعي:

ليس من السَّهل أن نطلق على كلّ من دعا إلى الله «**داعية**» بكلّ ما للكلمة من أبعاد رساليّة حتّى تتوفّر فيه صفات تؤهّله، ليكون مصداقاً لهذه الكلمة ولا سيّما أنَّ كلمة الدّعاة إلى الله أطلقها تعالى على أكرم خلقه، وأشرف بريّته محمّد صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، بقوله تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ﴾[1].

كما وصفت بعضُ النّصوصِ أهلَ بيتِ النّبوّة عليهم السلام بأنّهم «**الدُّعاةُ إلى الله، وَالأَدِلّاءُ على مَرْضاته**»[2]، وهذا بحدّ ذاته دلالة على عظم هذه المهمّة الإلهيّة وقدسيّتها، بل وجدناهم يتوسّلون الى الله أن يجعلهم من دعاته وهداته كما في دعاء الإمام السّجّاد عليه السلام: «**اللّهمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وآلِه، وَاجْعَلْنا مِنْ دُعاتِكَ**

(١) الأحزاب: ٤٥-٤٦.

(٢) جاء في بعض زيارات الأئمّة عليهم السلام: «**السّلامُ عَلى مُظْهِري أَمْرِ الله وَنَهْيِه، السَّلامُ عَلى الدُّعاة إلى الله، السَّلامُ عَلى الْمُسْتَقِرّينَ في مَرْضاة الله**» عيون أخبار الرّضا عليه السلام للشّيخ الصّدوق: ٥٠٢/٢، ح/٩٥٣؛ وفي زيارة أخرى: «**السَّلامُ عَلَى الدُّعاة إلى الله، وَالأَدلاءِ عَلى مَرْضاة الله... السَّلامُ عَلى الأَئِمَّة الدُّعاة، وَالْقادَة الْهُداة**»، المصدر نفسه: ٥٠٤/٢، ح/٩٥٤.

الدّاعينَ إلَيْكَ، وَهُداتكَ الدّالّين عَلَيْكَ»(١).

ونحن نذكر بعض الخلال الّتي لا بدَّ أن يتّصف بها الدّاعي:

١- **الاعتقاد السَّليم**: فما لم تكن عقيدة الدّاعي إلى الله سليمةً، وصادقةً وواضحةً لديه وضوحاً تاماً بيّناً مدعوماً بالبراهين القاطعة سواء كانت عقليّة، أو نقليّة لا يمكن أن يَصْدُقَ عليه بأنَّه داعية؛ لأنَّ الداعية هو الّذي يتحرّك في سبيل الله؛ ليهدي النّاس إلى الله في كلّ خطوة من خطواته، يُذَكّر بالله تعالى في قوله وفعله، بل وفي منظره، ولقائه من دون تكلّف، أو تصنّع، أو ادّعاء، ولا يتمّ له ذلك إلا حينما يشعر بهيمنة الله عليه، ويوقن أنَّه بعين الله تعالى، وأنَّ الله يعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، يسجّل عليه حركاته وسكناته رغم أنّه تعالى يعلم ما يريده وما يفعله، وسيريه أعماله بصورتها الّتي فعلها:

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾(٢).

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾(٣).

٢- أن يكون متفقّهاً بأحكام الله تعالى، وواعياً لشريعته الغرّاء، عالماً بتكاليفها، مستعداً لتحمّل مسؤوليّتها، وما يترتّب على ذلك من مشاكل، وصعاب، وعقبات، وابتلاءات، وتحدّيات، عارفاً ماذا يجب عليه أن يعطيها من عقله،

---

(١) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ٣٧، دعاء: ٥.

(٢) الأنبياء: ٤٧.

(٣) الزّلزلة: ٧-٨

وروحه، ونفسه؛ فما لم يكن الإنسانُ متبصّراً بأحكام الله تعالى لا يمكن أن يوصلها للنّاس؛ لأنَّ فاقد الشّيء لا يعطيه؛ ولهذا جعل الإسلام عمل العالم الّذي ينشر رسالة الله أفضل من ألف عابد.

عن معاوية بن عمّار، قال: «قلْتُ لأبي عبد الله عليه السلام: رجلٌ راويةٌ لحديثكم يبثّ ذلك في النّاس، ويشدّده في قلوبهم، وقلوب شيعتكم، ولعلَّ عابداً من شيعتكم ليست له هذه الرّواية، أيُّهما أفضل؟ قال عليه السلام: **الرّاويةُ لحَديثنا يَشُدُّ به قُلوبَ شيعَتنا أَفْضَلُ منْ أَلْف عابد**»[١].

ولا شك أنَّ تحقّق هذه الأفضليّة للهادي والمعلّم مشروطة بصدق النّيّة لله تعالى؛ فعن حفص بن غياث، قال: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام: **مَنْ تَعَلَّمَ الْعلْمَ، وَعَملَ به، وَعَلَّمَ لله دُعيَ في مَلَكوت السَّماوات عَظيماً، فَقيلَ: تَعَلَّمَ لله، وَعَملَ لله، وَعَلَّمَ لله**»[٢].

والسّرُّ في التّأكيد على التّعلّم، والتّفقّه، والتّبصّر أنَّ الدَّعوة إلى الله إذا لم تكن عن علم، ومعرفة، وبصيرة قد تؤدّي خلاف المطلوب، فتبعد المدعوّ إليها عن الله تعالى، وإن كان الدّاعي مخلصاً في دعوته، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**الْعاملُ على غَيْر بَصيرَةٍ كَالسّائر عَلى غَيْر الطَّريق لا يَزيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْر إلا بُعْداً**»[٣].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَنْ عَملَ عَلى غَيْر علْمٍ كانَ ما يُفْسدُ أَكْثَرَ ممّا**

---

(١) الكافي: ١/٧٩-٨٠ ح/٥٦.

(٢) المصدر نفسه: ١/٨٦ ح/٦٦.

(٣) المصدر نفسه: ١/١٠٦-١٠٧، ح/١٠٨.

يُصْلِحُ»[1]؛ لأنَّ العمل في الإسلام مشروطٌ بالمعرفة، فلا يقبل الله عملاً إلا بمعرفة، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**لا يَقْبَلُ اللهُ عَمَلاً إلا بمَعْرِفَة، وَلا مَعْرِفَةً إلا بعَمَل، فَمَنْ عَرَفَ دلَّتْهُ الْمَعْرِفَةُ على الْعَمَلِ، وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ فَلا مَعْرِفَةَ لَه، أَلا إنَّ الإيمانَ بَعْضُهُ منْ بَعْضٍ**»[2].

فإذا عرف الله تعالى، وتفقّه بأحكامه، وتخلّق بأخلاقه؛ طلباً لرضوانه، وعمل على تطبيقها تذلّلت لذلك نفسه، وانقادت لأوامر الشَّرع المقدس، حينئذٍ يصبح مصداقاً للدّاعية البصير بدينه، قال داعية الإسلام الكبير الشّيخ محمّد أمين زين الدّين قدس سره: «وإذا لم تكن الدّعوة إلى الله على بصيرة، فهي والإلحاد الصّريح سواء بسواء. سواء بسواء في نظر العقل، فإنَّ الطّريقَ المظلمَ - في باب المعرفة - لا يؤدّي إلا إلى غاية مظلمة، ومحالٌ أن تأتي نتيجة متيقّنة من مقدّمة مشكوكة»[3].

٣- ولأجل إيصال الكلمة الطّيّبة إلى عقول النّاس، وترسيخها في قلوبهم لا بدَّ أن يجيد فنَّ العرض القرآنيّ لدين الله على النّاس بالحكمة والموعظة الحسنة، وأروع تلك الأساليب أن يتحلّى بالسّلوك المستقيم، والقول الحسن بل الأحسن، وهو الكلمة الطّيّبة، الصّادقة، الهادفة، البليغة الّتي تُؤَدّى باختيار دقيق، ووعي عميق، وبيان جميل جذّاب، يبشّر ولا ينفّر، وبذلك يكون مصداقاً لما أوصى به رسولُ الله صلى الله عليه وآله معاذَ بن جبل حين بعثه إلى اليمن قائلاً: «**يَسِّرْ ولا تُعَسِّرْ، وبَشِّرْ ولا تُنَفِّرْ**»[4].

---

(١) الكافي: ١/١٠٨، ح/١١٠.

(٢) المصدر نفسه: ١/١٠٧، ح/١٠٩.

(٣) الشّيخ محمّد أمين زين الدّين، الإسلام ينابيعه مناهجه غاياته: ١١.

(٤) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٤/٢٤٦.

وهذا هو القول الحسن الّذي يهدي اللهُ به عباده، وهو الّذي عبّر عنه القرآن الكريم بالموعظة الحسنة الّتي هي «طريقة في التّبليغ، وأسلوب في الدّعوة يحبّبها، ولا يُنَفّر عنها، يقرّب إليها، ولا يُبَعّد عنها، ييسّرها ولا يعسّرها... هو الأسلوب الّذي يشعر المخاطب أنَّ دورك معه دور الرَّفيق به، والنّاصح له، الباحث عمّا ينفعه، ويسعده، إنَّها - كما قال أحد العلماء الكتاب المعاصرين: - الّتي تدخل القلوب برفق، وتتعمّق المشاعر بلطف، لا بالزّجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء الّتي قد تقع عن جهل أو حسن نيّة، فإنَّ الرّفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشّاردة، ويؤلّف القلوب النّافرة، ويأتي بخير من الزّجر والتّأنيب»[١].

أعْظَمُ الطّاعاتِ:

إذا خلصت النّيَّة لله تعالى، وأتقن الدّاعي فنَّ الدّعوة إلى الله، فهي من أفضل الطاعات، وأكمل العبادات، وجميلٌ ما استدلَّ به الفخر الرّازيّ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، قال: «يدلّ على أنَّ الدّعوة إلى الله أحسن من كلّ ما سواها، إذا عرفْتَ هذا فنقول: كلّ ما كان أحسن الأعمال وجب أن يكون واجباً؛ لأنَّ كلّ ما لا يكون واجباً فالواجب أحسن منه، فثبت أنَّ كلّ ما كان أحسن الأعمال فهو واجب، إذا عرفْتَ هذا فنقول: الدَّعوة إلى الله أحسن الأعمال بمقتضى هذه الآية، وكلّ ما كان أحسن الأعمال فهو واجب»[٢].

وقال الطّبرسيّ ﭬ: «وفي هذه الآية دلالة على أنَّ الدّعاء إلى الدّين من أعظم الطّاعات، وأجلّ الواجبات»[٣].

---

(١) أسلوب الدّعوة في القرآن: ٥٧.

(٢) الفخر الرّازيّ، التّفسير الكبير: ١٢٥/٢٧-١٢٦.

(٣) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ١٩/٩.

الدّعْوَةُ إلى اللهِ عَمَلُ الأنْبِياءِ:

إنَّ كلّ ما بذله الأنبياء عليهم السلام من جهد، وجهاد، وتضحية، وفداء، وما تحمّلوه من أذًى واضطهادٍ ليس إلا من أجل هداية خلق الله إلى دينه، وتعبيدهم إليه، ونحن إذا استعرضنا خطَّ الأنبياء على طول المسار الرّساليّ لم نجد سوى عبادتهم لله تعالى، ودعوتهم لتوحيده وتعبيد النّاس إليه جلَّ وعلا؛ فهذا نبيّ الله نوح عليه السلام «كان لا يترك فرصةً إلا وينتهزها في تذكيرهم، ولا يَدَعُ أسلوباً إلا ويلجأ إليه في تعريفهم بالله حتّى إنَّه كان يقدّم إليهم في كلّ مرّة الفرصة للرّجوع إلى التّوبة»[١].

ورغم ما كان يلاقيه منهم من إصرار على المآثم، وعناد، واضطهاد، وإعراض، وتعذيب شديد، فقد «كان نوحٌ يدعوهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانيةً، وكان صبوراً حليماً، ولم يلقَ أحدٌ من الأنبياء أشدّ ممّا لقي نوح، فكانوا يدخلون عليه، فيخنقونه حتّى يترك وقيذاً[٢]، ويضربونه في المجالس ويطرد، وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم، ويقول: **رَبِّ، اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمونَ**»[٣].

وإلى هذا أشار رسول الله صلى الله عليه وآله، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كأنّي أنظر إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله يحكي نبيّاً من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه، وهو يمسح الدّم عن وجهه، ويقول: **اللّهُمَّ، اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمونَ**»[٤].

وقال ابن عبّاس رضي الله عنه: «إنَّ نوحاً كان يضرب، ثمّ يُلَفّ في لِبد، فيلقى في

(١) السّيّد محمّد حسين فضل الله، خطوات على طريق الإسلام: ٤٣٥.

(٢) الوقذ: شدّة الضّرب. وشاةٌ وقيذة موقوذة أي مقتولة بالخشب، كتاب العين للخليل الفراهيديّ: ٢٠١/٥، (وقذ)؛ والمعنى هنا: أي يتركونه مشرفاً على الهلاك.

(٣) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: ٤٢/٩-٤٣.

(٤) صحيح البخاريّ: ١٥١/٤.

بيته يرون أنَّه قد مات، ثمّ يخرج فيدعوهم»[(١)].

ويصوّر لنا القرآن الكريم هذا الجهد الجبّار الّذي كان نوح عليه السلام يبذله عن لسانه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[(٢)].

هكذا قضى كلّ عمره الشّريف داعياً إلى الله تعالى، ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، لم يدع فرصة تمرّ من دون أن يدعو النّاس الى توحيد الله وعبادته، ويذكّرهم بعاقبة أمرهم، «فكان لا يزيدهم ذلك إلا فراراً منه، حتّى أنَّه ليكلّم الرّجل منهم، فيلفّ رأسه بثوبه، ويجعل أصبعيه في أذنيه؛ لكيلا يسمع شيئاً من كلامه»[(٣)].

وهكذا كان خليل الرّحمن صلوات الله عليه يواصل دعوته إلى الله تعالى؛ لتركيز دعائم التّوحيد، وهدم قواعد الشّرك، يحاجج قومه، ويذكّرهم ببغيهم، وضلالتهم، وخروجهم عن جادّة العقل والمنطق؛ ليرجعهم إلى الله تعالى إلا أنَّهم كانوا يصرّون على ما هم عليه، ولمّا رأى أنَّهم لا تنفع معهم الحجج والبراهين العقليّة دبّر لهم مخطّطاً؛ ليوقظ حسّهم بتحطيم أصنامهم، وليثبت لهم عمليّاً أنَّها لا تستطيع أن تدافع عن نفسها فكيف تنفع غيرها، وحين وجّهوا له أسئلة أجابهم بجواب حاول أن يثير مكامن فطرتهم؛ لينفض عنها غبار الغفلة من خلال حوار هادف بنّاء دقيق قائلاً: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۞ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤٣/٩.

(٢) نوح: ٥-٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٤٣/٩.

عَٰبِدِينَ ۞ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۞ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۞ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۞ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ۞ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ۞ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ۞ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۞ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۞ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۞ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۞ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۞ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾[١].

وهكذا حاول الخليل عليه السلام أن يوقظ حسّهم، وينفض عنهم أدران الذّنوب، والغفلة، والعادة، والألفة للواقع الفاسد، والعقائد الوثنيّة الّتي ورثوها عن آبائهم.

كلّ هذا الجهد، وهذا العناء الّذي بذله إبراهيم عليه السلام؛ لأجل إرجاع النّاس إلى الله تعالى، وتحريرهم من العقائد الفاسدة، وهم يلاقونه بتلك الأساليب الوحشيّة، فلم يهن ولم يلن، ولم يتراجع قدر أنملة، بل قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۞ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٢].

---

(١) الأنبياء: ٥٢-٦٨.

(٢) الصّافّات: ٩٩-١٠٠.

هكذا يعيش المتحرّرون من قيود حبّ الدّنيا، ويقاومون الضغوط كلّها مهما بلغت من الشّدّة والعنف، ولو كانت حد الإلقاء في النّار، ومن دون هذا التّحرر لا يمكن أن يواصل الدّاعية إلى الله سيره وكدحه إليه تعالى.

وكليم الله موسى عليه السلام جاء حاملاً رسالة الله إلى النّاس، ولاقى ما لاقى من العنت والجهد ما لا يحيط به قلم، ولا كتاب بعد كتاب الله تعالى، ولنتأمّل قليلاً في أنموذج واحد من تكاليف الدّعوة الإلهيّة لموسى، وهو أمر الله تعالى له ولأخيه هارون عليهما السلام بدعوة أعتى عتاة ذلك الزّمان وهو فرعون، فقال له: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۞ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۞ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾؛ ولمّا أبديا تخوّفاً من بطش فرعون وطغيانه قائلين: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ جاءهم الجواب مُطَمئناً وضامناً لهما السّلام والنّصر: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۞ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[1].

بهذا الأسلوب الحكيم، وهذه الدّعوة الصّادقة، وبهذه البراهين القاطعة يتقدّم موسى وهارون عليهما السلام إلى أعتى عتاة الزّمان؛ ليدعواه إلى الله، ونحن نفهم من هذا أنَّ الدّاعية يمكنه أن يخاطب بدعوته كلّ إنسان مهما كان طغيانه وقوّته وجبروته، ورحم الله الإمام الخمينيّ قدس سره الّذي أعاد مسيرة الأنبياء في دعوته حين خاطب أحد عتاة القرن العشرين «ميخائيل غورباتشوف»، ودعاه إلى الإسلام قائلاً:

«لا بدّ من مواجهة الحقيقة، أنَّ مشكلة بلدكم الرّئيسة لا تكمن في قضايا الملكيّة والاقتصاد والحرّيّة؛ وإنّما في عدم الإيمان الحقيقيّ بالله؛

---

(١) طه: ٤٢-٤٧.

وهي ذات المشكلة الّتي قادت الغرب وستقوده إلى الانحطاط، والطّريق المسدود؛ لأنَّ مشكلتكم الحقيقيّة تكمن في محاربتكم الطّويلة والعقيمة لله ومَبدأ الوجود والخلق...

من الواضح للجميع أنَّه من الآن فصاعداً يجب البحث عن الماركسيّة في متاحف التّاريخ السّياسيّ في العالم، فالشّيوعيّة لم تلبِّ أيّة حاجة من الاحتياجات الواقعيّة للإنسانيّة...

أطلب منكم أن تبحثوا بدقّة وجدّيّة حول الإسلام؛ ليس لأنَّ الإسلامَ والمسلمين بحاجة إليكم؛ وإنّما للقيم السّامية، والرّؤية الشّموليّة الّتي يتّسم بها، والّتي بوسعها أن تمثّل أداةً لإنقاذ الشّعوب ورخائها، وإيجاد حلول للمشكلات الرّئيسيّة الّتي تعاني منها البشريّة.

إنَّ رؤية الإسلام الجادّة بوسعها أن تنقذكم وإلى الأبد من مآزق أفغانستان والمآزق الأخرى المشابهة في العالم.. إنّنا نعتبر المسلمين في العالم كمسلمي بلدنا، ونرى أنفسنا شركاء في مصيرهم على الدّوام»[1].

الشّرط الثّاني الّذي تذكره الآية الكريمة هو: أنَّ على الدّاعية إلى الله تعالى أن يعمل عملاً صالحاً، والعمل الصّالح في الإسلام هو: ما يُؤَدّى بدوافع مجرّدة عن الميول الذّاتيّة سواء كانت مادّيّة، أو معنويّة؛ فكلّ عملٍ يؤدّيه الإنسانُ طلباً لمرضاة الله لا يبغي من ورائه سمعةً، ولا شهرةً ضمن الإطار والجوهر الإسلاميّ هو عملٌ صالحٌ، وقد قرنه القرآن باستمرار بالإيمان، فلا انفكاك بين الإيمان والعمل الصّالح؛ فلا قيمة لعمل يؤدّى عن غير إيمان؛ وذلك لأنَّ «الإسلام يهتمّ

---

(١) صحيفة الإمام، تراث الإمام الخمينيّ قُدّس سرّه: ٢٠٣/٢١-٢٠٥.

بدوافع العمل لا بمنافعه، ويرى أنَّه يستمدّ قيمته من الدوافع لا من المنافع، فلا عمل إلا بنيّة، وما لم تتوفّر النِّيَّةُ الصّالحة لا يكون العمل صالحاً مهما كانت منافعه الّتي تنشأ عنه... إنَّ الإسلام يقيس قيمة الأعمال بالدّوافع، والمقدّمات، والإطارات الفكريّة العامّة الّتي تختمر بذرة العمل ضمن نطاقها، بينما يقيس غيره الأعمال بالنّتائج، والمنافع، والمجالات الحياتيّة الّتي يساهم العمل في إصلاحها»(١).

ويشهد على ذلك ما جاء عن أئمّة الهدى عليهم السلام في كثير من الأحاديث، قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام:

«الْعَمَلُ كُلُّهُ هَبَاءٌ إلا ما أُخْلِصَ فيه».

«أَعْلى الأَعْمال إخْلاصُ الإيمان، وَصِدْقُ الْوَرَعِ وَالإيقان».

«أَفْضَلُ الْعَمَلِ ما أُريدَ به وَجْهُ الله».

«مَنْ رَغِبَ فيما عِنْدَ الله أَخْلَصَ عَمَلَهُ»(٢).

والعمل الصّالح المقرون بالإيمان هو أفضل ذخيرة يدّخرها الإنسانُ لنفسه عند الله، وأفضل رصيد يقدّمه لآخرته، يثقل ميزان كرامته، ويرفع منزلته عند الله، وهذا ما أكّدته النّصوص الحديثيّة الواردة عن أهل بيت العصمة والطّهارة عليهم السلام، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«الْعَمَلُ الصّالحُ أَفْضَلُ الزّادَيْن».

«الْقَرينُ النّاصحُ هُوَ الْعَمَلُ الصّالحُ».

«إنَّكَ لَنْ يُغْنيَ عَنْكَ بَعْدَ الْمَوْتِ إلا صالحُ عَمَلٍ قَدَّمْتَهُ، فَتَزَوَّدْ مِنْ صالِحِ الْعَمَلِ».

---

(١) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، المدرسة القرآنيّة: ٣٣٩-٣٤٠.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١٥٥، ح/٢٨٩٦-٢٨٩٩-٢٩٠١-٢٩٠٧.

«بالأَعْمال الصّالحات تُرفَعُ [تَعْلو] الدَّرَجاتُ».

«عَلَيْكَ بِصَالِحِ الْعَمَلِ فَإِنَّه الزّادُ إِلى الْجَنَّة»[1].

والأمر الثّالث في الآية: إبراز هويّته الرّساليّة، وبيان أهمّيّتها للنّاس أجمع بوضوح وصراحة، ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وهو أنَّ داعية الإسلام قولاً وفعلاً يدعو إلى الله، ويعمل صالحاً؛ يهدي، ويرشد، ويعلّم، ويهذّب، ومن خلال ذلك يبرز هويّته الرّساليّة؛ ليُعَرّف المدعوّ بمبدئه وعقيدته... فإذا ما سُئِلَ: لماذا كلّ هذا؟ قال: ﴿إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

والمسلمون هم الّذين أسلموا أمرهم إلى الله تعالى، وعملوا بما أمرهم، وحملوا رسالتهم إلى النّاس كافّة؛ «إنَّ أمثال هؤلاء فضلاً عن تمسّكهم بالأركان الإيمانيّة الثّلاثة: «الإقرار باللّسان، والعمل بالأركان، والإيمان بالقلب»، فإنَّهم تمسّكوا بركن رابع هو التّبليغ، والدّعوة، ونشر دين الحقّ، وإقامة الدّليل على أصول الدّين، ودفع آثار الشّرك والتّردّد من قلوب عباد الله.

إنَّ هؤلاء المنادين، بصفاتهم الأربع، يعتبرون أفضل المنادين والدّعاة في العالم»[2].

دَفْعُ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ:

إنَّ الدّعاة إلى الله يواجهون عقبات جمّة من خلال كدحهم إلى الله تعالى حاملين راية الحقّ، مبشّرين، ومنذرين؛ فلا بدّ أن يواجهوا الظّلم بكلّ أنواعه:

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١٥٤، ح/ ٢٨٦٣-٢٨٦٥-٢٨٦٧-٢٨٧٢-٢٨٧٩.

(٢) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣٧٠/١٥.

تكذيب، وافتراء، وفحش، وبذاءة، وقتل، وتشريد، وسجن، وتعذيب... وقد واجه رسل الله وأنبياؤه عليهم السلام من هذه ما لا يحيط به البيان، وكأنَّ القرآن الكريم يريد أن يقول لحملة الرّسالة: إنَّكم ما دمتم تحملون الرّسالة الّتي تمثّل جميع الكمالات، والفضائل، والحسنات بأبعادها كلّها، فلا يمكن أن تتساوى حسناتكم مع سيّئات الآخرين، أنتم تحملون: التّوحيد، والعدل، والحقّ للإنسانيّة، وهم يحملون: الكفر، والشّرك، والظّلم، والنّفاق، والاستعباد، فلا تناسب بينكم وبينهم، فلا يمكن أن تواجهوهم بمثل ما يواجهونكم به، وإلا ما الفرق بينكم وبينهم؟ فالواجب عليكم أن تدفعوا السّيّئات الّتي تواجهكم بالحسنات الّتي تزيّنتم بها، ادفعوا الجهل والظّلم بالعلم والعدل، والخيانة بالأمانة، «ادفع الباطل بالحقّ، والجهل والخشونة بالحلم والمداراة، وقابل الإساءة بالإحسان، فلا تردّ الإساءة بالإساءة، والقبح بالقبح؛ لأنَّ هذا أسلوب من همّه الانتقام، ثمّ إنَّ هذا الأسلوب يقود إلى عناد المنحرفين أكثر»[1].

إنَّ دفعَ السَّيِّئة بالحسنة منهجٌ دعويٌّ، اتّبعه جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، فلا نعرف نبيّاً قابل قومه بمثل ما قابلوه، بل كانوا دائماً يردّون السّيّئة بالحسنة، فيصلون من قطعهم، ويعطون من حرمهم، ويعفون عمن ظلمهم إلى أن يستفرغوا جهودهم كلّها، وييأسوا من إصلاح قومهم، حينئذٍ يدعون الله أن ينقذَهم من عناد قومهم بإنزال العذاب عليهم، وهذا ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد قابل كلّ الظّلم الّذي لاقاه من قريش بالعفو والرّحمة، وأصدق مثال لذلك ما وقع في فتح مكة، حيث صارت قريش تحت سيطرته، فسمع سعد بن عبادة ينادي: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسبى الحرمة، اليوم أذلّ اللهُ قريشاً»، فقال صلى الله عليه وآله: «**بَلِ الْيَوْمَ يَوْمُ**

(۱) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ۳۷۲/۱٥.

الْمَرْحَمَة، الْيَوْمَ أَعَزَّ اللهُ قُرَيْشاً»[١].

وأمر بعزل سعد عن اللّواء؛ لأنّه رفع شعار الانتقام... وأكثر من الشّعار كان فعله ﷺ مع قريش حين عفا عنهم، والسَّيْفُ مسلّطٌ على رقابهم.

قال الشّيخ الطّبرسيّ قدس سره: «ودخل صناديد قريش الكعبة، وهم يظنّون أنّ السَّيف لا يرفع عنهم، فأتى رسول الله ﷺ البيت، وأخذ بعضادتي الباب، ثمّ قال: **لا إلَهَ إلا اللهُ، أَنْجَزَ وَعْدَه، وَنَصرَ عَبْدَه، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَه**، ثمّ قال: **ما تَظُنّونَ؟ وما أَنْتُمْ قائلونَ؟** فقال سهيل بن عمرو: نقول خيراً، ونظنّ خيراً، أخ كريم، وابن عمّ؛ قال: **فَإنّي أَقولُ لَكُمْ كَما قالَ أَخي يوسُفُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾**[٢]، **أَلا إنَّ كُلَّ دمٍ ومالٍ ومأْثَرَة كانَ في الْجاهليَّة فإنَّه موضوعٌ تَحْتَ قَدَمَيّ إلا سدانَةَ الْكَعْبَة وسقايَةَ الْحاجِّ، فإنَّهما مَرْدودَتان إلى أَهْليهما**... ثمّ قال: **أَلا لَبِئْسَ جيرانُ النَّبيِّ كُنْتُمْ، لَقَدْ كَذَّبْتُمْ، وطَرَدْتُمْ، وأَخْرَجْتُمْ، وفَلَلْتُمْ، ثُمّ ما رَضيتُمْ حَتّى جِئْتُموني في بِلادي تُقاتِلوني، فَاذْهَبوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقاءُ**؛ فخرج القوم كأنّما أنشروا من القبور، ودخلوا في الإسلام»[٣].

هذه هي الأخلاق الإلهيّة الّتي لا تعرف الحقد، والانتقام حتّى ممّن آذاها، وحاربها، فهي تعفو، وتصفح، وترحم؛ لتعيدهم إلى الله تعالى، وننقل بعض المواقف الدّعويّة الّتي أنجزها رسول الله ﷺ مع أعدى أعدائه مع قدرته عليهم،

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٧٢/١٧.

(٢) يوسف: ٩٢.

(٣) الشّيخ الطّبرسيّ، إعلام الورى بأعلام الهدى: ٢٢٥/١-٢٢٦.

وتسلّطه على رقابهم، إلا أنَّه أبى إلا أن يكون رحمةً للعالمين، وهاك غيض من فيض رحمة الله، فقد هرب عكرمة بن أبي جهل عند فتح مكّة إلى اليمن، وجاءت زوجته إلى رسول الله ﷺ لتطلب له العفو؛ قال الواقديّ:

«قالت أمّ حكيم امرأة عكْرمة بن أبي جهل: يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله، فأمّنْهُ، فقال رسول الله ﷺ: **هُوَ آمنٌ**؛ فخرجت أمّ حكيم في طلبه... وأدركت عكْرمة، وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة، فركب البحر، [فهاج بهم]، فجعل نوتيُّ السّفينة[١] يقول له: أخلص، قال: أيّ شيء أقول؟ قال: قل لا إله إلا الله، قال عكْرمة: ما هربْتُ إلا من هذا، فجاءت أمّ حكيم على هذا الكلام، فجعلت تُلحّ إليه، وتقول: يا ابن عمّ، جئْتُك من عند أوصل النّاس، وأبرّ النّاس، وخير النّاس، لا تُهْلك نفسك، فوقف لها حتّى أدركَتْهُ، فقالت: إنّي قد استأمنْتُ لَكَ محمّداً رسول الله ﷺ، قال: أنت فعلْت؟ قالت: نعم، أنا كلّمته، فأمَّنك، فرجع معها... فلمّا دنا من مكّة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: **يَأْتيكُمْ عكْرمَةُ بْنُ أَبي جَهْلٍ مُؤْمناً مُهاجراً، فَلا تَسبّوا أَباهُ، فَإنَّ سَبَّ الْمَيِّت يُؤْذي الْحَيَّ، وَلا يَبْلُغُ الْمَيِّتَ**... فلما رأى النّبيّ ﷺ عكْرمة وثب إليه -وما على النّبيّ ﷺ رداء- فرحاً بعكْرمة، ثمّ جلس رسول الله ﷺ، فوقف بين يديه، وزوجته منتقبة، فقال: يا محمّد، إنَّ هذه أخبرتني أنّك أمّنْتني، فقال: **صَدَقَتْ، فَأَنْتَ آمنٌ**؛ فقال عكرمة: فإلى ما تدعو يا محمّد؟ قال: **أَدْعوكَ إلى أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأَنّي رَسولُ الله، وأَنْ تُقيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتيَ الزَّكاةَ**.. وتفعل وتفعل، حتّى عَدَّ خصال الإسلام، فقال عكرمة: والله ما دعوتَ إلا إلى الحقّ، وإلى حَسَنٍ جَميلٍ،

(١) النّوتيّ: هو الملاح الّذي يدير السّفينة في البحر.

قد كُنْتَ واللهِ فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوْتَ إليه، وأنت أصدقُنا حديثاً، وأبرُّنا برّاً، ثمّ قال عكرمة: فإنّي أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمّداً عبدُهُ ورسولُ؛ فسُرَّ بذلك رسول الله ﷺ»[1]، وهناك إضافاتٌ على الخبر أعرضْتُ عنها؛ لأنَّ في النّفس منها شيئاً.

وقال ابن إسحاق في قصّة دخول وحشيّ إلى المدينة: «لمّا قَدِمَ المدينة، قال النّاس: يا رسول الله، هذا وحشيٌّ، فقال: **دَعوهُ، فَلَإسْلامُ رَجُلٍ واحدٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَتْلِ أَلْفِ رَجُلٍ كافرٍ**»[2].

وروى وحشيّ قصّة دخوله على النّبيّ ﷺ وعفوه عنه قائلاً: «خرجْتُ حتّى قدمْتُ على رسول الله ﷺ المدينة، فلم يَرُعْهُ إلا بي قائماً على رأسه أتشهّد شهادة الحقّ، فلمّا رآني قال: **أَوَحْشِيٌّ؟**، قلْتُ: نعم، يا رسول الله، قال: **اقْعُدْ فَحَدِّثْني كَيْفَ قَتَلْتَ حَمْزَةَ؟** قال: فحدّثته... فلمّا فرغْتُ من حديثي، قال: **وَيْحَكَ، غَيِّبْ عَنّي وَجْهَكَ، فَلا أُرَيَنَّكَ**»[3].

مُكَوِّناتُ الشَّخْصِيَّةِ الدَّعَوِيَّةِ وَرَكائِزُها في الإِسْلامِ:

تتقوّم الشّخصيّة القياديّة الدّعويّة على ثلاث ركائز أساسيّة، ومن دونها لا يمكن أن نطلق عليها شخصيّة، فضلاً عن كونها قياديّةً، وهذه الرّكائز هي: الإيمان، والعلم، والعمل، وبمجموع هذه الثلاثة تتكوّن الشّخصيّة الدّعويّة، فإذا اختلَّ أحد هذه الدّعائم فقدت قيمتها، وأصبحت عرجاء ناقصة شوهاء، فلا إيمان راسخ بلا

---

(١) الواقديّ، كتاب المغازي: ٨٥١/٢-٨٥٢؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٩/١٨-١٠.

(٢) السّهيليّ، الرّوض الأنف: ٢٥٦/٣.

(٣) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٨٠/٣.

علم، ولا قيمة لعلم بلا عمل، ولا عمل سليم من دون إيمان؛ وذلك للتّلازم المحكم بينها، فلا يمكن الفصل بينهما إذا أردنا مواصلة السّير التّكامليّ في منهج الإسلام، فالعلم للعمل، «**الْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجابَهُ وَإِلا ارْتَحَلَ عَنْهُ**»(١).

أمّا الإيمان، فلا نقصد به ما يحفظ مال المسلم، ويحقن دمه، ويصون عرضه بإقراره الشّهادتين، وإنّما نقصد به تمركز العقيدة، وترسّخها في العقل، ثمّ انسيابها إلى القلب؛ لتتحوّل إلى وعي يمتزج فيه الفكر بالعاطفة، ويتمّ التّلازم بينهما، فالفكر يوجّه العاطفة؛ لينضجها، ويحرّكها في خط التّغيير والإصلاح، والعاطفة تفجّر الطّاقات الفكريّة، وتحوّلها إلى قوّة تغيير وإصلاح، وبناء للكيان الدّاخليّ، أو المحتوى الرّوحيّ الّذي ينعكس على الظّاهر بصيرةً نافذةً، واستقامةً سلوكيّةً، وسمواً أخلاقيّاً، وتجسيداً لمبادئ الحقّ، والعدل، والخير، والجمال، ﴿**قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ**﴾(٢)، فإذا دخل الإيمان في القلب ملك على الإنسان كلّ كيانه شعوراً وإحساساً، وتطابق فيه السّرُّ مع العلن، وتوافق القولُ مع الفعل، فلا يقول إلا ما يفعل، وحينئذٍ يتحوّل هذا الإيمانُ إلى قوّةٍ حاكمةٍ مُسيِّرةٍ للإنسان باختياره لا تخضع لشيءٍ خلافها، فلا تنصاع لهوى، ولا تركن لطمع، ولا تفزع لخوف، ويكون شعارها: ﴿**إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ**﴾(٣)، وبذلك يصبح «رضوان الله تعالى غايةً في كلّ عمل»(٤).

---

(١) الكافي: ١/١٠٩، ح/١١٢.

(٢) الحجرات: ١٤.

(٣) الأعراف: ١٢٥؛ الشّعراء: ٥٠.

(٤) عنوان مقال للشّهيد الكبير الأستاذ عبد الصّاحب دخيّل؛ ينظر: المنتقى من ثقافة الدّعوة الإسلاميّة: ٦١-٦٦.

بهذه الرّوح الإيمانيّة وقف رسول الله ﷺ متحدّياً طغيان قريش، وإمبراطوريّة الرّوم والفرس، وكان شعاره: «**وَاللهِ لَوْ وَضَعوا الشَّمْسَ في يَميني، وَالْقَمَرَ في يَساري على أَنْ أَتْرُكَ هذا الأَمْرَ حَتّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ فيه، ما تَرَكْتُهُ**»(١).

وبهذا الإيمان تقدّم الإمام الحسين عليه السلام إلى ساحة الفداء والتّضحية، وقدّم كلّ وجوده، واحتفظ بذلك بكلّ موجوده إلى يوم الدّين، فأصبح محرّكاً لعجلة التّأريخ على طول خطّ الرّسالة.

وبهذه الرّوح قال السّيّد الشّهيد الصّدر قدس سره لفرعون العراق حين أرسل إليه رسوله يهدّده بالإعدام إن لم يستجب لمطالبه: «أخبر صدّاماً أنّي بانتظار تنفيذ وعده»(٢)، وأعلنها في ندائه الثّاني الّذي وجّهه إلى الشّعب العراقيّ: «وأنا أعلن لكم - يا أبنائي - أنّي صمّمْتُ على الشّهادة»(٣).

وبها صعد الشّيخ العارف المشنقة مبتهجاً بلقاء الله، والأمثلة كثيرة...

أمّا العلم: فلا نقصد به الثّقافات، والمعارف الاصطلاحيّة السّائدة اليوم في الحوزة العلميّة، والدّراسات الأكاديميّة القائمة على أساس المصطلحات المعروفة، والمعارف المحدودة؛ لنيل المراتب والشّهادات الّتي تؤهّل الإنسان لإشغال المواقع السّياسيّة، وإنّما نقصد بالعلمِ المعرفةَ الّتي ترفع مستوى الكمالات العقليّة والفكريّة الّتي تميّز بين الأشياء، والقضايا، والأشخاص؛ لئلا يختلط أمرٌ بآخر، ويُوقع الدّاعية في إرباك، وتردّد، واشتباه، واضطراب، وتمنحه حسّاً دعويّاً يستطيع

(١) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٣٠٣/١.

(٢) السّيّد كاظم الحائريّ، مباحث الأصول: ١٦٣/١.

(٣) المصدر نفسه: ١٥٠/١.

من خلاله أن يكتشف الأشياء من بدايتها، ويعرف حقيقتها، ويحدّد من خلالها الأولويّات...

كما نقصد بالعلمِ المعارفَ الّتي تعمّق الجوانب الرّوحيّة؛ لتكون عاملاً أساسيّاً في بناء المحتوى الدّاخليّ في ترسيخ العقائد والأفكار السّليمة، وتهذيب الأخلاق، وتزكية النّفس، وإصلاح الظّاهر، ولا يمكن الفصل بين هذه الجوانب الثّلاثة: العقليّة، والرّوحيّة، والأخلاقيّة الحركيّة، ولا يُستغنى بواحدة من دون الأخرى، ولا يمكن، بل ولا يجوز أن تفصل إحداهما عن الأخيرتين، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[(١)].

هذه الأمور الأساسيّة تمنح الدّاعية: رؤيةً واضحةً، فيعرف ماذا يريد؟ ولماذا يريد؟ وكيف يحقّق ما يريد؟ كما تقدح في نفسه حماساً رساليّاً، واندفاعاً حركيّاً متفجّراً، لا توقفه عقبة، ولا يجذبه هوى، ولا تغريه دنيا.

وخلاصة الكلام: إنَّ العلم الّذي يجب أن يتحلّى به الدّاعية هو مجموعة المعارف الّتي تحقّق له: كمالاً في العقل، واطمئناناً في النَّفس، وسلامة في القلب، وصواباً في اللّسان، واستقامة في السّلوك، وتحرّراً من عبوديّة الهوى، وحماساً حركيّاً؛ لإحياء الإسلام في نفوس بني الإنسان، ومن دون ذلك يتحوّل إلى ترف فكريّ لا طائل معه، وبالتّالي خسارة للعمر، وعذاب في الدّنيا والآخرة.

ومختصر القول: العلوم والثّقافات المطلوبة من الدّاعية هي:

١- العلم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، علماً يجعله يشعر برقابة الله، ومعيّته، والشّعور بالتّقصير بين يديه.

٢- العلم بأحكام الله وشرائعه وقوانين السّماء، وسنن التّأريخ، وهذا ما نعبّر

---

(١) البقرة: ٨٥.

عنه بالفقه، إن لم يكن التّفقّه، عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام: **«إِذا أَرادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً فَقَّهَهُ في الدّينِ»**(١).

٣- العلم بما في النّفس البشريّة من طاقات مخزونة، ومعرفة كيفيّة استثمار هذه الطّاقات في التّغيير، والإصلاح، والبناء، والتّحريك نحو الأحسن.

٤- المعرفة بالمجتمع الّذي يعمل فيه تتطلّب منه «أن يحيط بما يجري في الخضمّ الاجتماعيّ من أحداث ذات قيمة، أو أحداث هزيلة، فلا يمكن أن يمارس الدّاعية عمليّة التّغيير في الحياة الاجتماعيّة ما لم يكن يعلم كلّ شيء عن حياة الأمّة، من عادات، وتقاليد، وأعراف، ومن ذهنيّة، وثقافة، وسلوك، وكذلك التّيّارات السّياسيّة الّتي تمرّ من خلال الحياة الاجتماعيّة، والأحداث السّياسيّة الّتي تحدث فيها، والأوضاع الاقتصاديّة الّتي تتجدّد فيها، وما لم يعرف كلّ شيءٍ عن فئات الأمة، وطبقاتها، وفئات المثقّفين، والتّجّار، وأصحاب الحرف، والمهن، والموظّفين، والفئات المحافظة، والفئات المتميّعة، وحاجات كلّ أولئك، ومشاكلهم الّتي يعانون منها، وما لم يكن يعرف كلّ شيء عن مؤسّسات المجتمع، ومشاريعه الرّسميّة منها وغير الرّسميّة»(٢)؛ فإذا توفّرت هذه المعرفة فحينئذ سيجعل الدّاعية كلّ شيء في المجتمع «مادّةً للدّراسة، وكلّ مكان مدرسةً للتّوعية».

٥- العلم بالعمل: ونقصد بذلك معرفة الأساليب الّتي توقظ الغافلين عن سرّ وجودهم، وعلّة إيجادهم، وتستنهض المتردّدين الخائفين، وتشعرهم بالمسؤوليّة الاجتماعيّة أمام الله، وبعبارة أخصر: أن يُتقن الدّاعية فنون العمل الرّساليّ، ويمتلك أدواته كفنّ الخطاب، وفنّ الحوار، وفنّ الكتابة، والأساليب الأخرى في الدّعوة

---

(١) الكافي: ٧٧/١؛ ح/٤٩.

(٢) المنتقى من ثقافة الدّعوة الإسلاميّة: ٣٤١.

إلى الله عزَّ وجلَّ في بيان حقيقة المبدأ الإسلاميّ، وعدالة أحكامه، ورصانة أخلاقه؛ ليستطيع طرح مفاهيمه بقوّة وثقة، ويقدّم حلوله للمشاكل الفكريّة، والاجتماعيّة، والسّياسيّة مدعومةً بالأدلّة والبراهين العلميّة المنطقيّة والعقليّة.

٦- ثمّ لا بدّ من الاطّلاع بدقّة على أساليب القوى المعادية للإسلام، ووسائلهم، وأهدافهم؛ كيف يفكّرون، وكيف يخطّطون، وكيف ينفّذون خططهم، ويتوصّلون الى تحقيق مآربهم؟ وبذلك يستطيع الدّاعية كشف الحجب الّتي ضربوها لستر واقعهم الاستعماريّ الخبيث الّذي يَتَلَّون بمختلف الألوان ليخفي حقيقة أهدافهم الدّنيئة في إفساد أخلاق النّاس، وحرفهم عن هدى الله؛ لاستعبادهم، واستغلالهم، وسلب خيراتهم، وامتصاص دمائهم... وهكذا يمكن للدّاعية أن يوقظ الغافلين عن تلك الأساليب الماكرة، ويلفت أنظار المخدوعين بزخارفهم، ويُري الخانعين المخدَّرين من قبله مخالب كيدهم ومكرهم ناشبة في أفكارهم ونفوسهم ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾[(١)].

وقد أوضح أمير المؤمنين عليه السلام هذه المعارف السّتّة في سلوك الدّعاة العارفين بقوله: «**هَجَمَ بهمُ الْعلْمُ على حَقيقَة الْبَصيرة، وَباشَروا روحَ الْيَقين، وَاسْتَلانوا ما اسْتَوْعَرَه الْمُتْرَفونَ، وأَنسوا بما اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجاهلونَ، وَصَحبوا الدُّنْيا بأَبْدان أَرْواحُها مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الأَعْلى، أولئكَ خُلَفاءُ الله في أَرْضه، وَالدُّعاةُ إلى دينه. آه آه شَوْقاً إلى رؤْيَتهمْ**»[(٢)].

وقد بيَّنَ الإمام عليّ بن محمّد الهادي عليه السلام دور العلماء الدّعاة في حفظ الأمّة الإسلاميّة من خطورة التّردّي في مستنقعات الجهل من خلال الانقياد إلى زخارف

---

(١) النّور: ٣٩.

(٢) نهج البلاغة: ٥١٢، قصار الحكم: ١٣٧.

الجاهلين من أعداء أهل البيت عليهم السلام قائلاً: «**لَوْلا مَنْ يَبْقى بَعْدَ غَيْبَة قائمكُمْ منَ الْعُلَماء الدّاعينَ إلَيْه، وَالدّالينَ علَيْه، وَالذّابينَ عَنْ دينه بحُجَج الله، وَالْمُنْقذينَ لضُعَفاء عباد الله منْ شباك إبْليسَ ومَرَدَته، وَمنْ فخاخ النَّواصب الَّذينَ يَمْسكونَ أَزمَّةَ قُلوب ضُعَفاء الشّيعَة كَما يُمْسكُ السَّفينَةَ سُكّانُها، لَما بَقيَ أَحَدٌ إلا ارْتَدَّ عَنْ دينِ الله، أُولئكَ هُمُ الأَفْضَلونَ عنْدَ الله عَزَّ وَجَلَّ**»(١).

ولا يحقّق العلم أثراً بيّناً في نفوس المدعوّين إلا إذا توفّر في قول الدّاعية وفعله التّجرّدُ والإخلاصُ لله تعالى؛ ولذا يجب على كلّ داعية لله «أن يقصد بعمله وجه الله تعالى، وامتثال أمره، وإصلاح نفسه، وإرشاد عباده إلى معالم دينه، ولا يقصد بذلك غرض الدُّنيا من تحصيل مال، أو جاه، أو شهرة، أو تَمَيُّز عن الأشباه، أو المفاخرة للأقران، أو التّرفّع على الإخوان، ونحو ذلك من الأغراض الفاسدة الّتي تُثمر الخذْلان من الله تعالى، وتوجب المقت، وتُفَوّتُ الدّار الآخرة، والثّواب الدّائم، فيصير من الأخسرين أعمالاً، ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾(٢)»(٣).

والسّرُّ في عدم تأثير كثير من أعمال الّذين يمارسون الدّعوة والتّعليم والتّعلّم هو أنهم اتّخذوها مهنةً دنيويّةً، لا رسالةً إلهيّةً؛ ولهذا لا يمكن أن تؤثّر أثرها المطلوب إذا لم يجسد الدّاعي ما يدعو إليه بسلوكه وأخلاقه، بل لا يزداد هذا الدّاعي إلا بعداً من الله عزَّ وجلَّ.

عن هاشم بن البريد قال: «جاء رجل إلى عليّ بن الحسين عليه السلام، فسأله عن

---

(١) الشّهيد الثّاني، منية المريد: ١١٨.

(٢) الكهف: ١٠٤.

(٣) منية المريد: ١٣١-١٣٢.

مسائل، فأجاب، ثمّ عاد ليسأل عن مثلها، فقال عليّ بن الحسين عليه السلام: **مَكْتوبٌ في الإنْجيل: لا تَطْلُبوا علْمَ ما لا تَعْلَمونَ ولَمّا تَعْمَلوا بما عَلمْتُمْ؛ فَإنَّ الْعِلْمَ إذا لَمْ يُعْمَلْ به لَمْ يَزْدَدْ صاحِبُه إلا كُفْراً، ولَمْ يَزْدَدْ من الله إلا بُعْداً»**[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا تَعَلَّموا الْعِلْمَ؛ لتُماروا به السُّفَهاءَ، وتُجادلوا به الْعُلَماءَ، ولتَصْرفوا [به] وُجوهَ النّاس إلَيْكُمْ، وابْتَغوا بقَوْلكُمْ ما عنْدَ الله فَإنَّهُ يَدومُ ويَبْقى، ويَنْفَدُ ما سواهُ؛ كونوا يَنابيعَ الْحِكْمَة، مَصابيحَ الْهُدى**»[2].

وقال صلى الله عليه وآله: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً لغَيْرِ الله، أَوْ أَرادَ به غَيْرَ الله فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ منَ النّار**»[3].

وقال صلى الله عليه وآله: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ ليُجاريَ به الْعُلَماءَ، أَوْ ليُماريَ به السُّفَهاءَ، ويَصْرفَ به وُجوهَ النّاس إلَيْه أَدْخَلَهُ اللهُ النّارَ**»[4].

أمّا العمل: فلا نقصد به فقط ما اعتاده البعض من خطابات، أو دروس، أو لقاءات حواريّة، أو ندوات، أو مؤتمرات فكريّة، أو احتفالات دينيّة عامّة، أو تصريحات سياسيّة... أو ما شاكل ذلك، كلّ تلك الأعمال لها أهمّيّة كبرى، ودور فعّال في بناء أجهزة المؤسّسات الدّينيّة والحركات الإسلاميّة، وإدارة أعمالها، وتقييم مسارها؛ ولا أقصد بالعمل النّشاطات الّتي تحقق مصالح المجتمع، وتساهم في تأكيد المظهر الخارجيّ والاجتماعيّ للعلاقات الإسلاميّة بين الأفراد، كلّ هذه النّشاطات لها دورٌ اجتماعيٌّ مهمٌّ في تنشيط حركة العاملين، وتأكيد وجودهم

---

(١) الكافي: ١/١٠٩-١١٠، ح/١١٤.

(٢) منية المريد: ١٣٥.

(٣) سنن التّرمذيّ: ٤/١٤١، ح/٢٧٩٣.

(٤) المصدر نفسه: ح/٢٧٩٢.

الاسلامي، ولكن كلّ ذلك يجب أن يندكّ في مفهوم العمل الصّالح بمفهومه الإسلاميّ الصّحيح منبثقاً من دوافع إلهيّة مفعمة بالإخلاص، والوعي، والوضوح، والهدفيّة البنّاءة، وبذلك يستطيع العامل لله أن يتجاوز دوافعه الذّاتيّة، ومصالحه النّفعيّة، وتضفي على عمله نفحة قدسيّة[1].

وفي ضوء هذا المفهوم للعمل سيكون له دورٌ فعّالٌ في بناء شخصيّة الدّاعية الإلهيّ بناءً ربّانيّاً يتّسم بالاستقامة والحركيّة، والتّفاعل البنّاء في داخل الذّات، وفي وسط المجتمع؛ «فإنَّ الإسلام يريد أن يصنع الإنسان نفسه صنعاً إسلاميّاً، فهو يتبنّى لأجل ذلك تربية هذا الإنسان، ويستهدف قبل كلّ شيء تكوين محتواه الدّاخليّ والرّوحيّ وفقاً لمفهومه»[2].

وتأسيساً على ما تقدّم: إنَّ العمل الصّالح ينبثق من ثلاث دعائم أساسيّة:

الأولى: الإيمان بصحّة المسار الّذي يسلكه، إيماناً لا يشوبه شكٌّ، ولا ريب، ولا تردّد، بل يجب أن يصل به حدّ اليقين.

الثّانية: نظافة الدّافع الّذي ينبعث منه في تخليص العمل من الدّوافع النّفعيّة والذّاتيّة والمصلحيّة، وبتعبير آخر سلامة القصد من الإنيّة والأنانيّة؛ فـ«**إنَّما الأَعْمالُ بِالنِّيّات**»[3].

الثّالثة: وضوح الرّؤية، وأقصد بوضوح الرّؤية أن يعرف ماذا يريد من عمله، ولماذا يعمل لتنجيزه؟ وكيف ينجزه؟ ﴿ **تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ**

---

(١) ينظر: المدرسة القرآنيّة: ٣٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ٣٣٩.

(٣) الشّيخ الطّوسيّ، تهذيب الأحكام: ٨٦/١، ح/٢١٨.

عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾[١].

بهذه الرّوح الصّافية «يكون العمل الضّئيل التّافه في مظهره الاجتماعيّ أرفع وأسمى من عمل جبّار يدوّي له التأريخ» كما قال السّيّد الشّهيد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ، ثمَّ قال: «وبهذا يفتح الإسلامُ السّبيلَ أمام أيّ فرد - مهما كانت إمكاناته وقدرته على النّفع الاجتماعيّ والعمل النّافع - للارتقاء إلى أسمى درجة في سُلّم النّفس البشريّة، ومراحل كمالها الرّوحيّ، ويفرض على المجتمع أن يقيم تقديراته للأشخاص على مقدار ما تكشف عنه الأعمال من أرصدة روحيّة ونفسيّة، لا على المظاهر الخلابة الخاوية مهما بدت عظيمة»[٢]، ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾[٣].

وبناءً على ما تقدّم ينبغي للدّاعية إلى الله أن يرسم الصّورة الحقيقيّة للواقع الإسلاميّ الّذي يسعى لتحقيقه من خلال كلماته سواء عند عرضه لمبادئ الإسلام ومفاهيمه، وأحكامه، أو في نقده للواقع الّذي يعمل على تغييره، ويجعل كلماته طافحة بالصّدق الإيمانيّ متجسّدة في سلوكه بنيّة خالصة لله تعالى، وبنفسيّة طاهرة من الأدران، ومن ذمائم الأخلاق، ورؤية واضحة سليمة من كلّ غشّ، وهدف بَيّن واضح مجرّد عن الذّاتية المقيتة، وكلّ ضميمة غير وجه الله، بل لا يطلب من وراء كلّ كلمة، وكلّ موقف، وكلّ خطوة غير رضوانه تعالى، ولا شكَّ أنَّ هذا حينما يوفّق اللهُ الإنسانَ له يجعل منه رسالة مجسّدة سائرة على الأرض تجذب القلوب، وتذكّر بالله، وإن لم تنطق بكلمة؛ ولهذا شدّد القرآن الكريم على تخليص عقيد

---

(١) القصص: ٨٣

(٢) المدرسة القرآنيّة: ٣٤٢.

(٣) التّوبة: ١٠٥.

التّوحيد من كلّ أنواع الشّرك الظّاهر والخفيّ؛ فالشّرك الظّاهر كعبادة الأصنام الحجريّة أو البشريّة والأوهام والأهواء والشّهوات، وهذه أمور ظاهرة ندركها جميعاً، ونتبرّأ منها، ولكنّ الخطر كلّ الخطر ما يمتدّ إلى قلوبنا من أنواع الشّرك الخفيّ الّذي يأخذ أشكالاً كثيرة قد لا يحسّ بها الإنسان في أحيان كثيرة لغفلة أو تصوّر خاطئ، أو وهم نقع فيه؛ ولذا قد نُعَلّق رجاءنا بغير الله في صورة من الصّور، ونتصوّر أنّ هذا وسيلة من وسائل تحقيق المراد انخداعاً بتسويلات النّفس الأمّارة بالسّوء، أو قد نخشى غير الله، أو نعتقد أنَّ النَّفع والضّرر بيد غيره تعالى، كلّ ذلك قد يوقعنا في الشّرك الخفيّ من حيث لا نشعر، ولتحاشي الوقوع في هذه المهالك يجب على المؤمن العامل الدّاعي إلى الله أن يراقب مشاعره، وأحاسيسه، ودوافعه الباطنيّة لأيّ كلمة أو عملٍ أو موقفٍ، ويضعها في ميزان الإيمان والتّقوى؛ فهما العنصران الأساسيّان اللّذان يرفعان النّفوس إلى أسمى درجات الكمال، وتعلو بهما عن خسائس الشّهوات، وتطهّرها من جميع الآفات كالإحن، والأحقاد، والأطماع، والتّذلّل، والانقياد إلى إرادة الظّالمين؛ فإنَّ استشعار رقابة الله، وتقواه، ورجاء رحمته، وتذكّر نعمته بوعي وإيمان يضع المؤمن في حصانة روحيّة وفكريّة، ويجعله واسع الآفاق يمدّ بصره وبصيرته إلى ما وراء هذا العالم المحدود إلى عالم رحمة الله الّذي لا شقاء فيه ولا عناء.

الْمَعالِمُ الْقِيادِيَّةُ لِدُعاةِ الإِسْلامِ:

القيادة في الإسلام: هي تحمّل مسؤوليّة توجيه الأمّة، وإرشادها، وهدايتها في جميع الميادين الاجتماعيّة، والسّياسيّة، والفكريّة، والأخلاقيّة، وقيادتها لما فيه صلاحها وسعادتها في التّحرّر، والاستقلال، والتّقدّم، والازدهار، وبسط العدل،

والقسط، والمساواة في الحقوق والواجبات بتعبيدها لله الواحد الأحد، فـ«**إنَّ اللهَ جَلَّ ذكْرُهُ ما خَلَقَ الْعبادَ إلا ليَعْرفوهُ، فَإذا عَرَفوهُ عَبَدوهُ، فَإذا عَبَدوهُ اسْتَغْنَوْا بعبادَته عَنْ عبادَة من سواهُ**»[١] كما قال الإمام الحسين عليه السلام.

إذن، تتقوّم شخصيّة القائد الإسلاميّ بثلاثة أركان معرفيّة وسلوكيّة، هي: معرفة الله وأحكامه وشرائعه، والتّعبّدُ بها لنيل رضاه؛ والتّحرّر عن عبوديّة ما سواه، وهذا ما يتجلّى بوضوح في «العبادات الرّشيدة بوصفها تعبيراً عمليّاً عن الارتباط بالمطلق يندمج فيها عمليّاً الإثبات والرّفض معاً فهي تأكيدٌ مستمرٌّ من الإنسان على الارتباط بالله تعالى، وعلى رفض أيّ مطلق آخر من المطلقات المصطنعة»[٢]، وهذا هو جوهر التّوحيد المتمثّل بالشّعار الخالد: «**لا إلهَ إلا اللهُ**».

والقيادة في الإسلام قيادة فكريّة وأخلاقيّة قبل كلّ شيء، «وكون العامل قائداً في الأمّة لا يعني أنّه متميّز أو متعالٍ عليها، أو أنَّ له فضلاً على الآخرين، وإنّما يعني أنَّه يتحمّل مسؤوليّة التّوجيه والإرشاد، لأجل التّغيير والإصلاح، يأخذ منها، ويعطي لها، يُعَلّم فيها، ويتعلّم منها، ويستفيد من تجارب علمائها ومفكّريها في مجال الفكر، والعمل، والنّظرية، والتّطبيق، ولا يشعر أنَّ له فضلاً على أحد ما دام يتقرّب بذلك لله، بل يشعر أنَّ الفضل لها؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ جعلها وسيلةً للوصول إلى رضوانه».

أمّا كونها قيادةً فكريّةً: فإنَّ الفكر الإسلاميّ بشقّيه العقديّ والتّشريعيّ هو الّذي يوجّه حركة العامل للإسلام، وهو الّذي يحدّد خطوات العمل، ويوجّهها من خلال تطبيق الأحكام الشّرعيّة.

---

(١) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٥٦.

(٢) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، الفتاوى الواضحة: ٧٥٩-٧٦٠.

وبعبارة أخرى: إنَّ الأحكام الشّرعيّة هي الّتي تحكم وتوجّه حركة العامل، وعلى ضوئها يُدار العمل، وليس له أن يتصرّف ويقرّر ما يحلو له بما يخالف الشّريعة المقدّسة، بل عليه أن يستوعب المنظومة الفكريّة الإسلاميّة بأبعادها كلّها، بل يجب أنْ يعيها منهجاً سلوكيّاً يتجسّد في فعله قبل قوله، فلا يقول إلا ما يفعل، ولا يفعل إلا ما يتطابق مع الخطّ الفكريّ والشّرعيّ الملتزم، وهكذا يستمرّ في التّلقّي والعطاء إلى أن يتأصّل الفكر في وجدانه، ويصبح كياناً روحيّاً متلبّساً به، وذائباً فيه؛ فهو زاده الّذي يقوّيه، وقائد يوجّهه ويهديه، وروح متوثّبة تدفعه وتُحَرّكه بوعي، وتعهد، والتزام، وهدفيّة واضحة بيّنة، تجعله يعرف ماذا يريد؟ ولماذا يريد تحقيق هذه الأهداف الّتي حدّدها؟ وكيف ينفّذها؟

وأمّا أنّها قيادة أخلاقيّة: فإنَّ التّحلّي بمكارم الأخلاق هو العنصر الأساسيّ لنجاح أيّ داعية للإسلام في سلوكه: مع نفسه، ومع مجتمعه، وبها يُحيي القيم الأخلاقيّة، ويربّي الصّالحين، ويرتفع بهم إلى المقام الرّفيع لمعالي الأخلاق، وهذا ما أكّده رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «**إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاق**»[1]؛ ولأجل هذا جعلته السّماء صلى الله عليه وآله الأنموذج الأكمل للقيادة الأخلاقيّة، أسوةً وقدوةً ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[2]، وقد فُسرَ الخُلُقُ العظيمُ بالإسلام كلّه[3]؛ كما رُويَ عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه سُئِلَ عن تفسير الآية نفسها، فقال: «**هُوَ الإِسْلام**»[4]؛ ورُوِيَ: «**أَنَّ**

(١) الطّبرسيّ، مكارم الأخلاق: ٨

(٢) القلم: ٤.

(٣) ينظر: التّبيان في تفسير القرآن للشّيخ الطّوسيّ: ٧٥/١٠؛ ومجمع البيان في تفسير القرآن: ٥٠٠/١٠.

(٤) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ١٨٨.

الْخُلُقَ الْعَظيمَ هُوَ الدّينُ الْعَظيم»[١]؛ ذلك لأنَّ السّموّ الخلقيّ هو روح الدّين وجوهره.

ودليلنا على ذلك سُنّة الحبيب المصطفى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، فقد جاءه رجلٌ من بين يديه، فقال: «يا رسول الله، ما الدّين؟»، فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**حُسْنُ الْخُلُق**»، ثمّ أتاه عن يمينه، فقال: «ما الدّين؟»، فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**حُسْنُ الْخُلُق**»، ثمّ أتاه من قبل شماله، فقال: «ما الدّين؟»، فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**حُسْنُ الْخُلُق**»، ثمّ أتاه من ورائه، فقال: «ما الدّين؟» فالتفت إليه، وقال: «**أَما تَفْقَهُ، الدّينُ هو أَنْ لا تَغْضَبَ**»[٢].

وهكذا تصبح القيادة الأخلاقيّة شرط للقيادة السّياسيّة، أي ما لم يتمتع الإنسان بالقيم الأخلاقيّة فلا يصلح - وفق النّظرية الإسلاميّة - للقيادة السّياسيّة للمجتمع الإسلاميّ؛ لأنَّ القائد «السّياسيّ المسلم إن انحرف عن القيم والأخلاق الإسلاميّة تحوّل هدفُهُ من خدمة القيم والمبادئ الإلهيّة الخيّرة، وعبادة الله إلى عبادة ذاته وهواه: ﴿ **أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا** ﴾[٣]، فيتحوّل إلى طاغية متسلّط يستعبد النّاس، ويسوقهم وفق هواه، ويسخّرهم لخدمة مصالحه»[٤]؛ وحينئذ يصدق عليه قول أمير المؤمنين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: «**فاتّخَذوا عِبادَ الله خَوَلاً**[٥]**، ومالَهُ دُوَلاً**»[٦].

---

(١) معاني الأخبار: ١٨٨.

(٢) ورّام، تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر: ٢٧٥/١، ح/٧٧٤.

(٣) الفرقان: ٤٣.

(٤) ثقافة الدّعوة الإسلاميّة، القسم السّياسيّ: ٥٤/١-٥٥.

(٥) أي خدماً وعبيداً.

(٦) التّفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ٥٣.

وبخلاف ذلك لو تحلّى بمعالي الأخلاق بصدق، وإيمان، ووعي، رزقَهُ اللهُ محبّة عباده، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾(١).

وهكذا إذا امتلك الجاذبيّة الأخلاقيّة فإنَّه يستطيع من خلال أنوارها فتح القلوب، وتأليفها، واستقطاب الأذواق السّليمة وتوجيهها، فيقرّب وجهات النّظر، ويجمع الكلمة، ويوحّد الصّفوف، وهذه الخاصّيّة الأخلاقيّة سرّ نجاح القادة الرّساليّين كما وصف تعالى نبيّه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾(٢)؛ ولذا قيل: ثلثا نجاح رسول الله صلى الله عليه وآله بسموّ خلقه، وثلث بقوّة مبادئه، وكما ورد في السُّنّة الشّريفة: «إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعوا النّاسَ بِأَمْوالِكُمْ، فَسَعَوهُمْ بِأَخْلاقِكُمْ»(٣).

فالّذي يتحلّى بالقيادة الأخلاقيّة يصبح قدوةً للنّاس في سلوكه، يدعوهم بعمله قبل أن يدعوهم بأقواله، وهذا ما أكّده أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ للنّاسِ إماماً فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَعْليمِ نَفْسِه قَبْلَ تَعْليمِ غَيْرِه، وَلْيَكُنْ تَأْديبُهُ بِسيرَتِه قَبْلَ تَأْديبِه بِلِسانِه، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُها أَحَقُّ بِالإِجْلالِ مِنْ مُعَلِّمِ النّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ»(٤).

والدّاعيةُ إلى الله قائدٌ اجتماعيٌّ لا يريد أن يحكم النّاس، ويتسلّط عليهم، ويتميّز عنهم، إنّما يريد أن يمتلك قلوبهم؛ ليوجّه عقولهم، ويبعث فيهم القيم

---

(١) مريم: ٩٦.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ٢/١١٩، ح/٥٥٩.

(٤) نهج البلاغة: ٤٩٦، قصار الحكم: ٦٨.

الإلهيّة؛ ليقودهم إلى ساحل النَّجاة، ويضعهم على سبيل السّعادة والتّكامل، وهذا لا يتحقّق إلا إذا تحلّى بمكارم الأخلاق؛ حلمٍ، وعلمٍ، وورعٍ، وتقوى، وحزمٍ، ولينٍ، ونورٍ، وبصيرة.

وخلاصة الكلام: أهمّ شروط القيادة السّياسيّة التّحلّي بالقيم الأخلاقيّة؛ فالقائد الرّساليّ يجب أن يكون قدوةً وأسوةً في عمله قبل قوله، كما أكّد ذلك الإمام الصّادق عليه السلام بقوله: «**كونوا دُعاةً للنّاس بغَيْر أَلْسنَتكُمْ؛ ليَرَوْا منْكُمُ الْوَرَعَ، وَالاجْتهادَ، وَالصَّلاةَ، وَالْخَيْرَ، فَإِنَّ ذلكَ داعيَةٌ**»(١).

وعنه عليه السلام أنَّه قال: «**كونوا دُعَاةَ النّاس بأَعْمالكُمْ، وَلا تَكونوا دُعاةً بأَلْسنَتكُمْ؛ فَإِنَّ الأَمْرَ لَيْسَ حَيْثُ يَذْهَبُ إِلَيْه النّاسُ، إِنَّهُ مَن أَخَذَ ميثاقَهُ أَنَّهُ منّا فَلَيْسَ بخارجٍ منّا، وَلَوْ ضَرَبْنا خَيْشومَهُ بالسَّيْف، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ منّا ثُمَّ حَبَوْنا لَهُ الدُّنْيا لَمْ يُحبّنا**»(٢).

والقيادة الأخلاقيّة تمثّل قيمةً عُليا بمقدار ما يتمخّض عنها من سلوك مستقيم، وأعلى درجاتها أنْ يصبح باطن الإنسان أفضل من ظاهره، وسريرته أطهر من علانيته.

«وهكذا تساهم القيم والمبادئ الأخلاقيّة في التّفكير، والتّخطيط، وصنع القرار السّياسيّ، فتدخل في صميم المنهج، وتشكّل أحد أبعاده الأساسيّة؛ فالسّياسيّ المسلم إذا أراد أن يفكّر، أو يخطّط، أو يقرّر عليه أن يحافظ على طهارة الوسيلة، والالتزام الأخلاقيّ، كما يحافظ على تحقيق الهدف، وسموّ الغاية،

---

(١) الكافي: ٢٠٢/٣، ح/١٦٤١.

(٢) الحميريّ، قرب الإسناد: ٧٧، ح/٢٥١.

مستبعداً كلَّ أثر أخلاقيّ ذميم.. فلا تَوَصُّلَ إلى غاية شريفة بأسلوب منحطّ.. كالخداع، والتّضليل، والنّفاق، والغدر، فقد أوضح لنا الحديث الشّريف ذلك بقوله: «**لا يُطاعُ اللهُ مِنْ حَيْثُ يُعْصى**»[١].. كما عليه أن يحافظ على سلامة البناء والتّوجّه الباطنيّ لديه، فيستبعد كلّ البواعث الأخلاقيّة المنحطّة.. كالغرور، والأنانيّة، وحبّ الاستعلاء»[٢].

شُروطُ الْقِيادَةِ:

للقيادة شروط فكريّة، واجتماعيّة، وسياسيّة، لا بدّ أنْ تتوفّر في الدّاعية بدرجة من درجاتها، ونذكر إجمالاً أهمّ الشّروط:

١- **معرفة الإسلام بمعناه الحقيقيّ**: أي أنَّه «عقيدةٌ معنويّةٌ وخُلُقيّة، ينبثق عنها نظامٌ كاملٌ للإنسانيّة»[٣]، والاطّلاع المفصّل أو المجمل على أصوله، ومبادئه، وأحكامه في المجالات الثّقافيّة، والسّياسيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والعسكريّة.

ولكي يكون الدّاعية مؤثّراً، ومغيّراً، ومصلحاً لا بدّ أن يحاول أن يحصل على أعلى درجات المعرفة - بقدر استطاعته - وهي درجة الوعي، وخلاصتها امتزاج الفكر النّظريّ بالوجدان الرّوحيّ القلبيّ، ليبرز سلوكاً عمليّاً يجسّد الإسلام في الواقع، وإلى هذا الشّرط أشار أمير المؤمنين عليه السلام لبيان أعلى درجات المعرفة

---

(١) رُوِيَ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**لا طاعَةَ لِمَخْلوقٍ في مَعْصِيَةِ الْخالِقِ**»، نهج البلاغة: ٥١٥، قصار الحكم: ١٥٥.

(٢) ثقافة الدّعوة الإسلاميّة، القسم السّياسيّ: ١/٥٥-٥٦.

(٣) السّيّد الشّهيد الصّدر، فلسفتنا: ٥٩.

في القائد: «...**أَنْ يَكونَ أَعْلَمَ النّاس بحَلال الله وَحَرامه، وَضُروب أَحْكامه، وَأَمْره، ونَهْيه، وَجَميعِ ما يَحْتاجُ إلَيْه النّاسُ، فَيَحْتاجُ النّاسُ إلَيْه، ويَسْتَغْني عَنْهُمْ**»[١].

ولا نقول يجب أنْ يعرف الدّاعية جميع ذلك، فتلك درجة المعصوم، ولا يرقى إليها أحد، ولكن أن يؤمن به، ويعمل على كسبه ووعيه بقدر استطاعته وقدرته؛ ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾[٢].

٢- **الوعي السّياسيّ**: لا نقصد بالوعي السّياسيّ ما تعارف بين محترفي السّياسة، أو ما يسمّى بالمحلّلين السّياسيّين اليوم من تتبّع الأحداث، وتفسيرها حسب المصلحة الحزبيّة والميول السّياسيّة، ولا نقصد به فنّ التّلاعب بالألفاظ؛ لتحريف الحقائق، والالتفاف على المنافس، أو المناقش؛ وإنّما نقصد بالوعي السّياسيّ: دقّة الفهم للأحداث، والأشياء، والأشخاص، والرّؤى، والأفكار، والمواقف، والقرارات، والقدرة على التّمييز والتّشخيص بين السّليم والسّقيم، والاستشراف لما وراء الأحداث، وما تنطوي عليها من خطط، ووسائل، وأهداف، وسرعة إدراكها قبل فوات الأوان، ومعرفة الأمور الّتي تحتاج إلى تدبير، وإدارة سياسيّة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**يَحْتاجُ الإمامُ إلى قَلْبٍ عَقولٍ، ولِسانٍ قَؤولٍ، وَجَنانٍ عَلى إقامة الْحَقِّ صَؤولٍ**»[٣].

والوعي السّياسيّ مصطلحٌ يختلف معناه باختلاف التّوجّهات السّياسيّة

---

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ١٦٥/٢٥.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٤٠، ح/٧٧٨٠.

والفكريّة، وقد حدّد معناه المفكّر الإسلاميّ السّيّد الشّهيد الصّدر قدس سره بدقّة متناهية، وهو الّذي نتبنّاه في فكرنا وسلوكنا، قال رحمه الله: «ولا بُدَّ من وعي سياسيّ صحيحٍ ينبثقُ عن مفاهيم حقيقيّة للحياة، ويتبنّى القضيّة الإنسانيّة الكبرى، ويسعى إلى تحقيقها على قاعدة تلك المفاهيم، ويدرس مسائل العالم من هذه الزّاوية، وعند اكتمال هذا الوعي السّياسيّ في العالم، واكتساحه لكلّ وعي سياسيّ آخر، وغزوه لكلّ مفهوم للحياة لا يندمج بقاعدته الرّئيسيّة.. يمكن أن يدخل العالَم في حياة جديدة، مشرقة بالنّور، عامرة بالسّعادة.

إنَّ هذا الوعي السّياسيّ العميق هو رسالة السّلام الحقيقيّ في العالم، وإنَّ هذه الرّسالة المنقذة لهي رسالة الإسلام الخالدة، الّتي استمدّت نظامها الاجتماعيّ - المختلف عن كلّ ما عرضناه من أنظمة - من قاعدة فكريّة جديدة للحياة والكون»[1].

٣- معرفة الظّروف الزّمانيّة ومتطلّبات العصر: وهو ما يعبّر عنه بمعرفة الزّمان، أي معرفة السّنن التّأريخيّة الحاكمة في الكون والمجتمع من خلال دراسة الظّروف، والأحداث، والملابسات، والمتغيّرات الّتي تقع في الكون والحياة بصورة عامّة بتحليل أسبابها وأهدافها، وخططها، ووسائل تنفيذها، ونتائجها، وآثارها؛ فـ«للزّمان والتّاريخ قانون كقانون جاذبيّة الأرض، إذا لم نتعامل معه تعاملاً علميّاً فلا نواجه إلا العناء والمشقّة. ولا ينبغي أن نتصوّر قانون الجاذبيّة أكثر ممّا هو عليه أو أقلّ من ذلك»[2].

وهكذا كلّما كان الدّاعية عارفاً بالظّروف الزّمانيّة، ومتطلّباتها المرحليّة، وما

---

(١) فلسفتنا: ٤٤.

(٢) محمّد الرّيشهريّ، القيادة في الإسلام: ٢١٦.

يقع فيها من أحداث وفتن، وما يطرح فيها من نظريّات، ورؤى، وخطط يكون أكثر قدرة لمواجهة الأحداث ومواصلة العمل في سبيل الله تعالى، فلا يندهش لحدث، ولا يتوقّف عند عقبة، من هنا فإنَّ القائد العارف بزمانه الواعي لمتطلّبات عصره يفهم واجبه في الهداية، والإرشاد، والإصلاح، والتّغيير، ولا يقع في حيرة، ولا تلتبس عليه الأمور بل يتّخذ لكلّ أمر ما يناسبه.

قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**الْعالمُ بزَمانه لا تَهْجُمُ عَلَيْه اللّوابسُ**»[1]؛ لأنّه «كلّما كان الإنسان عارفاً بزمانه استطاع أن يتنبّأ بالحوادث القادمة أفضل، ولا يندهش لأيّ حادثة؛ لأنَّه تنبّأ بها من قبل»[2].

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَعْرَفُ النّاسِ بالزَّمانِ مَنْ لَمْ يَتَعَجَّبْ مِنْ أَحْداثه**»[3].

وقد وردت أحاديث أخرى لها الدّلالة نفسها؛ منها قوله عليه السلام: «**حَسْبُ الْمَرْء... منْ عرْفانه علْمُهُ بزَمانه**»[4].

«**مَنْ أَمنَ الزَّمانَ خانَهُ، ومَنْ تَعَظَّمَ عَلَيْه أَهانَهُ، وَمَنْ تَرَغَّمَ عَلَيْه أَرْغَمَهُ، وَمَنْ لَجَأَ إلَيْه أَسْلَمَهُ**»[5].

«**مَنْ عانَدَ الزَّمانَ أَرْغَمَهُ، وَمَنِ اسْتَسْلَمَ إِلَيْهِ لَمْ يَسْلَمْ**»[6].

---

(١) الكافي: ١/٦١؛ ح/٢٩.

(٢) القيادة في الإسلام: ٢١٦.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٨٠، ح/١١٠٣٤.

(٤) بحار الأنوار: ٧٨/٨٠.

(٥) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٨٥

(٦) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١٢٩، ح/٢٢٠٩.

٤- **حسن التّعامل مع النّاس**: ونقصد به أن يجيد فنّ التّعامل السّليم، وهذا يقتضي أن يمتلك الدّاعية الحسَّ الاجتماعيّ؛ ليعرف من خلاله اختلاف الأمزجة، والمشاعر، والأفكار، والعواطف، والأعراف، والتّقاليد، والعادات، ويجيد فنّ التّخاطب، والحوار، واللّقاء، وحسن الاستماع، وجودة الرّدّ؛ لأنَّ لكلّ إنسان أسلوباً في التّعامل؛ فلا بدَّ إذن أنْ يعرف الدّاعية طبيعة المخاطَب، والظّروف المحيطة به، والتّربية الّتي نشأ عليها، وأنْ يمتلك الفراسة، والتّوسّم، ودقّة الملاحظة بفطنة ويقظة، وحسن استجابة، قال رسول الله ﷺ: «**اتّقوا فراسَةَ الْمُؤْمن فَإنَّهُ يَنْظُرُ بنور الله عزَّ وَجلَّ، في قول الله تَعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾**[١]»[٢].

وَفي حديث آخر: «**إنَّ للهِ عباداً يَعْرِفون النّاسَ بالتوسُّمِ**»[٣].

وخلاصة الكلام: إنَّ الدّاعية لا يستطيع أنْ يحسن التّعامل من دون معرفة طبيعة النّاس: مزاجهم، وأذواقهم، وأفكارهم، وثقافتهم؛ ولذا يجب عليه أنْ يدرس طبيعة من يتعامل معهم؛ ليحسن مداراتهم، والمداراة فرض على كلّ داعية، فقد قال رسول الله ﷺ: «**أَمَرَني ربِّي بمُداراة النّاس كَما أَمَرَني بأَداء الْفَرائض**»[٤]، وقال ﷺ: «**مُداراةُ النّاس نصْفُ الإيمانِ، وَالرِّفْقُ بهِمْ نصْفُ الْعَيْش**»[٥].

والمداراة فنٌّ دعويٌّ مهمٌّ في حياة كلّ داعية يستطيع أن يفتح به القلوب، ولا شكَّ أنَّ فتح القلوب أعظم من فتح البلدان، ومن امتلك القلوب امتلك العقول،

---

(١) الحجر: ٧٥.

(٢) الكافي: ٥٤١/١، ح/٥٨٠.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥٢٨/٦.

(٤) الكافي: ٣٠٤/٣، ح/١٨٤٤.

(٥) المصدر نفسه: ٣٠٤/٣-٣٠٥، ح/١٨٤٥.

ولا تعني المداراة المداهنة على حساب المبادئ والأفكار، وإنّما هي مرونة أخلاقيّة نابعة من وعي مبدئيّ، وتقييم عُقلائيّ، وأسلوب جميل، يحرّك الأوتار الحسّاسة في النّفوس؛ ليثير فيها العواطف النّبيلة، ويجذب القلوب إليه؛ ليحرّك العقول، ويضعها على جادة الصّواب.

٥- **السّبق إلى العمل الّذي يدعو إليه:** لعلّه من أهم سمات القائد الدّعويّ أن يكون سبّاقاً لكلّ ما يدعو إليه، متّصفاً بالقيم الّتي يريد أن يربّي النّاس بها؛ ليكون أسوةً وقدوةً يقتدي به النّاس، فإنَّ من أخطر ما يقع به الدّاعية من أخطاء أن يخالف فعلُهُ قولَهُ؛ ولهذا نرى أئمّة الحقّ ودعاة الرّشاد هم السَّبّاقون إلى فعل كلّ مكرمة وطاعة قبل أنْ يدعو النّاس إليها، بل يتوسّلون بالله أن يجعلهم من «**السّابقين إلى الْمَكْرُمات، الْمُسارعينَ إلى الْخَيْرات**»[1].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَيُّها النّاسُ، إنّي وَالله ما أَحُثُّكُمْ عَلى طاعَةٍ إلا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْها، وَلا أَنْهاكُمْ عَنْ مَعْصيَةٍ إلا وَأَتَناهى قَبْلَكُمْ عَنْها**»[2].

فالدّعاة الرّبّانيّون «يحملون النّاس على اتّباع الطّريق المستقيم بسلوكهم في الحياة وتصرّفاتهم العامّة، ويجعلون من أنفسهم قدوةً عمليّةً».

٦- **الصّلابة المبدئيّة**، ونقصد بها إيمان الداعية بمبادئه الّتي يعتنقها، وأهدافه الّتي يتبنّاها، ويدعو إليها إيماناً لا يشوبه أدنى شكّ أو ريب، يصل به إلى علم اليقين إن لم يكن حقّ اليقين، فإن لم يمتلك الدّاعية الإيمان العميق، والصّلابة المبدئيّة، والمرونة الأخلاقيّة لا يمكن أن يواصل طريق الدّعوة إلى الله بأيّ حال

---

(١) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة، المناجاة السّابعة، مناجاة المطيعين.

(٢) نهج البلاغة: ٢٨٢، خطبة: ١٧٥.

من الأحوال، وما حالات التّردّد، والتّراجع، والتّقاعس، إلا لنقص في الإيمان، وتقصير في تغيير الذّات، فعلى الدّاعية الّذي يطلب التّوفيق من الله في مواصلة المسير أن يعمّق إيمانه بأهدافه، ومبادئه، ومنطلقاته، إيماناً راسخاً لا يشوبه شكٌّ ولا تردّد.

بهذا الإيمان استطاع القادة الرّساليّون من الرّسل، والأنبياء، والأوصياء مواصلة السَّير رغم كلّ الصّعوبات والضّغوط، وخير مثال على ذلك موقف الرّسول المصطفى ﷺ حين ساومته قريش، فانبرى قائلاً: **«وَالله لَوْ وَضَعوا الشَّمْسَ في يَميني، وَالْقَمَرَ في يَساري على أَنْ أَتْرُكَ هذا الأَمْرَ حَتّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ فيه، ما تَرَكْتُه»**[1].

إذن، الإيمان بالهدف هو الرّصيد الأعظم في حياة الدّاعية، ومن دونه لا يمكن الاستمرار في عملية التّغيير والإصلاح؛ ولهذا يجب على كلّ داعية أن يجدّ ويجتهد لترسيخ إيمانه بمبادئه وأهدافه في نفسه، ويتوسّل بالله بالدّعاء والذّكر أن يعينه على ذلك بالمعاناة والمجاهدة والتّهذيب النّفسي؛ قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«إنَّ أَفْضَلَ ما تَوَسَّلَ به الْمُتَوَسِّلونَ إلى الله سُبْحانَهُ: الإيمانُ به وَبِرَسوله، وَالْجهادُ في سَبيله، فَإنَّهُ ذِرْوَةُ[2] الإسْلام»**[3].

وفي دعاء الإمام السّجّاد عليه السلام: **«اللّهمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآله، وبَلِّغْ بإيماني أَكْمَلَ الإيمانِ، وَاجْعَلْ يَقيني أَفْضَلَ الْيَقينِ، وَانْتَه بنِيَّتي إلى أَحْسَنِ**

---

(١) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٣٠٣/١.

(٢) الذّروة: أعلى السّنام.

(٣) نهج البلاغة: الخطب: ١٧٥.

النّيّات»[١].

٧- **الأمل والتّفاؤل بالتّوفيق والنّجاح:** ما لم يعش الدّاعية روح الأمل، وتطفح روحه بالتّفاؤل بقبول الله لأعماله ونجاحه فيها، لا يمكن أنْ يستمرّ في هدي النّاس وإرشادهم إلى الله بحال أبداً؛ ولهذا نقول إنَّ سر نجاح معظم القادة الرّساليّين هو ما تطفح به أرواحهم من أمل بنصر الله وتوفيقه، ولا يكفي الدّاعية أنْ يعيش الأمل فقط، بل يجب أنْ تكون له القدرة على بعث الأمل في نفوس من يدعوهم إلى الله، وهذه السّمة برزت في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله في أصعب الظّروف وأحلك المواقف، كما في موقفه في هجرته إلى الطّائف، واحتشاد الكافرين لضربه ورميه بالحجارة، وهو وحيد فريد لا ناصر ولا معين له، يرفع طرفه إلى السّماء، متضرّعاً لله، مستمداً منه العون والمدّ، متفائلاً بنصره تعالى، قائلاً:

«اللّهمَّ، إلَيْكَ أَشْكو ضَعْفَ قُوَّتي، وَقلَّةَ حيلَتي، وهَواني عَلى النّاس، يا أَرْحَمَ الرّاحمينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعفين، وَأَنْتَ رَبّي، إلى مَنْ تَكلُني؟ إلى بَعيد يَتَجهَّمُني[٢]**؟ أَمْ إلى عَدُوّ مَلَّكْتَهُ أَمْري؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلا أُبالي، وَلَكنَّ عافيَتَكَ هيَ أَوْسَعُ لي، أَعوذُ بنور وَجْهكَ الَّذي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُماتُ، وَصَلُحَ عَلَيْه أَمْرُ الدُّنْيا وَالآخرَة، منْ أَنْ تُنْزلَ بي غَضَبَكَ، أَوْ يَحلَّ عَلَيَّ سُخْطُكَ، لَكَ الْعُتْبى حَتّى تَرْضى، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بكَ»**[٣].

وفي معركة الخندق عندما أقدمت قوى الكفر والضّلال والجاهليّة، بدأ رسول الله صلى الله عليه وآله يحفر خندقاً حول المدينة ليحميها، وفي هذا الموقف الحرج

---

(١) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة، دعاء: ٢٠.

(٢) تجهّمه: استقبله بوجه كريه.

(٣) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٣٣/٢-٣٤.

استعصت صخرة على بعض أصحابه، وعندما أُخْبِرَ بها نزل إلى الخندق، ومارس العمل بنفسه، وبعث الأمل في نفوسهم، فحين «أخذ المعول، وضرب به ضربة، فلمعت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها[١]، يعني لابتي المدينة، حتّى لكأنَّ مصباحاً في جوف ليلٍ مظلمٍ، فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح، فكبّر المسلمون، ثمّ ضرب ضربة أخرى، فلمعت برقة أخرى، ثمّ ضرب به الثّالثة، فلمعت برقة أخرى، فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا الّذي أرى؟ فقال: **أَمّا الأولى فإنَّ الله عزَّ وجلَّ فتح عليَّ بها الْيَمَنَ، وأَمّا الثّانيةُ فإنَّ اللهَ فتح عليَّ بها الشّامَ والْمَغْرِبَ، وأَمّا الثّالثةُ، فإنَّ اللهَ فَتَحَ عليَّ بها الْمَشْرِقَ**؛ فاستبشر المسلمون بذلك، وقالوا: الحمد لله موعد صادق، قال: وطلعت الأحزاب، فقال المؤمنون: ﴿ **هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ** ﴾[٢]، وقال المنافقون: ألا تعجبون يحدّثكم، ويعدكم الباطل، ويخبركم أنّه يبصر في يثرب قصور الحيرة، ومدائن كسرى، وأنَّها تفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق، ولا تستطيعون أن تبرزوا»[٣].

هكذا كان رسول الله ﷺ يبعث الأمل في نفوس جنده، وحين تشتدّ المحن على أصحابه في مكّة؛ تعذيب، ومقاطعة، وتوهين... يلجأ إليه صاحبه خبّاب ليستنجد به، فقد روي عن خبّاب قال: «أتيْتُ النّبيّ ﷺ، وهو متوسّد ببردة، وهو في ظلّ الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدّة، فقلْتُ: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمرٌّ وجهه، فقال: **قَدْ كانَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِأَمْشاطِ الْحَديدِ ما دونَ**

---

(١) اللابة: الحرّة، وهي الأرض، ذات الحجارة السّود قد ألبستها لكثرتها، والمدينة المنوّرة ما بين حرّتين عظيمتين.

(٢) الأحزاب: ٢٢.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٨/٥٣٤، تبرزوا أي تقضون حاجتكم.

عظامه منْ لَحْمٍ أَوْ عصَب، ما يَصْرِفُهُ ذلكَ عَنْ دينه، ويَوضَعُ الْمنْشارُ على مفْرَقِ رأْسه، فَيُشَقُّ باثْنين ما يَصْرِفُهُ ذلكَ عَنْ دينه، ولَيُتِمَنَّ اللهُ هذا الأَمْرَ حَتّى يسيرَ الرّاكبُ منْ صَنْعاءَ إلى حَضْرَموتَ ما يَخافُ إلا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ... وَالذّئْبَ على غَنَمه، وفي رواية: **ولَكنَّكُمْ تَسْتَعْجلونَ**»[١].

بهذا الأسلوب الرّائد استطاع رسول الله ﷺ أن يواجه الأحداث العسيرة، ويتجاوز التّحدّيات كلّها، وينتصر على الأعداء كلّهم، ويثبت منهجاً رساليّاً إلى يوم القيامة، ويربّي أمّة أصبحت ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[٢]، وهذا هو النّصر في الإسلام؛ ولذا ينبغي ألا نفهم أنَّ معنى النَّصر والنّجاح في الإسلام، بما ينجزه الإنسان من أعمال اجتماعيّة، أو سياسيّة، أو فكريّة وحسب، بل النّجاح بما يوفّقه الله، ويسدّده من استجابة لأمره تعالى بدوافع نظيفة وطاهرة في حركته إلى الله، فالعامل المخلص لله منتصر على كلّ حال، غَلَبَ أو غُلِبَ، إذا امتثل لأوامر الله بنيّة صادقة، وقلب مطمئن بالإيمان ﴿**قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ**﴾[٣]...

بهذه الرّوح انتصر الحسين عليه السلام رغم المأساة الّتي جرت عليه، وانتصر الصّدر الشّهيد رغم ما عاناه من مرارات، وتَوَّجَ أعماله بالشّهادة، ويعجبني أن أنقل لوحةً أدبيّةً رائعةً صوَّرَتْها ريشة الأديب المصريّ سيّد قطب إذ كتب في ظلاله:

«والحُسَين رضوان الله عليه وهو يستشهد في تلك الصّورة العظيمة من

---

(١) ابن كثير، السّيرة النّبويّة: ٤٩٦/١.

(٢) آل عمران: ١١٠.

(٣) التّوبة: ٥٢.

جانب، المفجعة من جانب؟ أكانت هذه نصراً أم هزيمة؟ في الصّورة الظّاهرة، وبالمقياس الصّغير كانت هزيمة. فأمّا في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً. فما من شهيد في الأرض تهتزّ له الجوانح بالحبّ والعطف، وتهفو له القلوب، وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه. يستوي في هذا المتشيّعون وغير المتشيّعين من المسلمين، وكثير من غير المسلمين!

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده. وما كان يملك أن يودّع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفّز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة الّتي يكتبها بدمه، فتبقى حافزاً محرّكاً للأبناء والأحفاد. وربّما كانت حافزاً محرّكاً لخطى التّأريخ كلّه مدى أجيال..»[١].

٨- **أن يتحلّى بالخصائص الرّوحيّة، ويسعى إليها، وينطلق منها،** وأهمّها التّقوى، وهي تمثّل روح المقاومة الإيجابيّة إزاء المخالفات الشّرعيّة.

وبالتّالي هي زاد المسير إلى الله، ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ**﴾[٢].

وهي الحصانة الرّصينة من الانحرافات الفكريّة والأخلاقيّة، ﴿**وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ**﴾[٣].

وهي الكرامة العظمى الّتي يمنّ الله بها على من يشاء من عباده، ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[٤].

---

(١) في ظلال القرآن: ١٨٩/٧-١٩٠.

(٢) البقرة: ١٩٧.

(٣) الأعراف: ٢٦.

(٤) الحجرات: ١٣.

وبالنّتيجة هي منبع من منابع المعرفة الإلهيّة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾(١).

ومن الخصائص الرّوحيّة الّتي يجب أنْ يتحلّى بها الدّاعية الإخلاص بكلّ جوانبه الفكريّة، والأخلاقيّة، والاجتماعيّة، وأعني بالإخلاص التّجرّد عن الدّوافع الذّاتيّة والمصلحيّة، والعمل لله، وفي الله، ومن دون ذلك لا ينفع الدّاعيةَ عملٌ، مهما جَدَّ واجتهدَ، ولا شكَّ أنَّ مدى تأثير العمل يتناسب تناسباً طرديّاً مع درجة الإخلاص لله، الّذي هو نتيجة كلّ الفرائض العباديّة والأعمال التّوصليّة، يقول تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(٢).

ومن الخصائص الرّوحيّة الزّهد في زخارف الدنيا، وخلاصته هو «التّحرّر الدّاخليّ من قيد الشَّهوة والهوى، والانعتاق النّفسيّ من الدّنيا ومعانيها، وهو بذلك سببٌ ونتيجةٌ في آنٍ واحد للانقطاع إلى الله تعالى، والارتباط بالسَّماء.. أو بالأحرى العبوديّة الكاملة لله في المشاعر والعواطف والسلوك»(٣)؛ وبالتّالي: إنَّ الزُّهْدَ ليس أن لا تمتلك شيئاً، ولكن ينبغي أن لا يملكك شيء.

فالزُّهد يحقق للدّاعية الرّاحة، والاطمئنان النّفسيّ، والبصيرة النّافذة في عيوب الدُّنيا، ويفجّر الحكمة من قلبه على لسانه، ويهوّن عليه مصائب الدُّنيا، ويحصّن الدّين، وبالتّالي هو تحرّر وانطلاق في رحاب الله.

---

(١) البقرة: ٢٨٢.

(٢) البيّنة: ٥.

(٣) الشّهيد الشّيخ حسين معن، نظرات في الإعداد الرّوحيّ: ١٨٢.

٩- وقد تقدّم أنّه لا بدّ لدعاة الإسلام من إتقان الفنون والمهارات والملكات التّبليغيّة المؤثّرة في السّامع أو المتلقّي، كطيب الكلمة، وحسن اللّقاء، والقدرة على الاستماع، والصّبر على التّحدّيات، والضّغوط الاجتماعيّة والسّياسيّة والفكريّة.

ومن أهمّ المهارات الّتي يجب أن يبرع فيها الدّاعية هي الخطابة، والكتابة، والحوار؛ ولئلا نخرج عن الموضوع، فيصبح مملاً نكتفي بتفصيل أدب الحوار؛ لأنّه عنصرٌ فعّالٌ ومؤثّرٌ في التّبليغ والإرشاد والهداية.

أَدَبُ الْحِوارِ:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[١].

ترسم لنا الآية الكريمة منهجاً متكاملاً في الحوار مع أهل الكتاب، وتوضّح الأسلوب الهادئ الرّزين لإيقافهم على الحقيقة، وبيانها لهم، وسدّ الأبواب عن اللّعب بالألفاظ الخدّاعة الّتي توهم البسطاء؛ فهي «تطرح مع أهل الكتاب فكرة اللّقاء على قاعدة مشتركة؛ لنتمكّن من خلال ذلك من اكتشاف وجود لغة، وقناعات مشتركة، ومشاعر قريبة إلى بعضها البعض»[٢] من دون تشنّجٍ، ولا انفعالٍ، ولا تحدٍّ؛ لأجلِ الإفحام والإسقاط، وتعطي المؤمن قوّة ثباتٍ أمام الحالاتِ السّلبيّة، وتتجنّب نقاط الخلاف معهم أوّلاً، وكأنّها تركّز قاعدةً الانطلاق لغزو

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) السّيّد محمّد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن: ٣/٢١٠.

القلوب، ثمّ تبدأ عمليّة التّطهير الدّاخلي؛ لتغرس فيها بذور الفكر السّليم.

ونستلهم من الآية عدّة مفاهيمٍ، وآدابٍ للحوار، ومنها:

١- إنَّ الآية الكريمة تأمر رسول الله ﷺ أن يخاطبهم بأحبِّ الألفاظ إلى نفوسهم؛ ولذا تخاطبهم ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، «وهذا الاسم من أحسن الأسماء، وأكمل الألقاب حيث جعلهم أهلاً لكتاب الله»[1]، وهو من باب الإشعار بالاهتمام، والتّقدير، وتلك خطوة مهمّة عندما يريد المؤمن أن يشدّ الآخرين إلى مبدئه، وعقيدته حيث يشعرهم بأنَّ لهم مكاناً وأهمّيّة في قلبه.

٢- إنَّ الدّاعية إلى الله يشعر الآخرين، بأنَّه معهم سواء في الحقوق، والواجبات، وذلك ما يلوّح لنا من قوله تعالى: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾، «والسّواء: هو العدل والإنصاف؛ وذلك لأنَّ حقيقةَ الإنصاف إعطاءُ النَّصَف، فإنَّ الواجب في العقول ترك الظّلم على النّفس، وعلى الغير، وذلك لا يحصل إلا بإعطاء النَّصَف، فإذا أنصف، وترك ظلمه، أعطاه النَّصَف، فقد سوّى بين نفسه وبين غيره، وحصل الاعتدال، وإذا ظلم وأخذ أكثر ممّا أعطى، زال الاعتدال، فلمّا كان من لوازم العدل، والإنصاف التّسوية، جعل لفظ التّسوية عبارة عن العدل»[2].

٣- وبعد هذا يدعوهم إلى ثلاثة أمور كلّها توحيد خالص لله تعالى، وهي:

أ- أن لا يشرك الجميع بالله تعالى.

ب- أن لا يتّخذ بعضهم بعضاً أرباباً.

---

(١) التّفسير الكبير: ٩١/٨.

(٢) المصدر نفسه.

ج- أن لا يعبد الجميع أحداً إلا الله.

وفي هذه المطالب الثّلاثة تثبت أهمّ قواعد التّوحيد، قال الفخر الرّازيّ: «وإنّما ذكر هذه الثّلاثة؛ لأنَّ النّصارى جمعوا بين هذه الثّلاثة، فيعبدون غير الله وهو المسيح، ويشركون به غيره؛ وذلك لأنَّهم يقولون إنَّه ثلاثة: أب وابن وروح القدس، فأثبتوا ذوات ثلاثة قديمة سواء»(١).

٤- والأمر الرّابع الّذي تشير إليه الآية الكريمة، وهو كيفيّة المواجهة معهم عند إصرارهم وعنادهم على الضّلال، «وذلك بالإعلان عن الموقف الحقّ، الّذي يحمّلهم المسؤولية من خلال تحميلهم مسؤولية الشَّهادة أمام الله... وعدم الانهزام أمام الحالات السّلبيّة»(٢).

ثمّ توضّح الآيةُ آداباً أخرى للحوار مع المخالفين لنا تتجلّى في النّقاط الآتية:

١- في باب الحوار والمناقشة حول أيّ مسألة من المسائل، ينبغي أن نبدأ من نقطة الوفاق، ونتجنّب نقاط الاختلاف؛ لأنَّ نقاط الاختلاف تثير التّشنّج، والاشمئزاز في النّفوس، وتخلق جوّاً متوتراً، يجعل البعض لا ينفتح على البعض الآخر.

٢- إنَّ الآية تشير إلى أنَّ مورد المناقشة هي المفاهيم، والأفكار، والعقائد؛ لأنَّها المنطلق، وفي خلافه تؤدّي إلى الازدواجيّة والاثنينيّة.

٣- لا تكون المناقشة في الأساليب إذا كانت شرعيّة مهما اختلفت، فهي تنحو منحى التّكامل، لا التّضادّ، وبعضها يكمل البعض الآخر.

---

(١) التّفسير الكبير: ٩٢/٨.

(٢) تفسير من وحي القرآن: ٢١٢/٣-٢١٣.

والأساليب هي نحو وضوح للسّالك لها؛ ولذلك تتّخذ من الفرد لا من الشَّريعة؛ لذلك يجب أن لا نطعن في أساليب الآخرين إذا لم تكن فيها مخالفة شرعيّة، وإنّما علينا أن نبيّن ضعف تلك الأساليب، ونطرح البديل لها.

٤- إنَّ الّذين ينطلقون من نقاط الوفاق، يدلّ انطلاقهم على وعي كامل للمسؤوليّة، وإحساسٍ أمام الله تعالى في خدمة الإسلام، وبخلاف ذلك من ينطلق من نقاط الاختلاف يحاول أن يخلق الحواجز بين النّفوس، ويثير البعض ضدّ البعض الآخر.

ولا بدّ من أن يحدّد المحاور أهداف حواره، وأن تكون مبنّيةً على أسس منطقيّة، وعقليّة لنصرة رسالة الله سبحانه وتعالى، ولعلَّ من أهمّ أهداف الحوار هي الدّعوة إلى الله تعالى، وأعني بذلك دعوة الآخرين إلى الله سواء كانت دعوة الكافرين إلى الإسلام، أو المنحرفين عنه، أو الجاهلين به لغرض هدايتهم، وإنقاذهم من الكفر، والجهل، والضّلال، وإقامة الحجّة على الخصم وإبراء الذّمّة أمام الله عزَّ وجلَّ.

ومن الأهداف الرّئيسة في الحوار: الوصول إلى الحقّ، وترجيح الرّأي الصّالح من خلال الآراء الّتي تطرح، وتضييق هوّة الخلاف، وتأليف القلوب، وتقريب وجهات النَّظر.

ومن أهمّ غايات الحوار: بيان الأفكار الباطلة، والرّؤى الفاسدة الّتي يتبنّاها خصوم الإسلام، والرَّدُّ على الشّبهات، والطّعون الموجّهة ضدّه، وإثبات الحقّ؛ لإقامة الحجّة على المخالف، ولكشف الباطل على حقيقته؛ لتحذير الآخرين منه، ولتستبين طرق الضّلال؛ لئلا يسقط الآخرون في بؤرها، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[١].

مِنْ قَواعِدِ الْحِوارِ:

ينطلق المؤمن في كلّ خطوة من خطواته، لنصرة الحقّ طالباً وجه الله، متجرّداً عمّا سواه، ومن هنا لا بدّ للمحاور أن يجرّد نيّته لله، ويطرح أفكاره نصرة لدين الله كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾[٢]، وهو الإخلاص والتّجرّد لإثبات الحقيقة، وطلب الحقّ، وهذا الشّرط أساسٌ مركزيٌّ في الحوار، فما لم يكن المحاورُ واضعاً قلبه على لسانه لا يمكن أن يؤثّر في المقابل، فالقول الصّادر لله تعالى من القلب يقع في القلب، ولا شكَّ أنَّ العملَ يفسد من دون الإخلاص، ولا يوفّق صاحبه فعندما يغيب الإخلاص ينعدم الانقياد إلى الحقّ، ولو كان مثل فلق الصّباح، وتحت هذا الأصل تدخل عدداً من الآداب كسلامة النّيّة، وحسن الاستماع، والتّسليم بالخطأ، والتّواضع، والرّجوع إلى الحقّ، والالتزام بالأمانة العلميّة، والعدل، والإنصاف، وتجنّب الكذب، والمراوغة، والخداع، والسّخرية، والهزء بالطّرف الآخر، وضبط الأعصاب، والهدوء، وتلك آداب أساسيّة في أدب الحوار.

ومن القواعد المهمّة في أدب الحوار مراجعة النّفس، ومحاسبتها سواء كان على انفراد أو مع الآخرين، ﴿مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾[٣]، والالتزام بهذا الشَّرط من العوامل المهمّة الّتي تحفظ الإنسان من الوقوع في خداع القول، أو التّعصب، أو

---

(١) الأنعام: ٥٥.

(٢) سبأ: ٤٦.

(٣) سبأ: ٤٦.

التّلاعب بالألفاظ، أو تشويه وجهة نظر الآخرين، وتحفظه من الأطروحات السّاذجة، والأفكار السّقيمة، وتبعده عن الغوغائيّة، والتّقليد الأعمى.

ومن القواعد الأساسيّة في الحوار فهم رأي الطّرف المخالف، والتّأمّل في أفكاره، وموازنتها مع القواعد العقليّة والشّرعيّة؛ لغرض إثبات الأدلة الشّرعيّة، والعلميّة، والتّحقّق من سلامتها، وتحت هذا الأصل تدخل جملة من الآداب العلميّة كالبيان السَّليم، والعرض الرَّصين، والتّثبّت، والتّوثّق من سلامة الفكرة، وطلب الدَّليل الشّرعيّ، والتّسليم بالحقّ، والبدء بالأهمّ، وغير ذلك.

مُلاحَظاتٌ مُهِمَّةٌ في أَدَبِ الْحِوارِ:

ينبغي للمحاور أن يتأمّل جيّداً في أحوال المخاطبين النّفسيّة، والفكريّة، والثّقافيّة، ومراعاة ظروفهم، ومستوى ما يمكن أن يتحملّوه من الأفكار؛ لئلا يشقّ، ويثقل عليهم ما يطرحه من فكرة قد تلاقي رفضاً منهم.

كما ينبغي للمحاور أن لا تستبد به الحماسة، والاندفاع، والغيرة على الدّين، فيندفع اندفاعاً ساخناً غير منضبط يتجاوز فيه اللّياقات الأدبيّة؛ ولذا عليه أن يتحكّم في أعصابه، ليزن كلماته، فلا يطلق الكلمة قبل أن يتأمّل فيها جيّداً، وفي أثناء ذلك يلاحظ تأثير كلماته في وجوه المستمعين؛ ليعرف درجة القبول، والرَّفض، ومن هنا يجب تجنّب الكلمات الخشنة، بل يجب أن يتّسم الكلام بالحُسن، واللّين، فـ«**مَنْ لانَ عودهُ كَثُفَتْ أَغْصانهُ**»(١)؛ ولذا أمر الله عزَّ وجلَّ كليمه موسى عليه السلام أن يطرح الكلام اللّيّن مع أعتى فراعنة الزّمان في وقته: ﴿**اْذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ**

(١) نهج البلاغة: ٥٢١، قصار الحكم: ٢٠٤؛ والمعنى: من حَسَّنَ خُلُقَهُ، ولانت كلمتُهُ كثُر محبّوه وأعوانه وأتباعه، كالشّجرة الّتي غلبت عليها الرّطوبة بكثرة فروعها.

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾(١).

وقد منَّ الله عزَّ وجلَّ على نبيّه الأطهر ﷺ برحمته حين أفاض عليه من لطفه، فجعله رفيقاً في سلوكه، ليّناً في كلامه: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾(٢).

ومن القول الحسن في الحوار تجنّب التّحامل على المخالف؛ لأنَّ ذلك يزيده عناداً، وتعصّباً؛ ولذا ينبغي الضّرب على الأوتار الحسّاسة؛ لإثارة العواطف النّبيلة في قلب المخالف؛ لأنَّ من يفتح القلوب يستطيع أن يوجّه العقول، ومن هذا المنطلق ينبغي أن لا يركّز الدّاعية المحاور على الأخطاء الّتي قد تقع عن جهلٍ، وحسن نيّة؛ فإنَّ الرّفق، والموعظة كثيراً ما يهدي القلوب النّافرة، ويؤلّف بينها بعكس الزّجر، والتّأنيب، والتّوبيخ الّتي تغلقها.

وأخيراً يجب على المحاور أن لا يكون هدفه الغلبة في الجدال، وإفحام المقابل بل عليه أن يجعل الإقناع، والوصول إلى الحقّ هو الغاية الأساسيّة من الحوار، ولا يقصد بذلك إلا كشف الحقيقة والاهتداء إليها في سبيل الله لا في سبيل ذاته، ونصرة رأيه، وإهزام مخالفه.

---

(١) طه: ٤٣-٤٤.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

التَّغْييرُ الذّاتِيُّ مُنْطَلَقُ التَّغْييرِ الاجْتِماعِيِّ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

التّغيير لغةً[3]: هو جعل الشّيء متحوّلاً من حالة إلى أخرى، تقول: حوّله وبدّله كأنَّه جعله غير ما كان كما، وفي التّنزيل العزيز: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[4].

فالتّغيير جعل الشّيء متحوّلاً إلى سواه، أو جعله مغايراً لما هو عليه في حالته الأولى إلى حالة أخرى.

التَّغْييرُ سُنَّةٌ إِلهِيَّةٌ:

الكون وما فيه في حركة دائمة، وتحوّل مستمرّ من حالة إلى أخرى، ولا يمكن أن تتوقّف حركة التَّغيير الكونيّ، فهي حركة كونيّة وإنسانيّة جارية من

---

(١) الرّعد: ١١.

(٢) الأنفال: ٥٣.

(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٥/٤٠، (غير).

(٤) الأنفال: ٥٣.

أوّل نشوئه إلى يوم فنائه، فالحركة فيه أصلٌ ثابتٌ وأمرٌ بديهيّ، فلا شيء يبقى على حاله لا يتغير، والإنسان وكلّ ما يحيط به متحرّك ومتغيّر وجار، تتفاعل عناصره بعضها مع البعض الآخر.. وهذا التّغيّر يجري تأثيره على المجتمع البشريّ ضمن قوانين كونيّة عاملة، ومتطلّبات اجتماعية فاعلة في الكون، خاضعة لإرادة الله تعالى بعلمه الغيبيّ الَّذي ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، ولم يكن هذا الحراك جبريّاً، وإنّما هو جارٍ وفق القوانين الَّتي وضعها الله في مخلوقاته على مختلف أحوالها، وبما يضمن استمراريّتها وتطوّرها وتحوّلها من حالة إلى أخرى؛ لتؤدّي دورها فيما خُلِقَت له.

مُنْطَلَقُ التَّغْيِيرِ وَمنابِعُهُ:

ذكر علماء الاجتماع فيما ذكروا أسباب التّغيير الاجتماعيّ، وأكّدوا أنَّ أسباب التّغيير خارجيّة، وتناسوا الأساس في التّغيير وهو الإنسان بمحتواه الدّاخليّ مشاعر وأحاسيس وأفكاراً وخواطر، وعللاً ومعلولات، قالوا: إنَّ التغيير ينجم عن تناقضات، يعني التّناقض الدّاخليّ في ذاتيّة الأشياء (الصّراع الدّيالكتيكيّ)، أو ما يسمّى بالصّراع الطّبقيّ الَّذي ينتصر فيه الأقوى بحسب زعم ماركس؛ وذهب آخرون إلى أنَّ جميع الأسباب خارجيّة، ولا ربط لها بتصوّرات الإنسان؛ وعَلّل بعضهم أسباب التَّغيير بتطوّر التّجارة العالميّة، وأنَّها تلعب دوراً مهمّاً في هذا الصَّدد، ونُسِب ذلك إلى فكر (مونتسكيو)؛ وذهب بعض آخر إلى أنَّ التّطوّر العلميّ والتكنولوجيّ هو الّذي غيّر المجتمع كما لدى (كونت)، وبشكل مختصر

---

(١) يس: ٨٢.

حصروا محرك التَّغيير بصراع الطّبقات، والنّزاع بين المجموعات الَّتي تسعى إلى المستقبل الأفضل، ومجموعات متمسّكة بالماضي والتَّناقض بين قوى الإنتاج والنَّماذج الثّقافية وغيرها من الأسباب، ولعلَّ أوجه هذه الأسباب ما أكّده بعضهم أنَّ جميع المجتمعات تتّجه بالضّرورة نحو حالة مثاليّة[1] تقدّميّة مزدهرة، ولعلّ هذا الرَّأي يقترب من الرَّأي الإسلاميَّ الّذي يقول بأنَّ في الإنسان فطرتين أصيلتين في تكوينه الذّاتيّ، وهما حبّ الكمال والجمال، والسّعي نحو تحقيقه وتحصيله، فـ«الإنسان ينزع إلى الجمال نزوعاً مطلقاً، سواء كان الجمال في الخَلق أم في الخُلق، وما من أحدٍ يخلو من الإحساس بحبّ الجمال، فالمرء يسعى حتّى فيما يلبس إلى أن يكون جميل المظهر بقدر إمكانه.. إنَّ الجمال - في الواقع - مطلوب لذاته»[2].

والفطرة الأخرى هي النّفور والاشمئزاز من النَّقص، والقبح، والتّخلّف، ومحاولة التّخلّص منه، والتّنكّر له حتّى لو كان موجوداً فيه.

ومن خلال هاتين الحالتين الفطريّتين يتحرّك الإنسان في خطّ التَّكامل نحو الأحسن والأفضل والأكمل، ولا يتوقّف هذا الإحساس في حياة الإنسان، فهو يسعى نحو الكمال في كلّ شيء يروم تحقيقه أو تحصيله سواء كان في الجوانب المادّيّة أو الجوانب المعنويّة، فمن كان يسعى لتحصيل العلم والمعرفة يبقى مواصلاً لطلبه، وكلّما اكتشف حقيقة علميّة حاول أن يحصل على المزيد لما بعدها.. وهكذا طلاب الأموال والمناصب والرّئاسات والمراكز الرَّفيعة لا ينال مرتبة إلا ويحاول أن يرتقي إلى ما هو أرفع منها، ولا يتوقّف عند حد معيّن، فلو

---

(١) ينظر: ر.بودون وف.بوريكو، المعجم النّقديّ لعلم الاجتماع: ١٦٧-١٦٨.

(٢) الشَّهيد مرتضى مطهّري، بين المنبر والنّهضة الحسينيّة: ٤٢.

ملك الدّنيا المحيطة به راح يفتّش عمّا وراءها، ولو سيطر على الأرض كلّها توجّهت أنظاره إلى السّماء، وما فيها من أفلاك ومجرّات يحاول أن يخضعها لهيمنته وسيطرته، كما قال الإمام عليّ عليه السلام: «**مَنْهومانِ لا يَشْبَعانِ: طالِبُ عِلْمٍ، وَطالِبُ دُنْيا**»(١).

فطالب العلم العاشق له لا يتوقّف طلبه عند حدّ، فكلّما اكتشف حقيقة علميّة شعر بشوق إلى ما بعدها؛ لأنّه فوق ﴿ **كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ** ﴾(٢)، وهكذا طالب الدُّنيا كلّما ملك منها شيئاً طلب المزيد، ولا يتوقّف طلبه عند مقدار معيّن، بل يزداد إلحاحاً في طلبه، كما وصف ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «**لَوْ كانَ لابْنِ آدَمَ واديانِ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّة، لابْتَغى إِلَيْهِما آخَرَ، وَلا يَمْلأُ بَطْنَ ابْنِ آدَمَ إِلا التُّرابُ، وَيَتوبُ اللهُ عَلى مَنْ تابَ**»(٣).

وعلى كلّ حال من هذه الحقيقة المودعة في فطرة الإنسان يتواصل التَّغيير من الفرد إلى المجتمع، وفي جميع جوانب الحياة الإنسانيّة، قال عارف القرن العشرين في أدقّ بيان لهذه الحقيقة:

«اعلم أنَّ في الإنسان - إن لم نقل في كلّ موجود - حبّاً فطريّاً للكمال المطلق، وللوصول إلى الكمال المطلق، وهذا الحبّ ممّا يستحيل أن يفارق الإنسان تماماً، كما أنَّ الكمال المطلق محال أن يتكرّر أو أن يكون اثنين، فالكمال المطلق هو الحقّ جلّ وعلا، والجميع يبحثون عنه، وإليه تهفو قلوبهم، ولا يعلمون، فهم محجوبون بحجب الظُّلمة والنّور؛ لذا فهم يتوهّمون أنَّهم

(١) نهج البلاغة: ٥٦٠، قصار الحكم: ٤٤٥.

(٢) يوسف: ٧٦.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٣١/٣٢، ح/١٩٢٨٠.

يطلبون شيئاً آخر غيره، ولذا تراهم لا يقنعون بتحقيق أيّة مرتبة من الكمال، ولا بالحصول على أيّ جمالٍ أو قدرة أو مكانة. فهم يشعرون أنَّهم لا يجدون في كلّ ذلك ضالَّتهم المنشودة، فالمقتدرون ومن يمتلكون القدرة الكبرى، هم في سعي دائم للحصول على القدرة الأعلى مهما بلغوا من القدرة، وطلاب العلم يطلبون الدَّرجة الأعلى من العلم مهما بلغوا منه، وهم يشعرون دوماً أنَّهم لم يجدوا ضالّتهم، وفي الحقيقة إنَّهم غافلون عنها.

ولو أُعطي السّاعون إلى القدرة والسّلطة، التّصرّف في جميع العالم المادّيّ من الأرضين والمنظومات الشّمسيّة والمجرّات، بل وكلّ ما هو فوقها، ثمّ قيل لهم: إنَّ هناك قدرةً فوق هذه القدرة الَّتي تملكونها، أو إنَّ هناك عالماً أو عوالم أخرى فوق هذا العالم، فهل تريدون الوصول إليها؟ فإنَّهم من المحال أن لا يتمنّوا ذلك، بل إنَّهم من المحتَّم أن يقولوا بلسان الفطرة: ليتنا بلغنا ذلك أيضاً!. وهكذا طالب العلم، فهو إن ظنَّ أنَّ هناك مرتبة أخرى - غير ما بلغه - فإنَّ فطرته الباحثة عن المطلق ستقول: يا ليت لي هذه القدرة، أو يا ليت لي سعةً من العلم تشمل تلك المرتبة أيضاً!»[1].

وبناءً على ما تقدَّم ينبغي أن نحدّد مفهوم التّغيير من حيث المنطلق الَّذي ينبعث منه، والهدف المرجوّ تحقيقه، والوسائل الَّتي تتوصّل بها لتحقيق الأهداف التّغييريّة؛ ولهذا يؤكّد الإسلام أنَّ منطلق التّغيير هو النّفس الإنسانيّة يقول تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

(١) الإمام الخمينيّ، موعد اللّقاء: ٨٠-٨١.

(٢) الأنفال: ٥٣.

وكما قيل: «ميدانكم الأوّل أنفسكم، فإن قدرتم عليها، فأنتم على غيرها أقدر».

والمقصود بالتّغيير النّفسيّ: هو تغيير المحتوى الدّاخليّ للإنسان من حيث المشاعر، والأحاسيس، والنّوايا، والغايات، والأهداف؛ وبالتّعبير الإسلاميّ: تزكية النّفس وتطهيرها من جميع الأمراض النّفسيّة، كالجهل، والحقد، والحسد، والطّمع، والجشع، والمماراة، والانفعالات الطّفليّة.

أمّا هدف التَّغيير النَّفسيّ للفرد؛ فهو جعله أنموذجاً جاذباً بجماله وكماله للآخرين؛ ليُقتدى به، ويمتد تغييره إلى الأمّة فكريّاً وأخلاقيّاً وسياسيّاً؛ لتصحيح مسارها من خلال تعميق الوعي الرّوحيّ والاجتماعيّ والسّياسيّ لديها، وهذا الوعي السّياسيّ يختلف عن مفهوم الوعي السّياسيّ في الحركات والأحزاب والمذاهب العلمانيّة؛ فمعنى الوعي السّياسيّ عند هؤلاء تتبّعُ الأحداث، وتفسيرها، وتحليلها، وترتيب المواقف المختلفة على ضوئها، وتبرير المواقف الشّاذّة المخالفة لحقيقة الإنسانيّة كالخيانة والغدر والخداع والتّحايل والالتفاف على المواقف الواضحة لإيقاع الخصم في هوّة السّقوط والانحراف.

أمّا الوعي السّياسيّ في الإسلام، فيختلف عن ذلك شكلاً ومضموناً، قلباً وقالباً، فالمقصود به في الإسلام: «وعيٌ سياسيٌّ صحيحٌ ينبثق عن مفاهيم حقيقيّة للحياة، ويتبنّى القضيّة الإنسانيّة الكبرى، ويسعى إلى تحقيقها على قاعدة تلك المفاهيم، ويدرس مسائل العالم من هذه الزّاوية»[1].

بناءً على هذا الفهم يكون الواعي سياسيّاً متبنّياً لقضيّة الإنسان الكبرى

(١) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، فلسفتنا: ٣٩.

يسعى لتحقيقها على قاعدة تلك المفاهيم، فالتّغيير الاجتماعيّ يكون قائماً على أساس تغيير الإنسان من داخله لينعكس على خارجه، ويغيّر واقعه المادّيّ والمعنويّ.

إنَّ الوعي العميق لرسالة السّماء بأنّها الرّسالة المنقذة للإنسانيّة من شقائها وآلامها، الّتي تنطلق من تغيير المحتوى الدّاخليّ للإنسان؛ ليعرف سرّ وجوده وعلّة إيجاده، هذه الرّسالة استمدّت نظامها الاجتماعيّ من وحي الله تعالى وسيرة رسوله أكمل البشريّة تختلف عن كلّ الأفكار والرّؤى المادّيّة في نظرتها للكون والحياة والإنسان.

إذن الوعي السّياسيّ المقصود في الإسلام نستطيع أن نشير إليه بنقاط مختصرة:

١- الإيمان بأنَّ حياة الإنسان منبثقة من مبدأ مطلق الكمال، وبناءً على هذا التّصوّر يجب أن تستمدّ النَّفسُ الإنسانيّة عوامل رقيّها من هذا المبدأ، وتبني وجودها على أساسه.

٢- إنَّ الحياة الدّنيا هي مرحلة إعداد للإنسان إلى عالم لا عناء فيه، ولا شقاء ولا فناء، وهو عالم الرّضوان الإلهيّ الّذي يجب أن يسعى الإنسان دائماً وأبداً لتحقيقه فهو السّعادة الكبرى الّتي تغيّر مجرى حياة الإنسان، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1]، ومن هنا يكون مقدار نجاح الإنسان بمقدار ما يحصل من كسب رضا الله تعالى... وهكذا تكون الشّخصيّة الإسلاميّة شخصيّة مغيّرة لواقعها في كلّ أبعادها، ولتعكس حركتها على محيطها الاجتماعيّ، فهي الشّخصيّة الّتي

---

(١) التّوبة: ٧٢.

سارت في شتّى أشواطها على هدى هذا الهدف، وضوء هذا المقياس، وضمن إطاره العامّ.

أمّا متابعة الأحداث وتفسيرها وتحليلها وترتيب النّتائج عليها واتّخاذ الموقف المناسب على ضوئها، فهي وسائل نتوصّل من خلالها إلى تحقيق الأهداف المقصودة.. فإنَّ تتبّع الأحداث الاجتماعيّة وتحلّيلها ليس هدفاً بذاته، وإنَّما هو وسيلة لتحقيق أهداف أخرى.

ومن هنا كان الوعي السّياسيّ في الإسلام يشمل الفهم الدَّقيق لجميع جوانب الحياة الفكرية والسّياسيّة والاجتماعيّة، ووعي متطلّبات التّغيير المادّيّ والمعنويّ، وفهم المشاكل والعقبات الَّتي تقف عثرة في طريق التَّغيير الاجتماعيّ من الواقع الفاسد إلى الواقع السَّليم، وهذا كلّه يتطلّب تجديد المنهج المناسب والملائم للمرحلة القائمة الَّتي نروم إبرازها في خط التّغيير والإصلاح.

وهكذا يتّضح أنَّ المشاكل الّتي تظهر في وسط الأمّة الإسلاميّة من اختلافات وصراعات وتراجع عن خطّ السّير الصّحيح، وتخلّف عن المسير الحضاريّ السليم سببه عدم حصول التّغيير النّفسيّ والفكريّ والرّوحيّ بالشّكل المطلوب، ولا سيّما لدى المتصدّين لإدارة حلبة المجتمع على مختلف الأصعدة التّربويّة والاقتصاديّة والسّياسيّة، بل يمكن القول بضرس قاطع: إنَّ جميع المشاكل الاجتماعيّة سببها عدم اكتمال عملية التّغيير النّفسيّ لدى المتصدّين لإدارة الشّؤون الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسّياسيّة والتّربويّة، ولا شكَّ أنَّ عدم معالجة المشاكل بشكل سليم وفق قواعد الشّرع المقدّس والعقل السَّليم تؤدّي إلى إعاقة عمليّة التّغيير.

ومن هنا نؤكّد أنَّ ما يحدث في وسط الأمّة من نزاعات، وخلافات،

وركود، وانفلات، وعدم إنصاف، وتخلّف فكريّ أو سياسيّ أو اقتصاديّ، وما يترتّب عليه من مشاكل أخلاقيّة أو سياسيّة، ما هو إلا إفرازٌ لما في النّفوس من أمراض فكريّة أو أخلاقية... وكلّ ذلك يرتبط بعدم حصول التّغيير الحقيقيّ لدى القائمين على إدارة المجتمع، ولهذا يجب على كلّ مؤمن واعٍ لحقيقة الإسلام التَّغييريّة أن ينظر لجميع الأمور دائماً وأبداً برؤية تغييريّة، وأن يقيس أعماله وإنجازاته على أساس مبدأ التّغيير الشّامل، ويقدّم هذا الأمر على كلّ عمل آخر.

وبناءً على ذلك مهما اشتدَّ الصّراع السّياسيّ في واقعنا المعاصر، فعلينا دائماً أن لا ننشغل به فقط، وننسى أنَّنا أصحاب مدرسة تغييريّة إصلاحيّة شاملة لجميع جوانب الحياة، ولا ينبغي أن يَنْصبّ عملنا على جانب معيّن من دون الجوانب الأخرى، فبقدر اهتمامنا بالجانب العلميّ والمعرفيّ والثّقافيّ يجب أن نولّي اهتماماً للجانب السّياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ، ولكن نؤكّد أنَّ حصر الاهتمام والعمل في جانب دون الجوانب الأخرى يوقف عمليّة التَّغيير، بل يجب أن نجعل الأعمال السّياسيّة والاقتصاديّة والعلميّة والثّقافيّة تصبُّ في مجرى التّغيير والإصلاح.

إنَّ مهمّتنا الرّساليّة هو التّغيير الشّامل بتعميق تيّار الوعي التّغييريّ والعمل من أجل تغيير المجتمع بالإسلام وللإسلام فقط، فكلّ المؤسّسات التّربويّة، والسّياسيّة، والاجتماعيّة، والمعرفيّة يجب أن توضع على خطّ التّغيير لصناعة الإنسان الّذي يتحلّى بإرادة التَّغيير والإصلاح، والمتسلّح بالإيمان والعلم والعمل، والتّقوى الإيجابيّة الّتي ترفع الإنسان فرداً ومجتمعاً إلى أسمى درجات الكمال الحضاريّ الّذي يضمن للإنسانيّة سيرها التَّغييريّ في منهج التّكامل المادّيّ والمعنويّ كما أكّد ذلك الإمام الحسين عليه السلام بقوله لأحد أصحابه:

«أمّا بَعْدُ، فإنّي أوصيكَ بتقْوى الله؛ فإنَّ اللهَ قدْ ضَمِنَ لمَنِ اتَّقاهُ أنْ يُحَوِّلَهُ عمّا يَكْرَهُ إلى ما يُحِبُّ، ويرزُقَهُ منْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ، فإيّاكَ أنْ تَكونَ ممَّنْ يَخافُ علَى الْعِبادِ منْ ذُنوبِهِمْ، ويأْمَنُ الْعُقوبَةَ منْ ذَنْبِهِ؛ فإنَّ اللهَ - عزَّ وَجَلَّ - لا يُخْدَعُ عَنْ جَنَّتِهِ، ولاَ يُنالُ ما عنْدَهُ إلا بطاعَتِهِ إنْ شاءَ اللهُ»(١).

فلو تأمّلنا قليلاً بقوله عليه السلام: « **قَدْ ضَمِنَ لمَنِ اتَّقاهُ أَنْ يُحوِّلَهُ عمّا يَكْرَهُ إلى ما يُحِبُّ**»، لتبيَّن لنا أنَّ التَّقوى عاملٌ أساسيٌّ في عمليّة التَّغيير الاجتماعيّ بكلّ أبعاده، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾(٢).

حَقيقَةٌ لا بُدَّ مِنْ وَعْيِها:

إنَّ لكلّ مرحلة من مراحل العمل التّغييريّ ظروفها ومتطلّباتها، ومعالمها الخاصّة ومستلزماتها ووسائلها المناسبة للعمل والتَّغيير، كما لها مشاكلها وظواهرها.. وبناءً على ذلك يجب أن نعي هذه الحقيقة، ونعي الظُّروف المحيطة بها، ونهيّئ لها مستلزماتها، ولا سيّما في حالة تصاعد الصّراعات السّياسيّة، وتعدّد الحركات الإسلاميّة والعلمانيّة، علينا في هذه الحالة أن نواصل عمليّة التَّغيير، ولكن بطرق تختلف عن سابقتها، فمقدار انفتاح المؤمن المغيّر على الأمّة، وكسب ودّها بصدق وإخلاص وتجرّد عن المصالح الذّاتيّة من خلال تقديم

---

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١٥/١٣٢-١٣٣، ح/١٤٨٢٤.

(٢) الأعراف: ٩٦.

الخدمات والمطالبة بحقوق المظلومين من عوائل الشّهداء والأرامل والأيتام، ونشر الثّقافة الإسلامية، والمشاركة في المشاريع السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة نكون قد تقدَّمنا خطوةً في تغيير الأمّة نحو الوضع الأفضل، وكلّ هذا لا بدَّ له من تفكير وتخطيط استراتيجيّ؛ لنجذب جمهور الأمّة للإسلام...

كما لا بدّ من أن نعي أنَّ المؤمن الحقيقيّ الواعي للإسلام هو حركيّ مغيّر على جميع الأصعدة الفكريّة، والتّربويّة، والسّياسيّة... وبكلّ الوسائل المتاحة؛ لأنَّ أعداء الإسلام يحاربوننا بكلّ ما أوتوا من وسائل، ويستعملون كلّ الوسائل الخشنة والنّاعمة المادّيّة والمعنويّة، يحاربوننا بالسّلاح والمال، ويحاربوننا بالدّعايات المغرضة والإشاعات الظّالمة، وبالتَّشكيك في عقائدنا وأفكارنا، وهذا ما نراه جارياً في واقعنا المعاش.. ولمواجهة هذه الحروب المتواصلة من مختلف الجهات المعادية لا بدَّ لكلّ مؤمن عامل لإحداث التّغيير في الوسط الاجتماعيَّ أن يتحلّى بروح التّغيير والإصلاح أينما حلَّ، وأينما ارتحل، فلا يحلّ في وسط اجتماعيّ إلا وأخذ يفكر كيف يغيّر واقعه، ولو على المدى الطّويل، فيدرسه بدقّة ووعي؛ لأنَّ مهمّة المؤمن هي تغيير ذهنيّة الأمّة إلى ذهنيّة إسلاميّة، ليقلب حياتها باتّجاه الإسلام، ويضعها على جادّة التَّوحيد والعدل، وهذا يتطلّب منه أن يحيط بمجموعة معارف عقائديّة وأخلاقيّة وسياسيّة واجتماعيّة.

وبناءً على ذلك يجب على كلّ مسلم مؤمن بالإسلام يحمل روح التَّغيير:

١- أن يحيط بما يجري في الخضمّ الاجتماعيّ من أحداث على مختلف المستويات، سواء كانت أحداث ذات قيمة أو أحداث هزيلة، ولكن لا بدَّ من أن يكون لها تأثيرٌ في بعض الجوانب الاجتماعيّة.

٢- أن يعرف كلّ شيء عن حياة الأمّة والمجتمع الَّذي يعمل على تغيير ما

فيه من عادات، وتقاليد، وأعراف، وأفكار، وعقائد، وآراء، وذهنيّات، ومسالك اجتماعيّة، وأوضاع اقتصاديّة، وأحداث سياسيّة، ويجب أن يعرف فئات الأمّة وطبقاتها من مثقّفين، ومفكّرين، وتجّار، وأصحاب حرف، وموظّفين، وأن يعرف الفئات المحافظة والفئات المتميّعة، وما فيها من مشاكل وحاجات وطروحات فكريّة أو سياسيّة، ويعرف التّيّارات المختلفة في وسطها سواء كانت سياسيّة أو مذهبيّة أو اجتماعيّة، ويتفاعل معها بما يؤثّر فيها ولا يتأثّر بها، ويدرس طبيعة التَّفاعلات الاجتماعيّة بين المجموعات الإنسانيّة كالأمّة والقبيلة والعشيرة.

ونقصد بمعرفة التّفاعل الاجتماعيّ: «الطّرق الّتي يتعامل بها الأفراد مع بعضهم البعض، والحالات الَّتي يستجيب فيها الأفراد لبعضهم الآخر، والحالات الّتي يؤثّر فيها أحدهم على الآخر، والسّلوك الاجتماعيّ للأفراد كالتّحيّة والتَّعامل التّجاريّ والتّزاوج والتّأجير والتّوكيل والاعتداء ونحوها كلّها من نتاج التّفاعل الاجتماعيّ بينهم»[1].

وهذا هو الوعي الاجتماعيّ الّذي يتمخّض عن دراسة علم الاجتماع الّذي يدرس تجمع الأفراد أينما حلّوا، ومعرفة مؤسّساتهم الخدميّة، ويعلّل التَّغيير الاجتماعيّ وتبدّل شكل المؤسسات الاجتماعيّة مع تبدل الزّمن، يعطيه علم الاجتماع اهتماماً رئيساً في النّظام الاجتماعيّ أو التَّركيبة الاجتماعيّة للأفراد، وعلاقة بعضهم بالبعض الآخر، وعلاقاتهم بالنّظام السّياسيّ"[2].

وكذلك ينبغي لرائد التَّغيير والإصلاح أن يدرس علم النّفس الاجتماعيّ الّذي يدرس التَّأثير الاجتماعيّ على الشّخصيّة والسّلوك الشّخصيّ للأفراد

---

(١) زهير الأعرجيّ، مباني النّظريّة الاجتماعيّة في الإسلام: ٣٨.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٥٨.

والشّعوب والأمم[١].

نقول كلّ ذلك؛ لأنَّ علم الاجتماع هو العلم الّذي يدرس السّلوك السّياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، ويحلّل التّفاعل الَّذي يصاحب التّغيّرات بمختلف أنواعها، وإنَّه أحد فروع علم السّلوك الإنسانيّ الّذي نحاول أن نكتشف من خلاله العلّة والمعلول في العلاقات الاجتماعيّة بين الأفراد[٢].

ومن هنا على فإنَّ دراسةَ علم النَّفس الاجتماعيّ ووعيه بما فيه من فروع مختلفةٍ ضرورةٌ لكلّ عامل على مستوى علم التَّفاعل الاجتماعيّ، وعلم المجموعات الصّغيرة، وعلم المنظّمات الاجتماعيّة، وعلم الشّخصيّة، وعلم المفاعلة الاجتماعيّة، وعلم الثّقة بالنَّفس...

فوفق نظريّة التّفاعل الاجتماعيّ الَّتي تفترض أنَّ الأصل هو فهم نظر الأفراد المتفاعلين بينهم، وهذه النّظريّة تهتمّ بالطَّريقة الَّتي تتفاعل فيه الأفراد فيما بينهم، ويستجيب بعضهم لبعضهم الآخر.

فالنَّظريّة الاجتماعيّة تضع مؤشّرات تفصيليّة لقضايا الحقوق والواجبات، وشروط مواصفات العدالة الاجتماعيّة الَّتي ينبغي أن يتمتّع بها الآخر[٣].

وعلى كلّ حال: إنَّ كسب الخبرة الاجتماعيّة تحتاج إلى بذل جهد في دراسة الأوضاع الاجتماعيّة، والمؤثّرات الفاعلة فيها، مع دقّة الملاحظة لما يجري فيها من أحداث كبيرة أو صغيرة، ولا بدّ من تبصّر دقيق في جميع الأمور بشكل عام شامل مع تجنّب النَّظر للأشياء من زاوية الوضع الذّاتيّ الخاصّ، ومن

(١) ينظر: مباني النّظريّة الاجتماعيّة في الإسلام: ٥٨.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٦٢.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٦.

البيئـة الخاصّـة، والصَّـحيح أن ينظـر إلـى الأشـياء والأحـداث والأشـخاص علـى حقيقتها، ويلاحظهـا بدقّـة، ويضـعها فـي موضـعها المناسـب؛ ولهـذا فـإنَّ التّبصّـرَ الدَّقيقَ في جميـع الأمـور الَّتـي تمـسّ حيـاة الإنسـان مـن قريـب وبعيـد مـع صـبر متواصل، وبعد نظر، ودقّة ملاحظة، ومتابعة للتّطوّرات الَّتي تحدث فـي المجتمـع البشريّ، ودراسة أسبابها ونتائجها، والعوامـل المـؤثّرة فيهـا مـن مشـاكل وأزمـات واضـطرابات اجتماعيّـة وتبـدّلات سياسـيّة عامـلٌ أساسـيٌّ لإحـداث التّغييـرات الاجتماعيّة.

وخلاصة القول: إنَّ دراسة علـم الاجتمـاع السَّـليم بدقّـة، ورويّـة، وهدفيّـة بنّاءة، وعقليّة تغييريّـة، وإرادة إنسـانيّة، بتجـرّد وتخـلّ عـن الطُّموحـات الخياليّـة، والأوهام النّفسيّة، وبروح منهجيّة ناقدة ومقارنة تعطي للعامـل للتَّغييـر الاجتمـاعيّ هدفاً واضحاً، وطريقةً سليمةً، ورؤيةً واضحة، ثـمّ مـن خـلال الدّراسـات النَّقديّـة القائمة على التّفحّص الموضوعيّ الدَّقيق للظَّواهر الاجتماعيّـة مـن حيـث أسـبابها ونتائجها، ومن حيث الدَّوافع الكامنة وراءها مع تحليـل النَّـواقض فـي النّظريّـات والشُّكوك والثَّغـرات الكامنـة فيهـا، وكـذلك دراسـة النَّجاحـات، وبعبـارة أخـرى دراسة أسباب كلّ فشل أو نجاح.

ثم لا بدَّ من أن نعرف أنَّ المجتمعات تختلف من حيث قبولهـا للتّغيّـرات، وسرعة قبولها، أو رفضـها، أو مقاومتهـا وإصـرارها علـى وضـعها الكـائن، فهنـاك مجتمعات أبعد نظراً وأكثر تحرّراً من غيرها، فهي تتقبّل وجهات النّظر المتعدّدة، وتختلف عن غيرها، حول الطّريقة المطروحـة للتّغييـر أو التّنظـيم الاجتمـاعيّ، أو إدارة المجتمع، وتقبل الحوار الهادئ وقبول وجهة النَّظر الأخـرى، وهكـذا لا بـدّ من وعي كلّ هذه الأمـور ليتسـلّح بقـدرات تغييريّـة وفنيّـة يمكـن أن يحقّـق مـن

خلالها التّغيير الاتّجاه الصّحيح.

كَيْفَ نُحَوِّلُ الأَحْداثَ إِلى أَفْكار؟

إنَّ كلّ ما يمرّ به المؤمن الواعي لدينه، والشّاعر بمسؤوليّته أمام الله تعالى هو مادّة للدّراسة من حيث أسبابها وأهدافها وسبلها ونتائجها فحصاً وتحليلاً ونقداً لقراءة ما تنطوي من تأثيرات في الواقع المعاش، فالمؤمن لا يمرّ على الأحداث مرور الكرام، بل يتأمّل بكلّ ما يمرّ به؛ ليحاول أن ينفذ إلى عمق الأحداث والأشخاص، ويدرس ما وراءها من تفكير وتخطيط، وبهذه الطّريقة الهادفة والواعية تتحوّل الأحداث إلى أفكار ودلالات وتعابير مجتمعة عن حياة الأمّة ومشاكلها؛ لتشخيص مواضع القوّة ومواضع الضّعف، ليبذل كلّ طاقاته للنّفوذ إلى ذهنيّة الأمّة؛ ليجد السّبل المناسبة للتّأثير عليها وتغيير حياتها من حياة ضائعة إلى حياة إسلاميّة هادفة، ولهذا من السّذاجة بمكان أن نتصوّر أنّنا قادرون على تغيير الأمّة بدون معرفة ما تقدّم من رؤى وأفكار...

ويمكن القول: إنَّ ما يعانيه بعض المؤمنين من انعزال وانحسار عن الميدان الاجتماعيّ نتيجة فشلهم في القيام بواجباتهم الإسلاميّة في التّغيير، يعود إلى عدم المعرفة الكاملة والإحاطة الواعية بما يحيط بهم من ظروف اجتماعيّة معاكسة، وسياسيّة ضاغطة؛ فمعرفةُ طبيعة الظّروف وما يناسبها من أفكار أو رؤى أو مواقف ضرورةٌ تغييريّةٌ هامّةٌ في حركة المسلم، فهناك ظروف تتطلّب الشّجاعة والإقدام السّريع في العمل التّغييري، وهناك ظروف تتطلّب التأني والحيطة والحذر، وظروف تتطلّب الجدّيّة في التّفكير والتطبيق، وهناك ظروف تتطلّب المرونة والمداراة، وهناك ظروف تتطلَّب الشّدّة والحسم والقطع السَّريع...

بناء على هذا لا يجوز لنا أن نعمّم حكماً من هذه الأحكام على جميع الظُّروف؛ وبهذا لا يجوز للمؤمن أن يبدأ عملاً من دون وعي لما يحيط به من مؤثّرات وشروط، وما يتطلّبه العمل من تفكير وتخطيط وإعداد ما يتطلّب من لوازم وأسباب، وما تركته الأحداث السّابقة من آثار اجتماعيّة وسياسيّة وأخلاقيّة وفكريّة؛ لأنَّ «التّحوّلات الاجتماعيّة والسّياسيّة في أيّ مجتمع لا تقع في يوم وليلة، بل هي نتيجة عمليّة اجتماعيّة، لها قوانينها وضوابطها الّتي وضعها الخالق وحتمها، ثمّ اكتشفها المخلوق، ودوَّنها، وصاغها في شكل علم يدرس ويستفاد به. إذ الإسلام إلهيّ من حيث النّظريّة، بشريّ من حيث التّنفيذ، وسقوط الخلافة على يد معاوية أمر بشريّ مرتبط بالتّنفيذ لا بالإسلام من حيث هو نظريّة ربّانيّة، فلماذا نخجل من تحليل وقائع السُّقوط بصراحة؟»[1].

الْفِطْرَةُ السَّلِيمَةِ مِفْتاحُ التَّغْيِيرِ:

لكلّ فرد في المجتمع، وفي أيّ مستوى فكريّ وثقافيّ كان نصيبٌ من الفطرة يمكن استثمارها لدعوته إلى الله تعالى، والأخذ بيده لتغيير واقعه المترديّ إلى واقع حضاريّ متقدّم يغيّره ويصلحه، فمهما طمست الفطرة في أدران الذّنوب ومداني الأخلاق وسيّئ العادات، وتمادى في الانحراف يمكن لمن يملك إرادة التّغيير والإصلاح أن يجد منفذاً إلى نفسه ينفض عنه ما تراكم على فطرته من أدران، ويرجعه إلى الله، وهذا ما أكّده أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«واصْطَفى سُبْحانَهُ منْ وَلَدِه أَنْبياء، أَخَذَ على الْوَحْيِ ميثاقَهُمْ، وَعَلى تَبْليغِ الرِّسالَةِ أَمانَتَهُمْ لَمّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِه عَهْدَ الله إِلَيْهِمْ، فَجَهِلوا حَقَّهُ،

---

(١) الدّكتور أحمد عزّ الدّين، الإمامة والقيادة: ٣٢-٣٣.

وَاتَّخَذوا الأَنْدادَ معه، وَاجْتالَتْهُمُ(١) الشَّياطينُ عَنْ مَعْرفَته، وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عبادَته. فَبَعَثَ فيهِمْ رُسُلَه، وَواتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبياءَهُ؛ لِيَسْتَأْدُوهُمْ ميثاقَ فِطْرَتِه، وَيُذَكِّروهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِه، وَيَحْتَجّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْليغِ، وَيُثيروا لَهُمْ دَفائِنَ الْعُقول، وَيُروهُمْ آياتِ الْمَقْدِرَةِ: مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفوعٍ، وَمِهادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضوعٍ، وَمَعايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَآجالٍ تُفْنيهِمْ، وَأَوْصابٍ تُهْرِمُهُمْ، وَأَحْداثٍ تَتابَعُ عَلَيْهِمْ»(٢).

وبناءً على ذلك إنَّ مهمّةَ حملة الإسلام استثمارُ كلّ لحظة من الزّمان وكلّ مكان للالتقاء بالنّاس والتحدّث معهم على صعيد التّوعية الإيمانيّة لبعث روح التَّغيير والإصلاح فيهم، فالاتّصال بهم ضرورة ملحّة لفهم واقع الأمّة الفكريّ والاجتماعيّ، وما يحيط بهما من مؤثّرات سياسيّة وحركيّة، ومعالجة ما تتركه تلك المؤثّرات على ذهنيّة الأمّة من آثار سلبيّة أو إيجابيّة، ليضعها على خطّ التّغيير الاجتماعيّ المتصاعد في الأفكار والأخلاق والسّياسات، ومن هنا يجب أن يلتقي النّاس بعينين مفتوحتين يلاحظ ما فيها من قوّة وضعف؛ ليرفع مستوى عناصر القوّة، ويعالج جوانب الضّعف بصدر رحب وقلب كبير لتحقيق التّفاعل الإيجابيّ وخلق تيّار اجتماعيّ تغييريّ مؤثّر في مجرى الأحداث.

وخلاصة الكلام نحصره في نقاط:

١- يمكن لكلّ مؤمن واعٍ وهادف لخلق تيّار تغييريّ أن يجد تقريباً في كلّ إنسان مهما بلغ انحرافه العقيديّ والسُّلوكيّ فرداً يمكن تعديله وإعداده إلى مرحلة أخرى من التّوعية.

---

(١) اجتالتهم: أدارتهم، أو عدلت بهم، أو اعترتهم.

(٢) نهج البلاغة: ٤٥-٤٦، خطبة: ١.

٢- يجد في كلّ مكان كالبيت والمدرسة والنّادي والمعسكر والتّجمّعات العامّة مجالاً للّقاء، واستثماره لغرض التَّغيير والتّوعية الاجتماعيّة والسّياسيّة؛ ولذلك لا بدَّ لكلّ مؤمن مخلص مواصلة الاطّلاع على أوضاع الأمّة الفكريّة والسّياسيّة والاجتماعيّة، وتعميق النّظر والتّفكّر في تغيير واقعها الفاسد إلى واقع سليم من خلال الاتّصال المخطّط، والالتصاق بحياة النّاس، والتّدخل في حلّ مشكلات النّاس بمختلف طبقاتهم ومستوياتهم، ولا يجوز له أن يتقوقع على ذاته بحجّة تربية ذهنيّة خاصّة به، فينعزل في زاويته الخاصّة، وينقطع عن القطّاعات الكبيرة منها، بل عليه أن يتّصل بالنّاس في كلّ مكان، المسجد والمقهى، والشارع والمدرسة والحقل، ويوثّق علاقته ليعرف كلَّ شيء عن حياة الأمّة، وما يجري فيها من أحداث بوعي وتفكير طويل؛ لينفذ إلى عمق الأحداث، يدرّس، ويحلّل، ويفنّد الأشياء ليضع الأمور في نصابها، ضمن تخطيط مدروس للظّروف القائمة، والمشاكل الكائنة، والمعوّقات المستجدّة.

مَيادينُ التَّغْييرِ الإنْسانِيّ:

هناك أربع ميادين في الإنسان يجب أن يشملها عامل التَّغيير وهي العقل أو الفكر، والنَّفس، والرّوح، والجسد.

وهذه الميادين الأربعة متداخلة فيما بينها، يكمل بعضها البعض الآخر، ويُقَوّم أحدها الآخر.

فالميدان الأوّل هو العقل أو الفكر، ويتقوّم ويتطوّر بالتّأمّل والنّظر والتّدبّر فيما يمرّ عليه من أحداث وأشخاص وأشياء، ومن خلال التَّفكير الهادف يمكن تحرير العقل من تقاليد المجتمع الفاسدة، وعاداته السائدة، وموروثاته الرّاسخة

المتداولـة، ومـن سـطوة الشّـياع، ورأي الأكثريّـة المفتقـر إلـى الحجّـة والبرهـان؛ ليحقّـق فيـه الاسـتقلال الفكـريّ، والتّحـرّر العقلـيّ، ويفـتح أمامـه آفـاق الإبـداع والابتكار والتّجديد والتّجـاوز لمـا ألفـه مـن عـادات وتقاليـد، وربطـه بالمسـتقبل ضمن تخيط مدروس، وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا المنهج ينمّي الرّوح العلميّـة الّتـي تعنـي فيمـا تعنـي أن يكـون الإنسـانُ حياديّـاً وموضـوعيّاً فـي بحثـه عـن الحقيقـة لمحاولـة اكتشـافه بصـورة واضـحة جليّـة مـن خـلال التّحـرّر والنّقـد والتّفكيـك والبحث والاجتهاد الّـذي يقضـي علـى الجمـود والكسـل والخمـول؛ لأن العقـل ميزان يميّز المنطقيّ من غير المنطقـيّ، ويفـرز الخطـأ مـن الصّـواب، والحـقّ مـن الباطل، والنّافع من الضّارّ، والصّادق من الكاذب.

وأمّا الميدان الثّاني وهو النّفس، ونقصد به العواطف، والأهواء، والرّغبات، والميول، والغرائز، والشّهوات؛ فإنّ تربيتها وإعدادها وتهـذيبها يتمثّـل فـي تقويـة الإرادة الإيمانيّة التّغييريّة الّتي تبعث في الإنسان روح التّكامل، وتغرس فيـه حـبّ الخير والحقّ والجمال مـن خـلال إخضـاع هـذه الأهـواء لحكـم العقـل والمنطـق والشّرع كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

فتربية النّفس وتهذيبها يتقوّم في تعميق الرّوح الإيمانيّة بالله ورسله واليـوم الآخر، وتقوية الإرادة التّكامليّة في الانسـان، وإشـعاره بمسـؤوليّاته الشّـرعيّة أمـام الله، وتحسيسه بطاقاتـه وقدراتـه الكامنـة الّتـي أودعهـا الله فيـه، وإيقـاظ إحساسـه بكرامته الذّاتيّة وعزّته النّفسيّة ودوره في الكون والحياة، وأنّه لم يخلق عبثـاً، ولـم

(١) الشّمس: ٧-١٠.

يترك سدًى يجعله قادراً على التّحكّم بميوله ورغباته مسيطراً عليها، مسخّراً لها لخيره وسعادته ونفعه، مراقباً، ومحاسباً لنفسه، ومقوّماً لمسيرته، ومستثمراً لجميع طاقاته.

وأمّا الميدان الثّالث: فهو التَّربية الرّوحيّة، ونقصد بها توثيق العلاقة مع الله تعالى من حيث الإيمان والعلم والعمل؛ ليكون الإنسان دائماً وأبداً شاعراً بالهيمنة الإلهيّة في حياته فكراً وسلوكاً، فمن خلال علاقته بمبدئه الخالق، وتبصّره بمصيره يتحرّك إحساسه بمسؤوليّته تجاه نفسه، وتجاه مجتمعه، وتجاه العالم القريب منه، والبعيد عنه.

لقد جعل الإسلامُ من العبادة لله برنامجاً تربويّاً تغييريّاً متكاملاً، لا يتّصل فقط بصقل ملكات النَّفس وصفاتها، بل يتعلّق بطريقة العيش وبالمسؤوليّة تجاه الوقت والإحساس بالمجموع، فالعبادة لها تأثير موضوعيٌّ ينمّي ملكة السّكينة والاطمئنان والهدوء والانضباط كما في الصّلاة، وهي تنمّي روح الإحساس باحترام ملك الغير، وتنشأ في الإنسان عادات نافعة في الشّكل والمضمون، كالنّظافة والطّهارة، وحسن المنظر، وتنمّي ملكة ضبط النّفس، والتّحكّم بالإرادة، والسّيطرة على النّوازع والرّغائب، وتصعّد روح الصَّبر والاحتمال كما هو الحال في الصّيام، وتعين الإنسان على تنظيم وقته والاستفادة منه على أفضل وجه وأكمل صورة، ثم إنَّ العبادة تنمّي الهدفيّة الواضحة من خلال إخلاص النّيّة لله تعالى في القصد والحركة.

وأمّا الميدان الرّابع، وهو التَّربية الجسديّة، فله آثار وضعيّة في حياة الإنسان، ومن هذه الآثار الابتعاد عن البطالة والكسل اللَّتين تعطّل طاقاته، وتدمّر قدراته، وتخرّب عمرانه، وتدفع به إلى الانحطاط والتَّقهقر، وبالتّالي للاستسلام

والضّجر، وقلّة الفاعليّة.

إنَّ التَّربية البدنيّـة تكشـف للإنسـان طاقاتـه النَّفسـيّة، وتطلـق العنـان للفكـر والخيال والحسّ والقصد الواعي، فـ«**ما ضَعُفَ بَدَنٌ عمّا قَوِيَتْ عَلَيْه النِّيَّـةُ**»[1]، وتجعل تفكيره منطقيّاً؛ لأنّه يظهر لـه كيـف يمكـن أن يـؤدّي كـلّ عمـلٍ بشـكله الصَّحيح؛ ولأنَّ العمل يجلب الرّضا، ويولّد الإحساس بالسّكينة، ويشـعر الإنسـان بقيمته الذّاتيّة كفاعل منتج، وكعنصر يتـرك تـأثيره فـي حركـة التّـأريخ وبصـماته على صفحات الزَّمن.

أمّا البطالة، فهـي تولّـد الاضـطراب والتّـوتّر، وتقـود إلـى القسـوة والعنـف وتدفع إلى اليأس، بعكس العمل الصَّحيح؛ إذ يحفـظ لـه اسـتقلاليّته، وتغنيـه عـن الحاجـة للآخـرين، وتبعـده عـن الاسـتكانة، والـذّلّ، والخضـوع لتلبيـة الحاجـات الإنسانيّة لرغباته.

هذه الميادين الأربعة مترابطة ومتلازمة لا ينفكّ أحدها عـن الأخـرى، فمـا لم يحكّم الإنسـان عقلـه فـي رغباتـه النَّفسـيّة، ويخضـعها لـه لا يمكـن أن تـؤدّي دورها التّغييريّ في كيانه، وما لم تكن العبادة عن وعي عقلـيّ وشـرعيّ لا يمكـن أن تنمّي في الإنسان ملكاته الرّوحيّـة والأخلاقيّـة، وكـذلك مـا لـم يكـن الجسـد سليماً من الأمراض والأعـراض خاضـعاً لمقتضـيات العقـل لا يمكـن أن تسـتقيم حياته.

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٤/٤٠٠، ح/٥٨٥٩.

الصَّلاةُ عَلى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[1].

في الآية أمرٌ واضحٌ بالصَّلاة على النّبيّ صلى الله عليه وآله، وهو دلالة على «التَّشريف العظيم الَّذي لم يعهد له نظير، والتَّعبير بالجملة الاسميّة للدَّلالة على الدَّوام والاستمرار، وذكر أنَّ الجملة تفيد الدَّوام نظراً إلى صدرها من حيث إنَّها جملة اسميّة، وتفيد التّجدّد نظراً إلى عجزها من حيث إنَّه جملة فعليّة، فيكون مفادها استمرار الصَّلاة، وتجدّدها وقتاً فوقتاً، وتأكيدها بـ(إنَّ) للاعتناء بشأن الخبر، وقيل: لوقوعها في جواب سؤال مقدّر: هو ما سبب هذا التَّشريف العظيم؟ وعبّر بالنّبيّ دون اسمه صلى الله عليه وآله على خلاف الغالب في حكايته تعالى عن أنبيائه عليهم السلام إشعاراً بما اختصّ به صلى الله عليه وآله من مزيد الفخامة والكرامة، وعلوّ القدر، وأكدَّ ذلك الإشعار بـ(أل) الَّتي للغلبة إشارة إلى أنَّه صلى الله عليه وآله المعروف الحقيقيّ بهذا الوصف»[2].

ولأجل استيفاء البحث لا بدَّ أن نتحدّث عنه في نقاط، وهي:

- في معنى صلاة الله وملائكته وعباده على النّبيّ صلى الله عليه وآله.
- في فضل الصَّلاة على النّبيّ صلى الله عليه وآله.
- الآثار الإيجابيّة في الصّلاة على النّبيّ صلى الله عليه وآله.

(١) الأحزاب: ٦٥.

(٢) الآلوسيّ، روح المعاني: ٧٥/٢٢- ٧٦.

مَعْنى الصَّلاةِ عَلى النَّبيِّ ﷺ:

قال الفيض الكاشانيّ قدس سره: «معنى صلاة الله تعالى على نبيّه ﷺ إفاضة أنواع الكرامات، ولطائف النّعم عليه»[١].

وقال الآلوسيّ: «وتعظيمه تعالى إيّاه في الدُّنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دينه، وإبقاء العمل بشريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمّته، وإجزال أجره، ومثوبته، وإبداء فضله للأوّلين والآخرين بالمقام المحمود، وتقديمه على كافّة المقرّبين الشّهود... وقيل: هي منه تعالى رحمته عز وجلّ»[٢].

وأمّا **صلاة الملائكة**: فقيل هي الاستغفار، وصلاتنا دعاء له ﷺ، قال الفيض الكاشانيّ قدس سره: «وأمّا صلاتنا عليه، وصلاة الملائكة عليه، فهو سؤال وابتهال في طلب تلك الكرامة، ورغبة في إفاضتها عليه»[٣].

وفي الحديث جاء عن ابن أبي حمزة، عن أبيه، قال: «سألْتُ أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجلّ: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا** ﴾، فقال: **الصَّلاةُ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ رَحْمَةٌ، وَمِنَ الْمَلائكَة تزْكيَةٌ، وَمنَ النّاس دُعاءٌ**»[٤].

وَخلاصَة الكَلام إنَّ صَلاة الله على نبيه ﷺ هي إفاضة الرَّحمة عليه، وصلاة الملائكة: الاستغفار، والتَّعظيم، والمدح، والثَّناء، وصلاتنا الدّعاء له ﷺ.

ولكن قد يتبادر سؤال: هل النّبيّ ﷺ بحاجة إلى غير صلاة الله عزَّ وجلّ؟

---

(١) الفيض الكاشانيّ، كتاب الوافي: ١٥١٣/٩.

(٢) روح المعاني: ٧٦/٢٢.

(٣) كتاب الوافي: ١٥١٣/٩.

(٤) الشَّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٣٦٨.

وهل يعود نفعها إلى شخصه أم نحن المنتفعون منها؟

والجواب على ذلك نقول: إنَّ مما لا شكَّ ولا ريب فيه أنَّ كلَّ عمل عباديّ يؤدّيه المؤمن بإخلاص لله تعالى فإنَّ نفعه وفائدته له كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ اللهَ - سُبْحانَهُ وتَعالى - خَلَقَ الْخَلْقَ حين خَلَقَهُمْ غَنيّاً عَنْ طاعَتِهِمْ، آمناً مِنْ مَعْصيَتِهِمْ؛ لأَنَّهُ لا تَضُرُّهُ مَعْصيَةُ مَنْ عَصاهُ، وَلا تَنْفَعُهُ طاعَةُ مَنْ أَطاعَهُ**»[1].

والصَّلاة على النّبيّ وآله عليهم السلام بمعرفة ووعي لها أبعاد فكريّة وروحيّة وتربويّة تضع المؤمن على سُلَّم التّكامل في جميع الأبعاد، وأعظمها الانشداد إلى سيرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ليتأسّى به، ويهتدي بهداه، ويتمسّك بسننه، وبهذا تصبح أرضيّة نفسه قابلة لتلقّي الفيض الإلهيّ؛ ومن هنا عندما يصلّي على النّبيّ وآله فهو يستمطر رحمة الله وفيوضاته الرّحيمية، رُويَ عن الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام أنّه قال: «**قالوا: يا رَسولَ الله، أَرَأَيْتَ قَوْلَ الله عزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾، قال: إنَّ هذا لَمِنَ الْمَكْتومِ، وَلَوْلا أَنَّكُمْ سَأَلْتُمونى عَنْهُ ما أَخْبَرْتُكُمْ؛ إنَّ اللهَ وَكَّلَ بي مَلَكَيْن، لا أُذْكَرُ عِنْدَ عَبْد مُسْلم، فَيُصَلّي عَلَيَّ إلا قالَ ذانكَ الْمَلَكان: غَفَرَ اللهُ لَكَ، وَقالَ اللهُ وَمَلائكَتُهُ جَواباً لذَيْنكَ الْمَلَكَيْن: آمينَ، وَلا يُصَلّي عَلَيَّ أَحَدٌ إلا قالَ ذانكَ الْمَلَكان: غَفَرَ اللهُ لَكَ، وَقالَ اللهُ وَمَلائكَتُهُ لذَيْنكَ الْمَلَكَيْن: آمين**»[2].

---

(١) نهج البلاغة: ٣٣٢، خطبة: ١٩٣.

(٢) الطّبرانيّ، أخبار الحسن بن عليّ بن أبي طالب: ١٥٠-١٥١، ح/٢٢٩؛ وينظر: الكشّاف للزّمخشريّ: ٣/٥٥٧-٥٥٨، والدّرّ المنثور: ١٢/١٢٨.

فَضْلُ الصَّلاةِ عَلى النَّبِيِّ ﷺ:

النّداء الإلهيّ صريح بالصَّلاة على النّبيّ ﷺ، ولبيان هذا الأمر وتأكيده وترسيخه في نفوس المؤمنين وردت أحاديث مستفيضة في فضل الصَّلاة عليه، فقد جاء عن محمّد بن مسلم، عن أحدهما عليهما السلام قال: «**ما في الْميزان شَيْءٌ أَثْقَلُ منَ الصَّلاة عَلى مُحَمَّد وَآل مُحَمَّد، وَإنَّ الرَّجُلَ لَتوضَعُ أَعْمالُهُ في الْميزان، فَتَميلُ بِهِ، فَيُخْرِجُ ﷺ الصَّلاةَ عَلَيْه، فَيَضَعُها في ميزانه، فَيَرْجَحُ بِهِ**»[1].

ومن خلال استقراء الأحاديث الواردة في التَّأكيد على الصَّلاة على محمّد وآل محمّد نجد لها فوائد دنيويّة وأخرويّة، نذكر منها:

أوّلاً: تذهب النّفاق، وتطهّر القلب، فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**قالَ رَسولُ الله ﷺ: الصَّلاةُ عَلَيَّ، وَعَلى أَهْلِ بَيْتي تَذْهَبُ بالنِّفاق**»[2].

وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سمعتُه يقول: **قالَ رَسولُ الله ﷺ: ارْفَعوا أَصْواتَكُمْ بالصَّلاة عَلَيَّ، فَإنَّها تَذْهَبُ بالنِّفاق**»[3].

ولعلَّ السرَّ في ذلك أنَّ المؤمنَ عندما يصلّي على محمّدَ وآله بصدق، وإخلاص، ووعي، فإنَّ قلبه، وشعوره، وإحساسه ينشدُّ إليه ﷺ، والانشداد إليه يولّد الحبَّ، والحبّ يولّد الانجذاب، ولا شكَّ أنَّ من انجذب إلى رسول الله ﷺ انجذاب إيمان، ومعرفة، وحبّ، وتأسّ طَهُر قلبه من النّفاق، وانشرح لله تعالى انشراح خشية، وخشوع، وخوف، وضراعة، وتواصل، وطاعة، وامتثال، وتأسّ.

قال الإمام الخمينيّ قدس سره: «ونرى ذكر الأولياء، ومقاماتهم دخيلاً في تصفية

---

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٣٥٤/٤، ح/٣١٧٨.

(٢) المصدر نفسه: ٣٥١/٤، ح/٣١٧١.

(٣) المصدر نفسه: ٣٥٣/٤، ح/٣١٧٦.

القلوب، وتخليصها، وتعميرها؛ لأنَّ ذكر الخير بالنّسبة إلى أصحاب الولاية والمعرفة يوجب المحبّة، والتّواصل، والتّناسب، وهذا التَّناسب يوجب التّجاذب، وهذا التَّجاذب يسبّب التَّشافع الَّذي ظاهره الإخراج من ظلمات الجهل إلى أنوار الهداية، والعلم، وباطنه الظُّهور بالشَّفاعة في العالم الآخرة؛ لأنَّ شفاعة الشّافعين لا تكون من دون تناسب وتجاذب باطنيّ، ولا تكون عن جزاف وباطل»[١].

ثانياً: يُقْبَل الدعاء بها، فإنَّ الصَّلاة على النّبيّ صلى الله عليه وآله تفتح أبواب السَّماء، ويُرفع بها الدّعاء، جاء في حديث عن أبي عبد الله عليه السلام: «**لا يَزالُ الدُّعاءُ مَحْجوباً حَتّى يُصَلّى عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد**»[٢].

وعنه عليه السلام: «**مَنْ كانَتْ لَهُ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حاجَةٌ فَلْيَبْدَأْ بِالصَّلاة عَلى مُحَمَّد وَآله، ثُمَّ يَسْأَلُ حاجَتَه، ثُمَّ يَخْتِمُ بِالصَّلاة عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، فَإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَقْبَلَ الطَّرَفَيْنِ، وَيَدَعَ الْوَسَطَ، إِذا كانَت الصَّلاةُ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد لا تُحْجَبُ عَنْهُ**»[٣].

ومن أحاديث أهل السُّنَّة وردت روايات أخرى تؤكّد ذلك، فقد أخرج الدّارقطنيّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَنْ صَلّى صَلاةً لَمْ يُصَلِّ فيها عَلَيَّ، وَلا عَلى أَهْلِ بَيْتي، لَمْ تُقْبَلْ مِنْه**»[٤].

---

(١) الإمام الخمينيّ، الآداب المعنويّة للصَّلاة: ٣٧٣.

(٢) الكافي: ٣٤٨/٤، ح/٣١٦٤.

(٣) المصدر نفسه: ٣٥٤/٤-٣٥٥، ح/٣١٧٩.

(٤) سنن الدّارقطنيّ: ١٧١/٢، ح/١٣٤٣؛ الشّفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض: ٦٣٢/٢؛ الصَّواعق المحرقة لابن حجر الهيثميّ: ٢٣١-٢٣٢؛ سبل الهدى والرّشاد للصّالحيّ الشّاميّ: ٤٣٣/١٢.

وأخرج الدّارقطنيّ عن أبي مسعود الأنصاريّ، قال: «**لو صَلَّيْتُ صَلاةً لا أُصَلِّي فيها عَلى آلِ مُحَمَّد، ما رَأَيْتُ أَنَّ صَلاتي تَتِمُّ**»(١).

وقد علّق ابن حجر الهيثميّ في صواعقه قائلاً: «وكأنَّ هذا الحديث هو مستند قول الشّافعيّ رضي الله عنه: أنَّ الصَّلاة على الآل من واجبات الصَّلاة كالصَّلاة عليه ﷺ، لكنّه ضعيفٌ(٢)، فمستنده الأمر في الحديث المتّفق عليه: قولوا: اللّهُمَّ، صلّ على محمّد وآل محمّد، والأمر للوجوب حقيقة على الأصحّ»(٣).

ثالثاً: الصَّلاة على النّبيّ وآله عليهم السلام **تكفي مؤونة الدُّنيا والآخرة**، وقد وردت أحاديث موثّقة في مصادر السّنّة والشّيعة دلّت على ذلك، نذكر منها:

عن أُبَيّ بن كعب، عن أبيه، قال: «قال رجلٌ: يا رسول الله، أرأيْتَ إن جعلْتُ صلاتي كلّها عليك؟ قال: **إِذن يَكْفيكَ اللهُ ما أَهَمَّكَ مِنْ دُنْياكَ وَآخِرَتِكَ**»(٤).

---

(١) سنن الدّارقطنيّ: ١٧١/٢، ح/١٣٤٤؛ سبل الهدى والرّشاد: ٤٣٤/١٢.

(٢) لكنّه رغم تصريحه بضعف هذا القول قال قبلها: «وبهذا كلّه اتّضح قول الشّافعيّ رضي الله عنه بوجوب الصّلاة على النّبيّ ﷺ في التّشهّد لما علمت منه أنَّه صحَّ عنه ﷺ الأمر بوجوبها فيه، ومن أنَّه صحَّ عن ابن مسعود تعيين محلّها وهو بين التّشهّد والدّعاء، فكان القول بوجوبها لذلك الّذي ذهب إليه الشّافعيّ هو الحق الموافق لصريح السّنّة ولقواعد الأصوليّين، ويدلّ له أيضاً أحاديث صحيحة كثيرة استوعبتها في شرحي الرّشاد والعباب مع بيان الرّدّ الواضح على من شنّع على الشّافعيّ، وبيان أنَّ الشّافعيّ لم يشذّ، بل قال به قبله جماعة من الصّحابة كابن مسعود وابن عمر وجابر وأبي مسعود البدريّ وغيرهم، والتّابعين كالشّعبيّ والباقر، وغيرهم كإسحاق بن راهُوَيه، وأحمد، بل لمالك قول موافق للشّافعيّ رجّحه جماعة من أصحابه»، الصّواعق المحرقة: ١٤٥.

(٣) المصدر نفسه: ٢٣٢.

(٤) مسند الإمام أحمد: ١٦٦/٣٥-١٦٧، ح/٢١٢٤٢؛ والمصنّف لابن أبي شيبة: ٦٠٤/٣، ح/٨٧٩٠؛ ومجمع الزّوائد للهيثميّ: ١٦٠/١٠.

وعن أبي هريرة، قال: «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسول الله، أجعل شطر صلاتي دعاءً لك؟ قال: **نَعَمْ**، قال: فأجعل ثلثي صلاتي دعاء لك؟ قال: **نَعَمْ**، قال: فأجعل صلاتي كلها دعاءً لك؟ قال: **إذن يَكْفيكَ هَمَّ الدُّنْيا وَالآخرَة**»(١).

وعن محمّد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام: «**أَنَّ رَجُلاً أَتى النَّبيَّ** صلى الله عليه وآله، **فَقالَ: يا رَسولَ الله، إنّي أَجْعَلُ لَكَ ثُلْثَ صَلَواتي، لا بَلْ أَجْعَلُ لَكَ نصْفَ صَلَواتي، لا بَلْ أَجْعَلُها كُلَّها لَكَ، فَقالَ رَسولُ الله** صلى الله عليه وآله: **إذن تُكْفى مؤونَةَ الدُّنْيا وَالآخرَة**»(٢).

ومعنى أن يجعل صلاته للنّبيّ أن يقدّمه صلى الله عليه وآله في ابتداء دعائه، فيصلّي عليه، وعلى أهل بيته قبل أن يطلب حاجته من الله تبارك وتعالى؛ فعن أبي بصير، قال: «سأَلْتُ أبا عبد الله عليه السلام: ما معنى أجعل صلواتي كلَّها لك؟ فقال: **يُقَدِّمُهُ بَيْنَ يَدَيْ كُلِّ حاجَة، فَلا يَسْأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئاً حَتّى يَبْدَأَ بِالنَّبيِّ** صلى الله عليه وآله، **فَيُصَلّي عَلَيْه، ثُمَّ يَسْأَلُ اللهَ حَوائجَهُ**»(٣).

قال شارح أصول الكافي تعليقاً على الحديث الأخير: «أقول: ومنه يظهر تأويل البعض، والثّلث، والنّصف، ولولا هذا التّأويل لأمكن أن تراد بالصّلاة المندوبة، وببعضها بعض من واحدة أو من متعدّدة، وكذا النّصف والكلّ، والله أعلم»(٤).

رابعاً: الصَّلاة على النّبيّ وآله تستنزل رحمة الله، وتغمر المصلّي بفيض

---

(١) ابن عديّ الجرجانيّ، الكامل: ٢٥/٦؛ وميزان الاعتدال للذّهبيّ: ٢٠٨/٣، ومجمع الزّوائد: ١٦٠/١٠.

(٢) الكافي: ٣٤٩/٤، ح/٣١٦٦.

(٣) المصدر نفسه: ٣٥٠/٤، ح/٣١٦٧.

(٤) المولى محمّد صالح المازندرانيّ، شرح أصول الكافي: ٤٢٥/١٢.

رحمته، وهذا ما لا يمكن أن تدركه العقول؛ لأن رحمة الله تعالى وفيوضاته الرّحيميّة والرَّحمانيّة الّتي وسعت كلَّ شيء، فكيف يَدْرُكُ المحدود ما لا حدودَ له؟ فقد جاء عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنَّه قال لابن فرّوخ: «**يا إسْحاقَ بْنَ فرّوخَ، مَنْ صلّى على مُحمَّد وآل مُحَمَّد عَشْراً صلّى الله عَلَيْه وملائكتُه مائةَ مرَّة، ومَنْ صلّى على مُحَمَّدٍ وآل مُحَمَّد مائةَ مرَّة صلّى اللهُ عَلَيْه وملائكتُه أَلْفاً، أَما تَسْمَعُ قَوْلَ الله عزَّ وجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾**[(١)]»[(٢)].

الصَّلاةُ الْبَتْراءُ:

ورد في روايات عدّة أنَّ الصَّلاة على محمّد صلى الله عليه وآله يجب أن تقرن بالصَّلاة على آل محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، وقد ورد في كتب أهل السّنّة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**لا تُصَلّوا عَلَيَّ الصَّلاةَ الْبَتْراء**، فقالوا: وما الصَّلاة البتراء؟ قال: **تَقولونَ: اللّهُمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد، وتَمْسكونَ، بَلْ قولوا: اللّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وعَلى آل مُحَمَّد**»[(٣)].

ونُقِلَ عن الإمام الشّافعيّ قوله[(٤)]: [من البسيط]

---

(١) الأحزاب: ٤٣.

(٢) الكافي: ٤/٣٥٣-٣٥٤، ح/٣١٧٧.

(٣) الصّواعق المحرقة: ١٤٤؛ وجواهر العقدين في فضل الشّرفين للسّمهوديّ: ٢/٤٩؛ وينابيع المودّة لذوي القربى للقندوزي: ١/٣٧، ح/١٤.

(٤) ديوان الإمام الشّافعيّ: ٩٣؛ ومعارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرّسول والبتول للزّرنديّ الحنفيّ: ١٦؛ والصّواعق المحرقة: ١٤٦؛ ينابيع المودّة لذوي القربى: ٣/١٠٣.

يا آل بيت رسول الله، حبّكم فرضٌ من الله في القرآن أنزلَهُ
يكفيكم من عظيم الفخر أنّكم من لم يصلِّ عليكم لا صلاة لَهُ

وعن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنّه قال: «**سَمِعَ أَبي رَجُلاً مُتَعَلِّقاً بالْبَيْت وَهُوَ يَقولُ: اللّهُمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد، فَقالَ لَهُ أَبي: يا عَبْدَ الله، لا تَبْتُرْها، لا تَظْلِمْنا حَقَّنا، قُلِ: اللّهُمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْته**»(١).

والعجب العجاب أنَّهم يرون الحديث في كتبهم من أمّهات مصادرهم، ثُمَّ يقولون: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم» بحذف آل بيته، والأنكى من ذلك أنَّ بعضهم يحاول أن يبرّرها كما فعل ابن حجر الهيثميّ بعد أن روى الحديث المتقدّم فقال: «ولا ينافي ما تقدّم حذف الآل في الصَّحيحين، قالوا: يا رسول الله، كيف نُصلّي عليك؟ قال: **قولوا: اللّهُمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَعَلى أَزْواجه وذُرِّيَّته، كَما صَلَّيْتَ عَلى إبْراهيم** إلى آخره؛ لأنَّ ذكر الآل ثبت في روايات أخر، وبه يعلم أنَّه قال ذلك كلَّه، فحفظ بعض الرُّواة ما لم يحفظه الآخر، ثمَّ عطف الأزواج والذّرّيّة على الآل في كثير من الرّوايات يقتضي أنَّهما ليسا من الآل وهو واضح في الأزواج بناء على الأصحّ»(٢).

أقول: إذا ثبتت الصَّلاة على أزواجه وأصحابه عندك، فلماذا لا تذكرون ذلك في صلاتكم الّتي تبطل من دون الصَّلاة على محمّد وآل محمد كما قال الشّافعيّ؟

وعلى كلّ حال لا عجب، فالعصبيّة العمياء لا تدع المتلبّس بها يرى الحقيقة، وإن كانت أجلى من الشَّمس في رائعة النّهار، بل يجحدها وإن تيقّنت

(١) الكافي: ٣٥٩/٤، ح/٣١٨٤.

(٢) الصّواعق المحرقة: ١٤٤.

بها نفسه، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[١].

وبهذه العصبيّة كان أعداء آل محمّد يمتنعون من الصّلاة حتّى على النّبيّ ﷺ فضلاً عن آل بيته عليهم السلام كما صرّح بها عبد الله بن الزّبير على رؤوس الملأ بلا حياء، ولا تردّد في صلاة الجمعة؛ قال ابن أبي الحديد: «وروى عمر بن شبّة، وابن الكلبيّ، والواقديّ، وغيرهم من رواة السّير: أنّه مكث أيّام ادّعائه الخلافة أربعين جمعة لا يصلّي فيها على النّبيّ ﷺ، وقال: لا يمنعني من ذكره إلا أن تشمخَ رجالٌ بآنافها؛ وفي رواية محمّد بن حبيب وأبي عبيدة معمر بن المثنّى: أنَّ له أُهَيل سوء يُنغضون رؤوسهم عند ذكره»[٢].

الآثارُ التَّرْبَوِيَّةُ لِلصَّلاةِ عَلى النَّبِيِّ ﷺ وآلِهِ عليهم السلام:

ولا بدَّ أن نشير أنَّ الصَّلاة على النّبيّ وآله يجب أن لا تكون بدافع المصلحة الدّنيويّة، بل ولا حتى الأخرويّة، وإنَّما طلباً لنيل رضا الله، وتقرّباً به إليه سبحانه وتعالى، ومحاولة للتّأسّي به باستذكار سننه: مواقفاً، وأقوالاً، وأعمالاً، وإقراراً، ومحاولة حفظها، ووعيها، وتبليغها، وبذل الجهد بقدر المستطاع للتّخلّق بها سلوكيّاً، أي السّعي الجادّ على تطبيقها في الحياة اليومية، وبهذه المحاولة إذا كانت بنيّة خالصة لله تعالى، ووعي لرسالة الله لا بدَّ وأن تظهر للصَّلاة على النّبيّ ﷺ

---

(١) النّمل: ١٤.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦٢/٤؛ وقد ذكر تركه الصَّلاة على النبي ﷺ مراغماً لبني هاشم كلّ من المسعوديّ في مروج الذّهب: ٩٣/٣، واليعقوبيّ في تاريخه: ٢٦١/٢، وغيرها من المصادر.

في شخصيّة المؤمن آثار تربويّة إيمانيّة تُصعّد من الشّخصيّة الإيمانيّة، وتبنيها روحيّاً، وفكريّاً، وأخلاقيّاً؛ ولذا كان لها هذا الفضل كلّه عند الله عزَّ وجلّ وعند رسوله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، لما لها من آثار إيجابيّة على النّفس، نذكر منها:

أوّلاً: إنَّ الصَّلاة على النّبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ تحسيسٌ بالمنّة الإلهيّة على هذه الأمة بالنّبيّ الأكرم من بين جميع الأمم... وهي من أعظم المنن الإلهيّة على الأمّة الَّتي شرَّفها الله بالانتساب الرّوحيّ، والفكريّ العقائديّ إلى رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ**﴾[(١)].

وفي هذه الآية بيان لعدّة منن ونعم إلهيّة، أنعم بها عليهم بأن أرسل فيهم رسولاً من أنفسهم، أي من جنسهم البشريّ، ومن وسطهم الاجتماعيّ، عارفين به، وبنسبه، وبسموّه الخلقيّ، صدقاً وأمانةً، فهو ليس غريباً عنهم، بل كانوا قبل البعثة يرجعون إليه لصدقه وأمانته، وقيل: معناه «أي من أشرافكم ومن خياركم»[(٢)].

ومن هذه المنن أنَّ النّبيّ الصّادق الأمين صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يتلو عليهم آيات الله تبارك وتعالى؛ ليزكّيهم، ويطهّرهم، ويعلّمهم الكتاب والحكمة، وقد كان المسلمون الأوائل يشعرون بهذه المنّة، ويتحدّثون بها، ويذكرونها للآخرين؛ ليجذبوهم للإسلام، ومن مثال ذلك قول الشَّهيد جعفر الطّيّار رَحِمَهُٱللَّهُ لملك الحبشة: «أيّها الملك، كنّا قوماً أهل جاهليّة: نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

(٢) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٣٠٢/١٦.

الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويّ منّا الضَّعيف، فكنّا على ذلك، حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرّحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم، والدّماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزّور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأن نعبد الله لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصَّلاة والزَّكاة والصّيام»[١].

تلك هي النّعمة الكبرى الَّتي منَّ الله عزَّ وجلّ بها علينا، قال الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه: «**وَالْحَمْدُ لله الَّذي مَنَّ عَلَيْنا بِمُحَمَّد نَبِيِّه صلى الله عليه وآله دونَ الأُمَمِ الْماضيَة، وَالْقُرون السّالفَة، بقُدْرَته الَّتي لا تَعْجزُ عَنْ شَيْء وإنْ عَظُم، وَلا يَفوتُها شَيْءٌ وإنْ لَطُف، فَخَتَمَ بنا عَلى جَميع مَنْ ذَرأَ، وَجَعَلَنا شُهَداء عَلى مَنْ جَحَدَ، وَكَثَّرَنا بِمَنِّه عَلى مَنْ قَلَّ...**»[٢].

فالصَّلاة إذن على النَّبيّ صلى الله عليه وآله تشعر المصلّي بالمنَّة العظمى بالنَّبيّ الكريم الَّذي أرسله الله رحمة للعالمين، فهو الرَّحمة المهداة إلى البشريّة؛ ليقودها إلى ساحل النَّجاة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَما أَعْظَمَ مِنَّةَ الله عِنْدَنا حينَ أَنْعَمَ عَلَيْنا بِه سَلَفاً نَتَّبِعُهُ، وَقائداً نَطأُ عَقِبَهُ**[٣]»[٤].

وقد كانت كلُّ صفة من صفات رسول الله صلى الله عليه وآله هي منّة على البشريّة، قال

---

(١) صحيح ابن خزيمة: ١٠٧٩/٢-١٠٨٠، ح/٢٢٦٠.

(٢) الصّحيفة السَّجادّيّة الكاملة: ٢٥، دعاء: ٢.

(٣) أي: نقفو أثره، ونسلك سبيله في زهده، ونتّبعه باتّباع أوامره وسننه.

(٤) نهج البلاغة: ٢٥٩، خطبة: ١٦٠.

تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)].

عن الإمام الصّادق عليه السلام: «﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أيْ شَديدٌ عَلَيْه عَنَتُكُمْ، وما يَلْحَقُكُمْ من الضَّرر بتَرْك الإيمان، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أَيْ عَلى مَن لَمْ يُؤْمنْ أَنْ يُؤْمنَ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرَّأْفَةُ: شدَّةُ الرَّحْمَة»[(٢)].

قال الطّبرسيّ: «قيل: رؤوف بالمطيعين منهم، رحيم بالمذنبين، وقيل: رؤوف بأقربائه، رحيم بأوليائه، رؤوف لمن رآه، رحيم بمن لم يرَه، وقال بعض السّلف: لم يجمع الله سبحانه لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلا للنّبيّ صلى الله عليه وآله، فإنّه قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(٣)]»[(٤)].

ومن منن الله تعالى بنبيّه أن جعله شاهداً علينا، ومبشّراً لنا، ومنذراً، ومحذّراً من عذاب الله تعالى، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[(٥)].

---

(١) التّوبة: ١٢٨.

(٢) بحار الأنوار: ٣٠٣/١٦.

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ١٣٠/٥.

(٥) الأحزاب: ٤٥-٤٦.

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾(١).

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾(٢).

ثانياً: إنَّ الأمر بالصَّلاة عليه في الآية الكريمة «توجيه الأمّة إلى الارتباط بالنّبيّ من النّاحية الشّعوريّة في إحساسها الدّائم بقيمته الرّوحيّة في منزلته عند الله، وجهده الكبير في إبلاغ الرّسالة، ومعاناته في العمل في سبيل الله دعوةً، وحركةً، وجهاداً، ومحبّته للمؤمنين من أتباعه، ورأفته بهم، ورحمته لهم، وحرصه عليهم، وشعوره بمتاعبهم وآلامهم، ممّا يوحي للمسلمين بالتَّفاعل النّبويّ الرّوحيّ مع أمّته في حياتها العامّة والخاصّة؛ ليعيشوا الارتباط به من خلال هذا الشُّعار الَّذي يهتفون به صباحاً ومساءً»(٣).

بل وترافق هذه المنّة الإلهيّة برسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ إلى يوم القيامة تفيض عليهم الرَّحمة والغفران، قال رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**حَياتي خَيْرٌ لَكُمْ، وَمَماتي خَيْرٌ لَكُمْ، أَمّا حَياتي فَتُحَدِّثوني وأُحَدِّثُكُمْ، وأَمّا مَوْتي فَتُعْرَضُ عَلَيَّ أَعْمالُكُمْ عَشِيَّةَ الاثْنَيْنِ وَالْخَميس، فَما كانَ مِنْ عَمَلٍ صالِحٍ حَمَدْتُ اللهَ عَلَيْه، وَما كانَ مِنْ عَمَلٍ سَيِّئٍ اسْتَغْفَرْتُ اللهَ لَكُمْ**»(٤).

وفي رواية أخرى قال النّبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**حَياتي خَيْرٌ لَكُمْ، وَمَماتي خَيْرٌ لَكُمْ**»، قالوا: «يا رسول الله، وكيف ذلك؟» فقال صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**أَمّا حَياتي فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ**

---

(١) الإسراء: ١٠٥.

(٢) الفرقان: ٥٦.

(٣) السّيّد محمّد حسين فضل الله، آفاق الرّوح: ٥٦/١.

(٤) معاني الأخبار: ٤١٠-٤١١؛ والكامل لابن عديّ: ٥٣٣/٣؛ وبحار الأنوار: ١٤٩/١٧.

يَقول: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾[١]، وأَمّا مُفارَقَتي إيّاكُمْ فإنَّ أَعْمالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ كُلَّ يوْمٍ، فَما كانَ مِنْ حَسَنٍ اسْتَزَدْتُ اللهَ لَكُمْ، وما كانَ مِنْ قَبيحٍ اسْتَغْفَرْتُ اللهَ لَكُمْ»، قالوا: «وقد رممْتَ يا رسول الله؟» يعنون صرت رميماً، فقال: «كلا، إنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالى حَرَّمَ لُحومَنا على الأَرْضِ أَنْ تَطْعَمَ شَيْئاً مِنْها»[٢].

وفي رواية أخرى عن أبي سعيد الخدريّ: «إنَّ عمّار بن ياسر قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: ودِدْتُ أنَّك عمّرت فينا عمر نوح عليه السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا عَمّارُ، حَياتي خَيْرٌ لَكُمْ، ووَفاتي لَيْس بشَرٍّ لَكُمْ، أَمّا في حَياتي فَتُحَدِّثونَ وأَسْتَغْفِرُ اللهَ لَكُمْ، وأَمّا بَعْدَ وَفاتي فاتَّقوا اللهَ، وأَحْسِنوا الصَّلاةَ عَلَيَّ وعَلى أَهْلِ بَيْتي، وإنَّكُمْ تُعْرَضونَ عَلَيَّ بأَسْمائِكُمْ، وأَسْماءِ آبائِكُمْ وأَنْسابِكُمْ وقَبائِلِكُمْ، فإنْ يَكُنْ خَيْراً حَمَدْتُ اللهَ، وإنْ يَكُنْ سِوى ذلكَ اسْتَغْفَرْتُ اللهَ لذُنوبِكُمْ؛ فقال المنافقون، والشّكّاك، والّذين في قلوبهم مرض: يزعم أنَّ الأعمال تعرض عليه بعد وفاته، بأسماء الرّجال وأسماء آبائهم وأنسابهم إلى قبائلهم، إنَّ هذا لهو الإفك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٣]»[٤].

ثالثاً: وممّا يعطي لهذه الصّلاة عمقاً في النّفس، وتأثيراً في القلب أنَّ الله تعالى هو البادئ بها ينزلها على رسوله، ويأمر ملائكته أن يقوموا بها، وهنا يتعمَّق

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ١٩١/١، ح/٥٨٢.

(٣) التّوبة: ١٠٥.

(٤) السّيّد ابن طاووس، سعد السّعود: ١٩٧؛ مستدرك الوسائل للميرزا النّوريّ: ١٢/١٦٣-١٦٤.

الإحساس الرّساليّ: أنَّ هذه الصَّلاة هي امتدادٌ لصلاة الله وملائكته، فتمتزج صلاتنا وصلاة ملائكته، ومنها تهطل علينا فيوض الرَّحمة، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَلّى عَلَيَّ مَرَّةً، فَتَحَ اللهُ عَلَيْه باباً مِن الْعافيَة**»(١).

وقال رسول الله ﷺ في حديث آخر: «**مَنْ صَلّى عَلَيَّ مَرَّةً، خَلَقَ اللهُ تَعالى يَوْمَ الْقيامَة، عَلى رَأْسه نوراً، وَعَلى يَمينه نوراً، وَعَلى شماله نوراً، وَمِنْ فَوْقه نوراً، وَمِنْ تَحْته نوراً، وَفي جَميع أَعْضائه نوراً**»(٢).

وفي رواية عن عبد الرَّحمن بن عوف، أنَّه قال ﷺ: «**جاءَني جبْرائيلُ، وَقالَ: إنَّهُ لا يُصَلّي عَلَيْكَ أَحَدٌ، إلا وَيُصَلّي عَلَيْه سَبْعونَ أَلْف مَلَك، وَمَنْ صَلّى عَلَيْه سَبْعونَ أَلْف مَلَك، كانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّة**»(٣).

وقال ﷺ: «**مَنْ صَلّى عَلَيَّ وَعَلى آلي، صَلَّتْ عَلَيْه الْمَلائكَةُ، وَمَنْ صَلَّتْ عَلَيْه الْمَلائكَةُ، صَلّى اللهُ عَلَيْه، وَمَنْ صَلّى اللهُ عَلَيْه، لَمْ يَبْقَ في السَّماوات وَالأَرْض مَلَكٌ، إلا وَيُصَلّونَ عَلَيْه، وَمَنْ صَلّى عَلَيَّ وَعَلى آلي واحدَةً، أَمَرَ اللهُ حافظَيه أَنْ لا يَكْتُبا عَلَيْه ثَلاثَةَ أَيّامٍ**»(٤).

رابعاً: وهذه الصَّلاة تجسد حضور النَّبيّ ﷺ في وجدان المؤمنين، وتشعرهم بعدم غيابه عنهم(٥)، فتعمّق الحبّ للنّبيّ ﷺ، وتمتّن الارتباط به،

---

(١) الشّيخ محمّد بن محمّد السّبزواريّ، جامع الأخبار: ١٥٣، ح/٣٤٤؛ مستدرك الوسائل: ٣٣٣/٥، ح/٦٠٢١.

(٢) جامع الأخبار: ١٥٥-١٥٦، ح/٣٦٠؛ ومستدرك الوسائل: ٣٣٥/٥، ح/٦٠٢٩.

(٣) جامع الأخبار: ١٥٦، ح/٣٦٤؛ ومستدرك الوسائل: ٣٣٥/٥، ح/٦٠٣٢.

(٤) قطب الدّين الرّاونديّ، لبّ اللّباب: ٢٤٤/٢؛ ومستدرك الوسائل: ٣٣٦/٥، ح/٦٠٣٦.

(٥) ينظر: آفاق الرّوح: ٥٧/١.

وتجعله يشعر وهو يرفع هذا الشّعار كما لو أنَّه حاضرٌ بين يديه، ومستمعٌ إليه، ومتّبعٌ له، وسائرٌ في تطبيق أوامره، اللّهُمَّ، فصلّ عليه وعلى أهل بيته أفضل ما صلَّيْتَ على عبد من عبادك الصّالحين، وأنبيائك المرسلين، وملائكتك المقرّبين.

خامساً: والصَّلاة على النّبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تأكيد للميثاق الَّذي أخذه الله على الخلق حين خلقهم، جاء في الحديث الشَّريف عن يزيد بن الحسن، قال: «حدّثني موسى بن جعفر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قال: [**قالَ الصّادقُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ** عَلَيْهِمَا السَّلَامُ:] **مَنْ صلّى عَلى النَّبِيِّ** صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، **فَمَعْناهُ أَنّي أَنا عَلى الْميثاقِ، والْوَفاءِ الَّذي قَبِلْتُ حينَ قولِهِ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾**[1]»[2].

---

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) معاني الأخبار: ١١٥-١١٦.

الإِحْسانُ

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

الإحسانُ كلمةٌ جامعةٌ لكلِّ قول، أو فعل طيّب معروف مستحسن بنفسه من جهة العقل، والشّرع؛ والحسنة يعبّر بها عن كلّ ما يسرّ القلب، ويبهج الرّوح؛ والسّيّئة ضدّها، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَوْ رَأَيْتُمُ الإِحْسانَ شَخْصاً لَرَأَيْتُمُوهُ شكْلاً جَميلاً يَفوقُ الْعالَمينَ**»[2].

ومن أبرز معالم الإسلام أنَّه دين الإحسان، والجمال، والمعروف في كلّ شأن من شؤون الحياة، فما من عمل يعمله الإنسان في أيّ مجال من مجالات الخير إلا وطُلِبَ منه أن يحسن فيه كما ورد في بعض الأحاديث[3]، بل جعل قيمة الإنسان بما يتقنه ويحسنه من أعمال صالحة، وكمالات إنسانيّة علميّة، أو أدبيّة، أو أخلاقيّة، أو سياسيّة، أو إداريّة، أو اقتصاديّة، أو غيرها.

---

(١) يونس: ٢٦.

(٢) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٨٣، ح/٨٧٢١.

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كَتَبَ الإِحْسانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ، فَإذا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنوا الْقِتْلَةَ، وَإذا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، ثُمَّ لْيُرِحْ ذَبيحَتَهُ**»، مسند الإمام أحمد: ٣٤٢/٢٨، ح/١٧١١٦.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى روائعه البلاغيّة: «**قيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ ما يُحْسِنُه**»(١).

---

(١) نهج البلاغة: ٤٩٨، قصار الحكم: ٨١؛ لقد أبهرت هذه الكلمة العلماء والأدباء بمختلف أصنافهم؛ لعمقها ودلالتها وإيجازها، وراح كلّ منهم يبيّن معانيها وعظمتها وأهمّيّتها، نذكر من ذلك:

قال العارف البحرانيّ ابن ميثم شارح النهج في بيان معناها: «غرض هذه الكلمة التّرغيب في أعلى ما يكتسب من الكمالات النّفسانيّة والصّناعات ونحوها، وقيمة المرء مقداره في اعتبار المعتبرين، ومحلّه في نفوسهم من استحقاق تعظيم وتبجيل، أو احتقار وانتقاص. وظاهر أنّ ذلك تابعٌ لما يحسنه المرء ويكتسبه من الكمالات المذكورة، فأعلاهم قيمة وأرفعهم منزلة في نفوس النّاس أعظمهم كمالاً، وأنقصهم درجةً أخسّهم فيما هو عليه من حرفة أو صناعة، وذلك بحسب اعتبار عقول النّاس للكمالات ولوازمها»، شرح نهج البلاغة: ٢٨١/٥-٢٨٢.

وقال الشّريف الرّضيّ: «وهذه الكلمة الّتي لا تُصاب لها قيمة، ولا توزن بها حكمة، ولا تقرن إليها كلمة»، نهج البلاغة: ٤٩٨.

وقال الجاحظ: «فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافية كافية، ومجزئة مغنية؛ بل لوجدناها فاضلة عن الكفاية، وغير مقصّرة عن الغاية» البيان والتّبيين: ٨٣/١

وقال أيضاً: «وأجمعوا على أنّهم لم يجدوا كلمةً أقلّ حرفاً، ولا أكثر رَيْعاً، ولا أعمّ نفعاً، ولا أحثّ على بيان، ولا أدعى إلى تبيُّن، ولا أهجى لمن ترك التَّفهُّم، وقصَّر في الإفهام من قول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه: **قيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ ما يُحْسِنُ**» رسائل الجاحظ: ٢٩/٣.

وقال ابن سنان الخفاجيّ: «إنَّ هذه الألفاظ على غاية الإيجاز، وإيضاح المعنى، وظهور حسنها يغنى عن وصفه»، سرّ الفصاحة: ٢١١.

وقال أبو حيّان التّوحيديّ: «وقال أصحابنا: لم نرَ كلمة أحثَّ على طلب العلم من هذه الكلمة» البصائر والذَّخائر: ١٠/٨-١١.

وقال محمّد بن عائشة: «لا تُعْرَفُ كلمةٌ بعد القرآن وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله أخصر لفظاً، ولا أكمل وصفاً، ولا أعمّ نفعاً من قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: **قيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ ما يُحْسِنُ**»، كتاب نور القبس للمرزبانيّ: ٢٠٠.

وربّما أعظم ما أكّد عليه القرآن الكريم هو سلوك سبل الإحسان في مجال التّبليغ والهداية لدين الله، والإرشاد إلى سبل الرّشاد، ووسائل الإصلاح والتّغيير الاجتماعيّ، يقول تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(١).

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾(٢).

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾(٣).

﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(٤).

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾(٥).

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾(٦).

---

(١) النَّحل: ١٢٥.

(٢) الإسراء: ٥٣.

(٣) المؤمنون: ٩٦.

(٤) القصص: ٧٧.

(٥) العنكبوت: ٤٦.

(٦) الزّمر: ٢٣.

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾[1].

﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾[2].

ففي جميع هذه الآيات الكريمة نجد أنَّ مَعْلَم الإحسان هو قطب الرّحى في تعامل الإنسان في جميع المجالات الَّتي يتحرّك فيها، ويتعامل معها، أو يتصرّف فيها، وبعضها جاء بصيغة الأمر: ادعُ، ادفعْ، قل، أَحْسِنْ، اتّبعوا... وهو إشارة إلى أهمّيّة المبادرة للإحسان، ودوره في الإصلاح والتّغيير الاجتماعيّ والفرديّ، ولعلَّ السّرَّ في التَّأكيد على الإحسان في جميع النّواحي الإنسانيّة لتلاؤمه مع الفطرة الإنسانيّة وانجذابها للمحسنين بغضّ النّظر عن جميع الاعتبارات الاخرى مهما كانت؛ لأنَّه «**جُبِلَت الْقُلُوبُ عَلى حُبِّ مَنْ يَنْفَعُها، وبُغْضِ مَنْ أَضَرَّ بها**»[3].

ثمّ إنَّ الإحسان يشمل جميع علاقات الإنسان مع ربّه، ومع نفسه، ومع الآخرين، ومع الطَّبيعة الَّتي يعيش في رحابها.

أمّا علاقة الإنسان مع ربّه، فتدخل في الجانب العقائديّ والفكريّ، والّتي تتفرّع منه جميع عبادات الإنسان، ومعاملاته مع الله تعالى، والإحسان هنا هو الإيمان الصّادق الَّذي انساب من العقل إلى القلب، فمزج الفكر بالعاطفة، وامتدَّ في كيان

---

(١) الزّمر: ٥٥.

(٢) فصّلت: ٣٣-٣٤.

(٣) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٣٦٥/١٥، ح/١٤٩٥٥.

الإنسان، وتحوّل إلى طاقة داخليّة محرّكة، وموجّهة إلى الطّاعة، والتّسليم، والانقياد المطلق لله تعالى بتجرّد، وإخلاص، وتوجّه من دون أيّ ضميمة نفسيّة؛ بل للإحساس والشُّعور بجمال الله، وجلاله، وهيمنته، وقدرته... ولعلَّ هذا ما عبَّرت عنه الأحاديث الشَّريفة بعبادة الأحرار؛ لأنَّ الله هو الواحد الأحد الَّذي لا شريك له، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصُّدور، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الإِحْسانُ أَنْ تَعْمَلَ لله كَأَنَّكَ تَراهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لا تَراهُ، فَإِنَّهُ يراكَ**»(١).

فالإحسان هنا هو الإخلاص المحض، والتّجرّد لله تعالى، والإحساس برقابته حتّى يشعر الإنسان أنَّ عين الله لا تفارقه أبداً...

وفي حديث آخر: «**الإِحْسانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ**»(٢).

فما أروعها وأحسنها من عبادة أن يعبد الإنسان ربّه، فيشعر أنَّه يقف بين يدي الله، والله تعالى حاضر ينظره، ومن هنا كان الإحسان من أفضل درجات الإيمان، قال سيّد المحسنين عليٌّ عليه السلام:

«**أَفْضَلُ الإيمانِ الإِحْسانُ**».

«**رَأْسُ الإيمانِ الإِحْسانُ إلى النّاس**»(٣).

وأعظم الإحسان أن يعبد الإنسان ربّه تعالى كما أمره، ورد عن عمر بن يزيد، قال: «سمعْتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: **إذا أَحْسَنَ الْمُؤْمِنُ عَمَلَهُ ضاعَفَ اللهُ**

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٩٤/٥، ح/٢٩٢٤؛ وبحار الأنوار للمحدّث المجلسيّ: ٢٦٠/٥٩-٢٦١.

(٢) صحيح البخاريّ: ٢٠/٦؛ وبحار الأنوار: ١٩٦/٧٠.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٨٢-٣٨٣، ح/ ٨٦٨٧-٨٧٠٦

عَمَلَه، لكُلِّ حَسَنَة سَبْعُمائَة، وَذلكَ قَوْلُ الله تَبارَكَ وتَعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾(١)**، فَأَحْسنوا أَعْمالَكُمْ الَّتي تَعْمَلونَها لثَواب الله،** فقلْتُ له: وما الإحسان؟» قال: «فقال: **إذا صَلَّيْتَ فَأَحْسنْ رُكوعَكَ وَسُجودَكَ، وَإذا صُمْتَ فَتَوَقَّ كُلَّ ما فيه فَسادُ صَوْمك، وَإذا حَجَجْتَ فَتَوَقَّ ما يَحْرُمُ عَلَيْكَ في حَجِّكَ وَعُمْرَتكَ،** قالَ: **وَكُلُّ عَمَلٍ تَعْمَلُهُ لله فَلْيَكُنْ نَقيّاً منَ الدَّنَس**»(٢).

فالإحسان هنا هو أداء الفرائض بدقّة كما حدَّدها الشّارع المقدّس، بنيّة خالصة من أيّ دافع ذاتيّ سوى طلب رضوان الله تعالى.

الإِحْسانُ إلى النّاسِ:

والإحسان هنا هو إيصال النَّفع والخير إلى الآخرين سواء كان في الجانب المادّيّ، أو الجانب المعنويّ، وكلّما يسرّ القلب من أفعال الخير فهو إحسان، «وحدُّ الإحسان إيصال النَّفع لا على وجه الاستحقاق إلى الغير مع القصد إلى كونه إحساناً، ومعنى الإحسان ثابتٌ فيمن أخذ من غيره درهماً بدرهمين؛ لأنَّ من أعطى الكثير بالقليل، وقصد به إلى نفعه به فهو محسن إليه»(٣)، بل ولا يختصّ الإحسان إلى فئة من دون أخرى؛ فـ«**الْمُحْسنُ مَنْ عَمَّ النّاسَ بالإحْسان**»(٤).

والإحسان كما تقدّم كلمة جامعة شاملة لكلّ معاني الخير؛ فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**كُلُّ مَعْروف إحْسانٌ**»(٥)؛ كلمة طيّبة، أو ابتسامة هادئة، أو معونة

(١) البقرة: ٢٦١.

(٢) البرقيّ، المحاسن: ١/٣٩٦-٣٩٧، ح/٨٨٧.

(٣) الشّريف المرتضى، الانتصار: ٤٤٣.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٨٨، ح/٨٨٨٣.

(٥) المصدر نفسه: ٣٨٣، ح/٨٧١٨.

كريمة، أو نصيحة شفيقة... لهذا نجد في كثير من أحاديث أهل بيت الإحسان عليهم السلام حثّاً على الإحسان إلى كلّ من يلتقيه الإنسان، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«الْمُحْسِن مَنْ عَمَّ النّاس بالإحْسان»[1].

«وَأَحْسِنْ إلى جَميعِ النّاسِ كَما تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إلَيْكَ»[2].

ولم يقصر الإسلام في الإحسان على من أحسن فقط، بل عدَّ الإحسان إلى المسيء وسيلة من وسائل الإصلاح، ومنطلقاً أخلاقيّاً في بناء العلاقات الإنسانيّة، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنَّ إحْسانَكَ إلى مَنْ كادَكَ مِنَ الأَضْداد وَالْحُسّاد لأَغْيَظَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَواقِعِ إساءَتِكَ مِنْهُمْ، وهُوَ داعٍ إلى صَلاحِهِمْ».

«الإحْسانُ إلى الْمُسيءِ يَسْتَصْلِحُ الْعَدُوَّ».

«مَنْ أَحْسَنَ إلى مَنْ أَساءَ إلَيْه فَقَدْ أَخَذَ بجَوامعِ الْفَضْل»[3].

«أَصْلِحِ الْمُسيءَ بحُسْنِ فعالَكَ، وَدُلَّ عَلَى الْخَيْرِ بجَميلِ مَقالِكَ»[4].

الإِحْسانُ إلى النَّفْسِ:

في مفاهيم الإسلام العقائديّة: ما من حسنة يفعلها الإنسان، وعلى مختلف الأصعدة إلا كانت تلك الحسنة لنفسه، يقول تعالى: ﴿**إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ**﴾[5]، أي إنَّ المحسن لا يحسن للنّاس بفعله - وإن كانت فوائد إحسانه

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٨٨، ح/٨٨٨٣.

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٣٨٧/٤، ح/٥٨٣٤.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٨٧-٣٨٨، ح/٨٨٤٨-٨٨٧٤-٨٨٨٠.

(٤) المصدر نفسه: ٢٥٥، ح/٥٣٧١.

(٥) الإسراء: ٧.

تعود إلى النّاس - إنَّما يحسن لنفسه، والإسلام بهذا عالج مشكلة التَّعارض بين المصلحة الخاصّة، والمصلحة العامّة؛ لأنَّه عدَّ إحسان الإنسان للنّاس ذخيرة عظيمة يدّخرها لنفسه عند الله، وإن كان عائدها يعود إلى النّاس في الدُّنيا، ولو كانت بمقدار مثقال ذرة ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴾[1].

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«**الْمَعْروفُ ذَخيرَةُ الأَبَد**».

«**الإِحْسانُ ذُخْرٌ، وَالْكَريمُ مَنْ حازَهُ**».

«**عَلَيْكُمْ بِصَنائِعِ الْمَعْروف؛ فَإِنَّها نِعْمَ الزّادُ إلى الْمَعاد**».

«**نِعْمَ زادُ الْمَعادِ الإِحْسانُ إِلَى الْعِباد**»[2].

آثارُ الإِحْسانِ:

للإحسان آثار عظيمة في مسيرة الإنسان في الحياة الدُّنيا والآخرة، ونشير إلى ذلك بنقاط:

١- الفوز بحبّ الله تعالى: وهو من أعظم الآثار الَّتي إذا فاز بها الإنسان فاز بالقدح المعلّى؛ لأنَّ من أحبَّه الله تعالى لا يعذّبه، يقول عزَّ وجلّ:

﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[3].

﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[4].

---

(١) الزّلزلة: ٧.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٨٤-٣٨٥، ح/٨٧٥٨-٨٧٥٩ -٨٧٦٦-٨٧٦٨.

(٣) البقرة: ١٩٥.

(٤) آل عمران: ١٣٤.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

٢- الفوز بمعيّة الله تعالى ورعايته، وعنايته، وتسديده: لقد أكَّد القرآن الكريم إنَّ الله تعالى مع المحسنين، والمعيّة هنا تعني الإسناد، والنَّصر، والتَّسديد، والتّأييد، يقول تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾(٤).

٣- ضمان الأجر وحفظه: إنَّ أجر المحسنين عند الله مضمون محفوظ لا تضيع منه ذرة أبداً. يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٥).

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٦).

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٧).

٤- نفي السّبيل على المحسنين: أي ليس على المحسن مؤاخذة فيما تسبّب عن إحسانه، أو كما قال الفقهاء: «نفي الضّمان في موارد الإحسان»(٨)، مثلاً لو أخذ

---

(١) المائدة: ١٣.

(٢) آل عمران: ١٤٨.

(٣) العنكبوت: ٦٩.

(٤) النّحل: ١٢٨.

(٥) التّوبة: ١٢٠.

(٦) يوسف: ٥٦.

(٧) يوسف: ٩٠.

(٨) السّيّد البجنورديّ، القواعد الفقهيّة: ١١/٤.

إنسان حيوانَ غيره لأجل حفظه من التَّلف والضَّياع، ولكن اتّفق أنَّ البناء الّذي حفظ الحيوان فيه سقط عليه، فهنا لا ضمان عليه؛ لأنّه محسن، أو لو أنَّ الطبيب أخذ المريض؛ ليعالجه ولكن من باب الصّدف انقلبت السّيارة معه في الطَّريق، ومات فلا ضمان عليه؛ لأنَّه محسن، واستدلَّ الفقهاء على ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

٥- اقتراب الرَّحمة الإلهيّة: الإحسان في أيِّ شيء بقصد طاعة الله يقّرب الإنسان من رحمته تعالى، فإنَّ رحمته قريبة من المحسنين أعمالهم؛ لأنَّ الجزاء من جنس العمل كما قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾(٢).

فمن أحسن في عبادته نال حسن الثّواب، ومن أحسن في الدّعاء أعطي خير ما طلبه، أو مثل ما طلبه، وقد فرض الله الإحسان في كلّ عمل يهدي الإنسان لدين الله، ويوقظه عن غفلته، وينفض عن فطرته أدران الذُّنوب، ويضعه على جادّة الصَّواب، وحرَّم الإساءة في كلّ شيء، وجعل جزاءها من جنسها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ عزَّ وَجلَّ كتَبَ الإحْسانَ على كُلِّ شَيْءٍ، فإذا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنوا الْقِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنوا الذِّبحَ، ولْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ**

(١) التّوبة: ٩١.

(٢) الرّحمن: ٦٠.

(٣) النّجم: ٣١.

شَفْرَتَهُ، ثُمَّ لْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[١].

٦- كسب القلوب: ليس من أمر يجذب القلوب، ويشدّها إلى الإنسان كالإحسان، فإنَّها جُبلَت على حبّ من أحسن إليها، عن أبي عبد الله عليه السلام: «**جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ يَنْفَعُهَا، وبُغْضِ مَنْ أَضَرَّ بِهَا**»[٢].

وهذا على حدّ سواء عند كلّ ذوي الفطر السَّليمة، قال سيد المحسنين عليٌّ عليه السلام: «**أَحْسِنْ إلى مَنْ شِئْتَ وَكُنْ أَمِيرَهُ**»[٣]، فالمحسن للنّاس يملك قلوبهم وأرواحهم، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«**عَجِبْتُ لِمَنْ يَشْتَرِي الْعَبِيدَ بِمالِهِ فَيُعْتِقُهُمْ، كَيْفَ لا يَشْتَرِي الأَحْرارَ بِإِحْسانِهِ فَيَسْتَرِقَّهُمْ**».

«**بِالْبِرِّ يُمْلَكُ الْحُرُّ**».

«**بِالإِحْسانِ تُمْلَكُ الْقُلُوبُ**».

«**ما اسْتُعْبِدَ الْكِرامُ بِمِثْلِ الإِكْرامِ**».

«**كَمْ مِنْ إِنْسانٍ اسْتَعْبَدَهُ إِحْسانٌ**»[٤].

٧- الإحسانُ سلاحٌ لدرء الإساءة: من المفاهيم الإسلاميّة الرّائعة الّتي قَلَّ وجودُها في المذاهب الأخرى في مقابلة الإساءة بالإحسان، وهي سلاحٌ أخلاقيٌّ عظيمٌ لِقَلْب العداوة حبّاً كما جاء ذلك في القرآن الكريم: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٣٤٢/٢٨، ح/١٧١١٦.

(٢) الكافي: ٣٦٥/١٥، ح/١٤٩٥٥.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٨٥، ح/٨٧٧٧.

(٤) المصدر نفسه: ح/٨٧٨٦-٨٧٨١-٨٧٨٢-٨٧٩٧-٨٧٨٨.

ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾(١).

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾(٢).

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾(٣).

ومقابلة الإساءة بالإحسان لا تحصل إلا من الّذين هذّبوا أنفسهم، وربّوها على الهدى والحقّ، وممّن تجاوزوا ذواتهم، واستهدفوا تغيير الآخرين؛ لتعبيدهم لله تعالى مما يعرّضهم لتحدّيات ومشاكل كثيرة، ولأجل تجاوزها لا بدَّ من الصَّبر، والمصابرة، والسّعي الجادّ، والهدفيّة الواضحة، والمواصلة المنتظمة، وسعة الصَّدر، والعفو عمّا يلاقيه من أذى النّاس الّذين يدعوهم إلى الله، وقد مرَّت في حياة الرّسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام كثيراً من ذلك حتّى قال صلى الله عليه وآله: «**ما أوذِيَ أَحَدٌ مِثْلَ ما أوذيتُ في اللهِ**»(٤).

ومن أسمى الأخلاق الإسلاميّة مقابلة الإساءة بالإحسان، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**عاتِبْ أَخاكَ بِالإِحْسانِ إِلَيْهِ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالإِنْعامِ عَلَيْهِ**»(٥).

---

(١) الرّعد: ٢٢.

(٢) هود: ١١٤.

(٣) الفرقان: ٦٣.

(٤) أبو نعيم الأصبهانيّ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ٣٣٣/٦.

(٥) نهج البلاغة: ٥١٤، قصار الحكم: ١٤٨.

مُكَدِّراتُ الإحْسانِ:

قد يحسن الإنسان للآخرين، ولكن قد يفسد إحسانه، ويبطله فيما إذا تظاهر به، وأراد أن يكسب الحمد، ويستعلي على النّاس به، وأشدّ ما يفسده هو (المنُّ بالإحسان)، أي إشعار من أحسن إليه بأنَّه متفضّلٌ عليه، وهذا عملٌ مستقبحٌ في كلّ مجال، وقد نهى القرآن الكريم عن ذلك في آيات عدّة: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾[١].

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٢].

ومدح المحسنين بالإنفاق الَّذين لم يُتْبِعوا إحسانهم بالمنّ، يقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٣].

وحذَّر أهل بيت العصمة والإحسان عن ذلك، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«الْمَنُّ يُفْسِدُ الإحْسانَ».

«الْمَنُّ يُفْسِدُ الصَّنيعةَ».

«إيّاكَ وَالْمَنَّ بالْمَعْروف، فَإنَّ الامْتنانَ يُكَدِّرُ الإحْسانَ».

«شَرُّ الْمُحْسنينَ الْمُمْتَنُّ بإحْسانه».

«مَنْ مَنَّ بِمَعْروفه أَسْقَطَ شُكْرَه».

---

(١) المدّثّر: ٦.

(٢) الحجرات: ١٧.

(٣) البقرة: ٢٦٢.

«مَنْ مَنَّ بإحْسانه كَدَّرَهُ».

«يا أَهْلَ الْمَعْروف وَالإحْسان لا تَمنّوا بإحْسانكُمْ، فَإنَّ الإحْسانَ وَالْمَعْروفَ يُبْطلُهُ قُبْحُ الامْتنان»(١).

وأخيراً لا بدَّ أن نذكر أنَّ الإحسان يجب أن يكون بدافع إلهيّ، أو على الأقلّ بدافع إنسانيّ، وليس لطلب الشُّهرة، ولحبّ الظّهور، والبروز بمظهر المحسنين في الوسط الاجتماعيّ.

فالإحسان بدافع إلهيّ يعطيه بعداً رساليّاً عميقاً ومقدّساً، ويبقي ذخراً للإنسان في دار الرَّحمة والبقاء...

وإذا كان بدافع إنسانيّ يمنح الإنسان الذّكر الحسن في النّاس، وإن كان يحرمه من الثّواب الإلهيّ، ولا بدَّ أن نعلم أنَّ من يحسن بدافع إلهيّ فإنَّ العامل الإنسانيّ مضمون فيه، وليس العكس.

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٨٩-٣٩٠، ح/٨٩٢١-٨٩٢٠-٨٩٢٤-٨٩٢٩-٨٩٣٦-٨٩٣٥-٨٩٥٤.

خَديجَةُ الْمَرْأَةُ الْكامِلَةُ الْمَيْمونَةُ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[(١)].

خديجة بنت خويلد من أفضل نساء قريش والمكّيين جميعاً، خَلقاً وخُلقاً، وكانت ذات مواهب كثيرة: عقلاً، وحكمة، وثروة واسعة حتّى رُوِيَ أنَّ لها داراً واسعةً، حتّى قيل: يسع أهل مكّة آنذاك[(٢)].

وإنَّها جمعت إلى الثَّروة: الشَّرفَ، والعفّةَ، والكرمَ، والصّيانةَ، والسّمعةَ الطّيّبة، حتّى أصبحت محطَّ آمال الرّجال الأثرياء الطَّموحين، فلقد تقدَّم لخطبتها عقبة بن أبي معيط، والصّلت بن أبي يهاب المخزوميّ، وكان لكلّ واحد منهما أربعمائة عبد وأمة، وخطبها أبو جهل بن هشام، وأبو سفيان بن حرب، فلم ترغب في الزّواج من أحدهم[(٣)]، بل أكثر من هذا فقد رُوِيَ عن أبي طالب رحمه الله: «وقد خطبوها ملوك العرب، وصناديد قريش، ورؤوس بني مخزوم، وسادات بني هاشم، وملوك اليمن، وأكابر الطّائف، وبذلوا لها من الأموال، فلم ترغب في أحد منهم،

---

(١) النّساء: ١.

(٢) ينظر: أبو الحسن البكريّ، الأنوار في مولد النّبي محمّد صلى الله عليه وآله: ٢٤٤؛ وبحار الأنوار للمحدّث المجلسيّ: ٢٢/١٦.

(٣) ينظر: الأنوار في مولد النّبيّ محمّد صلى الله عليه وآله: ٢٤٤؛ وبحار الأنوار:٢٢/١٦.

ورأت أنَّها أكبر منهم»[١].

ونستفيد من موقف خديجة هذا: إنَّ المرأة المؤمنة الرّشيدة لا تطلب في حالة زواجها من الرّجال أكثرهم مالاً، أو أعظمهم ملكاً، ولكنَّها تطلب الكمال الإنسانيّ الّذي أراده الله تعالى، وهو كمال الإيمان، وسموّ الأخلاق، وزكاة الأنفس، وسلامة القلوب، وطيب المعشر، وإرادة الخير بتغيير الواقع الفاسد إلى واقع سليم؛ لإنقاذ البشريّة من الكفر، والشّرك، والنّفاق، والطُّغيان، ونقلها من عبادة العبيد إلى عبادة الله تعالى، ولا عجب من خديجة ذلك، فهي الَّتي وصفها عارف عصرها أبو طالب رَحِمَهُ اللهُ: «امرأة ميمونة كاملة فاضلة، تخشى العار، وتحذر الشَّنار[٢]»[٣].

ووصفها المؤرخون بأنَّها وزيرة صدق للنّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ على الإسلام، وكان يسكن إليها[٤]، وكانت تدعى في الجاهليّة «الطّاهرة»[٥]، ولُقّبَتْ «المباركة»[٦].

وكانت هذه المرأة العظيمة ذات ثروة طائلة تتاجر الرّجالُ بأموالها، وفي إحدى المرّات وقع اختيارها على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ راغبة في أن يتاجر بأموالها،

(١) الأنوار في مولد النّبيّ محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: ٣٠٨؛ وبحار الأنوار:٥٦/١٦.

(٢) الشّنار: العيب والعار، كتاب العين للفراهيديّ: ٢٥١/٦، (شنر).

(٣) الأنوار في مولد النّبيّ محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: ٣٠٨؛ وبحار الأنوار:٥٦/١٦.

(٤) ينظر: السّيرة النّبويّة لابن هشام: ٣٠/٢؛ وإعلام الورى للشّيخ الطّبرسيّ: ١٣١/١؛ وعيون الأثر لابن سيّد النّاس: ٢٢٧/١؛ وتاريخ الإسلام للذّهبيّ: ٢٣٦/١.

(٥) ينظر: المعجم الكبير للطّبرانيّ: ٤٤٨/٢٢، ح/١٠٩١؛ ونهاية الأرب للنّويريّ: ١٧٠/١٨؛ وسبل الهدى والرّشاد للصّالحيّ الشّاميّ: ٥٧١/٢.

(٦) ينظر: الاختصاص للشّيخ المفيد: ١١٣؛ وسعد السّعود للسّيّد ابن طاووس: ١٨٥؛ وبحار الأنوار: ٣٥٢/٢١.

وعندما التَقَتْهُ في بيتها مع مجموعة من أعمامه، قالت له: «يا سيّدي، يا محمّد، أنست بك الدّيار، وأضاءت بك الأقدار، وأشرقت من طلعتك الأنوار... أترضى أن تكون أميناً على أموالي تسير بها حيث شئْتَ؟» قال: «**نَعَمْ، رَضيتُ، ولَكنْ أُريدُ للشّامِ**»، قالت: «نعم، إنّي راضية بذلك، وإنّي قد جعلْتُ لمن يسير بأموالي مائة ناقة، ومائة أوقية من الذّهب، ومثلها من الفضّة، وجملين وراحلتين»[(١)].

وتمَّ الاتّفاق بينهما، وكانت سفرةً مربحةً ميمونةً مباركةً، وإن كان بعض الباحثين يشكّك بمسألة عمل رسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ بالتّجارة بأموال خديجة[(٢)].

ونقل المؤرّخون أنَّها أرسلت معه غلاماً لها يسمّى ميسرة، ونقل لها ميسرة ما رأى من رسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ من معاجز، وكرامات، وسموٍّ أخلاقيٍّ، وحنكة إداريّة، وقيادة واعية، فأُعْجِبَتْ به أيّما إعجاب، واشتدَّ حبُّها إلى حدّ الشَّوْق، كلّ ذلك كان مقدّمة لتكون علاقة خديجة هذه برسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ علاقة إعداد رساليّ لها.

ولهذا ما أن نزل الوحي على رسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ دعا أهل بيته، وهم آنذاك عليّ عَلَيْهِالسَّلَامُ وخديجة عَلَيْهَاالسَّلَامُ، فقد رُوِيَ عن عيسى بن المستفاد قال: «حدّثني موسى بن جعفر، قال: **سَأَلْتُ أَبي، جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّد** عَلَيْهِالسَّلَامُ **عَنْ بَدْءِ الإِسْلامِ، كَيْفَ أَسْلَمَ عَلِيٌّ** عَلَيْهِالسَّلَامُ**؟ وَكَيْفَ أَسْلَمَتْ خَديجَةُ رَضيَ اللهُ عَنْها؟**

فقال لي موسى بن جعفر عَلَيْهِالسَّلَامُ: **تَأْبى إلا أَنْ تَطْلُبَ أُصولَ الْعِلْمِ ومُبْتَدأَهُ، أَمـ[ـا] وَالله إنَّكَ لَتَسْأَلُ تَفَقُّهاً.**

قال مَوسَى: **فَقالَ لي أَبي: إنَّهما لمّا أَسْلَما، دَعاهُما رَسولُ الله** صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ، **فَقالَ: يا عَلِيُّ، وَيا خَديجَةُ، أَسْلَمْتُما لله، وَسَلَّمْتُما لَهُ، وَقالَ: إنَّ جِبْرَئيلَ عِنْدي**

---

(١) الأنوار في مولد النّبيّ محمّد صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ: ٢٥٢-٢٥٤؛ وبحار الأنوار: ٢٧/١٦.

(٢) ينظر: الصّحيح من سيرة النّبيّ الأعظم صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ للسّيّد جعفر مرتضى العامليّ: ١٠٦/٢.

يَدعوكُما إلى بَيْعَة الإسْلامِ، فأَسْلما تَسْلَما، وأَطيعا تُهْدَيا. فَقالا: فعَلْنا وأَطَعْنا يا رَسولَ الله.

فَقال: إنَّ جبْرَئيلَ عنْدي يَقولُ لَكُما: إنَّ للإسْلام شُروطاً وعُهوداً ومَواثيقَ، فَابْتَدئاه بما شَرَطَهُ اللهُ علَيْكُما لنفْسه ولرَسوله؛ أَنْ تَقولا: نَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا اللهُ وَحْدَهُ، لا شَريكَ لَهُ في مُلْكه، ولَمْ يلدْهُ والدٌ، ولَمْ يلدْ ولَداً، ولَمْ يتَّخذْ صاحبَةً، إلهاً واحداً مُخْلَصاً، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسولُهُ، أَرْسَلَهُ إلى النّاس كافَّةً، بيْنَ يدَي السّاعَة، ونَشْهَدُ أَنَّ اللهَ يُحْيي ويُميتُ، ويَرْفَعُ ويَضَعُ، ويُغْني ويُفْقرُ، ويَفْعَلُ ما يَشاءُ، ويَبْعَثُ مَنْ في الْقُبور، قالا: شَهدْنا...

[ثمّ قال ﷺ:] يا خَديجَةُ، فهمْت ما شَرطَ علَيْك ربُّك؟ قالَتْ: نعَمْ، وآمَنْتُ، وصَلَّيْتُ، ورَضيتُ، وسَلَّمْتُ، قال عَليٌّ ﵇: وأَنا على ذلك...

فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: اهْتَدَيْتَ ورَبِّ الْكَعْبَة، ورَشدْتَ، ووُفِّقْتَ، وأَرْشَدَكَ اللهُ...

ثُمَّ قالَ: يا خَديجَةُ، هذا عَليٌّ مَوْلاك، ومَوْلى الْمُؤْمنينَ، وإمامُهُمْ بَعْدي.

قالَتْ: صَدَقْتَ يا رَسولَ الله، قَدْ بايَعْتُهُ على ما قُلْتَ، أُشْهدُ اللهَ، وأُشْهدُكَ بذلك، وكَفى بالله شَهيداً وعَليماً»[١].

وهكذا آمنت وبايعت؛ لتتحمّل مع رسول الله ﷺ أعباء رسالة الله تعالى، وتشاركه آماله وآلامه، وتتحمّل معه شظف العيش بعد غضارته، وتبذل كلّ ما ملكته طول حياتها؛ لتعطي المثل الأسمى للمرأة المؤمنة.

(١) السّيّد ابن طاووس، طرف من الأنباء والمناقب: ١١٥–١١٨؛ وينظر: بحار الأنوار: ١٨/٢٣٢–٢٣٣، باختلاف طفيف.

وعلى كلّ حال فإنَّ خديجة رضوان الله تعالى عليها بعد أن تزوجّها رسول الله ﷺ كان لها الدّور الفعّال في مساندة النّبيّ ﷺ في تحمّل أعباء رسالة الله تعالى، حيث كانت تخفّف عليه المصاعب والتّحدّيات الَّتي كان يواجهها من قريش، قال ابن هشام: «وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدّقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أوّل من آمن بالله وبرسوله، وصدَّق بما جاء منه، فخفَّف الله بذلك عن نبيّه ﷺ، لا يسمع شيئاً ممّا يكرهه من ردّ عليه وتكذيبٍ له، فيحزنه ذلك إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبّته وتخفّف عليه، وتصدّقه وتهوّن عليه أمر النّاس، رحمها الله»[١].

ومن روائع مواقفها أنَّها اهدت جميع أموالها وجميع ما تملك لرسول الله ﷺ، وأعلنت ذلك على رؤوس الملأ، فقد روى المؤرّخون أنَّها «قالت لعمّها ورقة: خذ هذه الأموال، وسر بها إلى محمّد، وقل له: إنَّ هذه جميعها هديّةٌ له، وهي ملكه يتصرّف فيها كيف شاء، وقل له: إنَّ مالي وعبيدي، وجميع ما أملك، وما هو تحت يدي، فقد وهبته لمحمّد إجلالاً وإعظاماً له، فوقف ورقة بين زمزم والمقام، ونادى بأعلى صوته: يا معاشر العرب، إنَّ خديجة تشهدكم على أنَّها قد وهبت نفسها ومالها وعبيدها وخدمها وجميع ما ملكت يمينها والمواشي والصّداق والهدايا لمحمّد، وجميع ما بذل لها مقبولٌ منه، وهو هديّةٌ منها إليه إجلالاً له وإعظاماً»[٢].

ولهذه المواقف الَّتي تحمّلتها خديجة، وإنفاق جميع أموالها لأجل الدَّعوة إلى الله تعالى، ومشاركة رسول الله ﷺ في تحمّل أذى قريش، قوطعت من نساء

(١) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٢٧٧/١.

(٢) بحار الأنوار: ٧١/١٦.

قريش، وبقيت محاصرة مع رسول الله ﷺ، وكان ﷺ يبشّرها بكرامات الله إليها، قال ابن هشام: «وحدّثني من أثق به أنَّ جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ، فقال: اقرئ خديجةَ السَّلام من ربّها، فقال رسول الله ﷺ: يا خديجة، هذا جبريل يُقرئك السَّلامَ من ربّك، فقالت خديجة: الله السّلام، ومنه السَّلام، وعلى جبريل السَّلام»(١).

هكذا كانت لرسول الله ﷺ مؤنسة يسكن إليها، وهي تواسيه، وتهوّن عليه الشَّدائد، فإذا ما رأت أنَّه ﷺ قد ألمَّ به التَّعب والجهد، واشتدّت عليه المحن قالت: «أبْشِرْ يا رسول الله؛ فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً»(٢).

وعندما ينزل عليه القرآن، ويرجع مثقلاً بهموم الرّسالة إلى بيته تستقبله خديجة مستبشرة مهنّئة تطفح روحها بالأمل والنَّصر، فتقول: «والله ما يخزيك اللهُ أبداً، إنَّك لتصل الرّحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسِب المعدومَ، وتقري الضَّيف، وتعين على نوائب الحقّ»(٣).

بهذه الكلمات الطّافحة بالأمل، والحبّ، والمؤازرة - وكأنَّها تقرأ مستقبل رسول الله ﷺ - مع تسخير كلّ قواها وأموالها؛ لإعانة رسول الله ﷺ وضعت كلّ ما تملك تحت تصرفه، فحينما كان يختلي ﷺ في غار حراء متعبّداً لله، متفكّراً في الإعداد والتَّخطيط لنشر رسالة الله تعالى، كانت تقوم بدور المراقب والحارس له، توصل إليه الماء والطَّعام عبر المسير الصَّعب في الجبال، فتركت غضارة العيش، وتحمَّلت شظف الحياة في سبيل الله محتسبة.

---

(١) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٢٧٨/١.

(٢) الأربليّ، كشف الغمّة: ٢٧٤/٢.

(٣) صحيح البخاريّ: ٣/١.

وعندما اشتدَّ ضغط قريش عليه، وأحكمت المحاصرة، وقفت إلى جانبه صابرة متحمّلة مرارة المقاطعة، والهجران، والكلمات النّابية من نساء قريش[(١)]، والاستهانة من الأعداء، وهذا يُنبئ عن علوّ همّتها، وسموّ روحها، وعمق إيمانها، وعظمة صبرها، وجلالة شخصيّتها الّتي اتّسمت به بكلّ خصال الكمال حتّى كانت إحدى الأربعة الكُمَّل من نساء العالمين، قال رسول الله ﷺ: «**كَمُلَ من الرِّجال كَثيرٌ، ولَمْ يَكْمُلْ منَ النّساء إلا أَرْبَعٌ: آسيَةُ بنْتُ مُزاحم امْرَأَةُ فرْعَوْنَ، ومَرْيَمُ بنْتُ عمْرانَ، وخَدَيجَةُ بنْتُ خُوَيْلد، وفَاطمَةُ بنْتُ مُحَمَّد**»[(٢)].

وعنه ﷺ: «**أَفْضَلُ نساء أَهْلِ الْجَنَّة: خَديجَةُ بنْتُ خُوَيْلد، وفَاطمَةُ بنْتُ مُحَمَّد، وآسيَةُ بنْتُ مُزاحِمٍ امْرأَةُ فرْعَوْنَ، ومَرْيَمُ ابْنَةُ عمْرانَ**»[(٣)].

وقال الذّهبيّ: «ومناقبها جمّة، وهي ممّن كَمل من النّساء. كانت عاقلةً جليلةً

---

(١) عن مجاهد، عن ابن عبّاس، قال: «لمّا تزوّجت خديجة بنت خويلد رسول الله ﷺ هجرها نسوان مكّة، وكنّ لا يكلّمنها، ولا يدخلن عليها، فلمّا حملت بالزّهراء فاطمة عليها السلام كانت إذا خرج رسول الله ﷺ من منزلها تكلّمها فاطمة الزّهراء في بطنها من ظلمة الأحشاء، وتحدّثها وتؤانسها، فدخل رسول الله ﷺ، فقال لها: **يا خَديجَةُ، مَنْ تُكَلِّمينَ؟** قالت: يا رسول الله، إنَّ الجنين الّذي أنا حامل به إذا أنا خلوتُ به في منزلي كلّمني، وحدّثني من ظلمة الأحشاء، فتبسّم رسول الله ﷺ، ثمَّ قال: **يا خَديجَةُ، هذا أَخي جبْرَئيلُ** عليه السلام **يُخْبِرُني أَنَّها ابْنَتي، وأَنَّها النَّسْمَةُ الطّاهرَةُ الْمُطَهَّرَةُ، وأَنَّ اللهَ تَعالى أَمَرَني أَنْ أُسَمّيها (فاطمَة)، وَسَيَجْعَلُ اللهُ تَعالى منْ ذُرِّيَّتها أَئمَّةً يَهْتَدي بهِمُ الْمُؤْمنونَ**»، الثّاقب في المناقب لابن حمزة الطّوسيّ: ٢٨٥؛ ووردت الرّواية بصيغ أخرى في: روضة الواعظين للفتّال النّيسابوريّ: ١/٣٢٩-٣٣٠، ح/٣٤١؛ مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ٨/٧٨؛ والخرائج والجرائح لقطب الدّين الرّاونديّ: ٢/٥٢٤.

(٢) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ١٠/٤٨٠.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٤/٤٠٩، ح/٢٦٦٨؛ والمستدرك للحاكم النّيسابوريّ: ٣/٢٠٥، ح/٤٨٥٢.

دَيّنةً مصونةً كريمةً، من أهل الجنّة، وكان النّبيّ ﷺ يثني عليها، ويفضّلها على سائر أمّهات المؤمنين، ويبالغ في تعظيمها، بحيث إنّ عائشة كانت تقول: «ما غِرْتُ من امرأة ما غرت من خديجة، من كثرة ذكر النّبيّ ﷺ لها»(١)، ومن كرامتها عليه ﷺ أنّها لم يتزوّج امرأة قبلها، وجاءه منها عدّة أولاد، ولم يتزوج عليها قطّ، ولا تَسرّى إلى أن قضت نحبها، فوجد لفقدها، فإنّها كانت نعم القرين، وكانت تنفق عليه من مالها، ويتّجر هو ﷺ لها، وقد أمره الله أن يبشّرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب(٢)»(٣).

ولمّا توفّيت خديجة وأبو طالب، سمّى رسول الله ﷺ ذلك العام عام الأحزان، ولدورها العظيم في خدمة الإسلام نجد أنّ رسول الله ﷺ كان يكرمها حيّة وميتة، قال حكيم بن حزام، قال: «توفّيت خديجة بنت خويلد في شهر رمضان سنة عشر من النّبوّة، وهي يومئذ بنت خمس وستّين سنة، فخرجنا بها من منزلها حتّى دفنّاها بالحَجون، ونزل رسول الله ﷺ في حفرتها، ولم يكن يومئذٍ سنّةٌ الجنازة الصّلاة عليها»(٤).

وكان ﷺ دائم الذّكر لها مستغفراً لها، ومترحّماً عليها، حتّى كان ذلك يغيض بعض أزواجه من كثرة ذكرها، والتّرحّم عليها، فعن عليّ عليه السلام قال: «**ذَكَرَ**

---

(١) ينظر: صحيح البخاريّ: ٢٣١/٤، وسنن التّرمذيّ: ٧٠٢/٥، ح/ ٣٨٧٥.

(٢) ينظر: صحيح البخاريّ: ٢٣١/٤؛ وسنن التّرمذيّ: ٧٠٢/٥، ح/٣٨٧٦؛ والقصب الدّر المجوّف، والصَّخب الأصوات المختلفة، والنَّصب التَّعب، ومعناه أنّه لا بد لكلّ بيت من تعب وإصلاح إلا قصور الجنّة، فإنّها لا تعب في بنائها؛ ينظر: أمّ المؤمنين الطاهرة خديجة بنت خويلد عليها السلام، الشّيخ جعفر الحائريّ، مجلّة علوم الحديث: ٦٦/١١.

(٣) الذّهبيّ، سير أعلام النّبلاء: ١١٠/٢.

(٤) ابن سعد، كتاب الطّبقات الكبير: ١٩/١٠.

النَّبيُّ ﷺ خَديجة يَوماً، وَهُوَ عِنْدَ نسائه، فَبَكى، فَقالَتْ عائشَةُ: ما يُبْكيكَ عَلَى عجوز حَمْراء منْ عجائز بَني أَسَدَ؟ فَقال ﷺ: صدَّقَتْني إذْ كَذَّبْتُمْ، وآمَنَتْ بي إذْ كفرْتُمْ، وولَدَتْ لي إذْ عقَمْتُمْ، قالتْ عائشَةُ: فَما زِلْت أَتَقرَّبُ إلى رَسول الله بذكْرها»(١).

وفي رِواية أخرى: «عن رسول الله ﷺ، أنّه أُهْديَ إليه لحم جمل - أو لحم جزور -، فأخذ بيده لحماً، فأعطاه رسول الله، وقال: **اذْهَبْ إلى فُلانَة** - أو قال [إلى] فلان -. فقالت عائشة: يا رسول الله، لمَ غمرْتَ يدك قد كان فينا من يكفيك؟ قال: **وَيْحَك إنَّ خَديجَةَ أَوْصَتْني بها** - أو قال: [أوصتني] به-، يعني من أُرسل ذلك اللَّحم إليه، فأدركت عائشة الغيرة؛ لذكر خديجة، فقالت: كأن ليس في الأرض امرأة إلا خديجة، فخرج رسول الله ﷺ وهو غضبان، فلبث ما شاء الله أن يلبث، ثمَّ دخل عليها وعندها أمّها - أم رومان - فقالت: يا رسول الله، ما لعائشة؟ إنَّها حَدثَةٌ وهي غَيْراء، فأخذ رسول الله ﷺ بشدق(٢) عائشة، ثمّ قال: **أَلَسْت الْقائلَة: كَأَن لَيْس في الأَرْض امْرأَةٌ إلا خَديجَةُ؟ لَقَدْ آمَنتْ بي إذْ كفر بي قَوْمُك، وَقَبلَتْني إذْ رَفَضَني قَوْمُك، ورُزقَتْ منّي الْوَلَدَ إذْ حُرمْت منّي**، قالت عائشة: فما ترك شدقي حتى ذهب من نفسي كل شيء كنت أجده على خديجة»(٣).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**دَخَلَ رَسولُ الله ﷺ مَنْزِلَهُ، فَإذا عائشَةُ مُقْبلَةٌ عَلى فاطمَة تُصايحُها، وَهيَ تَقولُ: وَالله يا بنْت خَديجَةَ ما تَرَيْن إلا أَنَّ**

---

(١) كشف الغمّة: ٢٧١/٢؛ وبحار الأنوار: ٨/١٦.

(٢) الشّدقُ: جانب الفم ممّا تحت الخدّ، المعجم الوسيط: ٤٧٦، (شدق).

(٣) القاضي النّعمان المغربيّ، شرح الأخبار: ١٧/٣-١٨، ح/٩٤٨.

لأمِّكَ علَيْنا فضْلاً، وأَيُّ فَضْلٍ كانَ لَها علَينا، ما هيَ إلا كبَعْضنا، فَسَمعَ مَقالَتَها [لـِ]فاطمةَ، فلَمّا رأَتْ فاطمةُ رَسولَ الله ﷺ بكَتْ، فقالَ لَها: ما يُبْكيك يا بنْتَ مُحَمَّد؟! قالَت: ذَكَرَتْ أُمّي فتَنَقَّصَتْها فَبَكيت، فَغَضبَ رَسولُ الله ﷺ، ثُمَّ قالَ: مَهْ يا حُمَيراءُ، فَإنَّ اللهَ تَباركَ وتَعالى باركَ في الْوَدود الْوَلود، وإنَّ خَديجةَ رَحمَها اللهُ ولَدَتْ منّي طاهراً وهُوَ عَبْدُ الله وهُوَ الْمُطَهَّرُ، ووَلَدَتْ منّي الْقاسمَ، وفاطمَةَ، ورُقَيَّةَ، وأُمَّ كُلْثوم، وزَيْنَب، وأَنْت ممَّنْ أَعْقَمَ اللهُ رَحمَه، فَلَمْ تَلدي شَيْئاً»(١).

وعن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم [يكد] يسأم من ثناء عليها، واستغفار لها، فذكرها ذات يوم، فحملتني الغيرة، فقلْتُ: لقد عوَّضك الله من كبيرة السّنّ»، قالت: «فرأيتُ رسول الله ﷺ غضب غضباً شديداً، فسُقطتْ في يدي، فقلت: اللّهُمّ، إنَّك إن أذهبت غضب رسولك ﷺ لم أعد لذكرها بسوء ما بقيت»، قالت: «فلما رأى رسول الله ﷺ ما لقيت، قال: **كَيْفَ قُلْت؟! وَالله لَقَدْ آمَنَتْ بي إذْ كَفَرَ [بيَ] النّاسُ، وآوَتْني إذْ رَفَضَني النّاسُ، وَصَدَّقَتْني إذْ كَذَّبَني النّاسُ، ورُزقَتْ منّي الْوَلَدَ حَيْثُ حُرمْتُموهُ»**(٢).

وعنه ﷺ «أنّه ذكر يوماً خديجة، فترحَّم عليها، وذكر محاسن أفعالها، فغارت عائشة لذلك، قالت: ليت شعري، ما يُذكرك من عجوز حمراء الشَّدقين قد أبدلك الله عزَّ وجلَّ بها من هو خير منها! فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، قال: **لا وَالله ما بُدِّلْتُ خَيْراً منْها، لَقَدْ آمَنَتْ بي قَبْلَ أَنْ ترمني، وَصَدَّقَتْني قَبْلَ**

---

(١) الشَّيخ الصَّدوق، كتاب الخصال: ٤٠٥/٢؛ وبحار الأنوار: ٣/١٦.

(٢) كشف الغمّة: ٢٧٨/٢-٢٧٩؛ وبحار الأنوار: ١٢/١٦.

أَنْ تُصَدِّقن، ورُزِقَتْ منّي من الْوَلَد ما قَدْ حُرِمْتُنَّ، فقالت عائشة: والله لا أذكرها بعد هذا بسوء يا رسول الله»(١).

إذن من هذه الرّوايات نستطيع أن نفهم مقدار عظمة خديجة، وسموّ قدرها، فهي من النّساء الأربع الكُمَّل، وهي المؤمنة، المصدّقة، العارفة، المحامية عن رسول الله ﷺ، بذلت كلّ وجودها وموجودها في سبيل نصرة الإسلام، وهي الودود الولود، وكانت مأنساً لرسول الله ﷺ مشاركة له كلّ آلامه وآماله.

وَفاةُ خَديجَةَ عليها السلام:

وهكذا انقضت حياة هذه المرأة العظيمة، وكلّها جهاد، وعطاء، وبركة للإسلام، وكان يوم وفاتها يوم حزن شديد على رسول الله ﷺ حتّى سمّى العام الّذي توفّيت فيه بعام الأحزان.

قال اليعقوبيّ: «وتوفّيت خديجة بنت خويلد في شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين، ولها خمس وستّون سنة، ودخل عليها رسول الله، وهي تجود بنفسها، فقال: **بالْكُرْه منّي ما أرى، ولَعَلَّ الله أَنْ يَجْعَلَ في الْكُرْه خيْراً كثيراً، إذا لَقيت ضرّاتك في الْجنَّة يا خَديجَةُ، فَأَقْرئيهنَّ السَّلام**، قالَتْ: وَمَنْ هُنَّ يا رَسولَ الله؟ قال: **إنَّ الله زَوَّجَنيك في الْجنَّة، وزَوَّجَني مَرْيَمُ بِنْتُ عمْران، وآسيَةُ بنْتُ مُزاحم، وكُلْثوم أُخْتَ موسى**»(٢).

وعن بريد العجليّ قال: «سمعْتُ أبا عبد الله جعفر بن محمّد عليه السلام يقول: **لمّا تُوفّيَتْ خَديجَةُ** عليها السلام **جَعلَتْ فاطمَةُ صَلَواتُ الله عَلَيْها تَلوذُ برَسول الله** ﷺ،

(١) شرح الأخبار: ٣/٢١-٢٢، ح/٩٥٧.

(٢) تاريخ اليعقوبيّ: ٢/٣٥.

وتَدور حَوْلَه، وتَقول: [يا] أَبَة أَيْن أُمّي؟، قال: فَنَزَل عَلَيْه جبْريل، فَقال لَه: ربُّك يَأْمُرك أَنْ تُقْرئ عَلى فاطمَة السَّلام، وتَقول لَها: إنَّ أُمَّك في بَيْت منْ قَصَب، كعابُه منْ ذَهَب، وعُمُده ياقوتٌ أَحْمَر، بَيْن آسية، ومَرْيَم بنْت عمْران، فَقالَتْ فاطمَةُ عليها السلام: إنَّ اللهَ هُو السَّلامُ، ومنْهُ السَّلامُ، وإلَيْه السَّلامُ»(١).

الْمَرْأَةُ عبْرَ الْحَضاراتِ الْعالَمِيَّةِ:

ونستفيد ممّا تقدَّم أنَّ للمرأة في الدَّعوة إلى الله دوراً كبيراً، ومهمّةً عظيمةً، واتّضح من خلال سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله مع خديجة وتبيَّن ما للمرأة من مكانةٍ عظيمةٍ في نصرة رسالة الله تعالى.

وإذا أردنا أن نعرف منزلة المرأة في الإسلام لا بدَّ أن نستعرض - ولو بصورة مختصرة - حالة المرأة في الحضارات القديمة؛ لنعرف كيف كانوا ينظرون إلى المرأة، وكيف يتعاملون معها؟

١- **في الحضارة الهنديّة القديمة:** إنَّ المرأة مصدر الشُّرور، والآثام، والعار، والفناء في الوجود الدّنيويّ، قال ول ديورانت:

«كانت الأسرة الهنديّة من الطّراز الأبويّ الصَّميم، فالوالد هو السّيّد الكامل السّيادة على الزّوجة والأبناء والعبيد، وكانت المرأة مخلوقاً جميلاً يُحَبّ، لكنَّها أحطُّ منزلة من الرّجل، تقول أسطورة هندية: إنَّ (تواشتري) المبدع الإلهيّ، حين أراد في البداية أن يخلق المرأة وجد أنَّ مواد الخلق قد نفدت كلَّها في صياغة الرّجل، ولم يبقَ لديه من العناصر الصَّلبة بقيّة، فإزاء هذه المشكلة طفق يصوغ

(١) الشّيخ الطّوسيّ، كتاب الأمالي: ٢٧٣-٢٧٤؛ وينظر: ترتيب الأمالي للمحموديّ: ٢/٤٣٤-٤٣٥، ح/٩٤٨.

المرأة من القصاصات والجذاذات التي تناثرت من عمليّات الخلق السّابقة، يختار قصاصة من هنا وجذاذة من هناك...

فترى الرّوح العامّة في (تشريع مانو) موجَّهة ضدّها في عبارات تذكرنا بمرحلة أولى من مراحل اللاهوت المسيحيّ...

ولقد نصَّ التَّشريعُ على أنَّ المرأة طوال حياتها ينبغي أن تكون تحت إشراف الرّجل فأبوها أوّلاً، وزوجها ثانياً، وابنها ثالثاً، وكانت الزّوجة تخاطب زوجها في خشوع قائلة له: «يا مولاي» و«يا سيّدي»، بل «يا إلهي»، وهي تمشي خلفه بمسافة إن مشياً على مرأى من النّاس، وقلّما يوجّه إليها هو كلمة واحدة، وينتظر من المرأة أن تبدي إخلاصها بخدماتها في كلّ المواقف...

ولم يكن نساء الهند يتلقّين تعليماً - كأخواتهن في أوروبا وأمريكا قبل عصرنا هذا الحديث - إلا إن كنَّ من سيّدات الطّبقة الرّاقية أو زانيات المعبد، ففنُّ القراءة كان في عرفهم لا يليق بامرأة»[1].

وأمّا زواجها فقد: «أباح «مانو» ثمانية صنوف من الزّواج، كان أدناها في القيمة الخلقيّة هو الزّواج بالاغتصاب، والزواج بـ«الحبّ»، وأمّا الزّواج بالشّراء فهو الصّورة المقبولة على أنَّها الطريق المعقولة لتدبير الزَّواج بين رجل وامرأة، فالمشرّع الهنديّ من رأيه أنَّ صور الزَّواج الّتي تنبني على أسس اقتصاديّة هي في نهاية الأمر أسلم الصُّنوف عاقبة، وفي أيام «دبْوا» كانت العبارة الهندية الّتي تعني «يتزوّج»، والعبارة الّتي تعني «يشتري زوجة» عبارتين مترادفتين»[2].

والأسوأ من ذلك كلّه العاقبة الفظيعة الّتي تنتهي إليها المرأة، وهي حرق

(١) ول ديورانت، قصّة الحضارة: ١٧٧/٣-١٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٧٦/٣-١٧٧.

الأرامل على الكومة الّتي احترق فيها أزواجهن، وقد وضعوا «قاعدة عامّة مؤدّاها أنَّ الأرملة الطّاهرة لا تحبّ أن تحيا بعد زوجها، بل تراها تدخل النّار فخورة بصنيعها، وكانوا في هذه المناسبات يحرقون جسد الزّوجة في حفرة من الأرض، أو يدفنونها حيّة... كان قتل الزّوجة هذا يتّخذ صورةً جمعيّةً، فلا يكتفى فيه بقتل زوجة واحدة، أو عدد قليل من زوجات الأمير، أو القائد بعد موته، بل كان لا بدّ لكلّ زوجاته أن يَتْبَعْنَهُ إلى الموت... [وإذا اختارت البقاء فـ]وفق القانون البرهميّ أن تظل بغير زواج، وأن تحلق شعرها، وتحيا حياتها (إذا لم تؤثر لنفسها القتل في نار زوجها) معنيّة بأطفالها، ومشتغلة بأعمال البرّ والإحسان»(١).

٢- **وفي الحضارة الصّينيّة القديمة:** تترك البنات في المزارع، لتموت في الجليد، أو تكون غذاءً للحيوانات؛ قال ول ديورانت: «وكان الآباء يدعون في صلواتهم أن يرزقوا أبناء، وكان من أشدّ أسباب المذلّة الدّائمة للأمّهات ألا يكون لهن أبناء ذكور؛ لأنَّ هؤلاء أقدر من البنات على العمل في الحقول، وأثبت منهنّ جناناً في ميدان القتال... وكانت البنات تعدّ عبئاً على الآباء؛ لأنَّهم يربونهنّ ويصبرون على تربيتهنّ، ولا ينالهم من ذلك إلا أن يبعثوا بهنّ متى كبرْنَ إلى بيوت أزواجهن؛ ليعملْنَ فيها، ويلدن أبناء يكدّون لأسر غير أسرهم، وإذا وُلِدَ للأسرة بنات أكثر من حاجتها، وصادفت الأسرة الصّعاب في إعالتهن تركتهنّ في الحقول؛ ليقضي عليهن صقيع اللّيل أو الحيوانات الضّارية دون أن تشعر بشيء من وخز الضَّمير»(٢).

٣- **وأمّا في الحضارة اليابانيّة:** فلم يكن حال المرأة بأحسن من حالها في

---

(١) قصّة الحضارة: ١٨٢/٣-١٨٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢٦٦/٤.

الحضارة الهندية والصينية، فقد كان من حق الأب «أن يبيع أبناءه أو بناته في سوق النّخاسة، أو سوق الدّعارة، وفي مستطاعه أن يطلّق زوجته بكلمة واحدة... ثمّ انتشرت نظريّة أهل الصّين في إخضاع المرأة للرّجل، حين انتشر النّظام الإقطاعيّ الحربيّ... وأَذْعَنَ النّساء «للطّاعات الثّلاث» - الولد والزوج والابن - وأوشك النّاس ألا يضيعوا جهدهم في تعليم النّساء... والبنات ليس من حقّهنّ أن يرثن شيئاً»[١].

٤- وأمّا في الحضارة اليونانيّة فقد كانوا «ينظرون إلى النّساء نظرة نفعيّة، فيجدون أكثر فائدة لهنّ في البيت. وتتّفق الصّبغة الشّرقيّة الّتي اصطبغ بها الزّواج اليونانيّ مع نظام العزلة الأتكيّة (Attic)، فهذا الزَّواج يقطع الصّلة بين العروس وأقاربها، فتذهب لتعيش عيشة لا تكاد تختلف عن عيشة الخدم في بيت غير بيتها، تعبد فيه آلهة غير آلهتها، ولم يكن في مقدورها أن تتعاقد على شيء، أو أن تستدين أكثر من مبلغ تافه، أو أن ترفع قضايا أمام المحاكم... أمّا أرسطوفان فيسخر منهنّ بألفاظ وقحة صاخبة»[٢].

٥- وفي الحضارة الرّومانيّة الّتي تعدّ من أقدم الحضارات في وضع القوانين، والّتي قد وضعت القانون سنة أربعمائة قبل الميلاد، ورغم ذلك فقد كانت المرأة فاقدة لأيّ اختيار في وجودها وكرامتها، «وبالجملة كانت المرأة عندهم طفيليّة الوجود تابعة الحياة في المجتمع (المجتمع المدنيّ والبيتيّ) زمام حياتها وإرادتها بيد ربّ البيت من أبيها إن كانت في بيت الأب، أو زوجها إن كانت في بيت الزَّوج، أو غيرهما، يفعل بها ربّها ما يشاء، ويحكم فيها ما يريد، فربّما باعها، وربّما

(١) قصّة الحضارة: ٦٢/٥-٦٤.

(٢) المصدر نفسه: ١١٧/٧-١١٩.

وهبها، وربّما أقرضها للتّمتّع، وربّما أعطاها في حقّ يراد استيفاؤه منه كدين وخراج ونحوهما، وربّما ساسها بقتل أو ضرب أو غيرهما، وبيده تدبير مالها إن ملكت شيئاً بالازدواج أو الكسب مع إذن وليّها لا بالإرث؛ لأنَّها كانت محرومة منه، وبيد أبيها، أو واحد من سراة قومها تزويجها، وبيد زوجها تطليقها»[1].

٥- وفي الحضارة البابليّة: تعرض البنات للبيع، والزّواج كالسّلع.

٦- وفي الحضارة السّومريّة: للزّوج أن يبيع زوجته إذا أرهقه الدّين.

٧- وفي المجتمعات العربيّة قبل الإسلام كانت البنت توأد، وتعدّ ولادتها انتكاسة للرّجل، يصف ذلك القرآن الكريم: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[2].

«كانت العرب لا ترى للمرأة استقلالاً في الحياة، ولا حرمة، ولا شرافة، إلا حرمة البيت وشرافته، وكانت لا تورث النّساء، وكانت تُجَوّز تعدّد الزّوجات من غير تحديد بعدد معيّن كاليهود، وكذا في الطّلاق، وكانت تئد البنات، ابتدأ بذلك بنو تميم لوقعة كانت لهم مع النّعمان بن المنذر، أسّرت فيه عدّة من بناتهم، والقصة معروفة فأغضبهم ذلك، فابتدروا به، ثمّ سرت السّجيّة في غيرهم، وكانت العرب تتشاءم إذا ولدت للرّجل منهم بنت يعدها عاراً لنفسه، يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به، لكن يسره الابن مهما كثر ولو بالدّعاء والإلحاق حتّى أنَّهم كانوا يتبنون الولد لزنا محصّنة ارتكبوه، وربّما نازع رجال من صناديدهم، وأولي الطَّول منهم

(١) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٢/٢٦٥.

(٢) النَّحل: ٥٨-٥٩.

في ولد ادَّعاه كلّ لنفسه»[١].

٨- وفي الحضارة الفارسيّة القديمة «كان للزّوج حقّ الولاية على أموال الزّوجة، ولم يكن يحقّ للزّوجة أن تتصرّف في أموالها بدون إذن زوجها، بل أنَّ القانون لم يعترف بالشّخصيّة القانونيّة الحقوقيّة إلا للزّوج فقط، وكان للزّوج أن يشرك زوجته في أموره وأمواله بمقتضى سند قانونيّ، فبمقتضى هذا السّند تصبح الزّوجة شريكة في أموال الزّوج، وكان لها حينئذٍ أن تتصرّف فيها كزوجها، وبهذه الصورة فقط كانت الزّوجة تستطيع أن تعقد معاملة صحيحة مع شخص آخر غير زوجها»[٢].

٩- وفي الدّيانة المسيحيّة: «إنَّ المرأة ينبوع المعاصي، وأصل السّيّئة والفجور، وهي للرّجل باب من أبواب جهنم، من حيث هي مصدر تحريكه، وحمله على الآثام، ومنها انبجست عيون المصائب الإنسانيّة جمعاء... [وهي] سلاح إبليس الّذي لا يوازيه سلاحٌ من أسلحته المتنوّعة... ودونك ما قاله ترتوليان (Tertullian) أحد أقطاب المسيحيّة الأوّل وأئمّتها مبيّناً نظريّة المسيحيّة في المرأة: إنَّها مدخل الشَّيطان إلى نفس الإنسان، وإنَّها دافعة بالمرء إلى الشَّجرة الممنوعة، ناقضة لقانون الله، ومشوّهة لصورة الله - أي الرّجل -.

وكذلك يقول كرائي سوستام (Chry Sostem) الّذي يعدّ من كبار أولياء الدّيانة المسيحيّة في شأن المرأة: هي شرٌّ لا بدَّ منه، ووسوسة جبليّة، وآفة مرغوب فيها، وخطر على الأسرة والبيت، ومحبوبة فتّاكة، ورزء مطليٌّ مموّهٌ.

أمّا نظريّتهم الثّانية في باب النّساء، فخلاصتها أنَّ العلاقة الجنسيّة بين الرّجل

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٢/٢٦٧.

(٢) الشّهيد الشّيخ مرتضى مطهّري، الإسلام وإيران: ٢٣٠.

والمرأة هي نجسٌ في نفسها يجب أن تتجنّب، -ولو كانت عن طريق نكاح، وعقد رسميّ مشروع - هذا التصور «الرهبنيّ» للأخلاق»[١].

قال ول ديورانت: «من مراحل اللاهوت المسيحيّ: إنَّ مصدر العار هو المرأة، ومصدر العناء في الجهاد هو المرأة، ومصدر الوجود الدّنيويّ هو المرأة، وإذن فإيّاك والمرأة.

وفي فقرة أخرى نقرأ: إنَّ المرأة لا تقتصر قدرتها على تضليل الأحمق عن جادّة السَّبيل في هذه الحياة، بل هي كذلك قادرة على تضليل الحكيم، فهي تستطيع أن تمسك بزمامه، وأن تخضعه لشهوته أو لغضبته»[٢].

١٠- وعند اليهود: المرأة أَمرّ من الموت، وإنَّ الصّالح أمام الله ينجو منها.

وعلى العموم قال ول ديورانت: «لم يكن للمرأة حتّى سنة ١٩٠٠ أو ما يقرب من ذلك أيّ حقوق يرتبط الرّجل قانونيّاً باحترامها. وفي القرن التّاسع عشر كان نساء أفريقيا يشترَيْنَ ويبعْنَ كالرّقيق أو كالآلات الزّراعيّة، وكن في جزر تاهيتي وبريطانيا الجديدة يرضعْنَ الخنازير»[٣].

وقال: «ومن منّا نحن الرّجال لم يستمتع بقراءة كتاب شوبنهور «مقال عن النّساء» حيث يقول: «هذا الجنس القميء، ضيّق الكتفين، عريض الحقوتين، قصير الرّجلين؟»، ألم تملأنا نشوة التّفوّق حين نصحنا نيتشه قائلاً: إذا أقبلْتَ على المرأة فلا تنسَ أن تحمل سوطك»[٤].

---

(١) أبو الأعلى المودوديّ، الحجاب: ٢١-٢٢.

(٢) قصّة الحضارة: ١٧٨/٣.

(٣) ول ديورانت، مباهج الفلسفة: ٢٠١/١.

(٤) المصدر نفسه.

وعلى أنقاض الحضارة المسيحيّة جاءت الحضارة المادّيّة على عكسها تماماً، إذ إنَّ المسيحيّة عدّت الرّهبانيّة (العزوبة والكبت) رمزاً لسموّ الإنسان؛ ولهذا جاءت حالة التّحلّل، والخلاعة، والمشاعيّة الجنسيّة ردّة فعل على ما أقدمت عليه الكنيسة، فأعيدت المرأة إلى حياة الغاب، وأصبحت سلعة ودعاية تجاريّة تلصق صورتها المبتذلة على البضائع، ليكون رمزاً للدّعاية التّجاريّة.

«المهمُّ هنا أن نقرّر جموح النَّظرة إلى المرأة بعد انقلاب أوروبا من نير الكنيسة، والتّصوّرات الكنسيّة، وشرودها - إبان هذا - عن الله، وعن منهجه في الحياة، والفصل بين اللّذّة الجنسيّة في علاقات الجنسين، وأهدافها الإنسانيّة، ثمّ أهدافها الحيوانيّة أيضاً»[١].

وبذلك أطلقوا العنان بما يسمّى بتحرير المرأة؛ لتحطّم القيم الأخلاقيّة والفطريّة كلّها، وتفكّك عرى الرّوابط العائليّة، «وتحرّرت المرأة... وتحرّر النّاس من قيود الدّين، والأخلاق، والتّقاليد.. وأصبحت الإباحيّة ديانة معترفاً بها، تيسّرها الدَّولة، وتقوم بها، وترخّص بمزاولتها في كلّ مكان.. وتجنّد - تحت سمعها وبصرها - جميع القوى للدَّعوة إليها، كتباً، وبحوثاً، وقصصاً، وصحافةً، وإذاعةً، وسينما، وتليفزيون»[٢].

قال ول ديورانت: «إنَّنا نواجه مرّة أخرى تلك المشكلة الَّتي أقلقت بال سقراط، نعني: كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعيّة تحلّ محلّ الزّواجر العلويّة الّتي بطل أثرها في سلوك النّاس؟ **إنّنا نبدّد تراثنا الاجتماعيّ بهذا الفساد الماجن...**»[٣].

(١) سيّد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة: ٧٧.

(٢) محمّد قطب، جاهليّة قرن العشرين: ١٧٤.

(٣) مباهج الفلسفة: ١/٦-٧.

وقال أيضاً: «لقد ركبت المرأة رأسها، وشقَّت طريقها، ولا يمكننا اليوم أن نضربها، ولن تطهي لنا الطّعام، بل لن تبقى إلى جانبنا في البيت ليلةً واحدةً، وبدلاً من القلق على خطايانا، فهنّ في شغل بخطاياهنّ، لقد كسبن نفوساً وأصواتاً في الوقت نفسه الّذي يبدو أنَّ الرّجال قد فقدوا النّفوس، ونسوا الأصوات. فالمرأة تدخّن، وتحلف، وتشرب، وتفكّر، على حين يجلس الرّجل الفخور الَّذي احتكر في الماضي تلك الفنون في البيت يشرف على تربية الطّفل»[1].

وقال سيّد قطب عن رحلته إلى أمريكا: «قالت لي إحدى فتيات الأمريكيّات في معهد المعلّمين (جريلي كولورادو) في أثناء مناقشة عن الحياة الاجتماعيّة في أمريكا: إنَّ مسألة العلاقات الجنسيّة مسألة بيولوجيّة بحتة، وأنتم - الشّرقيّون - تعقّدون هذه المسألة البسيطة بإدخال العنصر الأخلاقيّ فيها، فالحصان والفرس، والثّور والبقرة، والكبش والنّعجة، والدّيك والفرخة... لا يفكّر أحدٌ منها في حكاية الأخلاق هذه، وهو يزاول الاتّصال الجنسيّ، ولذلك تمضي حياتها سهلة بسيطة مريحة!!!»[2].

ولم يكتفوا بهذا التّحلّل كلّه، بل تجاوزوا لما هو أفظع وأشنع، فشرَّعوا الزّواج المثليّ على مرأى ومسمع من العالم كلّه، وأقرّه البرلمان البريطانيّ، وأصبح اليوم أمراً شائعاً في أغلب البلدان الغربيّة تشرّع له القوانين، وتجري له العقود بين رجل ورجل، وبين امرأة وامرأة، ولم يعد الأمر مستنكراً حتّى من بعض المؤسّسات الدّينيّة، بحجّة التّحرّر من القيود الأخلاقيّة والاجتماعيّة، وليس لأحد الحقُّ في التّدخّل بحقوق الآخرين الخاصّة؛ فالإنسان حرٌّ بتصرّفاته الخاصّة به ما دام لم تؤثّر

(١) مباهج الفلسفة: ٢٠٢/١.

(٢) الإسلام ومشكلات الحضارة: ٧٧.

على حقوق الآخرين.

هذه هي طبيعة التّفكير الغربيّ في العلاقة مع المرأة علاقة حيوانيّة لا غير، قال ول ديورانت: «ولمّا كان زواجهما [الرّجل والمرأة في المجتمع الحديث] ليس زواجاً بالمعنى الصَّحيح - لأنَّه صلة جنسيّة لا رباط أبوّة - فإنَّه يفسد لفقدانه الأساس الَّذي يقوم عليه، ومقوّمات الحياة. يموت هذا الزّواج لانفصاله عن الحياة، وعن النّوع، وينكمش الزّوجان في نفسيهما وحيدين كأنَّهما قطعتان منفصلتان، وتنتهي الغَيريّة الموجودة في الحبّ إلى فرديّة يبعثها ضغط حياة المساخر، وتعود إلى الرّجل رغبته الطّبيعيّة في التّنويع، حين تؤدّي الألفة إلى الاستخفاف، فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر ممّا بذلته»(١).

الْمَرْأَةُ فِي الإِسْلامِ:

أمّا موقع المرأة في الإسلام، فيختلف اختلافاً جوهريّاً عن كلّ الدّيانات والمذاهب الاجتماعيّة بما جعل لها من مكانة، وما منحها من كرامة.

«وقد أسّس الإسلام كلّ تشريعاته بالنّسبة للمرأة على أساس التفاته إلى هاتين النّكتتين، أعني كون المرأة مساوية للرّجل في الإنسانيّة، وحقوق الإنسانيّة من ناحية، وكونها مختلفة عنه في الخلقة سيكولوجيّاً وفيسيولوجيّاً من ناحية أخرى»(٢)، ونستطيع إثبات ذلك من خلال استقراء الآيات والأحاديث الواردة في هذا الشأن، وبيان ذلك بما يأتي:

١- من ناحية التّكوين هي إنسان مخلوق كالرّجل، بل هي معه من نفس

---

(١) مباهج الفلسفة: ٢٢٥/١.

(٢) السّيّد كاظم الحائريّ، القضاء في الفقه الإسلاميّ: ٧٤.

واحدة سواء بسواء، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[1]، فهي ليست جنساً آخر، وإنَّما هي من طينة الرّجل، وليس جزءً مكملاً وكماليّاً، وإنَّما هي عنصرٌ أساسي في المجتمع، وليس جنساً منحطّاً كما صورَّته بعض الحضارات.

٢- تساويها مع الرَّجل في العلاقة مع الله، من ناحية الواجبات، ومن ناحية الجزاء، يقول تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[2].

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[3].

٣- إنَّ العلاقة بين الرّجل والمرأة ليست علاقة نزوة حيوانيّة، ولا تسخير واستعباد، وإنَّما هي ضرورة يكمل بعضها الآخر، فهي سَكَنٌ للرّجل، وهذا السّكن يرتبط بأعظم الرّوابط الإنسانيّة، وأشدّها تأثيراً في حياته، وهي: الحبّ، والمودّة، والرّحمة، وتعبير ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ رائعة من روائع الفكر الإسلاميّ الّذي يجسّد

(١) النّساء: ١.

(٢) آل عمران: ١٩٥.

(٣) الأحزاب: ٣٥.

الرّوح الإنسانيّة، ويجعل العلاقة الزّوجيّة رباطاً إنسانيّاً مقدّساً يربط بين قلبين يألف أحدهما الآخر، ويأوي إليه ليستظلّ به، ويجد في ظلاله السّكينة، والرّاحة، والاطمئنان، فلم يجعل العلاقة علاقة شهوة جسديّة وحسب، وإنّما هي علاقة أنس، واستئناس، ومحبّة، وألفة؛ لتكمل سعادة البعض بالبعض الآخر، يقول تعالى: ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾(١).

تلك هي العلاقة الزّوجيّة الّتي أودعها الله تعالى: سكن للنّفوس، وراحة للأجسام، واطمئنان للقلوب، وأُنس للأرواح... وما أطيب تلك الحالات للإنسان: السَّكن، والرّاحة، والاطمئنان، والأنس، والتّناسل، كلّ ذلك مرتبط برباط الرّحمة، والمودّة، والحبّ؛ ولهذا وردت الأحاديث الكثيرة في التّأكيد على حبّ النّساء حتّى قال رسول الله ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلاث: النِّساءُ، وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصَّلاة**»(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**ما أَظُنُّ رَجُلاً يَزْدادُ في الإيمانِ خَيْراً إلا ازْدادَ حُبّاً للنِّساء**»(٣).

وعنه عليه السلام: «**مِنْ أَخْلاقِ الأَنْبياءِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِمْ - حُبُّ النِّساء**»(٤).

بل إنَّ حبّ النّساء يزيد الإيمان قال الصّادق عليه السلام: «**الْعَبْدُ كُلّما ازْدادَ**

---

(١) الرّوم: ٢١.

(٢) الصّالحيّ الشّاميّ، سبل الهدى والرَّشاد: ٩/٩٣.

(٣) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١٠/٥٦١، ح/٩٤٢٠.

(٤) المصدر نفسه: ح/٩٤١٩.

للنِّساء حُبّاً ازْدادَ في الإيمان فَضْلاً»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[٢] دلالة على أنَّ الرّجل والمرأة بعضهم يحمي بعضاً، وبعضهم يستر البعض سواء بسواء، وكأنَّ أحدهما من دون الآخر عارٍ من السّتر يتعرّض للأخطار والمنزلقات، فكما أنَّ «اللّباس يحفظ الجسم من الحرّ والبرد، وأنواع الأخطار من جهة، ويستر عيوب الجسم من جهة أخرى، أضف إلى أنَّه زينة للإنسان، وتشبيه الزّوج باللّباس يشمل كلّ هذه الجوانب، الزّوجان يحفظ كلّ منهما الآخر من الانحراف والعيوب، ويوفّر كلّ منهما سبل الرّاحة والطّمأنينة للآخر، وكلّ منهما زينة للآخر، هذا التّعبير يوضّح غاية الارتباط المعنويّ بين الرَّجل والمرأة ومساواتهما في هذا المجال، فالتّعبير جاء للرّجل كما جاء للمرأة»[٣].

٤- من ناحية الحقوق والواجبات: فقد وازن الإسلام بين حقوق المرأة وواجباتها، ولم يرجّح أحدهما على الآخر لتأخذ حقّها الطّبيعيّ، وتؤدّي واجباتها تجاه زوجها ومجتمعها، وبذلك تتمّ سعادتها ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٤].

ومن حقوقها الّتي منحها الإسلام لها:

أ- حقّ التّعليم: ورد في الحديث الشَّريف: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلى كُلِّ

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٣٨٤/٣، ح/٤٣٥١.

(٢) البقرة: ١٨٧.

(٣) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٤٧١/١.

(٤) البقرة: ٢٢٨.

مُسْلِمٍ ومُسْلِمَة»[١].

ب- حقّ العمل: أجاز للمرأة أن تعمل في الأعمال المباحة، ولم يفرّق في ذلك بين المرأة والرّجل، إلا أنَّ المرأة المتزوّجة لا بدَّ لها أن تستأذن زوجها في العمل بما لا يتضارب مع حقوقه الخاصّة.

ج- الحقوق السّياسيّة: منح المشرع الإسلاميُّ المرأة انتخاب رئيس الدّولة، وممثّلي الأمّة في البرلمان كما منحها للرّجل بدرجة متساوية، وتشارك في النَّشاط الاجتماعيّ، ولها أن تشغل المناصب الوزاريّة، والبرلمانيّة، والسّياسيّة المختلفة ما عدى القضاء، ورئاسة الدّولة لحالة تكوينيّة في **فسلجتها**، جاء في مقدّمة دستور الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة:

«فالأسرة هي اللّبنة الأساسيّة للمجتمع، والمهد الطّبيعيّ لنموّ الإنسان، وتقدّمه، وعليه فالاتّحاد في العقيدة والهدف أمرٌ أساسيٌّ في تشكيل الأسرة، ويعتبر الممهّد الأساس لحركة الإنسان نحو التّكامل والنّموّ، وعلى الحكومة الإسلاميّة أن توفّر الأرضيّة اللازمة لنيل هذه الغاية.

وبهذا المفهوم عن الأسرة تخرج المرأة عن كونها شيئاً جامداً، أو أداة عمل تستخدم في إشاعة روح الاستهلاك، والاستغلال الاقتصاديّ، وضمن استعادة المرأة مسؤوليّة الأمومة المهمّة والقيّمة؛ فإنَّها تعقد العزم على تربية الإنسان المؤمن، وتشارك الرّجلَ في ميادين الحياة العمليّة، وبالتّالي تتقبّل المرأة مسؤوليّات أكبر وتحصل - بنظر الإسلام - على قيمة وكرامة أرفع»[٢].

---

(١) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٤/١؛ بحار الأنوار للمحدّث المجلسيّ: ٦٨/٧٠.

(٢) دستور الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران: ١٥-١٦.

وقد فصَّل الدّستور تأمين حقوق المرأة في المجالات كلّها في المادة الحادية والعشرين[١].

٥- الحقوق المدنيّة: للمرأة حقٌّ قانونيٌّ كالرَّجل، فلها أن تبيع، وتشتري، وتهب، وتعقد، وتأخذ، وتعطي... فقد أوضح القرآن الكريم حقّ المرأة والرَّجل في أصل الملكيّة، والكسب، والميراث، يقول تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾[٢].

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾[٣].

٦- حقّ اختيار الزّوج: لمّا كان الزّواج في الإسلام عمليّة تفاعل روحيّ، وارتباط نفسيّ، مفعم بالمودّة والرّحمة يجذب المرأة للرّجل وبالعكس، ويشدّ أحدهما إلى الآخر لبناء خليّة اجتماعيّة بَنّاءة ضمن نظام شرعيّ مؤطّر بإطار أخلاقيّ وروحيّ يضمن حقَّ الطَّرفين، بشكل دقيق، ولذا جعل الاختيار والموافقة بيد كلّ منهما، فليس لأحد أن يجبر المرأة سواء كانت بنتاً أو أختاً، أو غير ذلك على الزَّواج من أحد بالإكراه، بل عدَّ الإكراه على الزَّواج سواء كان للمرأة أو الرجل عملاً محرماً؛ وأمّا ولاية الأب والجدّ، فمن باب الرّعاية الأبويّة العطوفة، والمشورة الهادفة، والنَّصيحة الخالصة، وهل هناك أنصح للبنت من أبيها، وإلا فأمرها بيدها.

---

(١) ينظر: دستور الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران: ٤٠.

(٢) النّساء: ٧.

(٣) النّساء: ١١.

روى زُرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إذا كانَت الْمَرْأَةُ مالكَةً أَمْرَها، تَبيعُ، وتَشْتَري، وتَعْتقُ، وتَشْهَدُ، وتُعْطي منْ مالها ما شاءَتْ، فَإنَّ أَمْرَها جائزٌ تزوَّجُ إنْ شاءَتْ بغَيْرِ إذْنِ وَليِّها، وإنْ لَمْ يَكُنْ كَذلكَ فَلا يَجوزُ تَزْويجُها إلا بأَمْرِ وَليِّها**»[1].

وعن الصّادق عليه السلام أنَّه قال: «**تَسْتَأْمرُ الْبكْرُ وَغَيْرُها، وَلا تُنْكَحُ إلا بأَمْرِها**»[2].

وعلّل العلامة الحلّيّ ذلك بقوله: «ولأنَّ ولاية المال قد زالت، فتزول ولاية النّكاح عنها؛ لأنَّها إحدى الولايتين المنوطتين بالبلوغ والرُّشد»[3].

فولاية الأب والجدّ هي ولاية استشاريّة لحفظ البنت من الانخداع لقلّة تجربتها، وليس لوليّها أن يمنعها من الزّواج من الكفء إذا رغبت ذلك شريطة أن تكون رشيدة مالكة أمرها، قال المحقّق الحلّيّ: «أمّا إذا عضلها[4] الوليّ، وهو أن لا يزوّجها من كفء مع رغبتها، فإنَّه يجوز لها أن تزوّج نفسها، ولو كرها إجماعاً؛ ولا ولاية لهما: على الثّيّب مع البلوغ والرّشد، ولا على البالغ الرَّشيد»[5].

نعم للوليّ الحقّ أن يتدخّل فيمنع زواج المُولّى عليها إذا اختارت غير الكفء لفقدان شرط الكفاءة، ولما فيه من غضاضة، ونقص، وعيب في العرض ورغم ذلك لو خالفت وعقدت نفسها كان العقد صحيحاً، قال المحقّق الجواهريّ:

---

(١) الشّيخ الطّوسيّ، تهذيب الأحكام: ٤٣٨/٧.

(٢) المصدر نفسه: ٤٣٩/٧.

(٣) العلامة الحلّيّ، مختلف الشّيعة: ٩٨/٧.

(٤) قال الجوهريّ: «يقال: عضل الرّجل أيمه، إذا منعها من التّزويج... وعضَّلت عليه تعضيلاً إذا ضيَّقت عليه في أمره، وحلت بينه وبين ما يريد»، الصّحاح: ١٧٦٧/٥، (عضل).

(٥) المحقّق الحلّيّ، شرائع الإسلام: ٢١٣/٤.

«وليس من العضل المنع من تزويج غير الكفء شرعاً، بل النّكاح معه فاسدٌ بناءً على ما تعرفه من اشتراط الكفاية في صحّة النّكاح، بل لعلَّ المنع من غير الكفء عرفاً للضّعة ونحوها ليس بعضل، فلا يبعد جواز منع الوليّ عن ذلك، حتّى على المختار من عدم الولاية لأحد عليها إذا كان في ذلك غضاضة، ونقص، وعيب في العرض، وإن كان لو خالفت وعقدت نفسها كان العقد صحيحاً، ولو عضلها الأب دون الجدّ أو بالعكس سقطت ولاية من عضل دون الآخر»(١).

أضف إلى ذلك: إنَّ الإسلام يَسَّرَ الزّواج، فحارب كلّ العادات الجاهليّة الَّتي تعيق سبيله، فأجاز للعربيّ أن يتزوّج من الأعجميّ، وللغنيّ أن يتزوّج من الفقير، وبالعكس، وحارب غلاء المهور، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**خَيْرُ نساء أُمّتي أَصْبَحهنَّ وُجوهاً، وأَقَلُّهنَّ مُهوراً**»(٢)، وقال صلى الله عليه وآله: «**فَأَمّا الْمَرْأَةُ فَشُؤْمها غَلاءُ مَهْرِها**»(٣).

وحارب الاعتبارات الّتي تعيق الزّواج، وجعل المقياس الأساسي في الكفاءة، والإيمان، وحسن الخلق، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إذا جاءَكُم مَنْ تَرْضَوْنَ خُلقَهُ وَدينَهُ فَزَوِّجوهُ، إلا تَفْعَلوه تَكُنْ فتْنَةٌ في الأَرْضِ، وفَسادٌ كَبيرٌ**»(٤).

والقصّة الآتية خيرَ دليل على ما نقول، فقد زوَّج رَسول الله صلى الله عليه وآله جويبراً وهو من أصحاب الصّفّة الّذين لا يملكون مالاً، ولا داراً، بل - بعضهم - ولا نسباً عربيّاً؛ فقد روى أبو حمزة الثّماليّ عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**إنَّ رَجلاً**

---

(١) الشَّيخ محمّد حسن الجواهريّ، جواهر الكلام: ١٨٤/٢٩.

(٢) عبد الله بن عديّ الجرجانيّ، الكامل في ضعفاء الرّجال: ٢٣٨/٣.

(٣) الشَّيخ الصَّدوق، معاني الأخبار: ١٥٢.

(٤) تهذيب الأحكام: ٤٥٧/٧.

كانَ منْ أَهْلِ الْيمامَة - يقالُ لهُ: جوَيْبرٌ - أتى رَسولَ الله ﷺ منْتَجعاً للإسْلام(١)، فَأَسْلَمَ وحَسُنَ إسْلامُه، وكانَ رَجُلاً قصيراً دميماً محْتاجاً عارياً...

وإنَّ رَسولَ الله ﷺ نَظَرَ إلى جوَيْبر ذات يوْمٍ برحْمَة منْهُ لَهُ، ورقَّة عَلَيْه، فقال لَهُ: يا جوَيْبرُ، لَوْ تزوَّجْتَ امْرَأَةً، فعفَفْتَ بها فَرْجَك، وأعانَتْك على دنْياكَ وآخرتك.

فَقال لَهُ جوَيْبرٌ: يا رَسولَ الله، بأَبي أَنْتَ وأُمّي، مَنْ يرْغَبُ فيَّ؟ فوَالله ما منْ حَسَبٍ، ولا نَسَبٍ، ولا مال، ولا جمال، فَأَيَّةُ امْرأَة تَرْغَبُ فيَّ؟

فَقال لَهُ رَسولُ الله ﷺ: يا جوَيْبر، إنَّ الله قَدْ وَضَعَ بالإسْلام منْ كانَ في الْجاهليَّة شَريفاً، وَشَرَّفَ بالإسْلام منْ كانَ في الْجاهليَّة وَضيعاً، وأَعَزَّ بالإسْلام منْ كانَ في الْجاهليَّة ذَليلاً، وأَذْهَبَ بالإسْلام ما كانَ منْ نَخْوَة الْجاهليَّة، وتَفاخُرِها بعشائرها، وباسق أَنْسابها، فالنّاسُ الْيوْمَ كُلُّهمْ - أَبْيَضُهمْ، وأَسْوَدُهمْ، وقرشيُّهمْ وعربيُّهمْ، وعَجميُّهمْ - منْ آدم، وإنَّ آدمَ خلقَهُ اللهُ منْ طين، وإنَّ أَحبَّ النّاس إلى الله - عزَّ وجلَّ - يوْمَ الْقيامَة أَطْوعهم له وأَتْقاهمْ، وما أَعْلَمُ يا جوَيْبرُ لأَحَدٍ منَ الْمسْلمينَ علَيْكَ الْيوْمَ فضْلاً إلا لمنْ كانَ أَتْقى لله منْك وأَطْوع.

ثُمَّ قال لَهُ: انْطَلقْ يا جوَيْبرُ إلى زياد بْن لَبيد، فَإنَّهُ منْ أَشْرَف بَني بَياضَةَ حَسَباً فيهمْ، فَقُلْ لَهُ: إنّي رَسولُ رَسولِ الله إلَيْكَ، وَهوَ يقولُ لَك: زَوِّجْ جوَيْبراً ابْنَتَكَ الذَّلْفاءَ».

قال: «فَانْطَلَقَ جوَيْبرٌ برسالَة رَسولِ الله ﷺ إلى زياد بْن لَبيد، وَهوَ

(١) أي طالباً للإسلام.

في مَنْزِله، وجَماعةٌ منْ قَوْمه عنْدَه، فاسْتَأْذَنَ، فأُعْلِم، فَأذن لَه، فَدخل، وسَلَّم عَلَيْه، ثُمَّ قال: يا زيادُ بْن لَبيد، إنّي رَسولُ رسول الله ﷺ إلَيْكَ في حاجةٍ لي، فَأَبوحُ بها أمْ أَسَرُّها إلَيْك؟

فَقال لَه زيادٌ: بلْ بحْ بها؛ فإنَّ ذلك شَرَفٌ لي وفَخْرٌ.

فَقال لَه جُوَيْبرٌ: إنَّ رَسولَ الله ﷺ يقولُ لَك: زوِّجْ جُوَيْبراً ابْنَتكَ الذَّلْفاءَ.

فَقال لَه زيادٌ: أَرَسولُ الله أَرْسَلَكَ إلَيَّ بهذا يا جُوَيْبرُ؟

فَقال لَه: نَعَمْ، ما كُنْتُ لأَكْذبَ عَلى رَسول الله ﷺ.

فَقال لَه زيادٌ: إنّا لا نُزوِّجُ فَتَياتنا إلا أَكْفاءَنا من الأَنْصار، فانْصرفْ يا جُوَيْبرُ حتّى أَلْقى رَسولَ الله ﷺ، فَأُخْبرَهُ بعُذْري.

فَانْصَرَفَ جُوَيْبرٌ، وهُوَ يَقول: وَالله ما بهذا نزَلَ الْقُرْآنُ، ولا بهذا ظَهَرَتْ نُبوَّةُ مُحَمَّد ﷺ، فَسمعتْ مقالَتَهُ الذَّلْفاءُ بنْتُ زياد، وَهيَ في خدْرها، فَأَرْسَلَتْ إلى أَبيها: ادْخُلْ إليَّ، فدخَلَ إلَيْها، فَقالَتْ لَهُ: ما هذا الْكلامُ الَّذي سمعْتُهُ منْكَ تُحاورُ به جُوَيْبراً؟ فقالَ لَها: ذَكَر لي أَنَّ رسولَ الله ﷺ أَرْسَلَهُ، وَقالَ: يَقولُ لَكَ رَسولُ الله ﷺ: زَوِّجْ جُوَيْبراً ابْنَتَكَ الذَّلْفاءَ، فقالَتْ لَهُ: وَالله ما كانَ جُوَيْبرٌ ليَكْذبَ عَلى رَسول الله ﷺ بحَضْرَته، فَابْعَث الآنَ رَسولاً؛ يردْ عَلَيْكَ جُوَيْبراً، فَبَعَثَ زيادٌ رَسولاً، فَلَحقَ جُوَيْبراً، فقالَ لَهُ زيادٌ: يا جُوَيْبر، مرْحَباً بك، اطْمَئنَّ حتّى أَعودَ إلَيْكَ.

ثُمَّ انْطَلَقَ زيادٌ إلى رَسول الله ﷺ، فَقالَ لَهُ: بأَبي أَنْتَ وأُمّي إنَّ جُوَيْبراً أَتاني برِسالَتكَ، وَقالَ: إنَّ رَسولَ الله ﷺ يَقولُ لَكَ: زَوِّجْ جُوَيْبراً

ابْنَتكَ الذّلْفاء، فَلَمْ أَلِنْ لَه بِالْقَوْل، ورَأَيْت لِقاءَك، ونَحْن لا نَتزوَّج إِلا أَكْفاءنا من الأَنْصار.

فقال لَه رسول الله ﷺ: يا زياد، جُويْبِر مُؤْمِن، والْمُؤْمِن كفْو لِلْمُؤْمِنة، والْمُسْلِم كَفْو لِلْمُسْلِمَة، فزوِّجْه يا زياد، ولا ترْغَب عنْه».

قال: «فرجع زياد إلى منْزله، ودخل على ابْنته، فَقال لَها ما سمعه منْ رَسول الله ﷺ، فَقالَتْ لَه: إِنَّك إِنْ عَصيْت رسول الله كفرْت، فزوِّجْ جُوَيْبِراً، فخرج زياد، فأَخذ بِيد جُويْبِر، ثُمَّ أَخْرجه إِلى قَوْمه، فزوَّجه على سُنَّة الله، وسُنَّة رسوله ﷺ، وضمن صداقه».

قال: «فجهَّزها زياد، وهيَّؤوها، ثُمَّ أَرْسَلوا إِلى جُوَيْبِر، فَقالوا لَه: أَلَك مَنْزِل، فَنسوقها إِلَيْك؟ فقال: واللهِ ما لي منْ منْزِل».

قال: «فَهيَّؤوها، وهيَّؤوا لَها منْزِلاً، وهيَّؤوا فيه فراشاً ومتاعاً، وكَسوا جُوَيْبِراً ثوْبَيْن، وأُدْخِلَت الذّلْفاء في بيْتها، وأُدْخِل جُوَيْبِر علَيْها معتِّماً[١]، فلَمّا رآها نظر إِلى بيْت ومتاع، وريح طَيِّبة، قام إِلى زاوية الْبيْت، فلَمْ يزلْ تالياً لِلْقرْآن، راكعاً وساجداً حتّى طلع الْفجْر، فلَمّا سمع النِّداء خرج، وخرجتْ زَوْجته إِلى الصَّلاة، فتوضَّأَتْ وصلَّت الصُّبْح، فَسُئلَتْ: هلْ مسَّك؟ فقالَتْ: ما زال تالياً لِلْقرْآن، وراكعاً وساجداً حتّى سمع النِّداء فَخرج، فَلَمّا كانت اللَّيْلَة الثّانية فَعل مثْل ذلك، وأَخْفَوْا ذلك منْ زياد، فَلَمّا كان الْيَوْم الثّالث، فعل مثْل ذلك، فَأُخْبِر بذلك أَبوها، فانْطَلَق إِلى رسول الله ﷺ، فقال لَه:

---

(١) معتّماً أي متأخّراً، أو سائراً في العَتَمة، وهي الثلث الأوّل من اللّيل بعد غيبوبه الشّفق، أو هي وقت صلاة العشاء، أو هي ظلمة اللّيل.

بأَبي أَنْتَ وأُمّي يا رَسولَ الله، أَمَرْتَني بتزْويج جُوَيْبر، ولا والله ما كانَ منْ مَناكحنا، ولكنْ طاعَتك أَوْجَبْتَ عليَّ تزْويجه، فَقال لَه النَّبيُّ ﷺ: فَما الَّذي أَنْكَرْتُمْ منْهُ؟ قال: إنّا هيَّأْنا لَهُ بيْتاً وَمَتاعاً، وأُدْخلَتْ ابْنَتي الْبيْت، وأُدْخل معَها مُعتِّماً، فَما كلَّمَها، ولا نَظرَ إلَيْها، ولا دنا منْها، بَلْ قامَ إلى زاويَة الْبَيْت، فَلَمْ يَزَلْ تالياً للْقُرْآن، راكعاً وَساجداً حَتّى سَمعَ النِّداءَ، فَخَرَجَ، ثُمَّ فَعَلَ مثْلَ ذلكَ في اللَّيْلَة الثّانيَة، ومثْلَ ذلكَ في اللَّيْلَة الثّالثة، ولَمْ يدْنُ منْها، ولَمْ يُكلِّمْها إلى أَنْ جئْتُكَ، وَما نَراهُ يُريدُ النِّساء، فانْظُرْ في أَمْرنا، فانْصَرَفَ زيادٌ.

وبَعَثَ رَسولُ الله ﷺ إلى جُوَيْبر، فَقالَ لَهُ: أَما تَقْرَبُ النِّساءَ؟ فَقالَ لَهُ جُوَيْبرٌ: أَوَما أَنا بفَحْلٍ؟ بَلى يا رَسولَ الله، إنّي لَشَبقٌ، نَهمٌ إلى النِّساء، فَقالَ لَهُ رسولُ الله ﷺ: قَدْ خُبِّرتُ بخلاف ما وَصَفْتَ به نَفْسَكَ، قَدْ ذَكَرَ لي أَنَّهُمْ هيَّؤوا لَكَ بيْتاً وفراشاً ومَتاعاً، وأُدْخلَتْ عَلَيْكَ فَتاةٌ حَسْناءُ عطرَةٌ، وأَتَيْتَ مُعتِّماً، فَلَمْ تَنْظُرْ إلَيْها، ولَمْ تُكلِّمْها، ولَمْ تدْنُ منْها، فَما دَهاكَ إذَنْ؟

فَقالَ لَهُ جُوَيْبرٌ: يا رَسولَ الله، دَخَلْتَ بيْتاً واسعاً، ورَأَيْتَ فراشاً، ومَتاعاً، وفَتاةً حَسناءَ عطرَةً، وذَكَرْتَ حالي الَّتي كُنْتُ علَيْها، وغُرْبَتي، وحاجَتي، ووَضيعتَي، وكسْوَتي مَعَ الْغُرَباء والْمساكين، فَأَحْبَبْتُ إذْ أَوْلاني اللهُ ذلكَ أَنْ أَشْكُرَهُ على ما أَعْطاني، وأَتَقرَّبُ إلَيْه بحَقيقَة الشُّكْر، فَنَهَضْتُ إلى جانب الْبَيْت، فَلَمْ أَزَلْ في صَلاتي تالياً للْقُرْآن، راكعاً وَساجداً أَشْكُرُ اللهَ تَعالى حَتّى سَمعْتُ النِّداءَ، فَخرَجْتُ، فَلَمّا أَصْبَحْتُ رَأَيْتُ أَنْ أَصومَ ذلكَ الْيوْمَ، فَفَعَلْتُ ذلكَ ثَلاثَةَ أَيّامٍ ولَياليها، ورَأَيْتُ ذلكَ في جَنْبِ ما أَعْطاني اللهُ

يَسيراً، وَلكنّي سَأُرْضيها، وَأُرْضيهمُ اللَّيْلَةَ إنْ شاءَ اللهُ.

فَأَرْسَلَ رَسولُ الله ﷺ إلى زِيادٍ، فَأَتاهُ، فَأَعْلَمَهُ ما قالَ جُوَيْبِرٌ، فَطابَتْ أَنْفُسُهُمْ».

قال: «**وَوَفى لَها جُوَيْبِرٌ بما قالَ، ثُمَّ إنَّ رَسولَ الله ﷺ خَرَجَ في غَزْوَةٍ لَهُ، وَمَعَهُ جُوَيْبِرٌ، فَاسْتُشْهِدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالى**»(١).

وهكذا فكلّ قوانين الزّوجيّة في الإسلام جاءت لتنظيم العلاقة المتوازنة بين المرأة والرّجل ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ**﴾(٢).

وكما جعل الإسلام القوامة للرّجل فقد ضمن لها حقوقاً أخرى عليه كالنَّفقة، والاحترام، واللُّطف، والمعاشرة بالمعروف، يقول تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾(٣)، وحتّى في حالة الخلاف بين الزّوجين جاء الأمر الإلهيّ للمؤمن أن يمسك المرأة بمعروف، أو يسرّحها بإحسان، يقول تعالى: ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**﴾(٤)، ويقول تعالى: ﴿**فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍ**﴾(٥).

وأمّا الأحاديث الواردة في التّوصية بالنّساء فكثيرة جداً، منها قوله ﷺ:

---

(١) الكافي: ٦١١/١٠-٦١٨، ح/٩٥٠٨.

(٢) البقرة: ٢٢٨.

(٣) النّساء: ١٩.

(٤) البقرة: ٢٣١.

(٥) البقرة: ٢٢٩.

«خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنا خَيْرُكُمْ لأَهْلي، ما أَكْرَمَ النِّساءَ إِلا كَريمٌ، وَلا أَهانَهُنَّ إِلا لَئيمٌ»(١).

وعَنه ﷺ: **«خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسائِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِنِسائي»**(٢).

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ٣١٣/١٣.

(٢) كتاب من لا يحضره الفقيه: ٤٤٣/٣، ح/٤٥٣٨.

الزّواجُ في الإسْلامِ

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

الزّوجيّة في الكون إحدى آيات الله تعالى في خلقه، فكلّ شيء في الكون زوجيّ التّكوين: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3].

فنظام الزّوجيّة أصلٌ من أصول الكون، جعله الله تعالى وسيلةً لتعادل الوجود، وتوازنه، وبقائه، واستمراره، «فمبدأ الزّوجية في الخلق آيات من آياته سبحانه شملت جميع خلقه من أصغر جُسَيم إلى أكبر مجرّة لتشهد على عظمة هذا الخالق المبدع المصوّر، ولتشهد لهذا القرآن إعجازه، وبأنّه كلامُ اللهِ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»[4].

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا

---

(١) النّساء: ١.

(٢) الذّاريات: ٤٩.

(٣) الرّعد: ٣.

(٤) الزّوجيّة في الكون، مقال على الشّبكة العنكبوتيّة، موقع المهندس مأمون عبد القادر شاهين.

يَعْلَمُونَ ﴾[١].

ويقول تعالى لنوح عليه السلام حين أمره أن يركب السّفينة؛ لِيُغرق الأرض ويطهّرها من الكافرين: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[٢].

فالخليقة كلّها أخضعت بتكوينها لهذا القانون؛ إنسانها ونباتها وحيوانها، بل جميع ما فيها من خلق الله بلا استثناء: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾[٣].

وخلاصة الكلام: «إنّ قانون الزوجية العامّة الَّذي يحكم عالم المادّة، هو أَهمّ القوانين التّكوينيّة لخلق العالم؛ لأنّ وجود عالم المادّة وبقاءه رهنٌ بهذا القانون»[٤].

وقد أكّد العلماء الباحثون في مكوّنات الأرض أنَّ جميع مكوّناتها وما ينبت فيها وما يدور عليها، بل كلّ ما في الكون خاضع لمبدأ الزّوجيّة، فـ«مبدأ الزّوجيّة يشكل القانون المؤسّس لنظام الكون مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[٥]، فإنَّ تجلّياته على مكوّنات الأرض الَّتي هي جزء من هذا الكون، تظهر على كلّ المستويات انطلاقاً من بلّوراتها الصّخريّة الَّتي من معدنها تُبعث الحياة؛ فالحجر الَّذي هو أصل تكوين الأرض إذا وقفنا على تحليله المعدنيّ من خلال الفحص المجهريّ لمركّباته، فسنجده يقوم أساساً على خاصّيّة التّبلّر

(١) يس: ٣٦.

(٢) هود: ٤٠.

(٣) النَّجم: ٤٥.

(٤) محمّد الرّيشهريّ، موسوعة العقائد الإسلاميّة: ١٨١/٣.

(٥) الذّاريات: ٤٩.

(Cristallisation)، وهي صفة تدلّ على تقابل وجيهات البَلْورَة في زوجيّة دقيقة التَّصميم، عجيبة التّماثل، تتجلّى من جميع الزّوايا عبر محور البلورة أو مركزها»[١].

ومن جملة من أخضع لهذا النّظامِ الدّقيقِ الإنسانُ، فمنذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام خلق معه زوجه، وقرنها به، وجعلها أُنساً له، وقال له: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

وفي رواية: «**قال اللهُ تبارَكَ وتَعالى: يا آدَمُ، هذه أَمَتي حَوّاءُ، أَفَتُحبُّ أَنْ تَكونَ معَكَ تُؤْنِسُكَ وتُحدِّثُك، وتَكونُ تبعاً لأَمْرِكَ؟ فَقالَ: نَعَمْ، يا رَبِّ، ولَكَ عليَّ بذلك الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ ما بَقيتُ، فَقالَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ: فَاخْطُبْها إلَيَّ؛ فَإنَّها أَمَتي، وقَدْ تَصْلُحُ لكَ أَيْضاً زَوْجَةً للشَّهْوَة، وأَلْقى اللهُ عزَّ وجلَّ عليْه الشَّهْوَةَ، وقَدْ علَّمَهُ قَبْلَ ذلك الْمَعْرفَةَ بكلِّ شيْء، فقالَ: يا ربِّ، فإنِّي أَخْطبُها إلَيْكَ، فَما رضاكَ لذلك؟ فَقال عزَّ وجلَّ: رضايَ أَنْ تُعلِّمَها معالمَ ديني، فَقال: ذلكَ لَكَ عليَّ يا رَبِّ، إنْ شئْتَ ذلكَ لي، فَقالَ عزَّ وجَلَّ: وقَدْ شئْتُ ذلكَ وَقَدْ زَوَّجْتُكَها، فَضُمَّها إلَيْكَ**»[٣].

فالزّوجيّة في الوجود الإنسانيّ إذن حقيقة تكوينيّة، وسنّة إلهيّة تجري بصورة شرعيّة، ولا يمكن للوجود الإنسانيّ أن يستمرّ من دونها، فاستمراره وبقاؤه

(١) دلالات الزّوجيّة في الكون، مقال على الشّبكة العنكبوتيّة، موقع مجلّة حراء، العدد ٣٨، ديسمبر ٢٠١٦م.

(٢) البقرة: ٣٥.

(٣) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٣/٣٨٠، ح/٤٣٣٦.

وسعادته لا يتحقّق من دونها، فهو ضرورة لا غناء عنها، فكلّ واحد من الزّوجين يبقى ناقصاً من دون قرينه «ناقص في نفسه، مفتقر إلى الآخر، ويحصل من المجموع واحد تامّ له أن يلد وينسل، ولهذا النَّقص والافتقار يتحرّك الواحد منهما إلى الآخر حتّى إذا اتَّصل به سكن إليه؛ لأنَّ كلّ ناقص مشتاق إلى كماله، وكلّ مفتقر مائل إلى ما يزيل فقره، وهذا هو الشّبق المودع في كلّ من هذين القرينين»[١].

فهذا التَّجاذب والميل المغناطيسيّ بين الذّكر والأنثى الّذي يحسّه كلّ إنسان بنفسه هو آية من آيات الله تعالى ولولا هذا الميل لما اقترن رجل بامرأة، ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[٢].

والزّواج سنّة من السّنن الكريمة في الإسلام حثَّ عليها كثيراً؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قالَ أَميرُ الْمُؤْمنينَ عليه السلام: تَزَوَّجوا؛ فَإِنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله قالَ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَّبِعَ سُنَّتي فَإِنَّ مِنْ سُنَّتِي التَّزْويجَ**»[٣].

بل عدَّ الإسلامُ الزَّواجَ أساس سعادة الإنسان؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام: «**جاءَ رَجُلٌ إلى أَبي عليه السلام، فَقالَ لَهُ: هَلْ لَكَ مِنْ زَوْجَةٍ؟ فَقالَ: لا، فَقالَ أَبي: وَما أُحِبُّ أَنَّ لِيَ الدُّنْيا وَما فيها، وَأَنّي بِتُّ لَيْلَةً وَلَيْسَتْ لي زَوْجَةٌ**»[٤].

---

(١) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ١٦٦/١٦.

(٢) الرّوم: ٢١.

(٣) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٥٨٣/١٠، ح/٩٤٥٩.

(٤) الكافي: ٥٨٤/١٠، ح/٩٤٦٠.

بل عدَّ حبَّ النّساء علامةً لزيادة الإيمان؛ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**ما أَظُنُّ رَجُلاً يَزْدادُ في الإيمان خَيْراً إلا ازْدادَ حُبّاً للنِّساء**»(١).

وقال عليه السلام: «**منْ أَخْلاق الأَنْبياء - صَلّى اللهُ عَلَيْهِمْ - حُبُّ النِّساء**»(٢).

وعن عكاف بن وداعة الهلاليّ قال: «أتيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال لي: **يا عُكافُ، أَلَكَ زَوْجَةٌ؟** قلتُ: لا، قال: **أَلَكَ جاريَةٌ؟** قلتُ: لا، قال: **وأَنْتَ صَحيحٌ موسرٌ؟** قلتُ: نعم، والحمد لله، قال: **فَإنَّكَ إذن منْ إخْوان الشَّياطين، إمّا أَنْ تَكونَ منْ رُهْبان النَّصارى، وَإمّا أَنْ تَصْنَعَ كَما يَصْنَعُ الْمُسْلمونَ، وَإنَّ منْ سُنَّتنا النِّكاحَ، شرارُكُمْ عُزّابُكُمْ، وأَراذلُ مَوْتاكُمْ عُزّابُكُمْ** - إلى أن قال: - **وَيْحَكَ يا عُكافُ، تَزَوَّجْ تزوَّجْ فَإنَّكَ من الْخاطئينَ**، قلتُ: يا رسول الله، زوّجني قبل أن أقوم، فقال صلى الله عليه وآله: **زَوَّجْتُكَ كَريمَةَ بنْتَ كَلْثوم الْحمْيَريّ**»(٣).

وللزَّواج في الإسلام أهداف نبيلةٌ تسمو على الشَّهوات والأهواء فهو وئام، وسلام، ووفاق، وسكن ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، وهذا: معنى إنسانيّ اجتماعيّ لا تدركه كثير من المذاهب الفكريّة والاجتماعيّة؛ فبعض المذاهب ترى أنَّ الهدف من الزَّواج هو الاستجابة للرّغبات الجنسيّة، وإشباع الأهواء الشَّهوانيّة، ومنهم من عدَّ أهدافه اقتصاديّة نفعيّة كالمعاملات التّجاريّة؛ وأمّا الإسلام فقد عدَّ أهدافه نابعةً من أصل الفطرة، فالزّواج ضرورةٌ اجتماعيّةٌ من أجل بقاء النّوع، واستمراريّته، واستقراره، وتكميله، وسكنه، واطمئنانه، ومن أهدافه الأساسيّة الحفاظ على العفّة،

---

(١) الكافي: ٥٦١/١٠، ح/٩٤٢٠.

(٢) المصدر نفسه: ح/٩٤١٩.

(٣) الميرزا النّوريّ، مستدرك الوسائل: ١٥٥/١٤-١٥٦، ح/١٦٣٥٩.

ومنع وقوع الفساد والانحراف، ورد في الحديث الشّريف عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**مَنْ تَزَوَّجَ فَقَدْ أَحْرَزَ نِصْفَ دِينِهِ... فَلْيَتَّقِ اللهَ في النِّصْفِ الآخَرِ**» أو «**الباقي**»(١).

ورغم ذلك التّأكيد كلّه فإنَّ الإسلامَ أكّد كثيراً على اختيار الزّوجة الصّالحة، وعدَّها أساساً من أسس السّعادة والبناء الاجتماعيّ، وبهذا المعنى وردت روايات على استحباب حسن الاختيار، وحدَّدت أوصاف المرأة الصّالحة؛ فعن إبراهيم الكرخيّ، قال: «قلتُ لأبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّ صاحبتي هلكت، وكانت لي موافقة، وقد هممْتُ أن أتزوّج، فقال: **انْظُرْ أَيْنَ تَضَعُ نَفْسَكَ، وَمَنْ تُشْرِكُهُ في مالك، وَتُطْلِعُهُ عَلى دينك وَسِرِّكَ، وَأَمانَتِكَ، فَإِنْ كُنْتَ لا بُدَّ فاعلاً فَبِكْراً تُنْسَبُ إلى الْخَيْرِ، وَإِلى حُسْنِ الْخُلُقِ.**

ألا إنَّ النّساء خُلِقْنَ شَتّى　　فمنهنّ الغنيمةُ والغرامُ
ومنهنّ الهلالُ إذا تجلّى　　لصاحبه ومنهنّ الظّلامُ
فمن يظفر بصالحهنّ يسعد　　ومن يغبن فليس له انتقامُ

وَهُنَّ ثَلاثٌ؛ فَامْرَأَةٌ وَلودٌ وَدودٌ، تُعينُ زَوْجَها عَلى دَهْرِه لِدُنْياهُ وَلآخرَتِه، وَلا تُعينُ الدَّهْرَ عَلَيْه، وَامْرَأَةٌ عَقيمٌ لا ذاتَ جَمال وَلا خُلُقٍ، وَلا تُعينُ زَوْجَها عَلى خَيْرٍ، وَامْرَأَةٌ صَخّابَةٌ وَلاجَةٌ هَمّازَةٌ(٢) تَسْتَقِلُّ الْكَثيرَ وَلا تَقْبَلُ الْيَسيرَ»(٣).

ومن أوصاف المرأة الصّالحة الّتي أكّد عليها الإسلام أن تكون ودوداً

(١) الكافي: ٥٨٢/١٠، ح/٩٤٥٦.
(٢) الصّخّابة: شديدة الصّياح، والولاجة: كثيرة الدّخول والخروج، والهمّازة هي العيّابة الطّعّانة.
(٣) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٣١٧-٣١٨.

ولوداً؛ فعن أبي حمزة قال: «سمعْتُ جابر بن عبد الله يقول: كنّا عند النّبيّ ﷺ فقال: **إنَّ خَيْرَ نسائكُمُ: الْوَلودُ، الْوَدودُ، الْعَفيفَةُ، الْعَزيزَةُ في أَهْلها، الذَّليلَةُ مَعَ بَعْلها، الْمُتَبَرِّجَةُ مع زَوْجها، الْحَصانُ على غَيْره، الَّتي تَسْمَعُ قَوْلَه، وَتُطيعُ أَمْرَه، وإذا خَلا بها بَذَلَتْ لَهُ ما يُريدُ منْها، ولَمْ تَبْذَلْ كَتَبذُّل الرَّجُل**[(١)]»[(٢)].

ومن أوصافها الحميدة ما ورد عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام قال: «**قالَ أَميرُ الْمُؤْمنينَ عليه السلام: خَيْرُ نسائكُمُ الْخَمْسُ**[(٣)]**، قيلَ: يا أَميرَ الْمُؤْمنين وَما الْخَمْسُ؟ قالَ: الْهَيِّنَةُ اللَّيِّنَةُ الْمُؤاتيَةُ، الَّتي إذا غَضبَ زَوْجُها لَمْ تَكْتَحلْ بغُمْض حَتّى يَرْضى، وإذا غابَ عَنْها زَوْجُها حَفظَتْهُ في غَيْبَته، فَتلْكَ عاملٌ منْ عُمّال الله، وَعاملُ الله لا يَخيبُ**»[(٤)].

ومن أوصافها طيب الرّيح، قال أبو عبد الله عليه السلام: «**قالَ رَسولُ الله ﷺ: خَيْرُ نسائكُمُ الطَّيِّبَةُ الطَّعام، الطَّيِّبَةُ الرّيح، الَّتي إنْ أَنْفَقَتْ أَنْفَقَتْ بمَعْروف، وَإنْ أَمْسَكَتْ أَمْسَكَتْ بمَعْروفٍ، فَتلْكَ عاملٌ منْ عُمّال الله، وَعاملُ الله لا**

---

(١) قال ابن الأثير: «التّبذّل: ترك التّزيّن والتّهيّؤ بالهيأة الحسنة الجميلة على جهة التّواضع»، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ١/١١١، (بذل)؛ وقال المحدّث المجلسيّ: «الظّاهر أنَّ المراد بالتّبذّل ضدّ التّصاون كما ذكره الجوهريّ، والمعنى عدم التّشبّث بالرّجل، وترك الحياء رأساً، وطلب الوطء كما هو شأن الرّجل، ويحتمل أن يكون من التّبذّل بمعنى ترك التّزيّن، أي لا تترك الزّينة، كما أنّه لا يستحبُّ للرّجل المبالغة فيها، أو كما تفعله الرّجال وإن لم يكن مستحبّاً لهم»، مرآة العقول: ٢٠/١١.

(٢) الكافي: ١٠/٥٧٠-٥٧١، ح/٩٤٣٥.

(٣) بحذف المضاف، أي ذات الخمس من الصّفات.

(٤) المصدر نفسه: ١٠/٥٧٢-٥٧٣، ح/٩٤٣٩.

يَخيبُ»(١).

ومن أخلاق المرأة الصّالحة مشاركتها لزوجها في سرّائه وضرّائه وأفراحه وأتراحه حتّى تخفّف عنه آلامه وأتعابه، وتعينه على مصائب الحياة، وقد سمّى الإسلامُ هذا النّوع من النّساء عمّال الله عزَّ وجلّ؛ فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: «إنَّ لي زوجة إذا دخلت تلقّتني، وإذا خرجت شيّعتني، وإذا رأتني مهموما، قالت: ما يهمّك؟ إن كنت تهتمّ لرزقك فقد تكفّل لك به غيرك، وإن كنتَ تهتمّ بأمر أخرتك فزادك الله همّاً»، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ للهِ عُمّالاً، وَهذهِ مِنْ عُمّالِه، لَها نِصْفُ أَجْرِ الشَّهيدِ**»(٢).

وأدقُّ معنى وأجمله ما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام في اختيار المرأة عند إرادة الزَّواج، قال: «**إِنَّما الْمَرْأَةُ قلادةٌ، فَانْظُرْ ما تَتَقَلَّدُ، وَلَيْسَ لامْرَأَةٍ خَطَرٌ**(٣)**، لا لصالحَتِهِنَّ وَلا لطالحَتِهِنَّ، وَأَمّا صالحَتُهُنَّ فَلَيْسَ خَطَرُها الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، هِيَ خَيْرٌ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَأَمّا طالحَتُهُنَّ فَلَيْسَ خَطَرُها التّرابَ، التُّرابُ خَيْرٌ مِنْها**»(٤).

هذه جملة من الصّفات الَّتي ينبغي أن تتوفَّر في المرأة كالطّاعة، والعفّة، والوداد، وحسن الخلق، والمشاركة الوجدانيّة، وهناك نوعٌ آخر أكَّدت عليه الرّوايات عند إرادة التّزوّج، وأهمّها: التّديّن، وحسن الخلق، فمن ظفر بهاتين الصّفتين في امرأة فقد ربَتْ يداه؛ فعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**أَتى رَجُلٌ رَسولَ الله**

(١) الكافي: ٥٧٣/١٠، ح/٩٤٤١.

(٢) كتاب من لا يحضره الفقيه: ٣٨٩/٣، ح/٤٣٦٩.

(٣) أي مثل ولا عدل.

(٤) معاني الأخبار: ١٤٤.

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ **يَسْتَأْمِرُهُ في النِّكاح، فَقال: نَعَمْ، انْكحْ، وعَلَيْكَ بذَوات الدّين ترِبَتْ يداكَ**[١]، **وقَالَ: إنَّما مَثَلُ الْمَرْأَة الصّالحَة مثَلُ الْغُراب الأَعْصَم الَّذي لا يَكادُ يُقْدَرُ عَلَيْه، قالَ: وما الْغُرابُ الأَعْصَمُ؟ قَال: الأَبْيَضُ إحْدى رِجْلَيْه**»[٢].

والإسلام كما أكَّد على الاختيار الجيّد للنّساء عند الزّواج فقد أكَّد على تيسير أمر الزَّواج، وحدّد مقياس الكفاءة، وهو أنَّ «**الْمُؤْمِنَ كُفْءُ الْمُؤْمنَة**»، ولم يجعل المقياس الجمال والمال؛ فقد ورد عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إذا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ لجَمالها أَوْ مالها، وُكلَ إلى ذلكَ؛ وإذا تَزَوَّجَها لدينها، رَزَقَهُ اللهُ الْجَمالَ والْمالَ**»[٣].

وعن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**قالَ رَسولُ الله** صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: **مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لا يَتَزَوَّجُها إلا لجَمالها لَمْ يَرَ فيها ما يُحبُّ، ومَنْ تَزَوَّجَها لمالها لا يَتَزَوَّجُها إلا لَهُ، وَكَلَهُ اللهُ إلَيْه، فَعَلَيْكُمْ بذَوات الدّين**»[٤].

حُقوقُ الزَّوْجِ عَلى زَوْجَتِه:

جعل الإسلام لكلّ من الزّوج والزّوجة حقوقاً متبادلةً لأحدهما على الآخر،

---

(١) قال ابن الأثير: «ترب الرّجل، إذا افتقر، أي لصق بالتّراب. وأترب إذا استغنى، وهذه الكلمة جارية على ألسنة العرب لا يُريدون بها الدّعاء على المخاطَب، ولا وقوع الأمر به كما يقولون قاتله الله، وقيل معناها لله درُّكَ، وقيل: أراد به المثل ليرى المأمور بذلك الجدّ وأنَّه إن خالفه فقد أساء. وقال بعضهم: هو دعاء على الحقيقة»، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ١/١٨٤، (ترب).

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، تهذيب الأحكام: ٧/٤٦٢-٤٦٣، ح/٥٥٧؛ والمراد من الغراب الأعصم: نّادر الوقوع.

(٣) الكافي: ١٠/٥٩٣، ح/٩٤٧٧.

(٤) تهذيب الأحكام: ٧/٤٦٠، ح/٥٤٩.

وتقوم هذه الحقوق على المحبّة، والمودّة، والتّفاهم، والتّعاون؛ أمّا حقّ الزّوج على زوجته فهو:

أوّلاً: الطّاعة: على المرأة أن تطيع زوجها في كلّ شيء إلا إذا أمرها بما يخالف شرعة الله أو نهاها عن واجب شرعيّ، فعن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**جاءَتْ امْرَأَةٌ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وآله، فَقالَتْ: يا رَسولَ الله، ما حَقُّ الزَّوْجِ عَلى الْمَرْأَة؟ فَقالَ لَها: أَنْ تُطيعَه ولَا تَعْصيَه، ولا تَصدَّقَ منْ بَيْته إلا بإذْنه، وَلا تَصومَ تطَوُّعاً إلا بإذْنه، ولا تَمْنَعَه نَفْسَها، وَإنْ كانَتْ عَلى ظَهْر قَتَب**»(١).

وروى أبو الصّباح الكنانيّ، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**إذا صَلَّت الْمَرْأَةُ خَمْسَها، وَصامَتْ شَهْرَها، وَحَجَّتْ بَيْتَ ربِّها، وأَطاعَتْ زَوْجَها، وعَرفَتْ حَقَّ عَليٍّ عليه السلام، فَلْتَدْخُلْ منْ أَيِّ أَبْواب الْجنان شاءَتْ**»(٢).

ثانياً: أن لا تسخطه، فعن سعد بن أبي عمرو الجلاب، قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: **أَيُّما امْرَأَة باتَتْ وَزَوْجها عَلَيْها ساخطٌ في حَقٍّ، لَمْ تُقْبَلْ منْها صَلاةٌ حَتّى يَرْضى عَنْها، وأَيّما امْرَأَة تَطَيَّبَتْ لغَيْر زَوْجها، لَمْ تُقْبَلْ منها صَلاةٌ حتّى تَغْتَسلَ منْ طيبها كَغُسْلها منْ جَنابَتها**»(٣).

وروى جميل بن درّاج عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**أَيُّما امْرَأَة قالَتْ لزَوْجها: ما رَأَيْتُ قَطُّ منْ وَجْهكَ خَيْراً فَقَدْ حَبطَ عَمَلُها**»(٤).

---

(١) الكافي: ١١/١٦١، ح/١٠١٦٥؛ والقتب: رحل صغير على قدر السّنام.

(٢) كتاب من لا يحضره الفقيه: ٣/٤٤١، ح/٤٥٣١.

(٣) الكافي: ١١/١٦٢-١٦٣، ح/١٠١٦٦.

(٤) كتاب من لا يحضره الفقيه: ٣/٤٤٠، ح/٤٥٢٤.

ثالثاً: أن لا تخرج من بيتها بغير إذن زوجها: نهى رسول الله ﷺ المرأة أن تخرج من بيتها بغير إذن زوجها، فإن خرجت لعنها كلُّ ملك في السماء وكلُّ شيء تمرّ عليه من الجن والإنس كما دلَّت على ذلك كثيرٌ من الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، فعن أبي عبد الله عليه السلام: «**إنَّ رَجُلاً من الأَنْصار على عَهْد رَسول الله ﷺ خَرَجَ في بَعْض حَوائجه، فَعَهد إلى امْرأَته عَهْداً ألا تَخْرُجَ منْ بَيْتها حَتّى يَقْدَمَ**». قال: «**وإنَّ أَباها مرض، فَبَعثت الْمرْأَةُ إلى النَّبيِّ ﷺ، فَقالَتْ: إنَّ زَوْجي خَرَجَ، وعَهد إليَّ أَن لا أَخْرُجَ منْ بَيْتي حَتّى يَقْدَم، وَإنَّ أَبي قَدْ مَرضَ، فَتَأْمُرُني أَنْ أَعودهُ؟ فقالَ رَسولُ الله ﷺ: لا، اجْلسي في بَيْتك، وَأَطيعي زَوْجَك**»، قال: «**فَثَقُل، فَأَرْسَلَتْ إلَيْه ثانياً بذلك، فَقالَتْ: فتَأْمُرُني أَنْ أَعودَهُ؟ فَقالَ: اجْلسي في بَيْتك، وَأَطيعي زَوْجَك**»، قال: «**فَماتَ أَبوها، فَبَعَثَتْ إلَيْه: إنَّ أَبي قَدْ ماتَ، فتَأْمُرُني أَنْ أُصَلّي عَلَيْه؟ فقالَ: لا، اجلسي في بَيْتك، وَأَطيعي زَوْجَك**»، قال: «**فَدُفنَ الرَّجُلُ، فَبَعَثَ إلَيْها رَسولُ الله ﷺ: إنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَك ولأَبيك بطاعَتك لزَوْجَك**»[1].

رابعاً: حبَّذ الإسلام للمرأة أن تقدّم لزوجها الخدمات اللازمة على وجه الاستحباب، وضمن لها من الأجر والثّواب ما لا تحيط به مداركنا، قال أبو عبد الله عليه السلام: «**الامْرَأَةُ الصّالحَةُ خَيْرٌ منْ أَلْف رَجُل غَيْر صالح، وَأَيُّما امْرأَة خَدَمَتْ زَوْجَها سَبْعَةَ أَيّامٍ أَغْلَقَ اللهُ عَنْها سَبْعَةَ أَبْوابِ النّارِ، وفَتَحَ لَها ثَمانيَةَ أَبْوابِ**

(١) الكافي: ١١/١٧٨-١٧٩، ح/١٠١٩١؛ وكتاب من لا يحضره الفقيه: ٣/٤٤٢، ح/٤٥٣٢؛ وجواهر الكلام للشّيخ الجواهريّ: ٣١/١٨٣-١٨٤؛ والحدائق الناضرة للمحقّق البحرانيّ: ٢٤/٦١١.

الْجنَّة تَدْخلُ منْ أيِّها شاءَتْ»[١].

وقال عليه السلام: «**ما من امْرأَة تَسْقي زَوْجها شَرْبَةً منْ ماء إلا كانَ خَيْراً لَها منْ عبادَة سَنَة، صيامٌ نَهارها، وَقيامٌ لَيْلها، ويَبْني اللهُ لَها بكُلِّ شَرْبَة تَسْقي زَوْجها مَدينَةً في الْجنَّة، وَغفرَ لَها ستّينَ خَطيئَةً**»[٢].

خامساً: حرَّم الإسلامُ على كلّ من الزَّوجين أن يؤذي الآخر بغير حق، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَنْ كانَ لَهُ امْرَأَةٌ تُؤْذيه لَمْ يَقْبَلِ اللهُ صَلاتَها وَلا حَسَنَةً منْ عَمَلها، حَتّى تُعينَهُ وَتُرْضيَهُ، وَإنْ صامَت الدَّهْرَ، وَقامَتْ، وَأَعْتَقَت الرّقابَ، وَأَنْفَقَت الأَمْوالَ في سَبيلِ الله، وَكانَتْ أَوَّلَ مَنْ يَردُ النّارَ**»، ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**وَعَلى الرَّجُلِ مثْلُ ذلكَ منَ الْوِزْرِ وَالْعَذابِ، إذا كانَ لَها مُؤْذياً**»[٣].

سادساً: أن لا تُحَمّلَهُ ما لا يطيق من المصارف، وأن ترفق به، و«ألا تشتط في الطَّلب، وتلحّ في السّؤال، فتطلب من زوجها ما لا يستطيع، وتكلّفه ما لا يقوى عليه، فإنه إن أجاب فإلى دَيْن ومذلّة، ثمّ إلى فقر ومسكنة، وإن رفض فإلى ضغن وبغضاء يذهبان بالمودّة»[٤].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أَلا وَأَيُّما امْرَأَة لَمْ تَرْفُقْ بزَوْجها، وَحَمَلَتْهُ عَلى ما لا يَقْدرُ عَلَيْه، وَما لا يُطيقُ، لَمْ تُقْبَلْ منْها حَسَنَةٌ، وَتَلْقى اللهَ وَهُوَ عَلَيْها غَضْبانُ**»[٥].

---

(١) الحرّ العامليّ، تفصيل وسائل الشّيعة: ١٧٢/٢٠، ح/٢٥٣٤٢.

(٢) المصدر نفسه: ح/٢٥٣٤٣.

(٣) الدّيلميّ، أعلام الدّين في صفات المؤمنين: ٤١٤.

(٤) السّيّد حسن القبّانچيّ، شرح رسالة الحقوق: ٥٢٢/١.

(٥) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٥١٦، ح/٧٠٧؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ٥٢١/٧، ح/٤٣٠٥.

حُقوقُ الزَّوْجَةِ عَلى زَوْجِها:

كما أوجب الإسلام للزّوج على الزَّوجة حقوقاً، فقد ضمن لها على زوجها حقوقاً كثيرة تضمن بها كرامتها وسعادتها ووفاقها وتآلفها لحياة زوجيّة سعيدة، ولو طبَّق كلٌّ من الزوج والزوجة تلك التَّعاليم المباركة لما حدث بينهما خلاف أو شقاق، ولتكوَّنت منهما الخليّة الاجتماعيّة الَّتي تتمتّع بكمال السَّعادة في الدُّنيا والآخرة.

فأمّا حقوق الزّوجة على زوجها فقد أوجزها الإمام السّجّاد عليه السلام كما في رسالة الحقوق:

«وَأَمّا حَقُّ الزَّوْجَة، فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ عزَّ وَجلَّ جَعَلَها لَكَ سَكَناً وَأُنْساً، فَتَعْلَمُ أَنَّ ذلكَ نعْمَةً من الله عَلَيْك، فَتُكْرِمُها، وتَرْفقُ بها، وَإِنْ كانَ حَقُّكَ عَلَيْها أَوْجَبَ، فَإِنَّ لَها عَلَيْكَ أَنْ تَرْحَمَها؛ لأَنَّها أَسيرُكَ، وَتُطْعِمُها، وَتَكْسوها، فَإِذا جَهِلَتْ عَفَوْتَ عَنْها»[1].

ومن هذا النَّصّ الشّريف نستوحي حقوق المرأة على زوجها ضمن نقاط:

أوّلاً: أن يتعامل معها بالإحسان، واللُّطف، والرّفق، ويراعي عواطفها، ولا يقسو عليها، قال الإمام الصّادق عليه السلام: **«رَحِمَ اللهُ عَبْداً أَحْسَنَ فيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَته، فَإِنَّ اللهَ عزَّ وَجلَّ قَدْ مَلَّكَهُ ناصيَتَها، وَجَعَلَهُ الْقَيِّمَ عَلَيْها»**[2].

وهذه القيمومة لم تكن قيمومة السَّيطرة والتّسلّط، وإنَّما لأجل: الرّعاية، والتّوجيه، والتّقويم والإرشاد، بإبداء الرَّأي السَّديد، والحماية، والتَّدبير، والإنفاق

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٥٦٧/٢.

(٢) كتاب من لا يحضره الفقيه: ٤٤٣/٣، ح/٤٥٣٧.

بما يستطيع، والتّوسّع بما يقدر عليه لأجل إسعادها، قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾[(١)].

وإنَّما جاءت هذه القيمومة لما تتّسم به المرأة من عاطفة غزيرة، ورقّة شعور، ولما يتّصف به الرّجل من متانة في العقل، وسلامة في الرّأي، وقوّة في الجسد، وتحمّل للصّعاب، وقدرة على مواجهة المشاكل؛ ومن خلال ترابط الطرفين: الرّقّة في المرأة، والقوّة في الرّجل يتكامل تكوين العائلة؛ ليقوم كلٌّ بواجبه وفق تكوينه النّفسيّ والجسديّ، وقد راعى الإسلامُ هذا الجانب كثيراً.

ثانياً: على الرَّجل أن يكون فاعلاً للخير مع أهله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ ليسعدهم في الدُّنيا والآخرة، وأن يبتدئ بفعل الخير بأهله؛ لأنَّ الأقربين أولى بالمعروف، قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لنسائه، وأَنا خَيْرُكُمْ لنسائي**»[(٢)].

وقال ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْله، وَأَنا خَيْرُكُمْ لأَهْلي**»[(٣)].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَلا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقى الْخَلْق بكَ**»[(٤)].

ثالثاً: أن يتغاضى عن تقصيرها، ويحسن مداراتها، ويلطف بها في حالات الخلاف، ويتجاوز عن تقصيرها أو قصورها، قال رسول الله ﷺ: «**أَلا وَمَنْ صَبَرَ**

---

(١) النّساء: ٣٤.

(٢) كتاب من لا يحضره الفقيه: ٣/٤٤٣، ح/٤٥٣٨.

(٣) المصدر نفسه: ٣/٥٥٥، ح/٤٩٠٨.

(٤) نهج البلاغة: ٤٢٧، كتاب: ٣١.

عَلى خُلُق امْرَأَة سيِّئَة الْخُلق، واحْتَسَبَ في ذلكَ الأَجْرَ، أَعْطاهُ اللهُ ثَوابَ الشّاكرينَ في الآخرَة»[١].

رابعاً: أن يسدَّ حاجتها في النَّفقة: مأكلاً، ومشرباً، وملبساً، ومسكناً بما يستطيع، وأن يوسّع عليها إن استطاع بما يناسب وضعها الاجتماعيّ، وبما يحفظ كرامتها ومكانتها الاجتماعيّة بلا إفراط، ولا تفريط؛ فعن إسحاق بن عمّار، قال: «قلْتُ لأبي عبد الله عليه السلام: ما حقُّ المرأة على زوجها الّذي إذا فعله كان محسناً؟ قال: **يُشْبِعُها، وَيَكْسوها، وَإنْ جَهلَتْ غَفَرَ لَها**، وَقالَ أَبو عَبْد الله عليه السلام: **كانَتِ امْرَأَةٌ عنْدَ أَبي عليه السلام تُؤْذيه، فَيَغْفرُ لَها**»[٢].

---

(١) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٣١٣؛ وترتيب الأمالي: ٥٢١/٧، ح/٤٣٠٥.

(٢) الكافي: ١٧١/١١، ح/١٠١٨١.

سُنَّةُ اللهِ في إِهْلاكِ الأُمَمِ

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾[1].

إنَّ كلّ ما يقع في المجتمع البشريّ لا يقع اعتباطاً، وصدفةً، وإنَّما يجري وفق قوانين، وسنن وضعها الله تعالى، وأجراها على خلقه، وهي مستمرّة إلى يوم القيامة، والآية الكريمة تشير إلى سُنَّة من سنن الله تعالى الجارية في كلّ زمان ومكان، هذه السُّنّة هي «سنّة المجازاة في الشّكر والكفر»[2].

ونقصد بسُنّة المجازاة: إنَّ كلَّ عمل من أعمال الفرد، أو المجتمع يترك آثاراً في الواقع الإنسانيّ، إن خيراً فخيراً، وإن شرّاً فشرّاً فـ«الجزاء يكون من سنخ العمل»، فنتيجة الشّكر الزّيادة، ونتيجة الكفر الهلاك والبوار والنُّقصان، وهكذا فكلُّ أثرٍ سلبيّ في الكون والحياة هو نتيجة لأعمال قام بها النّاس، بصورة مخالفة لشريعة الله، ونظمه وأحكامه، والّتي وضعها لتنظيم شؤون الحياة الإنسانيّة، فكلُّ مخالفة لأحكام الله فساد، والفساد بالتّالي يؤدّي إلى الهلاك والبوار؛ ولذا كلُّ هلاك تعرَّضت له الأمم الغابرة كان نتيجة خروجها عن السنن الإلهيّة، الّتي وضعها الله لتنظيم مسيرة الحياة والخروج عنها هو الظُّلم بأبشع اشكاله، يقول تعالى:

---

(١) النَّحل: ١١٢.

(٢) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٣٦٣/١٢.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾(١).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾(٢).

ومن خلال هذا البيان يتّضح لنا أنَّ هناك تلازماً بين هلاك الأمم والشّعوب وسقوط الدّول والحضارات، وبين ظلمها الَّذي تجلّى بمخالفة السنن الإلهيّة، والقرآن الكريم صريح واضح يؤكّد: بأنَّ الله إنَّما يأخذ النّاس بالعذاب والهلاك لظلمهم، وهكذا يتبيّن بوضوح قانون التَّلازم بين هلاك الأمم وبين الظّلم الّذي تجنيه على نفسها، يقول تعالى:

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۞ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۞ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ۞ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾(٣).

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾(٤).

وهكذا تتعرّض الأمم للهلاك نتيجة أعمالها الطّالحة، تلك سنّة الله في الأمم الّتي تكذّب بالحقّ، وتصدّ عن سبيل الله، وتحكم بغير ما أنزل الله، وتحارب رسل الله وأنبياءه ودعاة دينه، وكثيرٌ من الآيات «تدلُّ على أنّه كان من سُنّة الله إنشاء قرن

---

(١) يونس: ١٣.

(٢) هود: ١٠٢.

(٣) الأنبياء: ١١-١٤.

(٤) الحجّ: ٤٥.

بعد قرن، وهدايتهم إلى الحقّ بإرسال رسول بعد رسول، وهي سنّة الابتلاء والامتحان، ومن سنّة القرون تكذيب الرّسول بعد الرّسول، ثمَّ من سنّة الله ثانياً - وهي سنّة المجازاة - تعذيب المكذّبين، واتّباع بعضهم بعضاً»(١).

فكلّ المفاسد الاجتماعيّة، والفكريّة، والسّياسيّة في المجتمع البشريّ نتيجةٌ لما جَنَتْهُ البشريّةُ بأعمالها الفاسدة، ومخالفتها لرسل الله سبحانه وتعالى.

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٢).

فقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ ﴾ يدلُّ على أنَّ ظهور الفساد والخراب في الحياة بسبب أعمال فاسدة أقدموا عليها، فكانت عاقبة أمرهم وخيمة عليهم: عذاب، وشقاء، وعناء، ودمار، وهلاك، ذلك كلّه نتيجة ظلمهم، «وقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾، أي بسبب أعمالهم الّتي يعملونها من شرك، أو معصية... وقوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾ اللام للغاية، أي ظهر ما ظهر لأجل أن يذيقهم الله وبال بعض أعمالهم السّيّئة، بل ليذيقهم نفس ما عملوا، وقد ظهر في صورة الوبال، وإنّما كان بعض ما عملوا؛ لأنَّ الله سبحانه برحمته يعفو عن بعض كما قال: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾(٣)»(٤).

وهذه السّنّة (سُنّة المجازاة) جارية لا تتغيّر، ولا تتبدّل أبداً، ولا تنسخ

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣٤/١٥.

(٢) الرّوم: ٤١.

(٣) الشّورى: ٣٠.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ١٩٦/١٦.

كالأحكام، فالسُّنَّة الجارية في الأوّلين جارية في من يأتي بعدهم وهكذا... كما في قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[١].

والسُّنّة: «هي الطَّريقة المعمولة الَّتي تجري بطبعها غالباً أو دائماً»[٢]، فكأنَّ الله سبحانه يقول: «هذا النّكال الَّذي أوْعَدْنَا به المنافقين، ومن يحذو حذوهم من النَّفي والقتل الذَّريع، هي سنّة الله الَّتي جرت في الماضين، فكلّما بالغَ قومٌ في الإفساد، وإلقاء الاضطراب بين النّاس، وتمادوا وطغوا في ذلك أخذناهم كذلك، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾، فتجري فيكم كما جرت في الأمم من قبلكم»[٣].

فهذه السّنن إذن ليست بدعاً من الأمر، وإنَّما هي قوانين تجري في الحاضرين كما جرت في السّابقين، وهي غير قابلة للنَّسخ كالأحكام الَّتي قد تتبدّل بحسب مقتضيات الزَّمان، وإنَّما هي ثابتة لا تقبل التّحويل والتَّبديل: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾[٤].

فهلاك الأمم إذن لم يكن «بغير جرم استحقّوا به الهلاك، ولكن ظلموا أنفسهم بشركهم، وفسادهم في الأرض، وإصرارهم حتّى لم يعد فيهم بقية من قبول الحقّ، وإيثار الخير على الشرّ، بحيث لو بقوا زمناً آخر لما ازدادوا إلا ظلماً وفجوراً وفساداً»[٥]، ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾[٦].

---

(١) الأحزاب: ٦٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٣٤٠/١٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الإسراء: ٧٧.

(٥) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: ١٥٤/١٢.

(٦) الأنعام: ٦.

وتأسيساً على هذا أمر الله عباده أن يتدبّروا في عواقب الأمم، وأن يسيروا في آثارهم، وينظروا في أعمالهم، ويدرسوا الحالات الَّتي أدت إلى هلاكهم.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾(١).

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾(٢).

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾(٣).

فدراسة التّاريخ البشريّ بفهم عميق، وتحليل دقيق، ووعي لعوامل نهوض الحضارات وسقوطها يوقف الإنسان على حقائق ضخمة، ورؤية واضحة في مساره يستطيع من خلالها أن يتجنَّب الخطأ الَّذي وقع فيه السّابقون فأضرَّهم، ويعرف المسالك الصحيحة الَّتي سلكوها فنفعتهم وقدَّمتهم، وحينئذٍ يرتقي درجة في سُلَّم التَّكامل؛ وهذا ما أوصى به أمير المؤمنين عليه السلام ولده الحسن المجتبى عليه السلام حيث قال له: «**أَيْ بُنَيَّ، إنّي وَإنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمْرَ مَنْ كانَ قَبْلي، فَقَدْ نَظَرْتُ في أَعْمالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ في أَخْبارِهِمْ، وَسِرْتُ في آثارِهِمْ، حَتّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنّي بما انْتَهى إلَيَّ مِنْ أُمورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إلى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ**»(٤).

---

(١) آل عمران: ١٣٧.

(٢) النّمل: ٦٩.

(٣) الرّوم: ٤٢.

(٤) نهج البلاغة: ٤١٩، كتاب: ٣١.

ففي قوله عليه السلام: «نظرْتُ»، و«فكّرتُ»، و«سرْتُ» دلالة على أهمّيّة البحث والتّأمّل في تاريخ الأمم والشُّعوب؛ لتشخيص عوامل النّهوض والازدهار، وعوامل السُّقوط والبوار، وكلاهما يخضعان للسّنن الإلهيّة، وإذا ما عرف الإنسان هذه السُّنن استطاع أن يضع الأمور في نصابه الصَّحيح في جميع مجالات الحياة.

دَوْرُ الْمُصْلِحينَ في حَياةِ الأُمَمِ:

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[(١)].

تُبيِّنُ لنا هاتان الآيتان دور المصلحين في حياة الأمم، فلولا قيامهم بأداء مسؤوليّاتهم الكبرى في الإصلاح، والنّهي عن الفساد لجرت سنّة المحق والاستئصال على الجميع، إلا أنَّ قيامهم بدور الإصلاح، والتّغيير للواقع الفاسد هو الَّذي حمى الأمم من البوار والدّمار، وفي كلّ مرحلة من مراحل التّأريخ لو قامت مجموعة منهم بالنّهي عن الفساد والظّلم لما تعرَّضت لسُنَّة المحق والاستئصال، ونفهم من الآية المتقدّمة أنَّ دور المصلحين هو حماية الأمم والشُّعوب من جريان سنن الله عليها الإهلاك، أو المحق، والتّمحيص؛ ولذا فإنَّ الوقوف بوجه الظّالمين واجبٌ في سُنَّة الله تعالى، وإنَّ وجود المعارضين لخطّ الأنبياء والمصلحين أمرٌ لا بدَّ منه، وإنَّ الصّراع القائم مستمرٌّ إلى يوم القيامة ما دام هناك نفس أمّارة بالسّوء تدفع إليه، ونفس لوّامة توبّخ وتردع وتحاكم، ونفس مطمئنّة داعية إلى الله.

إنَّ سبب المعارضة لخطّ الرّسالة الإلهيّة هي الحالة التّرفيّة الّتي يعيشها

---

(١) هود: ١١٦-١١٧.

الطُّغاة؛ وحرصهم في الحفاظ عليها باستغلال خيرات الأرض، وحرمان الآخرين منها، هو الّذي دفعهم إلى الجحود والكفر والشّرك، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[1].

فسبب المعارضة لدعوة الله تعالى هو: حالة التَّرف السّائدة بينهم، ومحاولتهم خداع النّاس على أنَّهم على دين آبائهم وأجدادهم؛ لأنَّهم يعيشون التَّرف، وهو حالة استرخاء عقليّ وفكريّ، وميوعة نفسيّة من خلال الاستغراق في النّعم المادّيّة حتّى يصل إلى درجة ينسى فيها الإنسان دوره المناط به في الحياة الدُّنيا، «لأنَّ التَّرفَ أصلٌ أصيلٌ في إفساد الفطرة، وإفقاد القلوب تلك الحسّاسيّة المرهفة الَّتي تتلقّى، وتتأثّر وتستجيب»[2]، وهكذا يصبح الإنسانُ كائناً شهوانيّاً لا يعرف إلا عرشه، وكرشه، وشهواته، فإذا أحسَّ بخطر يداهم ذلك وقف بقوّة، وتجبّر، وتجاوز الحدود الإنسانيّة كلّها من أجل الحفاظ على الحالة التّرفيّة الَّتي يعيشها؛ ولهذا نرى الطُّغاة في طول التّأريخ يعارضون رسالة الله بمختلف الأساليب، وعلى الأصعدة كلّها محتجّين بأنَّ الأنبياء والمصلحين لا يملكون الأموال، والقصور، والجاه العريض، ولا الكنوز، والحدائق الزّاهرة؛ ليؤمنوا بهم؛ فهم يحسبون قيمة الإنسان بما يملك من مال وسلطان، لا بما يحمل من ملكات نفسيّة عالية، وأخلاق وقيم إنسانيّة كالعدل، والحقّ، والخير، والجمال، والعطف، والرَّحمة.

ومن هنا نفهم من الآيات الكريمة الحقائق الآتية:

١- إنَّ النَّهي عن الفساد واجبٌ شرعيٌّ على كلّ قادر عليه، بل تجب مقاومته، واجتثاثه ضرورة لا غناء عنها بحال، وإنَّ السُّكوت عن الظُّلم، والتّقاعس

---

(١) سبأ: ٣٤.

(٢) سعيد أيّوب، الانحرافات الكبرى: ٧٣.

عن مقاومة الظّالمين هو السَّبب الرّئيس في هلاك الأمم بصورة عامّة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[(١)].

فسبب اللَّعن والطَّرد من رحمة الله تعالى هو تركهم التّناهي عن المنكر هذا، فإنَّ الأمَّة الَّتي تتقاعس عن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر لا بدَّ وأن تتعرَّض لسخط الله ولعنته، ولا ينجو من العذاب إلا الآمرون بالمعروف، والنّاهون عن المنكر، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[(٢)].

فسبب نجاة الأمم وسعادتها إذن هو الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وبالنَّتيجة يكون سبب اللَّعن والعذاب وبالتّالي الهلاك هو ترك هذه الفريضة الَّتي عدَّها الإسلامُ أشرف الفرائض.

٢- إنَّ القلّة والكثرة ليسا هما المعيار في الحقّ والباطل: قد يبرّر البعض قعوده عن مواجهة تيّارات الظُّلم بقلّة عدد المؤمنين، وكثرة المخالفين للحقّ، وممّا يبطل هذه التَّبريرات الواهية موقف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حيث بُعِثَ وحيداً فريداً ليس له من ناصر ولا معين إلا الله، ورغم ذلك واجه جبروت قريش وطغيانها بتلك الثّلّة

---

(١) المائدة: ٧٨-٧٩.

(٢) الأعراف: ١٦٤-١٦٥.

المؤمنة القليلة، وبها أباد الجاهليّة العربيّة، وأسقط الإمبراطوريّتين الفارسيّة والرّوميّة، وأنشأ دولة الإسلام، ومن بعده ولده الحسين عليه السلام قد أبطل التّصوّرات التّبريريّة كلّها بموقفه العظيم يوم الطّفّ، وواجه بتلك القلّة القليلة جيوش النّفاق، وأعطى دروساً بقي أثرها إلى اليوم وإلى يوم القيامة.

وهذا هو ديدن العظماء على طول خط التّأريخ، فأهل الحق والخير دائماً هم القلّة، وبهذه القلّة يدفع اللهُ البلاء عن البشريّة أجمع، ويصلح شأنها، وإذا انعدمت هذه القلّة تعرَّض المجتمع إلى البلاء المبرم، والعذاب الشَّديد، ورد في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام: «**إنَّ اللهَ ليَدْفَعُ بمَنْ يصلّي منْ شيعتنا عمَّنْ لا يُصلّي منْ شيعتنا، ولَوْ أَجْمَعوا على تَرْكِ الصَّلاة لَهَلَكوا، وإنَّ اللهَ ليَدْفَعُ بمنْ يُزَكّي منْ شيعتنا عمَّنْ لا يُزكّي، ولَوْ أَجْمَعوا على تَرْكِ الزَّكاة لَهَلَكوا، وإنَّ اللهَ ليَدْفَعُ بمَنْ يَحُجُّ منْ شيعتنا عمَّنْ لا يَحُجُّ، ولَوْ أَجْمَعوا على تَرْكِ الْحَجِّ لَهَلَكوا، وهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾**[1]**، فوَاللهِ ما نَزَلَتْ إلا فيكُمْ، ولا عَنى بها غَيْرَكُمْ**»[2].

فلوَ كانت القلّة والكثرة هي المعيار في المواجهة لوجب على الأنبياء والمصلحين أن يتوقَّفوا عن سيرهم وحركتهم، ولتركوا الحبل على الغارب، فليس الكثرة هي الغالبة، ولا القلّة هي المخذولة دائماً، وقد قال الله سبحانه وتعالى عن لسان عباده المخلصين: ﴿**قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ**

---

(١) البقرة: ٢٥١.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٢٦٣/٤، ح/٣٠١٥.

قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[١].

التَّأَمُّلُ في سَيْرِ حَرَكَةِ التَّأريخِ:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾[٢].

إنَّ التّأمّل الجدّيّ الهادف لوعي سنن الله وفاعليّتها في حياة الأمم والشُّعوب والحضارات يوقف الإنسان على فهم سير حركة التّأريخ البشريّ؛ ولذا حثَّ الإسلام كتاباً وسنةً على التّدبّر والتّأمّل فيها، وقد وردت كثير من الآيات والرّوايات تتحدّث عن قيام تلك الحضارات وازدهارها، ثمّ سقوطها، وفي ذلك من الفوائد العظيمة الجليلة الّتي تساعد الإنسان في فهم سنن الله في خلقه، كما دلّت على ذلك وصيّة أمير المؤمنين لولده الحسن عليه السلام المتقدّمة آنفاً، فقد وضع عليه السلام تصوّراً دقيقاً لوعي سنن الله في التّأريخ بعمق، مع بيان كيفيّة فهمه (التّأريخ) كسنن لا كقصص تمرّ على الذّهن مرور الكرام، فلا يحدث شيء إلا وفق تلك السُّنن الإلهيّة كسُنّة الازدهار والتّقدّم، وسنّة التّمحيص، والمحق، والإهلاك كما بيَّن عليه السلام الطَّريق إلى هذا الوعي، وهو:

١- التَّفكير في أعمالهم الصّالحة والطّالحة، وما أدَّت إليه تلك الأعمال «**فَقَدْ نَظَرْتُ في أَعْمالِهِمْ**»، ماذا كانت أهدافها؟ وما هي نتائجها؟ كما قال عليه السلام في

---

(١) البقرة: ٢٤٩.

(٢) الأنعام: ٦.

نصّ آخر: «واحْذَروا ما نَزَل بالأُمم قَبْلَكُمْ من الْمَثُلات بسوء الأَفْعال، وذَميم الأَعْمال، فَتَذَكَّروا في الْخَيْر والشَّرِّ أَحْوالَهُمْ، واحْذَروا أَنْ تكونوا أَمْثالَهُمْ؛ فَإذا تفَكَّرْتُمْ في تَفاوُت حالَيْهِمْ، فَالْزَموا كُلَّ أَمْر لَزِمَت الْعِزَّةُ به حالَهُمْ، وزَاحت الأَعْداءُ لَهُ عَنْهُمْ، ومَدَّت الْعافيَةُ فيه بهِمْ، وانْقَادت النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، ووَصَلَت الْكَرامَةُ عَلَيْه حَبْلَهُمْ: منَ الاجْتناب للْفُرْقَة، واللُّزوم للأُلْفَة، والتَّحاضِّ عَلَيْهَا، والتَّواصي بها. واجْتَنبوا كُلَّ أَمْر كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ[1]: منْ تَضاغُن الْقُلوب، وتَشاحُن الصُّدور، وتَدابُر النُّفوس، وتَخاذُل الأَيْدي.

وتَدَبَّروا أَحْوالَ الْماضين منَ الْمُؤْمنين قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كانوا في حال التَّمْحيص والْبَلاء. أَلَمْ يكونوا أَثْقَلَ الْخَلائق أَعْباءً، وأَجْهَدَ الْعباد بَلاءً، وأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيا حالاً. اتَّخَذَتْهُمُ الْفَراعنَةُ عبيداً، فَساموهُمْ سوءَ الْعَذاب، وجَرَّعوهُمُ الْمُرار، فَلَمْ تَبْرَحِ الْحالُ بهِمْ في ذُلِّ الْهَلَكَة وقَهْر الْغَلَبَة، لا يَجدون حيلَةً في امْتناع، ولا سبيلاً إلى دفاع، حَتّى إذا رأى اللهُ جِدَّ الصَّبْر منْهُمْ على الأَذى في مَحَبَّته، والاحْتمالَ للْمَكْروه منْ خَوْفه، جَعلَ لَهُمْ منْ مَضايق الْبَلاء فَرَجاً، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكانَ الذُّلِّ، والأَمْنَ مَكانَ الْخَوْف، - فَصاروا مُلوكاً حُكّاماً، وأَئمَّةً أَعْلاماً، وبَلَغَت الْكَرامَةُ منَ الله لَهُمْ ما لَمْ تَذْهَب الآمالُ إلَيْه بهِمْ»[2].

---

(١) المُنَّة: القوّة.

(٢) نهج البلاغة: ٣٢٤-٣٢٥، خطبة: ١٩٢.

٢- التّدبّر في أخبارهم؛ لما فيها من دروس، وعبر، ومواعظ، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعظَة... واعْرِضْ علَيْه أَخْبارَ الْماضين، وذَكِّرْهُ بما أَصابَ مَنْ كانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلين، وَسِرْ في ديارِهِمْ وآثارِهِمْ، فَانْظُرْ ما فَعَلوا، وعَمّا انْتَقَلوا، وأَيْنَ حَلّوا ونَزَلوا! فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ انْتَقَلوا عَنِ الأَحِبَّة، وَحَلّوا دارَ الْغُرْبَة، وكَأَنَّكَ عَنْ قَليلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ، فَأَصْلِحْ مَثْواكَ، ولا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْياكَ**»(١).

٣- السَّير في الآثار الَّتي تركوها، والبحث والتَّأمّل فيها؛ لمعرفة عوامل ازدهارها، وعوامل انحطاطها، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَوَلَيْسَ لَكُمْ في آثارِ الأَوَّلينَ [مُزْدَجَرٌ]، وَفي آبائِكُمُ الْماضينَ تَبْصِرَةٌ ومُعْتَبَرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلونَ**»(٢).

وفي هلاك الأمم وفق النّظريّة القرآنيّة هناك مسلَّمتان أساسيّتان:

الأولى: إنَّ الله سبحانه وتعالى لم يهلك أمّة إلا بعد الإنذار والتَّبليغ بإرسال الرّسل والمصلحين في أوساطهم، يقول تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا**﴾(٣).

﴿**ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ**﴾(٤).

﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا**﴾(٥).

---

(١) المصدر نفسه: ٤١٨، كتاب: ٣١.

(٢) المصدر نفسه: ١٧٣، خطبة: ٩٨.

(٣) الإسراء: ١٥-١٦.

(٤) الأنعام: ١٣١.

(٥) القصص: ٥٩.

الثّانية: إنَّ الله لا يهلك الأمم إذا واصل أهلها الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ومارسوا حركة الإصلاح والتّغيير بنحو الأحسن، والقرآن صريح بذلك: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾(١).

هاتان مسلّمتان قرآنيّتان: إنَّ الله يبعث في البشريّة رسلاً، وأنبياء، ومبشّرين، ومصلحين، وهداة إليه؛ ليثبتوا الحجّة على النّاس، فإذا تمرَّدوا على أوامر الله، وعصوا الرُّسل نزلت عقوبة الله بهم، هكذا تسقط الدّول، وتباد الحضارات...

وإذا استقرأنا الآيات الكريمة بدقّة نجد أنَّها أشارت إلى سبب الهلاك والإبادة وفق الأسباب الطَّبيعيّة الَّتي تحدث نتيجة أعمال النّاس أنفسهم خلافاً لشرعة الله سبحانه وتعالى، فإنَّ الأصل في الكون الصَّلاح، وإنَّ الأصل في الإنسان السّلامة الفطريّة، إلا أنَّ المخالفة لسنن الله بالأعمال السّيّئة هي الَّتي تفسد الفرد والمجتمع.

إذن ظهور المفاسد الاجتماعيّة بصورة عامّة، وفي كلّ مكان، جاءت نتيجة عمل النّاس غير الصّالح، والَّتي انتهت بهم الى إنزال العقوبات بحقّهم لسوء تصرّفهم وانحرافهم عن جادّة الصَّواب... وما نزل بهم هو امتحانٌ، واختبارٌ، وإنذارٌ لهم لعلَّهم يرجعون إلى فطرتهم، وإلى رشدهم، يقول تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٢).

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٣).

---

(١) هود: ١١٧.

(٢) الرّوم: ٤١.

(٣) السّجدة: ٢١.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١).

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٢).

وأمّا أهمّ الأعمال الّتي تؤدّي إلى هلاك الأمم فيمكن أن نشير إليها بالنُّقاط الآتية، ونستشهد على ذلك بما نصّ القرآن عليه:

١- **الظُّلم** بأنواعه كلّها سواء كان ظلم النّاس بعضهم لبعض، أو ظلم الحكّام للمحكومين، أو ظلم دولة لدولة، كلّ ذلك هو خلاف لسنّة الله سبحانه وتعالى، فالعدل هو الأصل في الخليقة، والظُّلم هو انحراف عن الجادّة الشّرعيّة، فما أهلك الله أمّةً، ولا شعباً، ولا أسقط دولةً، أو حَطَّمَ حضارةً قائمةً إلا بسبب ظلمِ أهلِها، يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾(٣).

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾(٤).

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾(٥).

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾(٦).

---

(١) الزّخرف: ٤٨.

(٢) الأحقاف: ٢٧.

(٣) يونس: ١٣.

(٤) الكهف: ٥٩.

(٥) القصص: ٥٩.

(٦) الأعراف: ٤-٥.

فسبب الدّمار والانهيار للدّول والشّعوب هو الظُّلم بأشكاله كلّها، سواء كان ظلماً فكريّاً وعقائديّاً كالشّرك بالله، والكفر، والنّفاق، أو ظلماً اقتصاديّاً كانتشار الرّبا، والاحتكار، وبخس الميزان، والسّرقة، والرّشوة، أو ظلماً أخلاقيّاً كانتشار الزّنا، واللّواط، وشرب الخمور، وانتشار الفواحش... وهذا عامل مهمٌّ في التّحلّل الخلقيّ الّذي له الدّور الفعّال في الانحطاط، وبالتّالي السّقوط، والبوار، والدّمار... ومن هنا علينا أن نعي جيّداً أنَّ حبلَ الظُّلم قصيرٌ، وأنَّه لا بقاء لظالم فرداً أو مجتمعاً، أو دولة مهما بلغت من القوّة والجبروت، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَلَئِنْ أَمْهَلَ اللهُ الظَّالِمَ فَلَنْ يفوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَا مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ**[1]»[2].

٢- **الإسراف**: هو تجاوز الحدّ في كلّ عمل يعمله الإنسان... واشتهر ذلك في الإنفاق: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا**﴾[3]، ولكنَّ الإسراف لا يتوقّف عند الإنفاق بلا حدود معقولة، إنَّما يعمّ جميع الأمور: الاقتصاديّة، والسّياسيّة والاجتماعيّة... فلكلّ أمرٍ في حياة الإنسان حدودٌ، فإذا خرج عن الحدّ الطّبيعيّ المرسوم له فقد أسرف، والمسرف هو المتجاوز الخارج عن طريق الصّواب ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**﴾[4]، ومثال ذلك الحذر والحيطة من العدوّ

(١) الشَّجا: ما يعترض في الحلق من عظم ونحوه، ومن مساغ ريقه: أي ممرّه من الحلق، فإنَّ ماء الفم يمرّ من الحلق بسهولة إلى الباطن، وهذا تمثيل لقرب ترقّب الله سبحانه للظَالم، حتّى كأنَّه سبحانه في حلقه، فإذا أراد أخذه جعل هناك شجا فلا يتمكّن من شرب الماء.

(٢) نهج البلاغة: ١٦٩، خطبة: ٩٦.

(٣) الفرقان: ٦٧.

(٤) غافر: ٢٨.

بالتّسلّح، وإعداد العدّة والعدد، فإذا تجاوز ذلك الحدّ تحوّل إلى قوّة تدميريّة لأهلها ولغيرهم، وصارت وسيلة للاعتداء والاستكبار كما نشهد اليوم في الدّول الاستعماريّة الّتي اتَّخذت من التّسليح وسيلة للسَّيطرة على الأمم والشُّعوب، وحوّلت العالم إلى برميل من البارود لا ندري متى يُفَجّر فيبيدها، ويدمّر الشُّعوب الأخرى، مثال هذا الإسراف: إنَّ عالم الاستكبار والاستعمار صرف على التّسلّح في النّصف الأوّل من القرن العشرين ٤،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ دولار، وكان بالإمكان أن تصرف هذه الأموال لإطعام النّاس كلّهم على وجه الأرض لمدّة خمسين سنة، وعلى كلّ حال إنَّ الإسراف أو التّطرّف في أيّ مجال من مجالات الحياة الإنسانيّة يمثّل نقطة البداية لتخريب الدّيار وإهلاك الأمم ﴿**وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ**﴾[1].

٣- **البطر**: وهو «النَّشاط، والأشَر، وقلَّة احتمال النّعمة، والدّهش، والحيرة، أوالطغيان بالنّعمة»[2]، بل الاندهاش وشدّة المرح بها، وسوء احتمالها ممّا يؤدّي إلى التَّعالي على الغير بسببها وفق منطق ﴿**أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا**﴾[3]، ومضاعفة الجهد لكسب المزيد منها مع الثّقة بدوامها اغتراراً بها، يصل إلى حدّ يندهش العقل فيها، ويحتار لكثرتها، وإعجابه بها، وسيطرتها على نفسه، فلا يؤدّي حقّها، وتنتهي به إلى فقدان توازنه، واستقامته لاستحواذها عليه، وتصبح قطب

---

(١) غافر: ٣٤.

(٢) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: ١٩/٢، (بطر).

(٣) الكهف: ٣٤.

الرّحى في حياته فتملكه، ولا يملكها حتى تنسيه نصيبه من التّمتّع بها، بل تنسيه المُنعمَ عليه تعالى، فيقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾[١]، قال الرّاغب الأصفهانيّ: «البطر دهشٌ يعتري الإنسانَ من سوء احتمال النّعمة، وقلّة القيام بحقّها، وصرفها إلى غير وجهها، قال عز وجلّ: ﴿بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[٢]، وقال: ﴿بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَا﴾[٣] أصله بطرت معيشتُه، فصُرِفَ عنه الفعل ونُصِبَ، ويقارب البطر الطّرب: وهو خفّة أكثر ما يعتري من الفرح»[٤].

وعلى كلّ حال إنَّ البطر أحد أسباب الهلاك؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾[٥].

٤- **الفسوق:** وهو العصيان وتجاوز الحدود الشّرعيّة المقدّسة بمخالفة أحكام الله كما وصف تعالى إبليس بقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾[٦]، وهو أعمّ من الكفر؛ لأنَّ «الأصل الواحد في المادّة هو الخروج عن مقرَّرات دينيّة، أو عقليّة، أو طبيعيّة لازمة. ومن مصاديقه: خروج العبد عن أمر الرّبّ، وعن طاعته، وعن الأحكام والمقرَّرات الإسلاميّة، وعن المقرَّرات الأخلاقيّة المسلّمة كالحسد،

---

(١) القصص: ٧٨.

(٢) الأنفال: ٤٧.

(٣) القصص: ٥٨.

(٤) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٧٦.

(٥) القصص: ٥٨.

(٦) الكهف: ٥٠.

والبخل، والتّكبّر، والطَّمع إذا كانت صريحة واضحة، وعن ضوابط طبيعيّة لازمة كما في الرّطبة الخارجة عن القشر، وعن ضوابط أصيلة بالكلّيّة كالفأرة»[١]، الَّتي تسمّى الفويسقة، ويقع بالكبير والصَّغير من الذُّنوب، ويشمل: الكذب، والفحش، والسّباب، والجدال بغير الحقّ، والتّنابز بالألقاب، والبهتان... بل قيل: كلّ ميلٍ من الطّاعة إلى المعصية فهو فسوق، وهكذا يتّضح لنا أنَّ الفسوقَ أحد مظاهر الفساد، وأبرز عوامل الدَّمار الاجتماعيّ والحضاريّ حيث يؤدّي إلى الانحلال الأخلاقيّ، والفكريّ، والسّياسيّ، يقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا** ﴾[٢]، ولا تتجمّع الهداية والفسوق؛ لأنَّ الفسوق نقض للعهود والمواثيق الإلهيّة هذا ما جاء صريحاً في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى:

﴿ **وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ** ﴾[٣].

﴿ **فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ** ﴾[٤].

﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ** ﴾[٥].

ولهذا لا يمكن أن يهتدي الفاسق ما دام ممارساً لفسقه إلا أن يتوب ويهتدي ويعمل صالحاً، ﴿ **وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا** ﴾[٦].

---

(١) العلامة المصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٩/٩٧.

(٢) الإسراء: ١٦.

(٣) المائدة: ١٠٨، والتّوبة: ٢٤، والتّوبة: ٨٠ والصّفّ: ٥.

(٤) التّوبة: ٩٦.

(٥) المنافقون: ٦.

(٦) الفرقان: ٧١.

٥- **التَّكذيب بآيات الله تعالى**: من خلال استقراء تأريخ الأنبياء عليهم السلام في مواجهة الظّالمين نجد أنَّهم واجهوا حالة التَّكذيب لهم من قبل أغلب النّاس بقوّة وعنف، وعناد، وإصرار، وذاقوا أشدَّ المرارات، ولاقوا أبشع العذاب، ولا شكَّ ولا ريب أنَّ التَّكذيب بآيات الله تعالى ورسله من أبشع أنواع الكفر، وهو الَّذي أدّى إلى الهلاك والدَّمار لكثير من الأمم والشعوب، يقول الله تعالى: ﴿ **كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ** ﴾(1).

﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾(2).

﴿ **فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾(3).

﴿ **فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** ﴾(4).

﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾(5).

﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**

---

(1) الأنفال: ٥٤.

(2) الأنعام: ٤٩.

(3) الأعراف: ٧٢.

(4) الأعراف: ١٣٦.

(5) الأعراف: ١٨٢.

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

فهذه الآيات وغيرها كثير «تقرّر سنّة الله هذه، فإذا قدَّر الله لقرية أنَّها هالكة؛ لأنَّها أخذت بأسباب الهلاك، فكثر فيها المترفون، فلم تدافعهم، ولم تضرب على أيديهم، سلَّط الله هؤلاء المترفين، ففسقوا فيها، فعمَّ فيها الفسق، فتحلَّلت، وترهَّلت، فحقَّت عليها سنّة الله، وأصابها الدَّمار والهلاك، وهي المسؤولة عمّا يحلّ بها؛ لأنَّها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الَّذي يسمح بوجود المترفين»[2].

٦- **الذُّنوب**: وهو معنى جامع لجميع المعاصي، «ويستعمل في كلّ فعل يُسْتَوْخَمُ عُقَبَاه اعتباراً بذَنْب الشّيء؛ ولهذا يسمّى الذَّنْب تَبِعَةً اعتباراً لما يحصل من عاقبته، وجمع الذَّنب ذنوب، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾[3] وقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾[4]»[5]، فهو يترك آثاراً سيِّئة على الفرد والمجتمع تدمّر ما فيه، يقول تعالى:

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾[6].

---

(١) يونس: ٣٩.

(٢) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٣١٢/٥-٣١٣.

(٣) آل عمران: ١١، والأنفال: ٥٢، وغافر: ٢١.

(٤) العنكبوت: ٤٠.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن: ٢٥٢-٢٥٣.

(٦) الأنعام: ٦.

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾(١).

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾(٢).

كلّ هذه الآيات، وغيرها تقرّر سنّة من سنن الله، وهي أنَّ الأمم حين تتمادى في ذنوبها، وتمرّدها، وعصيانها، فقد عرَّضت نفسها للهلاك والفناء، وهذا البحث يحتاج إلى دراسة مفصَّلة لعلّنا نعرض لها في مجال آخر إن شاء الله(٣).

مِثالٌ حَيٌّ مِنْ واقِعِ الْحَياةِ:

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾(٤).

مثال حيٌّ من واقع الحياة، ضربه الله ليقرّب لنا حقيقة الحقّ وثباته، وزيف ظهور الباطل وزواله، ففي المثال مفردات: ماء، أودية، سيل، زبد، حلية، متاع، نار، ولكلّ مفردة من هذه المفردات المادّية دلالة تمثيليّة في عالم المعنويّات،

---

(١) الأنفال: ٥٢.

(٢) الأنفال: ٥٤.

(٣) بحثنا هذا الموضوع في كتابنا (دراسات أخلاقيّة في ضوء الكتاب والسّنّة) بعنوان: (آثار الذُّنوب)، فراجع.

(٤) الرَّعد: ١٧.

والمشهد هنا مشهد حيٌّ محسوس، تنظر فترى الماء ينزل من السَّماء صافياً نقيّاً لا شائبة فيه، ثمّ يسيل على الأرض منحدراً من القمّة إلى قاع الوادي، ويمتلئ الوادي بالسُّيول حاملاً معه ما اختلط به من أوضار الأرض ووعثائها، ومن العجيب أنَّ هذه الأوضار تطفو على سطح الماء، وقد تغطّيه حتّى يخيل للنّاظر أنَّها هي الموجود المسيطر من دون سواها، أمَّا الماء فقد يُخفى تحت طغيانها، ولكنَّ هذا التّصوّر لا يدوم طويلاً، فما أن تهدأ الأوضاع قليلاً، وإذا الأعراض الطّاغية قد تبخَّرت، وزالت من الوجود، ولم يعد لها عين ولا أثر، وأمّا الجواهر الأصيلة فتبقى هي وحدها مصدر عطاء، وخير، ونفع للنّاس، ذلك هو مثل الحقّ والباطل... ففي كثير من حقب التّأريخ رأينا طغيان دعوات الباطل، وعلوّها، واستكبارها، وسيطرتها على السّاحة الاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة، حتّى قال أصحاب الأنظار القاصرة إنَّهم هم وحدهم في السّاحة، ولا وجود لغيرهم، فما هي إلا لحظات، وإذا بهم قد أصبحوا في خبر كان، وإذا بدعاة الحقّ يظهرون من جديد، فيجدّدون تيّار الحقّ؛ لتنطلق دعوة السَّماء صافية نقيّة.

ونعود للمثل، فنجد أنَّ مثال الماء هو الحقّ المتمثّل بتعاليم السّماء النّازلة من ربّ العزّة، وعقائده، وأحكامه، ومثال الأودية هي القلوب الإنسانيّة بمختلف توجّهاتها، والسُّيول هي الدَّعوات بمختلف مذاهبها، والزَّبد هو الباطل بسبله كلّها، والنّار هي المحن والصّراعات والفتن الَّتي تواجه الإنسان.

ويمكن أن نستنبط من الآية الكريمة المفاهيم الَّتي تنفعنا في حياتنا العلميّة في معرفة مستويات القلوب، من حيث سلامتها من الأمراض المعنويّة، ودرجة طهارتها من أدران الذُّنوب، وبُعد آفاقها، وسعة ظروفها:

١- إنَّ الماء - وهو المادّة النّازلة من السَّماء - يمثّل رحمة الله تعالى لخلقه جميعاً، وهو ينزل صافياً نقياً طاهراً من الأقذار إلا أنَّه عندما يسيل في الوديان يأخذ صورتها، وتختلط معه عناصرها الأخرى من الأرض غريبة عنه.

كذلك رسالة السَّماء نزلت صافية نقيّة من كلّ شائبة إلى القلوب، ولمّا كانت أغلب القلوب غير نقيّة من الأهواء، والشَّهوات، والأفكار المنحرفة، فقد اختلطت بها كثير من الرّواسب النّفسيّة، والأوهام، والأساطير، والأفكار ممّا لا يمتُّ إليها بصلة، والعجب أنَّ هذه الشَّوائب في كثير من الأحيان تطغى على روح الرّسالة إلا أنَّ الله حفظ رسالته من التَّحريف والطّغيان بما ضمن لها من سلامة ذاتيّة، يقول تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1]، وبما اجتبى له من أوصياء أصفياء عارفين حقيقته، واعين له، محافظين على أصالته بعد رسوله صلى الله عليه وآله القائل: «**إنّي تاركٌ فيكُمُ الثَّقَلَيْنِ، أَحَدُهُما أَكْبَرُ منَ الآخَرِ، كتابُ الله حَبْلٌ مَمْدودٌ من السَّماء إلى الأَرْضِ، وَعِتْرَتي أَهْلَ بَيْتي، وَإِنَّهما لَنْ يفْتَرِقا حَتّى يَرِدا عَلَيَّ الْحَوْضَ**»[2]؛ ولذا نرى سرعان ما تزول تلك الأوهام، وتبقى رسالة الله سليمة نقيّة؛ ولذلك رغم الجهود الجبّارة الّتي بذلت لتغيير جوهر الرّسالة إلا أنَّها حافظت على أصالتها وبقائها، ولم تؤثّر فيها يد التَّحريف، وإن عرقلت مسيرتها.

(١) الحجر: ٩.

(٢) مسند الإمام أحمد: ١٧/١٧٠، ح/١١١٠٤؛ وورد حديث الثَّقلين بطرق عديدة جدّاً وبصيغ مختلفة، ينظر: مسـند الإمام أحمد: ١٧/٢١١، ح/١١١٣١؛ و١٧/٣٠٩، ح/١١٢١١؛ و١٨/١١٤، ح/١١٥٦١؛ والمعجم الكبير للطّبرانيّ: ٣/٦٣-٦٤، ح/٢٦٧٩ و٢٦٨٠ و٢٦٨١؛ والمستدرك للحاكم النّيسابوريّ: ٣/١١٨، ح/٤٥٧٦ و٤٥٧٧؛ وسـنن التّرمذيّ: ٥/٦٦٢-٦٦٣، ح/٣٧٨٦ و٣٧٨٨؛ وكنز العمّال للمتّقي الهنديّ: ١٣/١٠٤، ح/٣٦٣٤٠؛ وغيرها.

٢- إنَّ كلَّ وادٍ يحمل من هذه السُّيول بمقدار حجمه، فلا يتّسع أكثر من ظرفيّته، فكلّما كان واسعاً حمل أكثر، وكلّما ضاق حمل أقلَّ.

كذلك قلوب بني آدم مختلفة من حيث السّعة والضّيق، ومن حيث الطَّهارة والتّلوّث، فكلّما كانت منفتحة منشرحة حملت من أنوار الله أكثر، وكلّما كانت زكيّة طاهرة حافظت على أصالة الرّسالة، ووَعَتْها حتّى صارت القوّة المحرّكة لها، والموجّهة لمسيرتها في تفكيرها وسلوكها.

وخلاصة القول: كلّ يحمل بمقدار سعة ظرفه، وسلامة قلبه، وزكاة نفسه، وعلوّ همّته.

٣- وكما يحمل الماء زبداً وغثاء ظاهراً وغالباً عليه فلا يرى غيره، وكذلك يحمل من الفلزّات النّافعة: كالحديد، والذَّهب، والفضّة، والرّصاص، والنُّحاس، وغيرها، وحين توقد النّار عليها تذيبها، فيخرج منها كلُّ عنصر غريب على شكل زبد رابياً منتفخاً إلا أنَّه لا يدوم طويلاً، بل سرعان ما يزول، ويبقى العنصر الأصيل والجوهر النّافع، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1]، وهكذا تطهّر نار المحن قلوب المؤمنين من حملة رسالة الله من دخائل الشَّيطان، وأدران الذُّنوب، ومفاسد الأفكار، ومساوئ الأخلاق؛ لتبقى حاملة لرسالة الله سليمة صافية أصيلة.

٤- إنَّ القرآن الكريم يريد أن يقول لنا في هذا المثال: لا يغرّكم علوّ الباطل وطغيانه، ولا تبهركم زخارفه ولمعانه، ولا يعجبكم كبر حجمه، ولا قوّة صولاته، فإنَّه زائل، وإنَّ الحقَّ مهما أخفي في وسط النّاس، وقلَّ أنصاره فإنَّه باقٍ لا يزول،

---

(١) الرّعد: ١٧.

فهو الأصل في الوجود، والباطل عارض طارئ لا بقاء له؛ لأنَّ ما ترونه عوارض أحدثتها لوثات قلوبكم، وسوء أعمالكم، وابتعادكم عن شريعة الله ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾(١).

وأخيراً إذا كانت الوديان تضيق بالماء، ويطفح منها، فإنَّ القلوب الزّكيّة كلّما طهرت زادت سعة، وانفتاحاً في تلقّي النّور الإلهيّ، وفي نشره للآخرين.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

(١) آل عمران: ١٩٦-١٩٧.

(٢) الزّمر: ٢٢.

الَّذينَ لا يُريدونَ عُلوّاً في الأَرْضِ

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

تعالج الآية الكريمة حالة موجودة في أكثر نفوس بني آدم، وهي إرادة التّسلّط، والظّهور، والغلبة، والتّميّز على الآخرين، وهذه الحالة هي الّتي يعبّر عنها علماء النَّفس بـ(الأنا العليا) نابعة من حبّ الذّات، وهي أقوى الغرائز، وأمكنها من النَّفس، وميل النَّفس إليها أكثر من أيّ أمر آخر، والأنانيّة هي أمُّ المصائب ومنبعها، وأمُّ الخبائث على الإطلاق؛ فالحسد، والكذب، والغرور، والحرص، والجشع، وإجحاف حقوق الآخرين هي إفرازات خبيثة لحبّ الذّات.

إنَّ موقف الإسلام من (الأنا) موقف الموجّه والمعدّل، فلم يحاول حذفها، ولا قلعها من النَّفس؛ لأنَّ هذا مستحيل، وإنَّما حاول تلطيف قوّتها، وتطويعها لخدمة المصالح العامّة.

وفي الآية لفتات حَرِيّة بالتّأمّل منها قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ ﴾ الإشارة إليها بلفظ البعيد للدَّلالة على عظمتها، وشرفها، وعلوّ مكانتها، وفيها إشارة لطيفة على أنَّ السَّعادة الحقيقيّة هي الحياة الأخرويّة الدّائمة، الّتي لا تنغّصها المنغّصات، ولا يقطعها الزّمن، بل فيها «**ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا**

---

(١) القصص: ٨٣

خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ»[١]، ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾[٢]؛ لأنَّ الدّار الآخرة هي الحياة الحقيقيّة ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾[٣].

ولذلك قال رسول الله ﷺ - وهو في قمّة النَّصر والغلبة في فتح مكّة وأصبح الَّذين أخرجوه منها، وقاتلوه تحت سلطانه -: «**لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخرةَ**»[٤]؛ لأنَّها هي الحياة الحقيقيّة، والسّعادة الدّائمة، وما سواها سرابٌ يحسبه الظمآن ماءً، لكنّ هذه الدّار لا تُنال بالتّمنّي، ولا بالتّرجّي، وإنَّما تنال بالعمل الجادّ الفاعل المؤثّر الصّادر من نفسيّة متواضعة خاشعة لله تعالى، لا تريد علوّاً، ولا استكباراً على عباد الله تعالى، ولا تبغي الفساد في الأرض؛ لأنَّ كلّ عمل من هذا القبيل مخالف لشريعة الله تعالى يدنّس الفطرة الإنسانيّة، وبالتّالي لا بدَّ من أن يفضي إلى الفساد العام، يقول تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾[٥].

وإرادة العلوّ هي توقان النَّفس إلى الاستعلاء والاستكبار والسَّيطرة على النّاس، والاستخفاف بهم، والاستحواذ على مقدّراتهم، وهي أصدق مصاديق إرادة الفساد في الأرض؛ «وإنّما أُفْرِدَت وخُصَّت بالذّكر اعتناء بأمرها»[٦]، وبياناً لخطرها،

---

(١) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٢٨١، ح/٣١٠.

(٢) آل عمران: ١٨٥.

(٣) العنكبوت: ٦٤.

(٤) الواقديّ، كتاب المغازي: ٤٧٤/١.

(٥) الرّوم: ٤١.

(٦) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٨٢/١٦

وتحذيراً من شرورها؛ لأنَّها هي التَّكبّر، بل الاستكبار بعينه، وهذه الخصلة الخبيثة نابعة من الشّعور بالذّلّة والحقارة، فقد قالَ أَبو عَبْد الله عليه السلام: «**ما مِنْ أَحَدٍ يَتيهِ**[1] **إلا مِنْ ذِلَّةٍ يَجِدُها في نَفْسِه**»[2].

وفي حَديثٍ آخَرَ عَنْه عليه السلام قالَ: «**ما مِنْ رَجُلٍ تَكَبَّرَ أَوْ تَجَبَّرَ إلا لذِلَّةٍ**[3] **وَجَدَها في نَفْسِه**»[4].

وهذا ما عبّر عنه علماء النَّفس بـ(عقدة الحقارة) وهي مرض نفسيٌّ خطير يجعل المريض يشعر بالنَّقص والذّلّة والخنوع، ولذا يحاول أن يسدّ هذا النَّقص بالتّكبّر والتّعالي على أقرانه، ولا شكَّ أنَّ ذلك هو: «شرّ العيوب، وعين الحماقة، وأساس التّكلّف، ومصيدة الشّيطان، ورأس الطّغيان، ومعصية الرَّحمن، وأعظم الذُّنوب، وحيلة إبليس، وأقبح الخلق، وآفة الشَّرف، وملاقح الشّنآن والعداء، ومنافخ الشّيطان، ودليل الإحساس بالحقارة، وعلامة الوضاعة»[5]... الخ، كما ورد في كلمات سيّد الحكماء الإمام عليّ عليه السلام.

واللافت للنَّظر في الآية الكريمة أنَّها لم تأمر بترك العلوّ والفساد، وإنَّما أمرت بترك إرادتهما والميل لهما، أي إنَّ مجرَّد التَّفكير بالعلوّ والتّسلّط يضع المتمنّي والمريد على حافّة الهاوية، وهذا دلالة على خطورة تلك الحالة.

---

(١) أي يتكبّر.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٧٦١/٣، ح/٢٥٧٦.

(٣) لذلّة: «اللام لام الصّـــيرورة، أي ما يتكبّر إلا أن أداه ذلك إلى الذّلّة أو الذّلّة في الدّنيا والآخرة سبب للتّكبّر؛ لأنَّ العزيز عن الله لا يتكبّر»، الكافي (الطّبعة القديمة): ٣١٢/٢.

(٤) الكافي: ٧٦٢/٣، ح/٢٥٧٧.

(٥) ينظر: تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم للآمديّ: ٣٠٩-٣١٠، باب التّكبّر.

ومصاديق إرادة العلوّ كثيرة جدّاً أبرزها: حبّ التّميّز على الآخرين سواء كان في الأمور الحقيرة، أو الأمور الخطيرة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ الرَّجُلَ لَيُعْجِبُهُ أَنْ يَكونَ شراكُ نَعْلِه أَجْوَدَ مِنْ شِراكِ نَعْلِ صاحِبِه، فَيَدْخُلُ تَحْتَها**»[١]، أي الآية الكريمة.

أقول: فإذا كان أمير المؤمنين عليه السلام يحذّر من التّميّز على الآخرين ولو بشراك النَّعل، فكيف حال من يحاول أن يتميّز على الآخرين في كلّ شيء بالعلم، والوجاهة، والمسكن، والمركب، وأخطر مصاديق إرادة العلوّ: طلب الرّئاسة، ففي مرفوعة مُحَمَّد بْن إِسْماعيلَ بْن بَزيعٍ وغَيْرِه رَفَعوهُ، قالَ: «قالَ أَبو عَبْد الله عليه السلام: **مَلْعونٌ مَنْ تَرَأَّسَ، مَلْعونٌ مَنْ هَمَّ بها، مَلْعونٌ مَنْ حَدَّثَ بها نَفْسَهُ**»[٢].

وقد مثَّلها الإمام أبو الحسن الكاظم عليه السلام بالذّئبين الضّاريين في غنم غاب عنها رعاتها، عَنْ مُعَمَّر بْن خَلاد عَنْ أَبي الْحَسَنِ عليه السلام أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً، فَقالَ: «إِنَّهُ يُحِبُّ الرِّئاسَةَ»، فَقالَ: «**ما ذِئْبانِ ضارِيانِ في غَنَمٍ قَدْ تَفَرَّقَ رِعاؤُها بِأَضَرَّ في دينِ الْمُسْلِمِ مِنَ الرِّئاسَةِ**»[٣].

وعَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام يَقولُ: «**إِيّاكُمْ وَهؤُلاءِ الرُّؤَساءَ الَّذينَ يَتَرَأَّسونَ، فَوَالله ما خَفَقَتِ النِّعالُ خَلْفَ رَجُلٍ إِلا هَلَكَ وَأَهْلَكَ**»[٤].

وقد أوضح أمير المؤمنين عليه السلام هذه الآية الكريمة ببيان عمليّ، فطبّقها عمليّاً

---

(١) الزّمخشريّ، الكشّاف: ٤٣٥/٣؛ وينظر: تفسير جوامع الجامع للشّيخ الطّبرسيّ: ٧٥٦/٢؛ وسعد السّعود للسّيّد ابن طاووس: ١٧٧.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٧٢٨/٣، ح/٢٥٠٨.

(٣) المصدر نفسه: ٧٢٦/٣-٧٢٧، ح/٢٥٠٥.

(٤) الكافي: ٧٢٧/٣-٧٢٨، ح/٢٥٠٧.

وجسّدها في سلوكه؛ ليعرّفنا بأنَّ طلب العلوّ في الدُّنيا، ولا سيّما في جانب الحكم والإدارة يمثّل خطراً حقيقيّاً على المستقبل الأخرويّ للإنسان إذا لم يخفّف من إلحاح النَّفس في التّسلّط، فقد رُويَ عنه عليه السلام «أنَّه كان يمشي في الأسواق وحده، وهو دالّ يرشد الضّالّ، ويعين الضَّعيف، ويمرّ بالبيّاع والبقّال، فيفتح عليه القرآن، ويقرأ: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ ويقول: **نَزَلَتْ هذه الآيَةُ في أَهْلِ الْعَدْلِ، والْمَواضعِ مِنَ الْوُلاة وأَهْلِ الْقُدْرَةِ مِنْ سائرِ النّاس**»[1].

وأوضح الإمام الصّادق عليه السلام ذلك بقوله لحفص بن غياث: «**يا حَفْصُ، ما مَنْزِلَةُ الدُّنْيا مِنْ نَفْسي إلا بمَنْزِلَة الْميتَة، إذا اضْطَرْرَتُ إلَيْها أَكَلْتُ مِنْها، يا حَفْصُ، ما إنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالى عَلِمَ ما الْعِبادُ [عَلَيْه] عاملونَ، وإلى ما هُمْ صائرونَ، فَحَلُمَ عَنْهُمْ عِنْدَ أَعْمالِهِم السَّيِّئَة؛ لعِلْمه السّابقِ فيهِمْ، فَلا يَغُرَّنَّكَ حُسْنُ الطَّلَبِ مِمَّنْ لا يَخافُ الْفَوْتَ**، ثمّ تلا قوله: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ... ﴾ الآية»[2].

ورحم الله السّيّد ابن طاووس إذ قال في تعليقه على الآية الكريمة: «فقد صار الحرمان للجنان متعلّقاً بإرادة العلوّ والعصيان قبل مباشرته بالجنان والإمكان، وهذا حال خطر عظيم الشّأن، فليحفظ الإنسان بالله جلَّ جلاله سرائر قلبه، وتطهيره بالله، والتّوبة والاستغفار من مهالك دينه»[3].

---

(١) الشّيخ الطَّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤٢٠/٧.

(٢) تفسير القمّيّ: ٧٦٨/٢.

(٣) سعد السّعود: ١٧٧.

الْفِهْرَسْتُ:

المقدّمة..٧

بحوث تمهيديّة..١١

عوامل نجاح المبلغ والخطيب الرّساليّ...١١

ختامه مسك..٢٤

الصّفات الواجب توفّرها في شخصيّة الخطيب...٢٩

ثوابت أساسية في حركة المبلّغ...٣٤

الشّيخ أحمد الوائليّ أنموذج الخطابة الحسينيّة..٤٠

العوامل الرّئيسة لنجاح مدرسة الشّيخ الوائليّ وشهرته.....................................٤١

طبيعة الجوّ العلميّ والأدبيّ الّذي عاشه الشّيخ الوائليّ....................................٤٢

المزايا الثّقافيّة للشّيخ الوائليّ...٤٢

الأساليب الّتي اتّبعها الشّيخ الوائليّ للرّدّ على المناوئين لمنهج أهل البيت عليهم السلام ومذهبهم..٤٣

دور مدرسة الشّيخ الوائليّ في تطوير المنبر الحسينيّ.......................................٤٤

الإيمان..٤٥

تعريف الإيمان...٤٥

آثار الإيمان.. ٥١
الأسس التي يقوم عليها الإيمان.. ٥٧
الفرق بين الإسلام والإيمان.. ٦٣
اليقين إيمان كلّه.. ٦٥

العبادة... **٦٩**
العبادة حاجة أساسيّة في حياة الإنسان.. ٧١
العبادة سرّ الخلق... ٧٢
العبادة تحرّر وانطلاقٌ.. ٧٣
كلّ عمل في سبيل الله عزّ وجل عبادة.. ٧٦
أبعاد العبادة لله عزّ وجلّ.. ٧٨
كيف ينمّي الإنسان مشاعر العبوديّة لله عزَّ وجلَّ................................... ٨٥
العبادة المصلحيّة... ٩٤

الصّيام... ١٠١
آثار الصَّيام.. ١٠٨
شهر الرّحمة والغفران.. ١١٣
برنامج عمليٌّ مقترحٌ لشهر رمضان.. ١١٩

التّلاوة الحقيقيّة...١٢٧

الآداب النّفسيّة لتلاوة القرآن...١٤١

الموانع الّتي تحجب القرآن عن النّفس..١٤٣

القرآن بصائر للنّاس...١٥٥

مميّزات الإسلام..١٦١

أوّلاً: الواقعيّة...١٦٤

ثانياً: الشّموليّة لجميع متطلّبات الحياة...١٦٦

ثالثاً: الإنسانيّة..١٦٨

رابعاً: الإحسان..١٧١

خامساً: الإيجابيّة في التّشريع الإسلاميّ...١٧٣

سادساً: الوسطيّة في التّشريع الإسلاميّ...١٧٤

التّأسّي طريق الاستقامة والنّصر...١٧٩

البرّ..١٩٥

الدّعوة إلى الله تعالى..٢٠٥

صفات الدّاعي...٢٠٧

أعظم الطّاعات..٢١١

الدّعوة إلى الله عمل الأنبياء.. ٢١٢
دفع السّيّئة بالحسنة.. ٢١٨
مكوّنات الشّخصيّة الدّعويّة وركائزها في الإسلام.............................. ٢٢٢
المعالم القياديّة لدعاة الإسلام... ٢٣٢
شروط القيادة.. ٢٣٨
أدب الحوار... ٢٥٠
من قواعد الحوار... ٢٥٤
ملاحظات مهمّة في أدب الحوار.. ٢٥٥

التّغيير الذّاتي منطلق التّغيير الاجتماعيّ.................................... **٢٥٧**
التغيير سنّة إلهيّة ٢٥٧
منطلق التّغيير ومنابعه.. ٢٥٨
حقيقة لا بدّ من وعيها.. ٢٦٦
كيف نحوّل الأحداث إلى أفكار.. ٢٧١
الفطرة السَّليمة مفتاح التَّغيير.. ٢٧٢
ميادين التَّغيير الإنسانيّ... ٢٧٤

الصّلاة على النّبيّ ﷺ... **٢٧٩**
معنى الصّلاة على النّبيّ ﷺ ٢٨٠
فضل الصّلاة على النّبيّ ﷺ ٢٨٢

الصّلاة البتراء...٢٨٦
الآثار التّربويّة للصّلاة على النّبيّ صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام..٢٨٨

الإحسان..**٢٩٧**
الإحسان إلى النّاس..٣٠٢
الإحسان إلى النّفس..٣٠٣
آثار الإحسان...٣٠٤
مكدّرات الإحسان..٣٠٩

خديجة المرأة الكاملة الميمونة..**٣١١**
وفاة خديجة عليها السلام...٣٢١
المرأة عبر الحضارات العالميّة...٣٢٢
المرأة في الإسلام..٣٣١

الزّواج في الإسلام...**٣٤٥**
حقوق الزّوج على زوجته...٣٥٣
حقوق الزّوجة على زوجها..٣٥٧

سنّة الله في إهلاك الأمم...**٣٦١**
دور المصلحين في حياة الأمم...٣٦٦

التّأمّل في سير حركة التّأريخ.. ٣٧٠
مثال حيّ من واقع الحياة... ٣٨١

الّذين لا يريدون علوّاً في الأرض.. ٣٨٧

الفهرست.. ٣٩٣